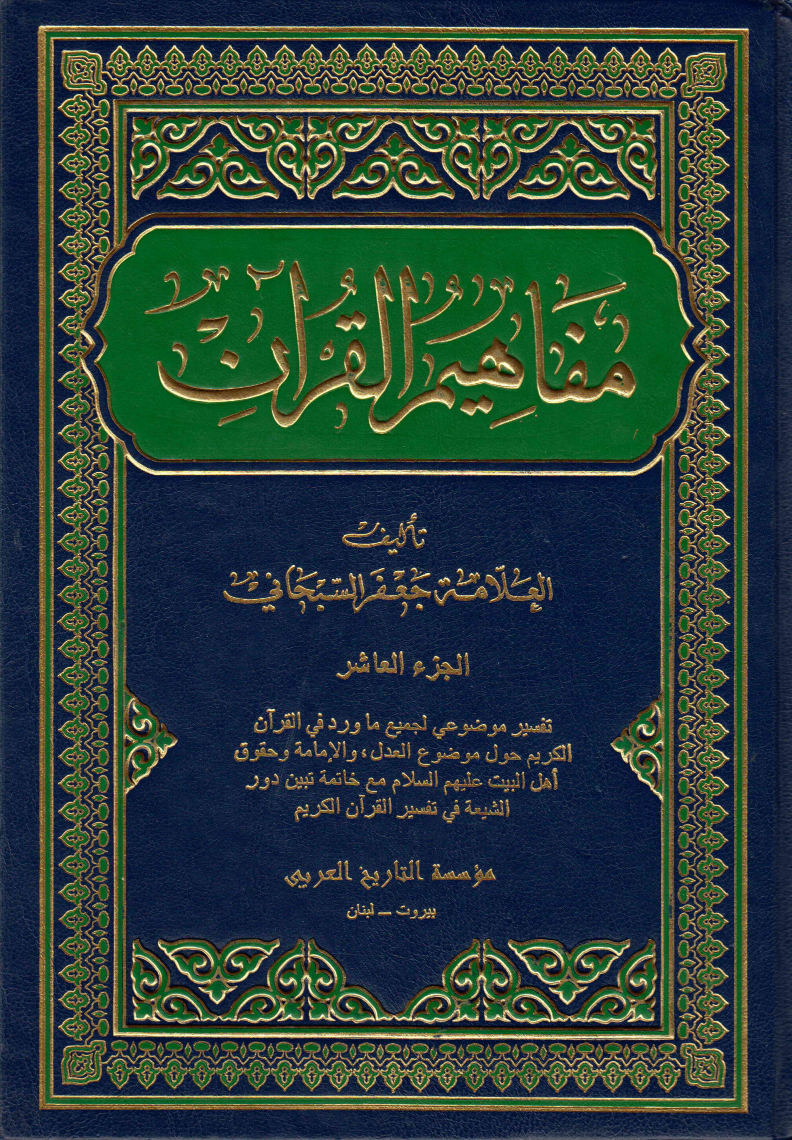


مفاهيم القرآن
تأليف
العلامة جعفر السبحاني
الجزء العاشر
تفسير موضوعي لجميع ما ورد في القرآن
الكريم حول موضوع العدل، والإمامة وحقوق
أهل البيت عليهم السلام مع خاتمة تبين دور
الشيعة في تفسير القرآن الكريم
مؤسسة التاريخ العربي
بيروت ــ لبنان


شبكة الفكر
alfeker.net


مفاهيم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

مفاهيم القرآن

تأليف

العلامة جعفر السبحاني

الجزء العاشر

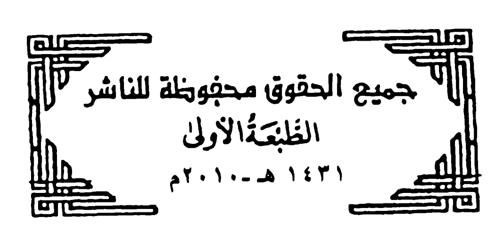
يبحث عن العدل والامامة

وحقوق أهل البيت عليهم السلام

في القرآن الكريم وتاريخ التفسير

مؤسسة التاريخ العربي

بيروت ـ لبنان



THE ARABIC HISTORY
Publishing & Distributing

مؤسسة التاريخ العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الجديد

بيروت - طريق المطار - خلف غولدن بلازا - هاتف ٥٤٠٠٠٠/٠١ - ٤٥٥٥٥٩/٠١ - فاكس ٨٥٠٧١٧ - ص.ب. ٧٩٥٧/١١

Beyrouth - Air port street - Golden plazza - Tel: 01/540000 - 01/455559 - Fax: 850717 - p.o.box 7957/11

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله الذي قام بالقسط في خلقه، وعدل عليهم في حكمه، والصلاة والسلام على من كلامه، الفصل وحكمه، العدل سيد المرسلين وأفضل النبيّين محمّد، و آله الطاهرين الذين انتظم بهم عقد الإمامة وتزيّنت بهم مسند الخلافة.

أمّا بعد:

لقد قام الإسلام على دعائم متينة و أُسس راسخة تمثّلت في أُصول الدين الّتي من أبرزها التوحيد و المعاد والنبوة، وهذا ما اتّفق عليه المسلمون بكافة طوائفهم ونحلهم، فلا يدخل أحد في حظيرة الإسلام إلاّ إذا آمن بتوحيده سبحانه ذاتاً وفعلاً وعبادة، و آمن بمعاده وانّه سبحانه يبعث من في القبور، وآمن بنبوّة محمّد ﷺ وانّها الحلقة الأخيرة من نظام النبوة التي ترتبط بالسماء.

وثمة أُصول أُخرى وقعت مثاراً للجدل والنقاش من قِبَل الفرق الإسلامية فمنهم من عدّها من جوهر الدين وصميمه، كما أنّ منهم من عدّها من فروع الدين، وهذه كالإمامة والخلافة بعد الرسول فهي عند السنّة من فروع الدين، لأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرع وجود إمام عادل ذي قوة وقدرة وصولة، فتكون الإمامة كالمقدمة لهذه المسؤولية الخطيرة، ومنهم من يعدّها من أُصول الدين لأنّهم يرون الإمامة منصباً إلهيّاً وانّ وظيفتها هي استمرار وظائف النبوة، و إن

كانت النبوة منقطعة بارتحال الرسول لكن الوظيفة بعد باقية.

و كالعدل الذي اتّفق المسلمون برمّتهم على وصفه سبحانه به، ولكن اختلفوا في مفهوم العدل وحقيقته كما سيوافيك، ولذلك نكرّس جلّ جهودنا على تبيين هذين الموضوعين متمثّلين بقول الصاحب بن عباد حيث يقول:

لو شُقّ عن قلبي يُرى وسطَه سطران قد خُطّا بلا كاتب

العدل والتوحيد في جانب وحبّ أهل البيت في جانب

ولمّا كان بين الإمامة والتعرّف على أهل البيت عليهم السلام الذين طهّرهم الله، صلة قويمة، أثرنا فتح باب لبيان سماتهم وحقوقهم في القرآن الكريم.

وممّا تجدر الإشارة إليه انّ هذه الموسوعة تشكّل الحلقة الأخيرة من سلسلة مفاهيم القرآن، فالواجب يحتّم علينا التنويه بالسير التاريخي للتفسير لدى الإماميّة، وقد ذكرنا من ألوان تفاسيرهم وأسماء كتبهم ما سمح به الوقت، فانّ الإحاطة بها رهن تأليف مفرد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحاني
قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
٢١ شوال ١٤٢٠هـ

العدل و الإمامة

○ المقدّمة

إنّ العقيدة الإسلامية تنقسم إلى قسمين:

الأوّل: ما يعرف بأُصول الدين.

الثاني: ما يعرف بأُصول المذهب.

ويراد من الأوّل، الأُصولُ الَّتي اتّفق عليها عامة المسلمين ولم يخالف فيها أحد، وفي الحقيقة تُناط تسمية الإنسان مسلماً بهذه الأُصول الثلاثة، وهي كالتالي:

أ: التوحيد بمراتبه.

ب: المعاد.

ج: النبوة العامة والخاصة.

وهذه الأُصول الثلاثة قد أشبعنا البحث فيها ضمن أجزاء هذه الموسوعة، بقي الكلام في القسم الثاني، وهو ما يعبَّر عنه بأُصول المذهب، التي هي عقيدة بعض المذاهب الإسلامية وهي اثنان:

أ: العدل

ب: الإمامة.

أمّا الأوّل: فيؤمن به الإمامية والمعتزلة، ويخالفها الأشاعرة، وسوف يوافيك تفصيل البحث فيه.

وأمّا الثاني :فهو مما يتميّز به المذهب الإمامي الاثنا عشري عن سائر المذاهب، كما سيوافيك.

وربما يُثار سؤال وهو أنّه كيف يمكن عدّ الأصل الأوّل من خصائص الإمامية والمعتزلة على الرغم من أنّ كافّة الطوائف الإسلامية تصف الله سبحانه بالعدل، ولا نجد بين المسلمين من يقول بأنّ الله ظالم ليس بعادل؟

والجواب : انّ ما ذكر صحيح، وانّ جميع الفرق تصف الله سبحانه بأنّه عادل لا يجور، غير أنّهم يختلفون في معنى «العدل» وكونه عادلاً لا جائراً.

فالإمامية والمعتزلة أصفقت على أنّ العدل له مفهوم واحد، ومعنى فارد، اتّفق عليه قاطبة العقلاء.

مثلاً: أخذ البريء بذنب المجرم ظلم يتنزّه عنه الله سبحانه، و هكذا، فكلّ ما حكم العقل بفعل انّه ظلم، فالله سبحانه منزّه عنه.

وعلى ذلك فالحكم بالعدل وتمييز مصاديقه وجزئياته، وانّ هذا عدل وذاك ظلم كلّها ترجع إلى العقل.

وأمّا الأشاعرة فهم وان يصفون الله سبحانه بالعدل، لكنّهم لا يحدّدون العدل، بمفهوم واضح، بل يوكلون ذلك إلى فعل الله سبحانه، وانّ كلّ ما صدر منه فهو عدل، وكلّ ما نهى عنه فهو ظلم، وبذلك أقصوا العقل عن القضاء في ذلك المقام.

وبعبارة أُخرى: انّ الشيعة والمعتزلة يرون أنّ للعدل والظلم ملاكاً عند

العقل، وبه يتميز أحدهما عن الآخر، ويوصف الفعل بالعدل أو الظلم، ولكن الأشاعرة ينكرون ذلك الملاك، ويرون انّ أفعاله سبحانه فوق ما يدركه العقل القاصر.

ولذلك كلّ ما يصدر منه فهو عدل، محتجّين بقوله سبحانه: ﴿لاٰ يُسْئَلُ عَمّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.[١]

وعلى ضوء ذلك يتبين أنّ وحدة الفرق الإسلامية في وصفه سبحانه بالعدل وحدة صورية، وإلاّ فالملاك عند الفرقتين للعدل غير ملاكه عند الأشاعرة. فلو أمر سبحانه بتعذيب الأنبياء والأولياء والصدّيقين فهو عند الأشاعرة عدل لا مانع من صدوره عنه، ولكنّه عند غيرهم أمر قبيح لا يصدر منه سبحانه. وهو و إن كان متمكناً من ذلك العمل وقادراً عليه لكن حكمته سبحانه تحول دون ارتكابه.

هذا كلّه حول العدل.

وأمّا الإمامة : فيثار حولها نظير السؤال السابق، فالمسلمون قاطبة يؤمنون بأصل الإمامة وانّه لابدّ للمسلمين من إمام يأتمّون به، ولكنّهم اختلفوا في خصوصياتها، فهل الإمامة منصب إلهي كالنبوة لا يناله إلاّ الأمثل فالأمثل من الأُمة، ولا يمكن الوقوف على القائم بأعباء الإمامة إلاّ من خلال نصبه سبحانه؟

أو انّه منصِب بشري و مقام اجتماعي يقوم بأعبائه من تُعيّنه طائفة من الأُمّة؟ وبذلك تختلف وجهة النظر في واقع الإمامة عند الطائفتين.

نبدأ الكلام في الأصل الأوّل من أُصول المذهب، و هو العدل الإلهي.

---

١. الأنبياء:٢٣.

العدل الإلهي

و فيه فصول

الفصل الأوّل

العدل الإلهي في الكتاب العزيز

آيات الموضوع

١. ﴿شَهِدَ اللهُ أَنّهُ لاإِلهَ إِلاّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قائِماً بِالقِسْطِ لاإِلهَ إِلاّ هُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيم﴾.[١]

٢. ﴿ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاّمٍ لِلْعَبِيد﴾.[٢]

٣. ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسنةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾.[٣]

٤. ﴿فَمَا كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون﴾.[٤]

٥. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصابَهُمْ سَيّئاتُ ما عَمِلُوا﴾.[٥]

٦. ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِباد﴾.[٦]

---

١. آل عمران:١٨.
٢. آل عمران:١٨٢.
٣. النساء:٤٠.
٤. التوبة:٧٠.
٥. النحل:٣٣ـ ٣٤.
٦. المؤمن:٣١.

وقبل أن نخوض في تفسير الآيات، نشير إلى مقدمة، وهي:

إنّ العدلية تصف الله سبحانه بالعدل بما لمعنى المتفق عليه بين العقلاء، وبرهانها على ذلك هو انّ العقل قادر على تمييز الحسن عن القبيح، والعدل عن الظلم، والله سبحانه بما انّه حكيم لا يجور أبداً، فهاهنا دعويان:

الأُولى: انّ العقل له القابلية على تمييز الحسن عن القبح، وانّ التحسين والتقبيح من الأُمور المنوطة بقضاء العقل.

الثانية: إذا تبيَّن أنَّ العدل حسن و الظُّلم قبيح فاللّه سبحانه موصوف بالعدل، نزيه عن فعل الظلم. وإليك بيان كلا الدعويين.

أمّا الدعوى الأُولى فتدلُّ عليها أُمور:

الأوّل: التحسين والتقبيح من الأُمور البديهية

إنّ التحسين والتقبيح من الأُمور البديهيّة التي يدركها كلّ إنسان سليم الفطرة، فمثلاً يدرك انّ العمل بالميثاق حسن، والتخلّف عنه قبيح، أو انّ جزاء الإحسان بالإحسان جميل، وجزاءه بالسيّء قبيح. وهكذا سائر الأفعال التي توصف بالحسن والقبح.

وموضوع قضاء العقل بالحسن والقبح هو نفس الفعل بما هوهو، سواء أكان الفاعل واجباً أم ممكناً، خالقاً أم مخلوقاً، فيوصف الفعل من أي فاعل صدر بأحد الوصفين.

وبعبارة أُخرى: كما أنّ مسائل الحكمة النظرية تنقسم إلى نظرية وبديهية، ويستنبط حكم الأُولى من الثانية، ولذلك عدّوا مسألة امتناع اجتماع النقيضين أو

ارتفاعهما من المسائل البديهية في الحكمة النظرية.

فهكذا الأمر في الحكمة العملية فمسائلها تنقسم إلى بديهية وغير بديهية، ويستنبط حكم الثانية من الأُولى.

والتحسين والتقبيح من المسائل البديهية في الحكمة العملية، وقد حازتا على اهتمام واسع نظراً لدورهما في استنباط سائر مسائل الحكمة العملية.

ولأجل إيضاح المراد نقول: إنّ تحسين بعض الأفعال وتقبيحها من الأُمور البديهية للعقل، ويدلّك على ذلك اتّفاق عامة العقلاء مع اختلاف ثقافاتهم وبيئاتهم على وصف أفعال بالحسن، وأفعال أُخرى بالقبح، نظير:

أ: حسن العدل وقبح الظلم.

ب: حسن العمل بالميثاق وقبح نقضه.

ج: حسن جزاء الإحسان بالإحسان و قبح جزائه بالسيّء.

د: حسن الصدق وقبح الكذب.

هـ: حسن أداء الأمانة وقبح الخيانة بها.

إلى غيرها من الأُمور التي لا يختلف فيها اثنان، وهذا يدل على أنّ تلك الأفعال موصوفة بالحسن والقبح بالبداهة، وإلاّ لما اتفق عليه العقلاء كافة، ولذلك قلنا: إنّ التحسين والتقبيح أمران عقليان.

○ الثاني: إنكار إدراك العقل بلازم النفي مطلقاً

لقد أنكرت الأشاعرة قابلية إدراك العقل حسنَ الأفعال وقبحها ، وذهبوا إلى أنّ القضاء بالتحسين والتقبيح بيد الشرع، فكلّ ما أخبر بحسنه فهو حسن،

وما أخبر بقبحه فهو قبيح، ولكنّهم غفلوا عن أنّهم بإنكارهم قابلية العقل لإدراك الحسن والقبح، أثبتوا عدم ثبوت الحسن والقبح مطلقاً حتى مع تصريح الشرع، وذلك لأنّه إذا كان تمييز الحسن عن القبيح بيد الشرع دون العقل فإذا أخبر النبي ﷺ بحسن شيء وقبحه، فمن أين نعلم أنّه يصدق في أخباره ولا يكذب، والمفروض انّ العقل عاجز عن درك حسن الأوّل وقبح الثاني؟ فلا يصحّ إثبات حسن شيء أو قبحه من خلال تصريح الشارع، إلاّ أن يثبت قبلاً انّ الصدق حسن والكذب قبيح، ويثبت انّه سبحانه نزيه عن فعل القبيح، ولولا هذان الأمران لذهب الإخبار بحسن الشيء أو قبحه سدى.

○ الثالث: لولا التحسين العقلي لما ثبتت شريعة

لو لم نقل بالتحسين والتقبيح العقليين يلزم عدم ثبوت شريعة من الشرائع السماوية، حتى تثبت بها شريعة تحكم بحسن شيء أو قبحه، وذلك لأنّ القائل بالتحسين والتقبيح العقليين، يقول: إنّ حكمته سبحانه تصدّه عن تزويد الكاذب بالمعجزة، فلو ادّعى رجل النبوة من الله وأتى بمعجزة عجز الناس عن مباراته، فهي دليل على صدقه في دعوته.

وأمّا إذا أنكرنا قدرة العقل واستطاعته على درك الحسن والقبح، لكان باب احتمال تزويد الكاذب بالمعجزة مفتوحاً على مصراعيه، و ليس هنا دليل يردّ هذا الاحتمال فلا يحصل يقين بصدق دعواه.

وهذه الأدلّة الثلاثة التي سردناها على وجه الإيجاز، تُشرف القارئ على القطع بأنّ العقل له المقدرة على درك الحسن والقبح. هذا كلّه حول الدعوى الأُولى.

وأمّا الدعوى الثانية وهي انّه بعد ما تبيَّن انّ العدل حسن، والظلم قبيح، فالله سبحانه موصوف بالعدل ومنزّه عن الظلم، وذلك، مضافاً إلى أنّه سبحانه حكيم، والحكيم يعدل ولا يجور- أنّ الجور رهن أحد أمرين، إمّا الجهل بقبح العمل ، أو الحاجة إليه، والمفروض انتفاء كلا المبدأين عنه سبحانه.

وربما يقال إنّ كون الشيء حسناً أو قبيحاً عند الإنسان لا يلازم كونه كذلك عند الله، فكيف يمكن استكشاف انّه سبحانه لا يفعل القبيح؟

والجواب عنه واضح لأنّ المدرَك للعقل هو حسن الفعل على وجه الإطلاق، أو قبحه كذلك، من دون أن تكون للفاعل مدخلية فيه سوى كونه فاعلاً مختاراً، وأمّا كونه واجباً أو ممكناً فليس بمؤثرٍ في قضاءالعقل. وعلى ذلك فإذا ثبت كون الشيء جميلاً أو قبيحاً فهو عند الجميع كذلك.

○ شمولية عدله سبحانه

يظهر من الآية الأُولى انّ عدله يعمُّ جميع شؤونه، حيث يقول: ﴿شَهِدَ اللهُ أنّهُ لاإِلهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولوا العلمِ قائِماً بِالقِسْطِ﴾ [1] فقوله: «قائماً» حال من لفظ الجلالة، في قوله: شهد الله، أو الضمير المنفصل، أعني: إلاّ هو.

والمتبادر منه أنّه سبحانه يجري العدل في عامة شؤونه في خلقه وتشريعه فهو عادل ذاتاً وفعلاً.

و تشهد على ذلك مضافاً إلىٰ شهادته سبحانه به، شهادة الملائكة وأُولي العلم، فكأنّ الآية تنحل إلى الجمل التالية:

---

١ .آل عمران:١٨ .

١ .«شهد الله انّه لاإله إلاّ هو قائماً بالقسط».

٢. «شهدت الملائكة انّه لاإله إلاّ هو قائماً بالقسط».

٣. «شهد أُولو العلم انّه لاإله إلاّ هو قائماً بالقسط».

فالآية تدلُّ على شهادته سبحانه على أمرين:[١]

الأوّل: لاإله إلاّ هو ، لا نظير له.

الثاني: انّه قائم بالقسط.

ومن المعلوم انّ الشهادتين ليستا من مقولة الشهادة اللفظية، وإنّما هي من مقولة الشهادة التكوينية، ففعله سبحانه في عالم الخلقة يدل على أمرين:

الأوّل: لا خالق ولا مدبّر إلاّ هو، فانّ اتقان النظام، وسيادته على جميع الكائنات من الذرّة إلى المجرّة، لأوضح دليل على أنّ الخالق والمدبّر واحد ، وإلاّ لانفصمت عرى الانسجام والاتصال بين أجزاء الكون، وقد أوضحنا في محلّه أنّ تعدّد العلة واختلاف السببين يستلزم اختلافاً في المسبب، فلا يمكن أن يكون النظام الواحد معلولاً لفاعلين مدبّرين مختلفين في الحقيقة.

الثاني: يشهد فعله سبحانه في عالم التكوين والتشريع انّه سبحانه عادل وقائم بالعدل.

وأفضل كلمة قيلت في تعريف العدل هي ما روي عن علي عليه السلام ، حيث قال:

«العدل يضع الأُمور مواضعها».[٢]

---

١ . ما ذكرنا مبنيٌّ على أنَّ قيامه بالقسط من المشهود به خلافاً للسيّدالطباطبائي حيث خصَّ الشهادة بالتوحيد.

٢ . نهج البلاغة: قسم الحكم، برقم ٤٣٧.

بيان ذلك انّ لكلّ شيء وضعاً خاصاً يقتضيه إمّا بحكم العقل، أو بحكم الشرع والمصالح الكلية في نظام الكون، فالعدل هو رعاية ذلك الوضع وعدم الانحراف إلى جانب الإفراط والتفريط.

نعم موضع كلّ شيء بحسبه، ففي التكوين بوجه، وفي المجتمع البشري بوجه آخر، وهكذا . وبلحاظ اختلاف موارده تحصل له أقسام ليس هنا مقام بيانها، إلاّ أنّ العدل بالنسبة إلى الله تعالى علىٰ أنحاء ثلاثة:

١ . **العدل التكويني**: وهو إعطاؤه تعالى كلّ موجود ما يستحقه ويليق به من الوجود فلا يهمل قابلية، ولا يعطل استعداداً في مجال الإفاضة والإيجاد.

٢. **العدل التشريعي**: وهو انّه تعالىٰ لا يهمل تكليفاً فيه كمال الإنسان وسعادته، وبه قوام حياته المادية والمعنوية الدنيوية، والأُخروية، كما أنّه لا يكلّف نفساً فوق طاقتها.

٣. **العدل الجزائي**: وهو انّه تعالى لا يساوي بين المصلح والمفسد، والمؤمن والمشرك، في مقام الجزاء والعقوبة، بل يُجزي كلّ إنسان بما كسب، فيُجزي المحسن بالإحسان والثواب، والمسيء بالإساءة والعقاب، كما أنّه تعالى لا يعاقب عبداً على مخالفة التكاليف إلاّ بعد البيان والإبلاغ.

وبذلك تبيَّن معنى الآية، وشهادته سبحانه على كونه قائماً بالقسط في جميع الأنحاء.

وأمّا شهادة الملائكة و أُولي العلم وذلك فبتعليم منه سبحانه.

وأمّا سائر الآيات التي أوردناها في صدر الفصل، فهي غنية عن التفسير، لأنّها بصدد بيان أنّ العذاب في الدنيا والآخرة رهن عمل الإنسان، فلو عُذّب فإنّما

هو لأجل القبائح والذنوب التي اقترفها، يقول سبحانه: ﴿ذٰلِكَ بِما قَدَّمَت أيديكُمْ وَ أنّ اللهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيد﴾ .[1]

وقال عزّ من قائل: ﴿فَمَا كانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهم يَظْلِمُون﴾.[2]

والله سبحانه لا يظلم عباده ولو جاء العبد بحسنة يضاعفها، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ .[3]

ولأجل إيضاح عدله سبحانه في عالم التكوين والتشريع نعطف النظر إلى آيات تدل على ذلك في الفصل التالي.

---

١. آل عمران:١٨٢.

٢. التوبة:٧٠.

٣. النساء:٤٠.

الفصل الثاني

مظاهر العدل الإلهي
في عالم الخلق

آيات الموضوع

١. ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَونَها وَأَلْقى فِي الأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوجٍ كَريمٍ﴾.[١]

٢. ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾.[٢]

٣. ﴿وَالسَّماءَ رَفَعها وَوَضَعَ الْمِيزان﴾ .[٣]

إنّ لعدله سبحانه مظاهر في عالم الخلق والتشريع، و سنعرض في هذا الفصل مظاهر عدله في عالم الخلقة.

١ . السماوات ورفعها بغير عمد

يقول سبحانه في هذا الصدد: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَونَها﴾ .

---

١. لقمان: ١٠. ٢. فاطر: ٤١. ٣. الرحمن: ٧.

إنّ رفع صرح هذا البناء الشامخ دون الاستعانة بدعائم مرئيّة يكشف عن تناغم دقيق في عالم الخلقة، ولولاه لتداعت أركان العالم وانهارت، وهذا النظام الرائع تقاسمته قوّتا الجاذبية والطاردة(النابذة)،وفي ظلّ التعادل القائم بينهما انتظمت حركة النجوم و الكواكب والمجرّات في مساراتها.

فالجاذبية قانون عام جار على جميع الأجسام في هذا العالم، وهي تتناسب عكسياً مع الحدّ الفاصل بين الجسمين إذ تتعاظم كلما تضاءلت المسافة، وتتضاءل كلما ازدادت الفاصلة، فلو دارت رحى النظام الكوني الدقيق على قوة الجاذبية فقط لارتطمت الكواكب والنجوم بعضها مع بعض ولتداعى النظام السائد، ولكن في ظل قانون الطرد يحصل التعادل المطلوب، وقوة الطرد تلك تنشأ من الحركة الدورانية للأجسام.

ومهما يكن من أمر ففي ظل هاتين القوتين تبقى الملايين من المنظومات الشمسية والمجرّات معلّقة في الفضاء دون عَمَد ، وتحول دون سقوطها وفنائها، وإلى هذه الحقيقة يشير القرآن الكريم، ويقول: ﴿اللهُ الّذي رفع السَّماوات بِغَير عَمَدٍ تَرَونها﴾ .[1]

وتتضح دلالة الآية من خلال ملاحظة أمرين:

الأوّل: انّ قوله «ترونه» وصف لـ «عَمَد» و هي جمع عمود.

الثاني: انّ الضمير في «ترونها» يرجع إلى الأقرب الذي هو «عمد» لا إلى السماوات التي هي أبعد، ومعنى الآية أنّه سبحانه رفع السماوات من دون أعمدة مرئية ، و هو لا ينفي العمود بتاتاً، بل و إنّما ينفي العمود المرئي، ولازم ذلك وجود العمد في رفع السماوات من دون أن يراها البشر، وهذا هو المعنى الذي اختاره ابن

---

١. الرعد:٣.

عباس وغيره.[١]

وهو الظاهر مما رواه الحسين بن خالد، عن علي بن موسى الرضا عليه السلام ، فإنّه عليه السلام قال في تفسير الآية: «أليس الله يقول: بغير عمد ترونها؟» فقلت: بلى، قال: «ثمَّ عَمَد لكن لا ترونها ».

ويؤيده ما روي عن الإمام علي عليه السلام ، انّه قال: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض، مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور».[٢]

ورواه الطريحي أيضاً لكن قال: «عمودين من نور» مكان قوله«عمود من نور».[٣]

ولعل المراد من العمودين هما قوتا الجاذبية والطاردة.

إنّ الكتاب الكريم صاغ الحقيقة المكتشفة من قبل «نيوتن»، بعبارة يسهل فهمها على عامة الناس، وقال: ﴿بغير عمد ترونها﴾.

وقد أشار سبحانه في غير واحد من الآيات، أنّه سبحانه هو الممسك للسماوات من الزوال، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْض أَنْ تَزُولا﴾ .[٤]

وكونه سبحانه هو المُمسِك لا يمنع من وجود علل طبيعية حافظة لسقوط السماوات وزوالها، فقد جرت سنّته سبحانه على تدبير العالم من خلال العلل الطبيعية التي هي من سننه سبحانه وجنوده الغيبية.

وأشار الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في غير واحد من خطبه إلى خلقة الأرض، و قال: «أرساها على غير قرار، وأقامها بغير قوام، ورفعها بغير دعائم».

وعلى كلّ تقدير فالتوازن الموجود في خلق السماوات والأرض هو مظهر من

١. التبيان:٦/ ٢١٣.
٢. سفينة البحار:مادة نجم.
٣. مجمع البحرين: مادة كوكب.
٤. فاطر:٤١.

مظاهر عدله في عالم الخلقة.

○ ٢. الجبال وحركاتها

وليس رفع السماوات و إبداعها وتنظيم حركاتها هو الوحيد في كونه مظهراً لعدله سبحانه في التكوين، بل إبداع الجبال و إيجادها مظهر آخر من مظاهر التوازن والتعادل في الخلقة.

يقول سبحانه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾.[١]

وقال سبحانه: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾.[٢]

إنّ الرواسي التي استخدمها القرآن جمع «راسية»، والمراد منها الأَنجَر التي هي مرساة السفينة، فللجبال دور المرساة، فكما أنّها تحول دون اضطراب السفينة وتقاذفها من قِبل أمواج البحر العاتية، فهكذا الجبال لها دور في تنظيم حركة الأرض.

وإلى هذا الحقيقة يشير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه، ويقول: «وتّد بالصُّخُور مَيدان أرضه».[٣]

وقال عليه السلام أيضاً: «وعدل حركاتها بالراسيات من جلاميدها».[٤]

○ ٣. الحياة وتوازنها الدقيق

إنّ من مظاهر عدله سبحانه وجود الحياة في الأرض، وهي رهن توفر

---

١. النحل:١٥. وقد جاءت أيضاً بنفس العبارة في سورة لقمان الآية ١٠.

٢. النبأ:٧.

٣. نهج البلاغة: الخطبة ١.

٤. نهجَ البلاغة: الخطبة ٨٧.

الظروف المناسبة لها، مثلاً انّ الفاصلة الدقيقة بين الشمس والأرض هيّأت أجواءً مناسبةً لنمو ورشد الخلايا، و هذه ما كان لها أن تنمو لو طرأ على تلك الفاصلة أدنى تغيير. و هذا يرشدك إلى توازن دقيق للغاية بين السماء والأرض.

واعطف نظرك إلى النباتات والحيوانات، فانّ حياة الحيوان رهن استنشاق غاز الأوكسجين(O_2) الذي تُولّده النباتات، وحياة النبات رهن استنشاق غاز ثاني أوكسيد الكاربون (CO_2) الذي تُولّده الحيوانات من خلال تنفّسها، فالتوازن الموجود بين الإنتاج والاستهلاك مهّد المناخ المناسب لحياة كلّ من النبات والحيوان، فلو كانت الأرض محتضنة للحيوان فقط أو للنبات فقط لما قامت للحياة قائمة.

فالتوازن القائم بين الغازين على وجه البسيطة مظهر من مظاهر عدله سبحانه، يقول سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوجٍ كَرِيم﴾[1].

ويزخر عالم النباتات والحيوانات بعدد لا حصر له من هذا النوع من التوازن والتعادل، وها نحن نذكر نموذجاً آخر.

كان الملاّحون يعانون من مرض تشقّق الجلد وسيلان الدم منه، وسببه يعود إلى قلة الفيتامينات في أبدانهم، إلى أن اكتشف أحد الأخصائيين في «مدغشقر» أنّ علاجه الوحيد هو تناول وجبات كافية من الليمون والنارنج، ففيها كمّيات هائلة من تلك الفيتامينات، وبذلك نجا الملاّحون من هذا المرض الذي كانوا يعانون منه.

---

١. لقمان:١٠.

الفصل الثالث

مظاهر العدل الإلهي

في عالم التشريع والجزاء

آيات الموضوع

١. ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.[1]

٢. ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَ لَا تُظْلَمُونَ﴾.[2]

٣. ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.[3]

٤. ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾.[4]

قد سبق انّه سبحانه وصف نفسه بقوله: ﴿قائماً بالقسط﴾، وتلك الفقرة

---

١. البقرة:١٧٨.
٢. البقرة: ٢٧٩.
٣. البقرة: ٢٨٠.
٤. البقرة: ٢٨٢.

حاكية عن أنّه سبحانه قائم بأعباء القسط في جميع المجالات تكويناً وتشريعاً، أمّا التكوين فقد وقفت على نماذج من التعادل الذي هو حجر الأساس لبقاء السماء والأرض واستقرار الحياة على وجه البسيطة.

بقي الكلام في مظاهر عدله في عالم التشريع، ولنذكر نماذج من ذلك:

١. فرض سبحانه الصيام على كلّ مكلّف، وقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾.[1]

وفي الوقت نفسه استثنى المريض والمسافر ومن يصوم ببذل الجهد الكبير، قال سبحانه: ﴿فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ وَعَلى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِين﴾.[2]

فأوجب على المريض والمسافر القيام بأعباء هذا التكليف بعد استعادة صحته أو رجوعه إلى الوطن، كما أنّه اكتفى فيمن يصوم ببذل جهد كبير كالهرم، بالتكفير وإطعام مسكين.

٢. لا شكّ انّ في القصاص حياة لأُولي الألباب، وفي المثل المعروف: «إنّ الدم لا يُغسّله إلاّ الدم»، ومع ذلك كلّه فقد أجاز لوليّ الدم أن يسلك طريقاً آخر وهو إبدال القصاص بالدية، فقد شرع ذلك، و قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّباعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيم﴾.[3] فالإصرار على أحد الحكمين ربما يولّد الحرج، فخيّر وليّ الدم بين القصاص وأخذ الدية حتى يتبع ما هو الأفضل والأصلح لتشفّي القلوب و استقرار الصلح في المجتمع.

---

١. البقرة:١٨٣.
٢. البقرة:١٨٤.
٣. البقرة:١٧٨.

٣. لا شكّ انّ الربا من أعظم الجرائم وأكبرها، كيف وقد وصف المرابي بالمحارب، و قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوافَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[١]، ومع ذلك فإذا تاب المرابي من عمله فقد احترم ماله الذي اقترضه، فعلى المقترض ردُّ رأس ماله فقط، قال: ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُون ولا تُظْلَمُونَ﴾.

وفي الحقيقة هذه الفقرة أي ﴿لا تظلمون ولا تظلمون﴾ شعار كلّ مسلم في عامة المجالات وهو لا يَظلم ولا يتحمَّل الظلم.

٤. حثَّ الناس على الإقراض وجعل أجره عشرة، قال سبحانه: ﴿مَنْ جاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها﴾[٢] و هو عام يعم كلّ حسنة ومنها الإقراض، ومع ذلك كلّه فإذا عجز المقترض عن أداء قرضه وصار ذا عسرة أمر المقرض بالصبر حتى يستطيع المقترض من دفع دينه، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلىٰ مَيْسِرَة و أَنْ تَصَدَّقُوا خَيرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُون﴾.[٣]

٥. يأمر سبحانه المقرض و المقترض أن يكتبا سنداً للدين، وفي الوقت نفسه يأمر الكاتب أن يكتب بالعدل من دون تحيّز إلى واحد من الطرفين، يقول سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالعَدْلِ﴾.[٤]

٦. يأمر سبحانه من عليه الحق أن يُملي كما هو عليه، من دون نقيصة ولا زيادة، يقول سبحانه: ﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذي عَلَيْهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيئاً﴾.[٥]

---

١. البقرة:٢٧٩. ٢. الأنعام:١٦٠. ٣. البقرة:٢٨٠.
٤. البقرة:٢٨٢. ٥. البقرة:٢٨٢.

٧. كما يأمر إذا كان من عليه الحقّ سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع الإملاء فليقم مكانه وليُّه وليملل بالعدل، يقول سبحانه: ﴿فَإِنْ كانَ الَّذي عليه الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالعَدلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَينِ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ .[1]

وباختصار: تتجلى في هذه الآية التي هي أطول آية وردت في القرآن الكريم مظاهر عدله في التشريع مرة تلو مرة، وللقارئ الكريم أن يستشف منها ما ذكرناه من المعاني.

٨. الطهارة من الحدث أحد شرائط صحّة الصلاة والصوم والحجّ ،وتحصل عن طريق استعمال الماء بكيفية خاصة متقرباً فيها إلى الله، ولكن ربما يكون استعمال الماء مضرّاً بصحّة المتوضئ أو موجباً لبطء برء مرضه، إلى غير ذلك من الاعذار فأوجب سبحانه التيمّم بالصعيد بدل استعمال الماء، وهذا يدل على مرونة الإسلام في تشريعه وتعاطفه مع فطرة الإنسان التي ترغب في العافية وتنضجر عن كلّ ما يحول دونها، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرضىٰ أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الغائِطِ أَو لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ منه ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ وَلٰكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .[2]

فقوله: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج﴾ يكشف اللثام عن وجه العدول من الطهارة المائية إلى الطهارة الترابية.

كما دلت الآيات القرآنية على استثنائه سبحانه طوائف ثلاث من الحضور

---

١. البقرة:٢٨٢.

٢. المائدة:٦.

في ساحات الجهاد لأجل الحرج ، قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ .[١]

وفي آية أُخرى يُبيِّن بوضوح أنّ تشريعه خال من الحرج، ويقول: ﴿ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [٢]. فكلّ حكم يتضمن الحرج فهو مرفوض بحكم أنّه حرجي، وقد أخبر سبحانه عن عدم تشريع الحكم الذي في امتثاله حرج.

٩. لقد شملت العناية الإلهية الأُمّةَ الإسلامية من بين سائر الأُمم برفع النسيان والخطأ عنهم وعدم المؤاخذة عليهما، في حين كانت الأُمم السالفة مسؤولة عن خطاها ونسيانها إذا كانت مقصِّرة في مبادئ الخطأ والنسيان ، يقول سبحانه: ﴿رَبّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَاعْفُ عَنّا وَاغْفِر لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلى القَوْمِ الكافِرين﴾ .[٣]

روى الكليني عن النبي ﷺ انّه قال: «إنّ هذا الدين متين، فاوغلوا فيه برفق ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبتِّ الّذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقىٰ».[٤]

فما أروع هذا التشبيه حيث إنّ الراكب المنبتّ و إن كان يعدو بفرسه أميالاً عديدة بغية الوصول إلى غايته، ولكنه بفعله هذا يُنتج عكس المطلوب حيث إنّ المركوب يُعْييه التعبُ ولا يكون بمقدوره الاستمرار في العدو، ويبقى هو في وسط الطريق لا يهتدي إلى بغيته، فهو لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقىٰ.

---

١. الفتح:١٧.
٢. الحج:٧٨.
٣. البقرة:٢٨٦.
٤. الكافي:٢/ ٨٦.

فهكذا الدعوة إلى الشريعة إذا كانت مقرونة بالشدة والضعف تنتج عكس المطلوب حيث لا تجد لها أُذناً صاغية، بل يخرج الناس منها أفواجاً. ولأجل ذلك صدع النبي ﷺ بسهولة شريعته، وقال: «بعثت بالشريعة السهلة السمحة».[1]

١٠. دلّت الآيات القرآنية على أنّ التكليف على القدر المستطاع وقد أطبق عليه العقل والنقل، إذ كيف يمكن تكليف الناس بأعمال، كإدخال الشيء الكبير في الظرف الصغير، من دون تغيّر في الظرف والمظروف؟ أو التحليق في الهواء دون وسيلة، إلى غير ذلك من الأُمور الممتنعة التي تدخل في نطاق التكليف بما لايطاق، حتى أنّ محقّقي العدلية ذهبوا إلى أنّ هذا النوع من التكليف المحال، بمعنى أنّه لا ينقدح في ذهن الآمر، الطلب و الإرادة الجدية المتعلّقة ببعث العاجز إلى المطلوب، ولو تظاهر به فإنّما تظاهر بظاهر التكليف لا بواقعه.

فتكون النتيجة: انّ امتناع المكلف به يلازم امتناع نفس التكليف أيضاً، يقول سبحانه: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إِلاّ وُسْعها﴾.[2]

وقال في آية أُخرى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إِلاّ ما آتاها﴾.[3]

ومضمون كلتا الآيتين واحد، وهو أنّ الله يكلّف الإنسان بقدر طاقته وقابليته.

هذه نماذج استعرضناها لإثبات أنّ التشريع الإسلامي يتمتّع بمرونة، و أنّه مبنيٌّ على أساس العدل.

وفي الحقيقة انّ التشريع الإسلامي من مظاهر عدله في هذا المجال.

---

١. سفينة البحار:١/ ٦٩٥.
٢. البقرة:٢٨٦.
٣. الطلاق:٧.

○ الأشاعرة والتكليف بما لا يطاق

ذهب لفيف من متكلّمي الإسلام ـ وللأسف الشديد ـ إلى جواز التكليف بما لا يطاق، ولم يُصغوا لنداء العقل ولا الشرع، بل أهالوا التراب على فطرتهم القاضية بعدم صحّة التكليف بما لا يطاق.

وقد اتّخذوا ظواهر بعض الآيات ذريعة لعقيدتهم في هذا المجال، و ها نحن نستعرض تلك الآيات ونناقشها كي يتجلّى الحق.

١. ﴿الّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ * أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزينَ فِي الأَرْضِ وَما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ من أولياءَ يُضاعَفُ لَهُمُ العَذابُ ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَماكانُوا يُبْصِرُون﴾.[1]

استدل الإمام أبو الحسن الأشعري(٢٦٠ـ ٣٢٤هـ) على أنّهم كانوا مكلّفين بالسماع والإبصار ومع ذلك ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يُبصرون، فدلّ على جواز التكليف بما لا يطاق.

وهذا الاستدلال يتبدّد بالتوضيح التالي:

وهو أنّهم وإن كانوا مأمورين مكلّفين بالسماع والإبصار ومع ذلك كانوا عاجزين عنهما لكن ذلك العجز لم يكن مقروناً بهم منذ بلوغهم وتكليفهم، وإنّما أدّى بهم التمادي في المعصية إلى أن صاروا فاقدين للسمع والأبصار، فقد سُلِبت عنهم هذه النعم بسوء اختيارهم نتيجة الذنوب التي اقترفوها، فكان لهم قلوب لا يفقهون بها، وآذان لا يسمعون بها، يقول سبحانه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئكَ كالأَنْعامِ بَلْ هُمْ

---

١. هود:١٩ـ٢٠.

أَضَلّ﴾.[١]

إنّ التمادي في المعصية والإصرار عليها يترك انطباعات سيّئة في القلوب على وجه يتجلّى الحسن سيّئاً والسيّء حسناً، يقول سبحانه:﴿ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الّذينَ أساءُوا السُّوأى أنْ كذَّبوا بآياتِ اللهِ وَكانُوا بِها يَسْتَهْزِءُونَ﴾ .[٢]

فالآية تصرح بأنّ اقتراف الذنوب و ارتكاب المعاصي ينجم عنه التكذيب بآيات الله.

فتحصل من ذلك أنّ عدم استطاعتهم للسماع والإبصار كان نتيجة قطعية لأعمالهم السيئة، كما يقول سبحانه: ﴿وَ قالُوا لَوْ كُنّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحقاً لأَصحابِ السَّعيرِ﴾ .[٣]

٢. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عرَضَهُمْ عَلى المَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤلاءِ إِنْ كُنتُمْ صادِقِين* قالُوا سُبحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلاّ ما عَلَّمْتَنا إِنَّك أَنْتَ الْعَليمُ الحَكيم﴾ .[٤]

استدلّ الإمام الأشعري بهذه الآية على جواز التكليف بما لا يطاق، و قال: فقد أمروا بالإعلام و هم لا يعلمون ذلك ولا يقدرون عليه.

ولكن غاب عنه أنّ لصيغة الأمر معنى واحداً وهو إنشاء الطلب، لكن الغايات من الإنشاء تختلف حسب اختلاف المقامات، فتارة تكون الغاية من الإنشاء، هي بعث المكلف نحو الفعل جداً، وهذا هو الأمر الحقيقي الذي يُثاب فاعله ويُعاقب تاركه، و تشترط فيه القدرة والاستطاعة، وأُخرى تكون الغاية أُموراً

---

١. الأعراف:١٧٩.
٢. الروم:١٠.
٣. الملك:١٠ـ١١.
٤. البقرة:٣١ـ ٣٢.

غيره، وعند ذلك لا ينتزع منه التكليف الجدي، وذلك كالتعجيز في الآية السابقة، وكالتسخير في قوله سبحانه: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خاسِئين﴾[1] والإهانة مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الكَريم﴾[2]، أو التمنّي مثل قول أمرئ القيس في معلّقته:

ألا أيهُّا الليل الطويل ألا انجلي بصُبحٍ وما الإصباحُ مِنكَ بأمثلِ

إلى غير ذلك من الغايات و الحوافز التي تدعو المتكلم إلى التعبير عن مقاصده بصيغة الأمر وذلك واضح لمن ألقى السمع وهو شهيد.

٣. ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ* خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلىَ السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُونَ﴾.[3]

استدلّ بها الشيخ الأشعري على مقصوده، وقال: إذا جاز تكليفه إياهم في الآخرة بما لا يطيقون، جاز ذلك في الدنيا.

والحقّ أنّ الإمام الأشعري وأتباعه لا سيما الفطاحل منهم أجلُّ من أن يجهلوا هدف الآية ومغزاها، إذ ليست الدعوة إلى السجود فيها عن جدّ وإرادة حقيقة، بل الغاية من الدعوة إيجاد الحسرة في قلوب المشركين التاركين للسجود حال استطاعتهم في الدنيا ،والآية بصدد بيان أنّهم في أوقات السلامة والعافية رفضوا الانصياع و الامتثال، وعند العجز ـ بعد ما كشف الغطاء عن أبصارهم ورأوا العذاب بأُمّ أعينهم ـ همّوا بالسجود ولكن أنّى لهم ذلك.

وإليك توضيح الآية بمقاطعها الثلاثة:

أ: ﴿يوم يُكشف عن ساق﴾ كناية عن اشتداد الأمر وتفاقمه ،لأنّ الإنسان

---

١. البقرة:٦٥. ٢. الدخان:٤٩.

٣. القلم:٤٢ـ ٤٣.

عند الشدة يكشف عن ساقه ويخوض غمار الحوادث.

ب: ﴿ويُدعون إلى السجود﴾ لا طلباً وتكليفاً جدياً، بل لازدياد الحسرة، فلا يستطيعون، إمّا لسلب السلامة عنهم، أو لاستقرار ملكة الاستكبار في سرائرهم.

ج: ﴿وقد كانوا يُدعون إلى السجود و هم سالمون﴾ والمعنى أنّهم لما دعوا إلى السجود في الدنيا امتنعوا عنه مع صحّة أبدانهم، وهؤلاء يُدعون إلى السجود في الآخرة ولكن لا يستطيعون، وما ذلك إلاّ لتزداد حسرتهم وندامتهم على ما فرَّطوا.

٤. ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَميلُوا كُلَّ المَيْلِ فتَذَرُوها كَالمُعلَّقَةِ و إن تُصْلِحُوا وتَتَّقُوا فَإنّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ .[1]

وقد استدل بها الشيخ الأشعري على ما يروم من جواز التكليف بما لا يطاق، و قال: وقد أمر الله تعالى بالعدل ومع ذلك أخبر عن عدم الاستطاعة على أن يُعدل.[2]

أقول: لا شكّ أنّه سبحانه أمر من يتزوج بأكثر من واحدة بإجراء العدالة بينهنّ، قال سبحانه: ﴿فَإنْ خِفْتُمْ ألاّ تعْدِلُوا فَواحِدَة﴾ [3] وفي الوقت نفسه صرَّح في آية أُخرى بأنَّ إجراء العدالة بينهنّ، أمر غير مقدور، و مع ذلك نهى عن التعلّق بواحدة منهن والإعراض عن الأُخرى حتى تُصبح كالمعلّقة لا متزوجة ولا مطلقة.

وبالتأمل في الآية يظهر بأنّ العدالة التي أمر بها غير العدالة التي أخبر عن عدم استطاعة المتزوج القيام بها، فالمستطاع منها هو الذي يقدر عليه كلّ متزوج بأكثر من واحدة، وهو العدالة في الملبس والمأكل والمسكن وغيرها من الحقوق

---

١. النساء:١٢٩.

٢. لاحظ الاستدلال بهذه الآيات في كتاب اللمع للإمام الأشعري:٩٩ـ ١١٤.

٣. النساء:٣.

الزوجية التي تقع على عاتق الزوج ويقوم بها بجوارحه ولا صلة لها بباطنه.

وأمّا غير المستطاع فهي المساواة في قسمة الحب بينهنّ لأنّ الباعث لها هو الوجدان والميل القلبي وهو ممّا لا يملكه المرء ولا يحيط به اختياره ، لأنّه رهن أُمور خارجة عن الاختيار.

مظاهر العدل الإلهي في تنفيذ العقوبات

قد مضى أنّ لعدله سبحانه مظاهر في التكوين والتشريع ، و من مظاهر عدله في التشريع أنّه لا يساوي بين المطيع و العاصي، والمسلم والمجرم، والمؤمن والمفسد، و لذلك صار يوم البعث مظهراً لعدله سبحانه بحيث لو لم يكن ذلك اليوم الموعود لما ظهر عدله في مجال الجزاء، وبذلك أصبح يوم القيامة أمراً لا مفرّ منه لظهور عدله فيه، وتشير آياتٌ كثيرة إلى هذا المضمون:

١. ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ كَالْمُفْسِدينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقينَ كَالْفُجّارِ﴾.[1]

٢. ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمينَ كالْمُجْرِمينَ * ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.[2]

وهاتان الآيتان تدلاّن على أنَّ التسوية بين الطائفتين على خلاف العدل، فلا محيص من إحقاق الفرق، وبما انّ الطائفتين يتعامل معهما في الدنيا على نحو سواء فلابدّ من تحقيقه في يوم ما و ليس هو إلاّ يوم القيامة، ويعرب عمّا ذكرناه قوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَميعاً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَؤُ الخَلْقَ ثُمّ يُعيدُهُ لِيجزيَ

١. ص:٢٨.
٢. القلم:٣٥ـ٣٦.

الّذيـنَ آمنوا وَعَمِلُـوا الصّالِحاتِ بـالقِسْطِ وَالّـذين كَفَرُوا لَهُـمْ شَرابٌ مِـنْ حَميمٍ وعَذابٌ أليمٌ بِما كانوا يَكْفُرُون﴾ .[1]

ثمّ إنّـه سبحانـه يحقّق عـدله يوم القيـامة بـوضع مـوازين القسـط ليجزي كلّ نفس بما كسبت، يقول سبحانه:

﴿وَنَضَعُ المَوازينَ القِسْط لِيَومِ القِيامَـةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبّةٍ مِنْ خَردلٍ أتَيْنا بِها وَكَفىٰ بِنا حاسِبينَ﴾ .[2]

﴿وَالوَزْنُ يَـوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَـنْ ثَقُلَتْ مَوازينُهُ فَـأُولئكَ هُمُ المُفْلِحُـون * وَمَنْ خَفّت مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الّذينَ خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظلِمُون﴾ .[3]

هذه إلمامـة عابرة لبيـان مظاهر عدلـه في مجالات مختلفة، والسابـر في آيات القرآن الكريم يجد آيات كثيرة في مجال عدله سبحانه.

---

١. يونس:٤.
٢. الأنبياء:٤٧.
٣. الأعراف:٨ـ٩.

الفصل الرابع

العدل الإلهي
وفاعلية الإنسان

قد تعرفت على مظاهر عدلـه في التكوين والتشريع، وحان البحث في بيان باقي المباحـث التي لها صلة بالعدل الإلهي، وهي تتمحور حـول فاعلية الإنسان، ونقاطها الرئيسية هي:

١. العدل الإلهي وحرية الإرادة الإنسانية.

٢. العدل الإلهي و علمه السابق بأفعال العباد.

٣. العدل الإلهي والقضاء والقدر القطعيان.

٤. العدل الإلهي وخلود العقاب.

وقـد تناول الحكماء والمتكلّمـون هذه الأبحـاث من زوايـا مختلفة واحتـدم النقاش حـولها، و بما أنّ رائدنا في هذه البحوث هـو القرآن الكريم فنحـن نتناولها من ذلك الجانب ونترك جوانبها الأُخرى إلى الكتب المعدّة في هذا المجال.

○ العدل الإلهي وحرية الإرادة الإنسانية

البحث عن حرية الإرادة، وأنّ الإنسان هل هو فاعل مجبور أو فاعل مختار؟ من المسائل الفلسفية الّتي تمتد جذورها في تاريخ الفكر الإنساني، ومنذ ذلك الحين اتجهت أنظار كافة الناس صوبها لأنّها تمسّ جانباً من حياتهم العملية، وبذلك أصبحت دراسة تلك المسألة لا تقتصر على الحكماء فحسب بل شملت أكثر الناس.

إنّ الرؤية القرآنية تتلخص في أنّ الإنسان حرّ فيما شاء وأراد، و هي تشطب بقلم عريض على مزعمة المشركين بتعلّق مشيئة الله سبحانه بعبادتهم الأوثان ولذلك صاروا مجبورين على الشرك. يقول سبحانه في ردّ تلك المزعمة: ﴿سَيَقُولُ الّذينَ أَشْرَكُوا لَو شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إن تَتَّبِعُونَ إلاّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاّ تَخْرُصُونَ﴾.[1]

فهذه الآية تعكس لنا بوضوح جانباً من عقيدة المشركين في عصر الرسالة وانّهم كانوا يؤمنون بالجبر، وإنّ كلّ ما يصدر منهم فهو خاضع لإرادته سبحانه إرادة سالبة للاختيار.

ويقول سبحانه في موضع آخر مبيّناً تلك العقيدة الفاسدة: ﴿وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءنا وَاللهُ أَمَرنا بِها قُل إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.[2]

---

١. الأنعام: ١٤٨.

٢. الأعراف: ٢٨.

فإنّ الفقرة الأُولى من الآية تعكس عقيدة المشركين وأنّه لولا أمره ومشيئته لما كنّا مشركين، لكـن الفقرة الثانية تـردُّ عليها ببيان أنّ الشرك ظلـم و قبيح، والله لا يأمر بهما، وبالتالي لا تتعلق مشيئته بهما.

والعجب أنّ تلـك العقيدة السخيفـة لم تُجتثّ بل بقيـت عالقـة في أذهان عدّة من الصحابة حتى بعد بزوغ نجم الإسلام.

روى السيـوطي عـن عبد الله بـن عمر: انّـه جاء رجـل إلى أبي بكر، فقـال: أرأيت الزنا بقدر؟

قال: نعم. قال: فـإنّ الله قدّره عليّ ثمّ يعذّبني؟! قال: نعـم يابن اللخناء، أما والله لو كان عندي إنسان أمرته أن يجأ أنفك.[1]

وليس الخليفة الأوّل وحده ممن كان يحتج بالقدر السالب للاختيار، بل كان غيره على هذه الفكرة . روى الواقدي عـن أُم الحارث الأنصارية، وهي تحدّث عن فرار المسلمين يوم حنين، قالت: مرّ بي عمر بـن الخطاب منهزماً، فقلت: ما هذا؟ فقال عمر: أمر الله.[2]

نرى أنّ عمر يلجأ إلى أمر الله وقضائه، و أنّ الهزيمة كانت أمراً قطعياً لأنّه سبحانه شاءها وأرادها، دون أن ينظر إلى سائر الأسباب التي حدت بهم إلى تلك الهزيمة.

لقد اتخذ الأمويون مسألة القدر أداة تبريرية لأعمالهم السيّئة وكانوا ينسبون وضعهـم بما فيـه مـن شتـى ضروب العيث والفسـاد إلى القـدر، قـال أبـو هـلال العسكري: إنّ معاوية أوّل من زعم أنّ الله يريد أفعال العباد كلّها.[3]

---

١. تاريخ الخلفاء: ٩٥. ٢. مغازي الواقدي: ٣/ ٩٠٤.

٣. الأوائل: ٢/ ١٢٥.

ولأجل ذلك لما سألت أُمّ المؤمنين عائشة، معاويةَ عن سبب تنصيب ولده يزيد خليفة على رقاب المسلمين فأجابها: إنّ أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم.[١]

وبهذا الجواب أيضاً أجاب معاويةُ عبدَ الله بن عمر ،عندما استفسر من معاوية عن تنصيبه يزيد، بقوله: إنّي أُحذِّرك أن تشقّ عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملئهم، وأن تسفك دماءهم وإنّ أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمره.[٢]

وقد تسرّبت فكرة الجبر إلى أكثر الأوساط الإسلامية خصوصاً بين الشعراء وأصحاب الملاحم، حيث راحوا يفسرون الوضع المزري الذي يعاني منه المسلمون بالقضاء والقدر. وسيوافيك أنّه لا صلة للقضاء والقدر بسلب الاختيار عن الإنسان .

○ حرية الإرادة من منظارٍ قرآني

إنّ الآيات القرآنية تصرّح باختيارية الإنسان وانّه فاعل مختار مسؤول عن عمله.

١. يقول سبحانه: ﴿إِنّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمّا شاكِراً وَإِمّا كَفُوراً﴾ .[٣]

فالشاكر يسلك السبيل الذي أراده الله سبحانه له، فيصل إلى الهدف المنشود، بخلاف الكفور، فيسلك غير هذا السبيل.

---

١. الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٧.

٢. الإمامة والسياسة: ١/ ١٧١.

٣. الإنسان: ٣.

٢. ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمـا أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبّي إِنَّهُ سَميعٌ قَريب﴾ .[١]

ترى أنّ الآية تنسب الضلالة إلى نفس الإنسان، والهداية إلى وحيه سبحانه إليه، مع أنّ الهداية والضلالة كلّها من الله سبحانه ، وما هذا إلاّ لأنّه سبحانه قد هيّأ كافّة وسائل الهداية للإنسان منذ أنْ خُلِقَ إلى أن يُدرج في أكفانه، وهي عبارة عن تزويده بفطرة التوحيد وتعزيزها ببعث الأنبياء والمرسلين ، والعقل السليم، إلى غير ذلك من أدوات الهداية، فمن انتفع بها فقد اهتدى، فصحّ أن يقال: إنّ الهداية من الله لأنّه زوّد الإنسان بوسائلها، و من لم ينتفع بها فقد ضلّ فصحّ أن يقال ﴿إن ضللت فانّما أضلّ على نفسي﴾.

وبهذا المضمون قوله سبحانه: ﴿مَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها﴾ .[٢]

٣. ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر﴾.[٣]

ولا تجد في القرآن الكريم آية أكثر نصاعة في حرية الإنسان من هذه الآية،وقد صبّ شهيدنا الثاني (٩٠٩ ـ ٩٦٦هـ) مضمون هذه الآية ضمن بيتين، حيث قال:

لقد جاء في القرآن آية حكمة ... تدمّر آياتِ الضلال ومن يُجبر

وتُخبر انّ الاختيار بأيدينا ... فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر

---

١. سبأ: ٥٠.

٢. الإسراء: ١٥.

٣. الكهف: ٢٩.

٤. ﴿قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفيظ﴾.[١]

٥. ﴿ليهلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسميعٌ عَليم﴾.[٢]

٦. ﴿كُلُّ امرِيٍ بِما كَسَبَ رَهِين﴾.[٣]

٧. ﴿إِنَّما تُجْزونَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾.[٤]

إلى غير ذلك من الآيات الدالّة على أنّ الإنسان فاعل مسؤول عن أعماله، حرّ في إرادته، مختار فيما يكتسب.

وعلى ضوء هذا فمن حاول أن ينسب الجبر إلى القرآن فقد خبط خبطَ عشواء.

إنّ بعث الأنبياء و دعوة الناس إلى طريق الرشاد، ونهيهم عن ارتكاب القبائح أوضح دليل على أنّ الإنسان موجود قابل للإصلاح والتربية ، إذ لو كان مجبوراً على فعل المعاصي، لكان بعث الأنبياء ودعوتهم أمراً سدىً.

نعم الدعوة إلى حرية الإنسان وكونه فاعلاً مختاراً لا تعني أبداً انقطاع صلة الإنسان بالله سبحانه و إرادته . لأنّ تلك الفكرة كفكرة الجبر باطلة تورد الإنسان في مهاوي الشرك والثنويّة التي ليست بأقلّ ضرر من القول بالجبر.

فالتفويض بمعنى استقلال الإنسان في فعله وإرادته وكل ما يكتسب وخروجه عن سلطة الله سبحانه ، تفويض باطل كالقول بأنّه فاعل مجبور.

لا جبر و لا تفويض:

وقد أكّد أئمّة أهل البيت عليهم السلام على وهن تلك الفكرتين.

---

١. الأنعام: ١٠٤.   ٢. الأنفال: ٤٢.   ٣. الطور: ٢١.   ٤. النور: ١٦.

قال الإمام الصادق عليه السلام : «إنّ الله أكرم من أن يكلّف الناس ما لا يطيقون، والله أعزّ من أن يكون في سلطانه ما لا يريد».[١]

و في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام فسّر حرية الإنسان بهذا النحو: «وجود السبيل إلى إتيان ما أُمروا وترك ما نهوا عنه».[٢]

نعم التركيز على بطلان الجبر أكثر في الروايات من التصريح ببطلان التفويض.

قال الإمام الصادق عليه السلام :«الله أعدل من أن يجبر عبداً على فعل ثمّ يعذّبه عليه».[٣]

وسأل الحسن بن علي الوشاء الإمام الرضا عليه السلام : هل الله أجبر العباد على المعاصي؟ فقال عليه السلام : «الله أعدل وأحكم من ذلك».[٤]

نعم موضوع الاختيار عبارة عن الأفعال التي يقوم بها الإنسان، و أمّا الأُمور الخارجة عن حيطة الثواب والعقاب التي ربّما يبتلى بها الإنسان من حيث لم يشأ كالبلايا والمصائب والزلازل والسيول المخرّبة والأعاصير، إلى غير ذلك فهي خارجة عن اختيار الإنسان، فليس هو بالنسبة إليها لا فاعلاً جبرياً ولا فاعلاً بالاختيار.

هذه هي نظرة القرآن الكريم في أفعال الإنسان، غير انّ هناك شبهات تذرّعت بها بعض الفرق الإسلامية وحاولوا بذلك سلب الاختيار عنه ظناً منهم أنّهم بذلك يحسنون صنعاً.

---

١. البحار:٥/ ٤١.
٢. البحار:٥/ ١٢.
٣. التوحيد للصدوق: ٣٦٠، الحديث ٦، باب نفي الجبر والتفويض.
٤. نفس المصدر: ٣٦٣، الحديث ١٠.

الفصل الخامس

شبهات وحلول

دلّت البراهين العقلية كالنصوص القرآنية على أنّه سبحانه قائم بالقسط في جميع شؤونه، بيد انّ ثمة شبهات أُثيرت حول الموضوع تنشد لنفسها حلولاً .

○ الشبهة الأُولى: خلق الأعمال

إنّ التوحيد الأفعالي يرشدنا إلى أنّ ما في الكون مخلوق لله سبحانه، دون فرق بين الجواهر والأعراض، وبين الإنسان وأعماله،وهذا صريح الآيات التالية:

١. ﴿قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ القَهّار﴾ .[1]

٢. ﴿ذٰلِكُمُ اللهُ ربُّكُمْ خالِقُ كُلّ شَيءٍ لاٰإلهَ إلاّ هُوَ... ﴾ .[2]

٣. ﴿يا أيُّهَا النّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ الله﴾ .[3]

فإذا لم يكن في صحيفة الوجود إلاّ خالق واحد لا شريك له في الخلق، فكلّ

---

١. الرعد: ١٦.

٢. المؤمن:٦٢.

٣. فاطر:٣.

ما يصدر من الإنسان فهو مخلوق له وهو خالقه، وهذا ما يعبّر عنه بالتوحيد في الخالقية.

ويستنتج منه أمران:

أ: إذا كان فعل الإنسان مخلوقاً لله سبحانه لا للإنسان فيكون مجبوراً في فعله لا مختاراً.

ب: إذا كان فعل العبد حسنُه و سيِّئه فعلاً لله سبحانه ومخلوقاً له، فتكون المؤاخذة على أفعال العبد خلاف العدل والقسط، لأنّ الخالق هو الله سبحانه والمُجزيّ هوالعبد، مع أنّه لا دور له في فعله .

أقول: إنّ ما رتَّبوه على التوحيد في الخالقية يخالف الفطرة أوّلاً، فانّها تشهد على حرية الإنسان في أفعاله، ويخالف أهداف الأنبياء ثانياً. فإذا كان الإنسان مجبوراً فيما يفعل ويترك، كان بعث الأنبياء ودعوتهم إلى الطريق المستقيم أمراً لغواً، غير مؤثر في هداية الإنسان، بل تعدُّ عامة القوانين الجزائية في الإسلام أمراً لغواً وظلماً في حقّ المرتكب، لأنّه لم يقترف المعاصي والسيئات عن اختيار، بل عن جبر وسوق من اللّه سبحانه إيّاه إلى العمل، و هو تعالى هو الفاعل الخالق لأعمالهم، لا العبدُ فيكون تعذيبه مصداقاً لقول الشاعر:

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم ⁂ فكأنّني سبّابة المتندِّم

لكنّ الأشاعرة مخطئون في تفسير التوحيد في الخالقية أو التوحيد الأفعالي الذي هو من المعارف الإسلامية التي صدع بها القرآن الكريم.

انّ التوحيد في الخالقية يُفسر بأحد تفسيرين:

أ: أنّ كل ما في الكون من الظواهر الطبيعية والفلكية وغيرهما مخلوق لله

سبحانه مباشرة،وبلا تسبيب سبب وتهيئة مقدمة و ليس في صحيفة الكون إلاّ علة واحدة تقوم بجميع الأفعال، وتنوب مناب العلل الطبيعية في كافة الموارد.

ب: إنَّ صحيفة الكون قائمة بوجوده سبحانه ومنتهية إليه، غير انّه سبحانه خلق الأشياء من خلال نظام الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، على وجه يكون للسبب والعلة دور في تحقّق المسبب والمعلول وإن كان ذلك بإذنه سبحانه.

وعلى ضوء ذلك فللعالم خالق واحد أصيل، وعلّة واحدة قائمة بنفسها، لكن تتوسط بينها وبين الظواهر الطبيعية والفلكية علل وأسباب مؤثرة في معاليلها، قائمة بذاته سبحانه، مؤثرة بأمره، والجميع من سنن الله تبارك وتعالى.

أمّا التفسير الأوّل: فهو خيرة الأشاعرة الذين ينكرون العلل والأسباب الطبيعيَّة ولا يعترفون إلاّ بعلة واحدة، وهي قائمة مقام عامة العلل المتصورة للطوائف الأُخرى، ولكن هذا التفسير ـ و إن كان لأجل الغلو في التوحيد ـ يخالف نصوص القرآن الكريم، فانّ الوحي الإلهي يذعن بعلل طبيعية مؤثرة في معاليلها، وإليك بعض ما يدل على ذلك الأصل:

١. ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.[1]

فالآية صريحة في تأثير الماء في اهتزاز الأرض وربوّها، ثمّ إنباتها كلّ زوج بهيج، فالأرض الهامدة كالجماد، والذي يخرجها من هذه الحالة هو الماء، يقول سبحانه: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت﴾ فالاهتزاز والرباء والإنبات أثر الماء ولكن بإذنه سبحانه.

---

١. الحج:٥.

وجاء نفس المضمون في الآيـة التالية: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ مـاءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوجٍ كَريم﴾.[1]

والبيان نفس البيان فلا نطيل.

٢. ﴿مَثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[2]

ترى أنّه سبحانه ينسب الإنبات إلى الحبة، ويقول﴿كمثل حبة أنبتت سبع سنابل﴾ وهو ظـاهر في تأثير الحبـة في ظهور السنابـل، وفي كلّ سنبلة مـائة حبة، وإن كان ذلك التأثير بأمره سبحانه، حيث إنَّ الكلّ سُنَّة من سننه.

٣.﴿اللهُ الّذي يُرسِلُ الـرياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِـي السَّماءِ كيفَ يَشاءُ ويَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرى الوَدْقَ يخْرُجُ مِنْ خِلالِه فَإذا أصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.[3]

والآية صريحة في أنّ هنـاك عللاً طبيعيَّة مـؤثرة في معـاليلها التي منهـا إثارة الرياح السحاب، فهي فعل الرياح، كما هو صريح قوله﴿فتثير سحاباً﴾.

ثمّ إنّـه سبحانـه يستخدم السحـاب المنثورة فيبسطهـا في السماء، ويجعلها كسفاً، أي قطعاً متفرقة، فعند ذلك يخرج الودق من خلاله.

وعلى كلّ حـال فالآية صريحة في وجود الصلـة بين إرسال الريـاح، و إثارة السحاب، وانبسـاطها في السماء، وصيرورتها كسفاً التـي تسفر عن خـروج الودق من خلال السحـاب، كلّ ذلك مظاهر طبيعية وظـواهر كونية يؤثـر كل في الآخر

---

١. لقمان:١٠.
٢. البقرة:٢٦١.
٣. الروم:٤٨.

بإذن الله سبحانه، والجميع من سننه الكونية والاعتراف بها اعتراف بقدرته وعلمه وحكمته وانّ الجميع من جنوده سبحانه الخاضعة لإرادته.

ومع هذه التصريحات كيف يمكن تفسير التوحيد في الخالقية بالمعنى الأوّل، ورفض كلّ تفسير ضمني وتبعي لغيره سبحانه؟!

والذي يدل على ذلك انّه سبحانه ينسب عمل الإنسان إليه، ويقول:

﴿وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُون﴾ .[١]

﴿أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبطِلُوا أعمالكم﴾ .[٢]

﴿وَأَنْ لَيْس لِلإنْسانِ إلاّ ما سَعىٰ * وأنّ سَعْيَهُ سَوفَ يُرىٰ﴾ .[٣]

ففي هذه الآيات ينسب عمل الإنسان إليه و يرى أنّ له دوراً في مصيره، ويرى أنّه ليس لكلّ إنسان إلاّ سعيه وجهده.

وثمة آيات تنسب الخلق إلى غيره سبحانه، لكن لا على وجه ينافي التوحيد في الخالقية، حيث يقول:

﴿وَإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْر بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فيها فتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبرئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَص بِإِذْني وَإِذْ تُخْرِجُ المَوتىٰ بِإِذْني﴾ .[٤]

﴿أنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طيراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ و أحي المَوتىٰ بِإِذْنِ الله﴾ .[٥]

وأي تصريح أوضح من خطابه الموجّه إلى المسيح، بقوله: ﴿وَإِذْ تَخلق مِنَ

١. التوبة:١٠٥.
٢. محمّد:٣٣.
٣. النجم:٣٩ـ ٤٠.
٤. المائدة:١١٠.
٥. آل عمران: ٤٩.

الطّين كهَيئة الطّير﴾ .

فمقتضى الجمع بين الآيات التي تحصر الخالقية في الله سبحانه ولا ترىٰ خالقاً غيره، والآيات التي تعترف بتأثير العلل بعضها في بعض، وتنسب الخلقة إلى غيره سبحانه إيضاً، هو القول بأنّ المقصود من حصر الخالقية في الله هو الخالقية النابعة من ذات الخالق غير المعتمد على شيء.

وأمّا الخالقية التبعية والظلية والتأثير الحرفي فهي قائمة بالعلل والأسباب التي أوجدها سبحانه و صيَّرها على نظام العلل و المعاليل والمسببات، ولا منافاة بين ذلك الحصر ونفيه عن الغير، وإثباته للآخرين، لأنّ المحصور فيه سبحانه هو الخالقية التي يستقل الفاعل في خلقه عن غيره، والمثبت لغيره هو القيام بالتأثير والخالقية التي أذن به سبحانه حيث إنَّ قيام الجميع من العلل والمعاليل به سبحانه.

وبذلك يظهر أمران:

الأوّل: انّ الاعتراف بالتوحيد في الخالقية الذي هو أصل من الأُصول لا يخالف الاعتراف بنظام العلل والمغاليل في الطبيعيات والفلكيات بل في عالم المجردات، فانّه سبحانه خلق لكلّ شيء سبباً وجعل لها قدراً وقضاءً.

الثاني: انّ الاعتراف بالتوحيد في الخالقية لا يلازم الجبر وسلب المسؤولية عن الإنسان على وجه يكون كالريشة في مهبّ الرياح، بل له وجود بإيجاد الله سبحانه وقدره وإرادته و بأمر منه سبحانه.

○ الشبهة الثانية: علمه سبحانه و إرادته السابقة

قد وقع تعلّق علمه سبحانه بكلّ ما وقع ويقع، ذريعة للقول بالجبر،

وبالتالي لنفي عدله سبحانه، و إليك بيان الشبهة:

إنّ ما علم الله سبحانه تحقّقه من أفعال العباد، فهو واجب الصدور، وما عَلِمَ عدمَه فهو ممتنع الصدور منه، وإلاّ انقلب علمه جهلاً، وليس فعل العبد خارجاً عن كلا القسمين، فهو إمّا ضروري الوجود، أو ضروري العدم،ومعه لا مفهوم للاختيار، إذ هو عبارة عمّا يجوز فعله أو تركه، مع أنّ الأوّل لا يجوز تركه، والثاني لا يجوز فعله.

وقد وقع هذا الدليل عند الرازي موقع القبول، وقال: ولو اجتمع جملة العقلاء لم يقدروا على أن يوردوا على هذا الوجه حرفاً إلاّ بالتزام مذهب هشام: وهو أنّه تعالى لا يعلم الأشياء قبل وقوعها.[1]

إنّ هذه الشبهة لا تختص بعلمه سبحانه، بل تسري أيضاً في مجال إرادته، فانّ ما في الكون غير خارج عن إرادته، وعند ذلك تتوجه الشبهة التي قررها الشريف الجرجاني(المتوفّى عام ٨١٦هـ) بالنحو التالي:

قالوا: ما أراد الله وجوده من أفعال العباد وقع قطعاً، وما أراد عدمه منها، لم يقع قطعاً، فلا قدرة للإنسان على شيء منهما.[2]

وأظن انّ الرازي قد بالغ في شأن هذه الشبهة، وانّه لو تأمّل فيما حقّقه الأعلام حول كيفية تعلّق علمه وإرادته سبحانه بمعلومه ومراده لتجلّت الحقيقة ناصعة.

وحاصل ما حقّقه الفطاحل من أعلام الفلسفة والكلام، هو ما يلي:

إنّ علمه الأزلي لم يتعلّق بصدور كلّ فعل عن فاعله على وجه الإطلاق، بل

---

١. شرح المواقف:٨/ ١٥٥.

٢. شرح المواقف:٨/ ١٥٦.

تعلّق علمه بصدور كلّ فعل عن فاعله حسب الخصوصيات الموجودة فيه. وعلى ضوء ذلك تعلق علمه الأزلي بصدور الحرارة من النار على وجه الجبر، بلا شعور، كما تعلّق علمه الأزلي بصدور الرعشة من المرتعش، عالماً بلا اختيار، ولكن تعلّق علمه سبحانه بصدور فعل الإنسان الاختياري منه بقيد الاختيار والحرية. وبالتالي: تعلّق علمه بوجود الإنسان وكونه فاعلاً مختاراً، وصدور فعله عنه اختياراً ـ فمثل هذا العلم ـ يؤكد الاختيار ويدفع الجبر عن ساحة الإنسان .

وإن شئت قلت: إنّ العلّة إذا كانت عالمة شاعرة، ومريدة ومختارة كالإنسان، فقد تعلق علمه بصدور أفعالها منها بتلك الخصوصيات وانصباغ فعلها بصبغة الاختيار والحرية، فلو صدر فعل الإنسان منه بهذه الكيفية لكان علمه سبحانه مطابقاً للواقع غير متخلّف عنه، وأمّا لو صدر فعله عنه في هذا المجال عن جبر واضطرار بلا علم وشعور أو بلا اختيار وإرادة، فعند ذلك يتخلّف علمه عن الواقع.

يقول العلاّمة الطباطبائي(١٣٢١ ــ ١٤٠٢هـ): إنّ العلم الأزلي متعلق بكلّ شيء على ما هو عليه، فهو متعلق بالأفعال الاختيارية بما هي اختيارية، فيستحيل أن تنقلب غير اختيارية.

وبعبارة أُخرى: المقضيّ هو أن يصدر الفعل عن الفاعل الفلاني اختياراً، فلو انقلب الفعل من جهة تعلق القضاء به، غير اختياري ناقض القضاء نفسه.[١]

هذا هو حال تعلّق علمه سبحانه بالأشياء والأفعال، وقد عرفت أنّه لا يستلزم الجبر وبالتالي لا يستلزم خلاف عدله.

---

١. تعليقة الأسفار:٦/ ٣١٨.

وبذلك تعلم كيفية تعلّق إرادته سبحانه بالأشياء والأفعال، وانّ القول بسعة إرادته لا تستلزم الجبر شريطة أن نتأمل في متعلّق إرادته، فنقول:

إنّ إرادته لم تتعلّق بصدور فعل الإنسان منه سبحانه مباشرة وبلا واسطة، بل تعلّقت بصدور كلّ فعل من علّته بالخصوصيات التي اكتنفتها. مثلاً تعلّقت إرادته سبحانه على أن تكون النار مبدأ للحرارة بلا شعور وإرادة، كما تعلّقت إرادته على صدور الرعشة من المرتعش مع العلم ولكن لا بإرادة واختيار، وهكذا تعلّقت إرادته في مجال الأفعال الاختيارية للإنسان على صدورها منه مع الخصوصيات الموجودة فيه، المكتنفة به من العلم و الاختيار وسائر الأُمور النفسانية.

وصفحة الوجود الإمكاني زاخرة بالأسباب والمسببات المنتهية إليه سبحانه، فمثل هذه الإرادة المتعلّقة على صدور فعل الإنسان بقدرته المحدثة واختياره الفطري، تؤكد الاختيار ولا تسلبه منه.

ومع ذلك كله ليس فعل الإنسان فعلاً خارجاً عن نطاق قدرته سبحانه غير مربوط به، كيف وهو بحوله وقوته يقوم ويقعد ويتحرك ويسكن، ففعل الإنسان مع كونه فعله بالحقيقة دون المجاز، فعل الله أيضاً بالحقيقة فكلّ حول يفعل به الإنسان فهو حوله، وكلّ قوة يعمل بها فهي قوته.

إلى هنا تبيّن انّ تعلّق إرادته سبحانه بالأفعال والأشياء لا تستلزم الجبر وكون الإنسان مجبوراً في أعماله.

هذا كلّه حول ما أفاده المحقّقون فلنرجع إلى القرآن بغية استكشاف رؤيته حول هذا الموضوع.

فنقول: أمّا سعة إرادته سبحانه للأشياء والأفعال وعدم خروج فعل الإنسان عن حيطة علمه و إرادته فهذا ممّا يثبته القرآن الكريم بوضوح، فمن حاول أن يُخرج فعل الإنسان من حيطة إرادته فقد خالف البرهان أوّلاً، وخالف نص القرآن ثانياً. إذ كيف يمكن أن يقع في سلطانه مالا يريد؟ و لذلك يقول سبحانه: إنّ الإنسان لا يشأ شيئاً إلاّ ما شاء الله، وانّ إيمان كلّ نفس بإذنه ومشيئته، و إنّ كلّ فعل خطير وحقير لا يتحقق إلاّ بإذنه.

يقول سبحانه:

﴿وَ ما تَشاءُونَ إلاّ أَنْ يَشاءَ اللهُ ربُّ الْعالَمين﴾ .[1]

﴿ما كانَ لنفسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إلاّ بإِذْنِ الله﴾ .[2]

﴿ما قَطَعْتُمْ مِنْ لينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصولِها فَبِإِذْنِ الله وَلِيُخْزِيَ الفاسِقين﴾.[3]

وهذه الآيات الناصعة صريحة في عدم خروج فعل الإنسان عن مجاري إرادته سبحانه، وقد أكّدت ما نزل به الوحي، الرواياتُ المروية عن النبي ﷺ أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وبما انّ خروج فعل الإنسان عن حيطة إرادته ومشيئته يستلزم تحديد إرادته، يقول النبي ﷺ في رد تلك المزعمة:

«من زعم انّ الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه».[4]

---

١. التكوير: ٢٩.

٢. يونس: ١٠٠ .

٣. الحشر: ٥ .

٤. بحار الأنوار:٥/ ٥١، أبواب العدل، الباب١، الحديث ٨٥.

وبما انّ خروج أفعال الإنسان عن حيطة إرادته يستلزم تحديداً في سلطانه،يقول الإمام الصادق عليه السلام : وَاللهُ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يَكُون في سُلْطانِهِ ما لا يُريد.[١]

وقد ورد في الحديث القدسي قوله: «يابن آدم بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد».[٢]

يقول الإمام الباقر عليه السلام : «لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلاّ بهذه الخصال السبع: بمشيّة، و إرادة، وقدر، وقضاء، و إذن، وكتاب، وأجل، فمن زعم أنّه يقدر على نقض واحدة منهنّ فقد كفر».[٣]

لا يليق لموحد أن يشك في سعة إرادته وتعلّقه بكلّ ما كان وما هو كائن وما يكون إلاّ أنّ اللازم هو إمعان النظر في متعلّقها، فهل تعلّق بأصل صدور الفعل عن الإنسان، أو تعلّق بصدوره عنه بقيد الاختيار، والأوّل لا يفارق الجبر، والثاني نفس الاختيار و العدل، وقد علمت أنّ إرادته كما تتعلّق بأصل صدوره، فهكذا تتعلق بكيفية صدوره من الاختيار، و عند ذلك لا تكون سعة إرادته ذريعة لتوهم الجبر وخلاف العدل.

○ إيضاح آيات ثلاث

قد مضى الكلام في سعة إرادته وتعلّقها بكلّ شيء، لكن هناك آيات ربما

---

١. بحار الأنوار: ٥/ ٤١، أبواب العدل، الباب ١ ، الحديث ٦٤.

٢. توحيد الصدوق: الباب ٥٥، الحديث ٦، ١٠، ١٣.

٣. بحار الأنوار: ٥/ ١٢١، باب القضاء والقدر، الحديث ٦٥.

توحي إلىٰ خروج أفعال العباد عن دائرة إرادته وهي:

١. ﴿وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِباد﴾.[١]

فالظلم الصادر من العباد فعل من أفعالهم، خارج عن حيطة إرادته.

٢. ﴿وَلا يرضى لِعِبادِهِ الكُفْر...﴾.[٢]

فالكفر من أفعال العباد، فهو ليس مرضياً لله سبحانه.

٣. ﴿وَاللهُ لا يُحِبُّ الفَساد﴾.[٣]

لكن إيضاح مفاد الآية الأُولى يتوقف على التدبّر في الفقرات التي تسبقها، وهي:

﴿وَقالَ الّذِي آمَنَ يا قَومِ إِنّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزاب * مِثْلَ دَأْبِ قَومِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِباد﴾.[٤]

إنّ الإمعان في الآية يكشف على أنّ المراد من الظلم هو الهلاك والإبادة، ومعنى الآية انّه سبحانه لا يريد إهلاك عباده و إبادتهم، فإن هلكوا و ابيدوا فانّما هو لأجل ما اقترفوه من الذنوب، وعلى هذا فالظلم المنفي هو الإبادة و الإهلاك بلا سبب الاستحقاق. وأين هذا من خروج أفعال العباد على وجه الإطلاق من حيطة إرادته؟!

وأمّا الآية الثانية والثالثة فلا صلة لها بالإرادة التكوينية وإنّما تهدف إلى عدم أمره تشريعاً بالكفر والفساد، فوزان هاتين الآيتين وزان قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمُون﴾[٥]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ

---

١. غافر: ٣١.
٢. الزمر: ٧.
٣. البقره: ٢٠٥.
٤. غافر: ٣٠ ـ ٣١.
٥. الأعراف: ٢٨.

يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسانِ و إيتاءِ ذِي القُربىٰ وَيَنْهىٰ عَنِ الفَحشاءِ وَالمُنكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .[١]

وعلى ذلك فما يصدر من العباد من الكفر و الفساد فـإنّما يصدر بحوله سبحانه و قوّته وإرادته ومشيئته، لا بمعنى تعلّق مشيئته بكفر العباد وفسادهم في الأرض، مباشرة بل بكفرهم وفسادهم إذا قاموا بها عن اختيار، و مع ذلك فهو في تشريعه ينهى عباده عن الكفر والفساد.

روى فضيل بن يسار، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«شاء وأراد ولم يحبّ ولم يرض، شاء أن لا يكون شيء إلّا بعلمه وأراد مثل ذلك، ولم يحب أن يقال له: ثالث ثلاثة ولم يرض لعباده الكفر».[٢]

ويظهر ذلك ممّا نقله أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام، قال:

قلت لأبي عبد الله عليه السلام : شاء لهم الكفر وأراده؟ فقال: «نعم».

قلت: فأحبّ ذلك ورضيه؟ فقال: «لا».

قلت: شاء وأراد، مالم يحبّ ومالم يرض، قال: «هكذا خرج إلينا».[٣]

○ الشبهة الثالثة: العدل الإلهي والقضاء والقدر

إنّ البحث في القضاء والقدر رهن توضيح أمرين:

الأوّل: ما معنى القدر؟

---

١. النحل: ٩٠.

٢. توحيد الصدوق: ٣٣٩، باب المشية والإرادة، الحديث ٩.

٣. بحار الأنوار:٥/ ١٢١، باب القضاء والقدر، الحديث ٦٦.

الثاني: ما معنى القضاء؟

أمّا القدر بمعنى التقدير والتحديد، فكل ظاهرة طبيعية بل كلّ موجود إمكاني خلق على تقدير وتحديد خاص، ولا يوجد في عالم الكون شيء غير مقدّر ولا محدّد، وإليه يشير سبحانه بقوله: ﴿إنّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَر﴾ [١]. وقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيءٍ إِلاّ عِنْدنا خَزائِنُهُ وَمانُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ معَلُوم﴾ [٢].

فالموجودات من النبات إلى الإنسان محدّدة بالحدّ الذي نعبر عنه بالماهية، وهكذا الحال في الجمادات.

وأمّا القضاء وهو حتمية وجود الشيء بعد تقديره وتحديده،وذلك رهن وجود سببه التام الذي يلازم وجود المسبب على وجه القطع والبت،فقضاؤه سبحانه عبارة عن إضفاء الحتمية على وجود الشيء عند وجود علته التامة، قال سبحانه في مورد السماوات: ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَومَيْنِ وَ أَوحىٰ فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها﴾ [٣].

ويقول في حقّ الإنسان: ﴿هُوَ الّذي خَلَقَكُمْ مِن طِينٍ ثُمَّ قَضىٰ أَجَلاً﴾ [٤] أي حكم حكماً حتمياً بأنّ لوجود الشيء مدّة محدّدة لا يتجاوز عنها.

هذا هو معنى القضاء والقدر من غير فرق بين وجود الإنسان وأفعاله ووجود الجواهر وأعراضها،غير انّ الجميع قبل التقدير و القضاء مكتوب في كتاب عند الله سبحانه، و قد أشار إليه الكتاب العزيز في بعض الآيات: ﴿ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ ولا فِي أَنْفُسِكُمْ إلاّ في كِتابٍ مِنْ قَبلِ أَنْ نَبْرَأها إِنَّ ذٰلكَ على اللهِ

١. القمر: ٤٩.
٢. الحجر: ٢١.
٣. فصّلت: ١٢.
٤. الأنعام: ٢.

يَسيرٍ ﴾.[١]

وفي آية أُخرى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلاّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي البَرِّ وَ البَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاّ يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إلاّ في كتابٍ مُبين﴾.[٢]

وفي آية ثالثة: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَماتَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَلاتَضَعُ إلاّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاّ في كِتابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلى اللهِ يَسيرٍ ﴾.[٣]

إذا وقفت على هذه الأُمور، فاعلم أنّه ربما يتخذ القضاء والقدر الذي نعبر عنهما بالمصير ذريعة للقول بالجبر، وبالتالي أمراً مخالفاً للعدل بحجّة انّ الله سبحانه قدّر وجود كلّ شيء (القدر) أوّلاً، و حكم على وجوده وتحقّقه حكماً باتاً(القضاء) ثانياً ، و كتب كلّ ما يوجد في الكون في كتاب قبل وجودها ثالثاً.

وعلى ذلك فلا محيص من الفعل والعمل، وإلاّ يلزم خلاف تقديره وقضائه أو خلاف المكتوب في الكتاب المبين.

أقول: إنّ هذه الشبهة لم تزل عالقة بالأذهان منذ قرون، ولكن تندفع هذه الشبهة من خلال بيان ما للقضاء والقدر من المعاني، فنقول:

إنّ التقدير والقضاء على أصناف ثلاثة:

أ: القضاء و القدر: السنن الكونية.

ب: القضاء والقدر: التكوينيّان.

---

١. الحديد:٢٢. ٢. الأنعام: ٥٩. ٣. فاطر: ١١.

ج: القضاء والقدر: علمه السابق و مشيئته النافذة.

و إليك البحث في كلّ واحد منها:

أ. القضاء والقدر: السنن الكونيّة

القضاء والقدر في السنن الكونيَّة عبارة عن النظام السائد في العالم و الإنسان،فالله سبحانه قدّر وحتم احراق النار وتبريد الماء إلى غير ذلك من السنن التي كشفها الإنسان طيلة وجوده على هذه البسيطة، فكلها من مظاهر القضاء والقدر، فكلّ من اعتنى بصحته فالمقدَّر في حقّه هو السلامة، و من كان على خلافه فالمقضي في حقّه هو المرض، وكذا الفارُّ من تحت جدار على وشك الانقضاض ، كتبت له النجاة، و الواقف تحته كتب عليه الموت إلى غير ذلك، فهذه السنن الكونية التي جعلها الله دعائم يقوم عليها هذا النظام، وقد وقف على بعضها الإنسان عبر حياته، وهناك سنن كونية ربما لا يقف عليها الإنسان إلاّ عن طريق الوحي، قال سبحانه حاكياً عن شيخ الأنبياء نوح عليه السلام :

١. ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفّاراً* يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً* وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنهاراً﴾.[1]

فترى أنّ نوحاً عليه السلام يجعل الاستغفار سبباً مؤثراً في نزول المطر وكثرة الأموال وجريان الأنهار، ووفرة الأولاد. و إنكار تأثير الاستغفار في هذه الكائنات أشبه بكلمات الملاحدة. وموقف الاستغفار هنا موقف العلّة التامة أو المقتضي بالنسبة إليها ، والآية تهدف إلى أنّ الرجوع إلى الله و إقامة دينه وأحكامه يسوق المجتمع إلى النظم والعدل و القسط، و ذلك لأنَّ في ظلّه تنصبّ القُوىٰ في بناء المجتمع

---

١. نوح: ١٠ ـ ١٢.

على أساس صحيح، فتصرف القوىٰ في العمران والـزراعة وسائر مجالات المصالح الاقتصادية العامة، كما أنّ العمل على خلاف هذه السنّة، وهو رجوع المجتمع عن الله و عن الطهارة في القلب والعمل، ينتج خلاف ذلك.

و للمجتمع الخيار في التمسّك بأهـداب أيّ من السُّنّتَين، فالكلّ قضاء الله وتقديره.

٢. قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنـا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُون﴾ .[١]

٣. قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حَتّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ .[٢]

٤. قال سبحانه: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَـمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلـىٰ قَومٍ حَتّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ .[٣]

والتقرير في مورد هذه الآيات الثلاث مثله في الآية السابقة عليها.

٥. وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيـدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَديد﴾ .[٤]

ترى أنّ الآية تتكفّل ببيان كلا طرفي السنّة الإلهية إيجاباً وسلباً، وتُبيّن النتيجة المترتبـة على كـلّ واحـد منهما. والكـلّ قضــاؤه وتقـديـره، والخيـار في سلـوكهما للمجتمع.

٦. وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَـلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْـهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب﴾ .[٥]

---

١. الأعراف:٩٦.
٢. الرعد:١١.
٣. الأنفال: ٥٣.
٤. إبراهيم:٧.
٥. الطلاق:٢ـ٣.

٧. وقال سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخرةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاء﴾ .[١]

فالمجتمع المؤمن بالله وكتابه وسنّة رسوله إيماناً راسخاً يثبّته الله سبحانه في الحياة الدنيا وفي الآخرة، كما أنّ الكافر بالله سبحانه يُخذله الله سبحانه ولا يوفقه إلى شيء من مراتب معرفته وهدايته. ولأجل ذلك يُرتِّب على تلك الآية، قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَومَهُمْ دارَ الْبَوارِ * جهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وبِئسَ القَرار﴾ .[٢]

٨. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُون﴾ .[٣]

فالصالحون لأجل تحلّيهم بالصلاح في العقيدة والعمل، يغلبون الظالمين وتكون السيادة لهم، والذلّة والخذلان لمخالفيهم.

٩. وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ .[٤]

فالاستخلاف في الأرض نتيجة الإيمان بالله، والعمل الصالح، وإقامة دينه على وجه التمام، ويترتب عليه ـ وراء الاستخلاف ـ ما ذكر في الآية من التمكين وتبديل الخوف بالأمن.

---

١. إبراهيم:٢٧.
٢. إبراهيم:٢٨ـ٢٩.
٣. الأنبياء: ١٠٥.
٤. النور:٥٥.

١٠. وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها﴾ .[١]

والآيات الواردة حول الأمر بالسير في الأرض والاعتبار بما جرى على الأُمم السالفة لأجل عتوّهم وتكذيبهم رسل الله سبحانه، كثيرة في القرآن الكريم تبيِّن سنّته السائدة في الأُمم جمعاء.

١١. وقال سبحانه : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ المُكَذِّبِين﴾ .[٢]

١٢. وقال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرقاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم﴾ .[٣]

١٣. وقال سبحانه: ﴿ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ إِلاّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلاد* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ* وَكَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصحابُ النّار﴾.[٤]

والآية من أثبت الآيات لسنّته تعالى في الذين كفروا، فلا يصلح للمؤمن أن يُغرّه تقلّبهم في البلاد، وعليه أن ينظر في عاقبة أمرهم كقوم نوح والأحزاب من بعدهم، حتى يقف على أنّ للباطل جولة وللحقّ دولة، وانّ مردّ الكافرين إلى الهلاك والدمار.

١٤. وقال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ

---

١. محمد: ١٠.
٢. آل عمران: ١٣٧.
٣. الأنفال: ٢٩.
٤. غافر: ٤ ـ ٥.

أَهْدىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاّ نُفُوراً* اسْتِكْباراً في الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلاّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ سُنَّتَ الأَوّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ .[1]

هذه نبذة من السنن الإلهيّة السائدة في الفرد والمجتمع. وفي وسع الباحث أن يتدبر في آيات الكتاب العزيز حتى يقف على المزيد من سننه تعالى وقوانينه، ثمّ يرجع إلى تاريخ الأُمم وأحوالها فيُصدِّق قوله سبحانه: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ .

هذا كلّه حول القضاء والقدر بمعنى السنن الكونية، وإليك البحث في المعنى الثاني.

○ ب: القضاء والقدر التكوينيّان

قد علمت أنّ وجود كلّ شيء رهن تقديره و تحديده أوّلاً، ثمّ وصول الشيء حسب اجتماع أجزاء علته إلى حد، يكون وجوده ضرورياً وعدمه ممتنعاً بحيث إذا نسب إلى علته يوصف بأنّه ضروري الوجود،ولأجل ذلك ترى أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام يفسرون القدر بالهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء، والقضاء بالإبرام وإقامة العين.[2]

وعلى ذلك فلا يوجد في صفحة الوجود الإمكاني إلاّ في ظل هذين الأمرين، ومن المعلوم انّ التقدير والقضاء بالمعنى السابق لا يتخذ ذريعة إلاّ في مورد فعل الإنسان حيث يتصور انّ وجوب وجوده ينافي الاختيار وبالتالي ينافي

---

١. فاطر:٤٢ـ٤٣.

٢. الكافي:١/ ١٥٨.

العدل.

لكن الإجابة عنه واضحة وهي انّ المقضيّ وجوده من أفعاله على قسمين :

قسم فرض عليه صدوره عنه اضطراراً كالأعمال التي يقوم بها جهاز الهضم، وهذا النوع من الفعل وإن كان ضروري الوجود خارجاً عن الاختيار، لكنّه ليس ملاكاً للثواب والعقاب.

و قسم منه قضي عليه أن يصدر عنه بالاختيار، فالله سبحانه قدّر فعله وقضى عليه بالوجود لكن مسبوقاً باختياره.

وبذلك يصبح القضاء والقدر مؤكداً للاختيار لا ذريعة للجبر.

○ج: القضاء والقدر علمه السابق ومشيئته النافذة

القضاء والقدر بهذا المعنى ليس شيئاً إلاّ تعلق علمه سبحانه بأفعال الإنسان ووقوعها في إطار مشيئته فربما يتخذ علمه السابق ومشيئته النافذة ذريعة للجبر، وبالتالي نفياً للعدل، وبما انّا أشبعنا الكلام في ذلك عند البحث في علمه السابق ومشيئته النافذة فلا نرجع إليه.

الفصل السادس

العدل الإلهي
و
المصائب والبلايا

المصائب والبلايا في حياة الإنسان من المسائل الشائكة التي شغلت بال المتكلمين والحكماء، فراحوا يبحثون عنها في الأبواب الأربعة التالية:

١. التوحيد في الخالقية.

٢. النظام الأحسن.

٣. حكمته سبحانه.

٤. عدله سبحانه.

زعموا أنَّ وجود البلايا و المصائب تخلُّ بالتوحيد في الخالقيَّة لأنَّه خير محض فكيف صار مصدراً للشر المطلق؟!، ربما زلّت أقدام بعضهم إلى الثنوية، وزعموا انّ خالق الخير غير خالق الشر وانّ هناك خالقين مختلفين

كما زعموا انّ المصائب والبلايا تخل بالنظام الأحسن الذي يجب أن يخلو عن كلّ شر.

كما انّها أيضاً لا تلائم حكمته سبحانه فإذا كان حكيماً فما معنى قتل

النفوس بالنوازل والحوادث.

وأخيراً انّها تضاد عدله سبحانه.

وعلى كلّ تقدير فبما انّ هذه المسألة من المسائل العويصة لها صلة بالأبواب الأربعة المذكورة سالفاً، و وقعت محطّ اهتمام الحكماء الإسلاميين، و بما انّ البحوث المذكورة في هذا القسم من الكتاب تتمحور حول عدله سبحانه فنحن نتناول هذه المسألة من تلك الزاوية فقط. ولأجل إيضاح الإشكال نأتي بما يلي:

إنّ البحث في المقام يدور حول محاور ثلاثة:

الأوّل: البلايا والمصائب كالزلازل والسيول والأعاصير.

الثاني: اختلاف الناس في المواهب العقلية والاستعدادات.

الثالث: الفواصل الطبقية الهائلة بين الناس.

هذه الأُمور وأمثالها وقعت ذريعة لنفي عدله سبحانه، فلنتناول كلّ واحد من هذه المحاور بالبحث.

الأوّل: البلايا والمصائب والعدل الإلهي

إنّ من يظن انّ البلايا والمصائب تخالف عدله فإنّما ينظر إليها من منظار ضيّق محدود، فلو نظر إليها في إطار النظام الكوني العام، لأذعن انّها خير برمّتها، أو انّها خير يلازم شراً قليلاً، وتكون المسألة كما يصفه الشاعر في البيت التالي:

ما ليس موزوناً لبعض من نغم ... ففي نظام الكلّ كل منتظم

إنّ من ينظر إلى هذه الظواهر من منظار خاص ويتجاهل غير نفسه في العالم، ففي نظره تتجلى هذه الحوادث أمامه شرّاً وبليّة، وأمّا إذا نظر إليها من منظار خارج عن إطار الإنانية والمصالح الشخصية الضيّقة، تنقلب هذه الحوادث

عنده إلى الخير والصلاح ، وتكتسي ثوبَ العدل، ولبيان ذلك نضرب مثالاً:

إنّ الإنسان يرى أنّ الطوفان الجارف يكتسح مزرعته والسيل العارم يهدم منزله، والزلزلة الشديدة تقتلع بنيانه، ولأجل ذلك يصفها بالبلاء، دون أن يرى ما تنطوي عليه هذه الحوادث والظواهر من نتائج إيجابية في مجالات أُخرى من الحياة البشرية.

وما أشبه حال هذا الإنسان في مثل هذه الرؤية المحدودة بعابر يرى جرّافة تحفر الأرض و تهدم بناءً وتثير الغبار والتراب في الهواء، فيقضي من فوره بأنّه ضارّ و سيءّ، ولكن المسكين لا يدري بأنّ ذلك يتم تمهيداً لبناء مستشفى كبير يستقبل المرضى ويعالج المصابين ويهيّئ للمحتاجين للعلاج، وسائل المعالجة والتمريض ولو وقف على تلك الأهداف النبيلة لقضىٰ بغير ما قضىٰ، ولوصف ذلك التهديم بأنّه خير.

إذا علمت ذلك، فنحن نذكر مثالاً من نفس ما نحن بصدده.

إذا هبّت عاصفة هوجاء على السواحل، فبما أنها تقطع الأشجار و تدمّر المنازل القريبة من الساحل، حينها توصف بالشرّ والبلية، ولكنّها من جهة أُخرى خير محض حيث توجب حركة السفن الشراعية المتوقفة في عرض البحر بسبب سكون الرياح وبذلك تنقذ حياة المئات من ركّابها اليائسين من النجاة.

إنّ هذه العاصفة وإن كان يُكمن فيها الشر لكنها في نفس الوقت وسيلة فعّالة في عملية تلقيح الأزهار، و إثارة السحب للمطر، وتبيد الأدخنة الضارة المتصاعدة من فوهات المصانع و المعامل، إلى غير ذلك من الآثار المفيدة لهبوب الرياح التي تتضاءل عندها بعض الآثار السيئة.

إنّ السبب لوصف بعض الحوادث بالشرور والبلايا هو ضيق علم الإنسان

وضآلته ولو وقف على أسرارها التي ربما تظهر بعد سنين لرجع عن قضائه، ويُرتّل قوله سبحانه: ﴿رَبّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً سُبْحانَكَ﴾ .[١] ولأذعن بقوله سبحانه : ﴿وما أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاّ قَليلاً﴾ .[٢]

○ الآثار التربوية للبلايا والمصائب

إنّ للبلايا و المصائب آثاراً تربوية تُضفي على العمل وصفَ الخير الكثير في مقابل الشر القليل، وهذه الآثار عبارة عمّا يلي:

أ: تفجير الطاقات:

إنّ البلايا والمصائب خير وسيلة لتفجير الطاقات وتقدم العلوم ورقي الحياة، فانّ الحضارات لم تزدهر إلاّ في أجواء الحروب والصراعات والمنافسات، ففي مثل هذه الظروف تتفتح القابليات إلى جبران ما فات وتتميم ما نقص. فإذا لم يتعرض الإنسان إلى ضروب من المحن فانّ طاقاته تبقى كامنة ،وإنّما تتفتح في خضمِّ المصائب والشدائد. وإلى هذه الحقيقة يشير قوله سبحانه: ﴿فَعَسىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [٣]

ب: المصائب والبلايا جرس إنذار

كلّما ازداد الإنسان توغّلاً في اللذائذ والنعم ازداد ابتعاداً عن الجوانب المعنوية، وهذه حقيقة يلمسها كلّ إنسان في حياته فلابدّ من انتباه الإنسان من

---

١. آل عمران: ١٩١.　　٢. الإسراء: ٨٥.

٣. النساء: ١٩.

الغفلة، من خلال جرس إنـذار يذكّر ويوقظ فطرته وينبّهه مـن غفلته، وليس هو إلاّ بعـض الحوادث التـي تقطع وتيرة الحيـاة الـرغيـدة، حتى يتخلّى عـن غـروره ويخفّف مـن حدة طغيانـه، وإلى هذا الجانـب يشير قوله سبحـانه: ﴿إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَىٰ * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ .[١]

وبذلك يعلّل قولـه سبحانه نزول الحوادث، ويقول: ﴿وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاّ أَخَذْنا أَهْلَها بِالبَأْساءِ وَالضَّرّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ .[٢]

إلى غير ذلك من الآيـات التي تشير إلى أن الهدف من وراء نزول البـلايا هو تخلّي الإنسان عن غروره.

ج: تقاعس الإنسان عن تحمل مسؤوليته

إنّ مـا يسمّيـه الإنسان بـالبـلايـا والشرور لم يكتب عليهـا الشرُّ على وجـه الإطلاق بل تتّبـع الظروف، فالسيل الجارف يُعد شراً في البلاد المتخلّفـة عن ركب الحضارة، و أمّـا في البلاد المتقدمـة فيعد خيراً، لأنّها تقـوم بمشاريع بنـاء السدود بغية جمع مياه تلك السيول واستثمارها في انتاج الطاقة الكهربائية، ولذلك قلنا إنّه لم يكتب على السيل أنّه شرٌّ أو خير و انّما هو يتّبع همة الإنسـان وقيامه بمسؤوليته في إعمار البلاد.

وهكذا الزلازل الأرضية فقد تُسبّب أضراراً فادحة في البلاد النائية المتخلّفة وتؤدّي إلى إزهاق أرواح كثيرة، وهـذا بخلاف البلاد المتطورة فقـد اتخذت التدابير اللازمة للوقـاية من دمار الزلازل من خلال تشييـد المدن والقرى على دعائم متينة

١. العلق: ٦ ـ ٧.
٢. الأعراف: ٩٤.

لا تتأثر بالزلازل إلاّ القليل.

وبذلك تبيَّن انّ ما يسميه البشر بالبلايا و المصائب ليس على إطلاقها بلاءً بل لها فوائد وآثار اجتماعية وأخلاقية مهمة.

وإليك الكلام في المحور الثاني.

○ الثاني: اختلاف الناس في المواهب العقلية والاستعدادت

إنّ الاختلاف في الاستعدادات أساس النظام وبقاء الحضارة، فلو خلق الناس على استعداد واحد لانفصم النظام وتقوّضت أركانه.

يقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا فإذا استووا هلكوا».[1]

فالمجتمع الإنساني يزهو باستعدادات مختلفة كلّ يتحمل مسؤولية في المجتمع، فمقتضى الحكمة خلق الناس بمواهب مختلفة كي يقوم كلّ حسب استعداده، و مثل هذا يؤكد الحكمة ولا ينافي العدل.

وإنّما يلزم الجور إذا كانت هناك طوائف متنعمة بكافة المواهب، وطوائف أُخرى محرومة منها، ولكن الواقع خلاف ذلك.

○ الثالث: الفواصل الطبقية بين الناس

لا شكّ انّ المجتمع الإنساني يضمّ في طياته طبقات اجتماعية مختلفه من حيث الفقر والغنىٰ، فهناك طبقة تهلكها التخمة،وطبقة أُخرى تموت جوعاً، وقد

١. أمالي الصدوق: ٢٦٧.

عدّ ذلك مظهراً لخلاف عدله. ولكن الحقّ غير ذلك، فالإنسان الجاهل ينسب تلك المحنة إلى خالق الكون، مع أنّ الصواب أن ينسبه إلى نفسه ونتيجة عمله، فانّ الأنظمة الجائرة هي التي سبَّبت تلك المحن وأوجدت تلك الكوارث، ولو كانت هناك أنظمة قائمة على أُسس إلهية لما تعرض البشر لها.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديث: «إنّ الله عزّ وجلّ فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم، ولو علم أنّ ذلك لا يسعهم لزادهم إنّهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عزّوجلّ [1]، ولكن أوتوا مِن منع مَن منعهم حقّهم لا ممّا فرض الله لهم، ولو أنّ النّاس أدّوا حقوقهم لكانوا عايشين بخير». [2]

إلى هنا خرجنا بهذه النتيجة انّ الظواهر غير المتزنة حسب النظرة السطحية متزنة بالقياس إلى مجموع النظام ولها آثار اجتماعية وتربوية هامة قد بسطنا الكلام فيها في بعض مسفوراتنا.

---

١. اي لم يؤتوا عدم السعة من قبل فريضة اللّه بل مِن منع مَن منعهم.

٢. الوسائل: ٦، الباب ١ من أبواب ماتجب فيه الزكاة، الحديث ١.

الفصل السابع

العدل الإلهي
والعقوبة الأُخروية

لقد وقعت العقوبات الأُخروية ذريعة لإنكار عدله، حيث يقولون ما هو الغرض من العقوبة، فهل هو التشفّي الذي جاء في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً﴾[1] والله سبحانه منزّه من هذا الغرض لاستلزامه طروء الانفعال على ذاته.

أو الغرض من العقوبة الأُخروية هو اعتبار الآخرين، الذي يشير إليه سبحانه في قوله: ﴿الزّانِيَةُ والزّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَ الْيَوْمِ الآخِرِ ولْيَشْهَدْ عَذابَهُمَا طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .[2]

ومن المعلوم أنّ تلك الغاية تختص بالدنيا التي هي دار التكليف ولا توجد في دار الجزاء، أعني: الآخرة .

والجواب: انّ السؤال عن الغاية وانّها هل هي التشفّي أو اعتبار غيره، إنّما

---

١. الإسراء: ٣٣.
٢. النور: ٢.

يتوجه إلى العقوبات المفروضة عن طريق التقنين والتشريع، فالتعذيب في ذلك المجال رهن إحدى الغايتين: **التشفّي أو الاعتبار.**

وأ مّا إذا كانت العقوبة أثراً وضعيّاً للعمل فيسقط السؤال، لأنّ هناك ضرورة وجودية بين وجود المجرم والعقوبة التي تلابس وجودَه في الحياة الأُخروية، فعند ذلك لا يصحّ السؤال عن حكمة التعذيب، وإنّما هي تتوجه إلى التعذيب الذي يمكن التفكيك بينه و بين المجرم كالعقوبات الوضعية.

وأمّا إذا كانت العقوبة من لوازم وجود الإنسان الأُخروي، فالسؤال عن التعذيب، ساقط جداً.

توضيح ذلك : انّ الإنسان إنّما يحشر بذاته وعمله، وعمله لازم وجوده وكلّ ما اقترف من الأفعال فله وجود دنيوي، يتجلّىٰ باسم الكذب والنميمة،وله وجود أُخروي يتجلّىٰ بالوجود المناسب له، فهكذا أعماله الصالحة فلها صورة دنيوية، باسم الأذكار، وصورة أُخروية تناسب وجود الإنسان في هذا الظرف.

فالصوم هنا إمساك، وفي الحياة الأُخروية جُنّة من النار، وهكذا سائر الأعمال من صالحها وطالحها، فلها وجودان : دنيوي وأُخروي ، وإليك ما يدلّ على ذلك في القرآن الكريم.

يقول سبحانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَموالَ اليَتامىٰ ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِمْ ناراً**﴾ .[١]

ويقول سبحانه: ﴿**وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيامة**﴾ .[٢]

---

١. النساء: ١٠.   ٢. آل عمران: ١٨٠.

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُحْمىٰ عَلَيْها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوىٰ بِها جِباهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هٰذا ما كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُون﴾ .[١]

علىٰ أنّ تعذيب المجرم وإثابة المحسن مظهر من مظاهر عدله، فلو لم يعاقب المجرم تلزم تسوية المؤمن والكافر، يقول سبحانه: ﴿أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمينَ كالمُجْرِمينَ * ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُون﴾ [٢]

ويقول أيضاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً و أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرجَعُون﴾ .[٣]

○ شبهة عدم التعادل بين الجريمة و العقوبة

وربما يقال كيف يصحّ الخلود الدائم مع كون الذنب منقطعاً، وهل هذا إلاّ نقض للمساواة المفروضة بين الجريمة و العقوبة ؟!

والجواب عن الشبهة بوجهين:

الأوّل: انّه لم يدل دليل على وجوب المساواة بين الجرم والعقوبة من حيث الكمّية، بل المراد المساواة في الكيفية أي عظمة الجرم، فربما يكون الجرم آناً واحداً وتتبعه عقوبة دائمة، كما إذا قتل إنساناً وحكم عليه بالحبس المؤبد.

فالإنسان المقترف للذنوب وإن خالف ربه في زمن محدد، لكن آثار تلك الذنوب ربما تنتشر في العالم.

الثاني: قد عرفت أنّ العذاب الأُخروي تجسيد للعمل الدنيوي وهو المسؤول عمّا اقترفه.

وقد عرّفه سبحانه نتيجة عمله في الآخرة وانّ أعماله المقطعية سوف تورث

---

١. التوبة: ٣٥.
٢. القلم: ٣٥ـ ٣٦.
٣. المؤمنون: ١١٥.

حسرة طويلة أو دائمـة، وأنّ عمله هنا سيتجسَّد لـه في الآخرة، أشواكاً تـؤذيه أو وروداً تطيبه، وقـد أقدم على العمل عـن علم واختيار، فلو كـان هناك لوم فـاللوم متوجه إليه، قال سبحانه حاكياًعن الشيطان: ﴿وَقالَ الشَّيْطانُ لَمّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فلاَ تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنـا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ .[١]

و فيما مرّ مـن الآيات التي تعـد الجزاء الأُخروي حرثـاً للإنسان تـأييد لهذا النظـر، على أنّ من المحتمـل أنّ الخلود في العـذاب مختـص بما إذا بطل استعـداد الرحمة وإمكان الإفاضـة، قال تعالى: ﴿بَلىٰ من كَسَبَ سَيِّئَةً وأحـاطَتْ بِهِ خَطِيئَتهُ فَأُولئِكَ أَصحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُون﴾ .[٢]

ولعلّ المراد من قوله: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ إحاطتها به إحـاطة توجب زوال أيّة قابلية واستعداد لنزول الرحمة، والخروج عن النقمة.

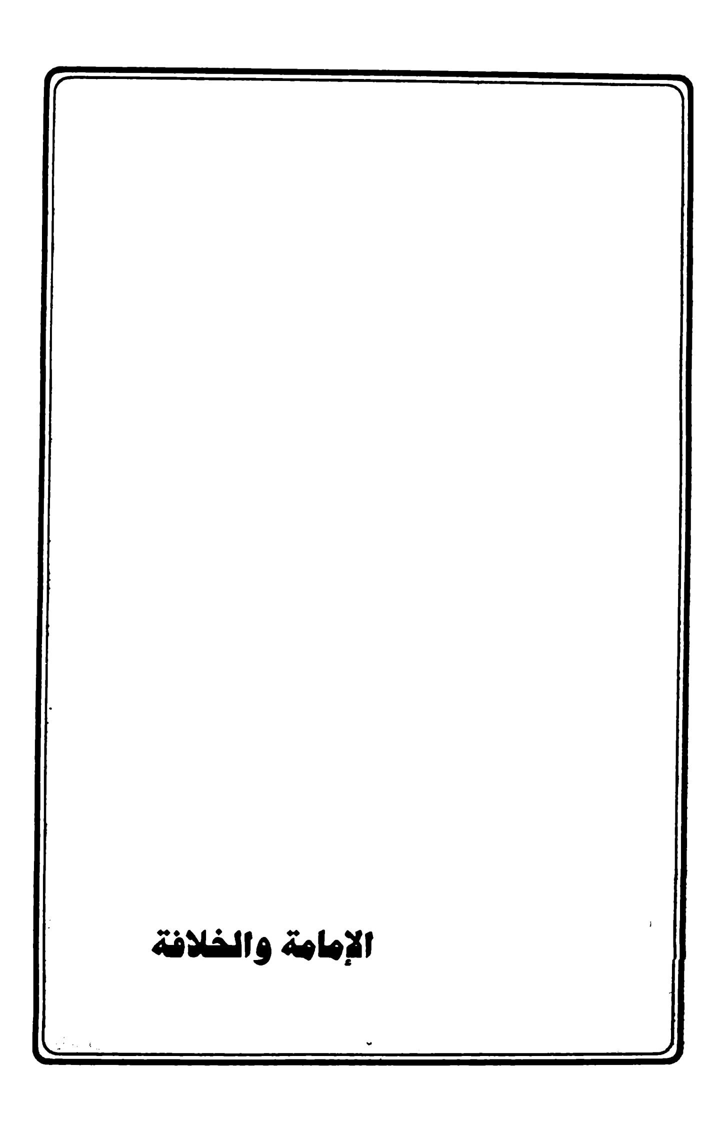
وكيف كان فتظهر صحّة ما ذكرنا إذا أمعنت النظر فيما تقدم في الجواب عن السؤال الأوّل وهو أنّ الجزاء إمّا مخلوق للنفس أو يلازم وجود الإنسان وفي مثله لا تجري شبهة التعادل بين الجريمة والعقوبة كما هو واضح.

تمّ الكلام في الأصل الأوّل من أُصول المذهب، أعني: العدل الإلهي وركّزنا البحث فيه على الموضوعات التي تطرقت إليها الآيات القرآنية. ومن أراد التبسيط فليرجع إلى الكتب المفصّلة في هذا الصدد.

ويليه البحث في الأصل الثاني وهو الإمامة والخلافة في الكتاب العزيز.

---

١. إبراهيم: ٢٢.
٢. البقرة: ٨١.



الإمامة والخلافة

الإمامة والخلافة

قد تقدّم في صدر الكتاب انّ هناك أصلين انفرد بهما مذهب الشيعة الإمامية، ولذلك يُعدّان من أُصول المذهب، دون أُصول الدين، لأنّ الثاني عبارة عن الأُصول التي يشترك فيها جميع المسلمين بخلاف أُصول المذهب، فانّها من خصوصيات مذهب دون مذهب آخر، وقد تقدّم انّ التوحيد والمعاد والنبوة العامة والخاصة ممّا اتفقت عليه عامة المسلمين دون العدل والإمامة، فالأوّل قالت به المعتزلة و الشيعة، والثاني انفردت به الشيعةوبالأخص الإمامية منهم، وقد فرغنا عن بيان العدل ودلائله و شبهاته و حلولها، فحان البحث في الأصل الثاني وهو الإمامة والخلافة.

وليُعلم انّ أصل الإمامة ممّا اتّفقت عليه كلمة المسلمين إلاّ بعض الفرق الشاذة، فالجميع على لزوم وجود إمام يقود الأُمة إلى الصلاح والفلاح، ويقوم بإدارة البلاد على أفضل وجه، ويُطبّق الشريعة على صعيد الحياة إلى غير ذلك ممّا كان النبي ﷺ يقوم به. وهذا ممّا لا خلاف فيه بين المسلمين.

إنّما الكلام في أنّ تعيين النبي ﷺ ونصبه لهذا المنصب، هل هو بيد الله سبحانه وبذلك يُعَدُّ منصب الإمامة كالنبوة، منصباً إلهياً؟ أو بيد الأُمّة أو بعضهم فتصير الإمامة منصباً اجتماعياً كسائر المناصب الاجتماعية أو السياسية التي يقوم

به آحاد الأُمّة أو طبقة منهم؟

فالإمامية عن بكرة أبيهم على القول الأوّل، حيث يرون انّ نصب الإمام بيد الله تبارك وتعالى ويسوقون على ذلك دلائل عقليـة وتاريخية، كما أنّ أهل السنة على القول الثاني، وبذلك تجاذب تيّاران مختلفان الأُمّة الإسلامية .

بما انّ أهل السنة يرون الإمامة منصباً اجتماعياً أو سيـاسياً، قالوا بأنّ الإمامة من فـروع الديـن لا من أُصـوله، وهـي من أغصـان الأمر بـالمعروف والنهـي عن المنكر،وذلـك لأنّ تحقيق ذلك الأصل في المجتمـع، أي إشاعة المعـروف و تحجيم دور المنكـر يتوقـف على وجود إمـام عادل مبسـوط اليد يتمتـع بنفوذ على نطـاق واسع، ولذلك يجب على الأُمّـة نصب إمام بغية تحقّق الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر،وإليك سرد كلماتهم في هذا المجال:

١ . يقول الإيجي (المتوفّى عام ٧٥٧هـ) في كتاب «المواقف» :وهي عندنا من الفروع، وإنّما ذكرناها في علم الكلام تأسّياً بمن قبلنا.[١]

٢ . يقـول سعـد الـديـن التفتـازاني (المتـوفّى عـام ٧٩١هــ): لا نـزاع في أنّ مباحث الإمامة بعلم الفروع أليق لرجوعها إلى أنّ القيام بالإمامة ونصب الإمام الموصوف بالصفـات المخصوصة من فـروض الكفايات، ولا خفاء انّ ذلـك من الأحكام العملية دون الاعتقادية.[٢]

وعلى هذا فالإمامة أمر لا يناط به الإيمان والكفر، بل موقفه كسائر الأحكام الشرعية الفرعيـة التي لا يكفر المنكر إلاّ إذا استلـزم إنكارهُ إنكارَ الرسـالة والنبوة لنبينا ﷺ. فلا فرق بين مسألة الإمامـة، ومسألة المسح على الخفين حيث أصبحت

---

١ . المواقف:٣٩٥.

٢ . شرح المقاصد:٢/ ٢٧١.

مسألة خلافية بين أهل السنّة.

ولكن ـ يا للأسف ـ انّهم ربما يتعاملون مع الإمامة والخلافة بعد النبي ﷺ بغير هذا النحو، فربما و يُكفرون أو يفسقون من لم يعترف بإمامة الخلفاء عن اجتهاد. ولذلك نرى أنّ إمام الحنابلة (المتوفّى عام ٢٤١هـ) يذكر خلافة الخلفاء الأربعة في عداد المسائل العقائدية[١]، و تبعه أبو جعفر الطحاوي (المتوفّى عام ٣٢١هـ) في «العقيدة الطحاوية»[٢]، و قد تبعهما أكثر من جاء بعدهم كالأشعري (المتوفّى عام ٣٢٤هـ) في كتاب «الإبانة»[٣]، وعبد القاهر البغدادي (المتوفّى عام ٤٢٩هـ) في «الفرق بين الفرق»[٤]، كلّ ذلك تبعاً لإمام الأشاعرة أو الشيخ الطحاوي الذي أصبح الأخير إماماً للعقيدة في الديار المصرية.

والحقّ هو ما صرّح به عضد الدين الإيجي والتفتازاني من أنّ الإمامة من فروع الدين لا من أُصوله، و انّ النصب لتحقيق غاية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و لا صلة له بأُصول الدين، وقد كان النبي ﷺ يقبَل إسلام من أسلم واعترف بالشهادتين من دون أن يسأله عن واقع الإمامة، وانّه هل هو منصب إلهي أو اجتماعي، ومن دون أن يعلمه بلزوم اجتماع الأُمّة بعد رحيله على نصب إمام لهم، و لم يكن أي أثر من تلك المباحث في عصر النبي ﷺ فلذلك لم يتلق أهل السنّة الإمامة والخلافة بعد النبي ﷺ أمراً أصيلاً من صميم الدين.

نعم أوّل من أدخل خلافة الشيخين في أُصول الدين هو داهية العرب عمرو

---

١. كتاب السنّة:٤٩.

٢. شرح العقيدة الطحاوية:٤٧١.

٣. الابانة في أُصول الديانة: ١٩٠، الباب ١٦.

٤. الفرق بين الفرق: ٣٥٠.

ابن العاص عند اجتماعه مع أبي موسى الأشعري في دومة الجندل للتشاور في مسألة التحكيم المعروفة، ولم يكن هدفه من عدّ خلافة الخليفتين من أُصول الإسلام إلاّ الإطاحة بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

حيث تقدم عمرو بن العاص بالكلام، وقال للكاتب: اكتب، فكتب الشهادة بالتوحيد والرسالة، ثمّ قال للكاتب: ونشهد انّ أبا بكر خليفة رسول الله، عمل بكتاب الله وسنّة رسول الله حتى قبضه الله إليه،وقد أدّى الحق الذي عليه...[١]

فخرجنا بالنتيجة التالية: انّ منصب الإمامة عندهم منصب اجتماعي يُشبه منصبَ رئاسة الجمهورية في الوقت الحاضر، أو منصب رئاسة الوزراء في الحكومات الملكية أو ما يشبه ذلك،ولذلك لا يشترط فيه سوى الكفاءة لإدارة البلاد. ولا ينعزل بالفسق و الظلم ولا بأكبر من ذلك، و ما هذا إلاّ لأنّه منصب اجتماعي، وما أكثر الظلم والفسق في أوساط الأمراء و رؤساء الجمهور، وإن كنت في شكّ من ذلك فاقرأ ما كتبه عظيم الأشاعرة أبوبكر الباقلاني وغيره.

قال الباقلاني(المتوفّى عام ٤٠٣هـ): لا ينخلع الإمام بفسقه وظلمه بغصب الأموال، وضرب الأبشار، وتناول النفوس المحرمة،وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، ولا يجب الخروج عليه بل يجب وعظه وتخويفه وترك طاعته في شيء ممّا يدعو إليه من معاصي الله.[٢]

وليس الباقلاني نسيج وحده في تلك الفكرة، بل هي فكرة سادت عبر القرون، تراها في كلمات الآخرين،يقول التفتازاني:

---

١. مروج الذهب:٢/ ٣٩٧.

٢. التمهيد:١٨١.

ولا ينعزل الإمام بالفسق أو بالخروج عن طاعة الله تعالى والجور، لأنّه قد ظهر الفسق وانتشر الجور من الأئمّة و الأُمراء بعد الخلفاء الراشدين،والسلف كانوا ينقادون لهم ويقيمون الجُمَع والأعياد بإذنهم، ولا يرون الخروج عليهم،ونقل عن كتب الشافعية انّ القاضي ينعزل بالفسق، بخلاف الإمام، والفرق انّ في انعزاله ووجوب نصب غيره، إثارة الفتن لما له من الشوكة بخلاف القاضي.[1]

هذا كلّه عند أئمّة السنة،وأمّا الشيعة فماهيّة الإمامة عندهم،عبارة عن الرئاسة العامة في أُمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ.

و بعبارة أُخرى: الإمامة هي استمرار وظائف النبوة (لا نفس النبوة لانقطاعها برحيل النبي ﷺ)، فيقوم الإمام بنفس ما كان النبي ﷺ يقوم به، فالنبوة ونزول الوحي منقطعة لكن الوظائف الملقاة على عاتق النبي ﷺ كلّها على عاتق الإمام، فهو يقوم وراء إدارة البلاد و عمرانها و توزيع الأرزاق وتأمين السبل والطرق والجهاد في سبيل الله لإشاعة الإسلام وكسر الموانع و العوائق.

فهو يقوم مع هذه الوظائف بوظائف أُخرىٰ ، تطلب لنفسها صلاحيات إلهية وتربية سماوية، وتلك الوظائف عبارة عن:

١. بيان الأحكام الإسلامية من كليات وجزئيات.

٢. تفسير الكتاب العزيز وشرح مقاصده، وبيان أهدافه، وكشف رموزه وأسراره.

٣. تربية المسلمين، وتهذيبهم وتزكيتهم وتخليص نفوسهم من شوائب الشرك والكفر والجاهلية.

---

١. شرح العقائد النسفية: ١٨٥ـ ١٨٦، ط اسلامبول.

٤. الردّ على الشبهات والتشكيكات التي كان يُلقيها أعداء الإسلام ويوجهونها ضد الدعوة الإسلامية.

٥. الحفاظ على الرسالة الإلهية من أية محاولة تحريفية، ومن أي دسٍّ في التعاليم المقدسة.

فقد كان النبي ﷺ يقوم بهذه الأُمور معتمداً على الوحي، فيجب أن يقوم من ناب بها عنه بتعليمٍ غيبيّ حتى لا يطرأ خلل في الحياة الدينيّة.

و عندئذٍ يطرح هذا السؤال نفسه، وهو إذا كان النبي ﷺ قائماً بهذه الوظائف العلمية والفكرية معتمداً على الوحي، فكيف يقوم غيره مقامه مع انقطاع الوحي والسفارة من الله سبحانه. و الإجابة عن هذا واضحة، فانّ الفيض الإلهي لم يزل يمدُّ عباده الصالحين وإن لم يكونوا رسلاً وأنبياء، وهذا هو الذي يعبر عنه بالمحدَّث، فيلهم إليه وإن لم يكن نبياً من عند الله، و هذا هو مصاحب موسىٰ يعرفه سبحانه بقوله: **﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً﴾**.[1]

فعلى ذلك فالإشراقات الإلهية على قلوب الصالحين لا تلازم النبوة والرسالة، بل يكفي أن يكون إنساناً مثالياً، وهذا هو جليس سليمان يصفه سبحانه بقوله: **﴿قالَ الّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أَنَا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾**.[2]

وهذا الجليس لم يكن نبيّاً، ولكن كان عنده علم من الكتاب، وهو لم يحصّله

---

١. الكهف: ٦٥.

٢. النمل: ٤٠.

من الطرق العادية بل كان علماً إلهياً أُفيض إليه، لصفاء قلبه و روحه و لأجل ذلك يَنسب علمه إلى فضل ربه، ويقول: ﴿هذا مِنْ فَضْلِ رَبّي﴾ .

كما تضافرت الروايات على أنّ في الأُمّة الإسلامية ـ كالأُمم الغابرة ـ رجالاً مخلصين محدَّثين تفاض عليهم حقائق من عالم الغيب من دون أن يكونوا أنبياء، وإن كنت في شكّ من ذلك فارجع إلى ما رواه أهل السنّة في هذا الموضوع:

أخرج البخاري في صحيحه: «لقد كان في من كان قبلكم من بني إسرائيل يُكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن من أُمّتي منهم أحد فعمر» [١] .

قال القسطلاني: ليس قوله: «فان يكن» للترديد بل للتأكيد، كقولك: إن يكن لي صديق ففلان، إذ المراد اختصاصه بكمال الصداقة لا نفي الأصدقاء.

وإذا ثبت أنّ هذا وجد في غير هذه الأُمّة المفضولة، فوجوده في هذه الأُمّة الفاضلة أحرى [٢] .

وأخرج البخاري في صحيحه أيضاً بعد حديث الغار: عن أبي هريرة مرفوعاً: أنّه قد كان فيما مضى قبلكم من الأُمم محدَّثون، إن كان في أُمّتي هذه منهم، فإنّه عمربن الخطاب [٣] .

قال القسطلاني في شرحه: قال المؤلف: يجري على ألسنتهم الصواب من غير نبوّة [٤] .

وقال الخطابي: يُلقى الشيء في روعه، فكأنّه قد حُدِّث به يظن فيصيب،

---

١. صحيح البخاري: ٢/ ١٤٩.
٢. إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٦/ ٩٩.
٣. صحيح البخاري: ٢/ ١٧١.
٤. إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٥/ ٤٣١.

ويخطر الشيء بباله فيكون، وهي منزلة رفيعة من منازل الأولياء.

وأخرج مسلم في صحيحه في باب فضائل عمر عن عائشة عن النبي ﷺ: «قد كان في الأُمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في أُمّتي منهم أحد فإنّ عمر بن الخطاب منهم».

ورواه ابن الجوزي في صفة الصفوة، وقال: حديث متّفق عليه.[١]

وأخرجه أبو جعفر الطحاوي في «مشكل الآثار» بطرق شتى عن عائشة وأبي هريرة، وأخرج قراءة ابن عباس: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدّث. قال: معنىٰ قوله محدَّثون أي ملهمون، فكان عمر ـ رضى الله عنه ـ ينطق بما كان ينطق مُلهماً.[٢]

قال النووي في شرح صحيح مسلم: اختلف تفسير العلماء للمراد بـ«محدّثون»، فقال ابن وهب: ملهمون، وقيل: مصيبون، إذا ظنّوا فكأنّهم حُدِّثوا بشيء فظنّوه. وقيل: تكلّمهم الملائكة، وجاء في رواية: مكلّمون.

وقال البخاري: يجري الصواب على ألسنتهم، و فيه إثبات كرامات الأولياء.

وقال الحافظ محبّ الدين الطبري في «الرياض»: ومعنى «محدّثون ـ والله أعلم ـ أي و يلهمون الصواب، ويجوز أن يحمل على ظاهره، وتحدّثهم الملائكة لا بوحي، وإنّما بما يطلق عليه اسم حديث، وتلك فضيلة عظيمة».[٣]

قال القرطبي: محدَّثون ـ بفتح الدال ـ اسم مفعول جمع محدَّث ـ بالفتح ـ أي

---

١. صفة الصفوة: ١/ ١٠٤.

٢. مشكل الآثار: ٢/ ٢٥٧.

٣. الرياض: ١/ ١٩٩.

ملهم أو صادق الظن، وهو من أُلقي في نفسه شيء على وجه الإلهام والمكاشفة من الملأ الأعلى، أو من يجري الصواب على لسانه بلا قصد، أو تكلّمه الملائكة بلا نبوّة، أو مَن إذا رأى رأياً أو ظنّ ظناً أجاب كأنّه حُدِّث به وأُلقي في روعه من عالم الملكوت فيظهر على نحو ما وقع له، وهذه كرامة يُكرم الله بها من شاء من عباده، وهذه منزلة جليلة من منازل الأولياء.

فإن يكن من أُمّتي منهم أحد فإنّه عمر، كأنّه جعله في انقطاع قرينة في ذلك كأنّه نبيّ، فلذلك أتى بلفظ «إن» بصورة الترديد. قال القاضي: ونظير هذا التعليق في الدلالة على التأكيد والاختصاص، قولك: إن كان لي صديق فهو زيد، فإنّ قائله لا يريد به الشكّ في صداقته بل المبالغة في أنّ الصداقة مختصّة به لا تتخطّاه إلى غيره.[١]

فإذا كان في الأُمم السالفة رجال بهذا القدر والشأن، فلماذا لا يكون في الأُمّة الإسلامية رجال شملتهم العناية الإلهية فأحاطوا بالكتاب والسنّة إحاطة كاملة يرفعون حاجات الأُمّة في مجال العقيدة والتشريع.

فمن زعم أنّ مثل هذه الإفاضة تساوق النبوّة والرسالة، فقد خلط الأعم بالأخصّ، إذ النبوّة منصب إلهيّ يقع طرفاً للوحي يسمع كلام الله تعالى ويرى رسول الوحي، ويكون إمّا صاحب شريعة مستقلّة أو مروّجاً لشريعة من قبله.

وأمّا الإمام: وهو الخازن لعلوم النبوّة في كل ما تحتاج إليه الأُمّة من دون أن يكون طرفاً للوحي أو سامعاً كلامه سبحانه أو رائياً للملك الحامل له. ولإحاطته بعلوم النبوّة طرق أشرنا إليها.

---

١. للوقوف على سائر الكلمات حول المحدَّث، لاحظ كتاب الغدير: ٥/ ٤٢ ـ ٤٩.

ومن التصوّر الخاطئ: الحكم بأنّ كل من أُلهم من الله سبحانه أو كلّمه الملك فهو نبيّ ورسول، مع أنّ الذكر الحكيم يعرّف أُناساً، أُلهموا أو رأوا الملك ولم يكونوا بالنسبة إلى النبوّة في حلّ ولا مرتحل.

هذه أُمّ موسى يقول سبحانه في حقّها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلى أُمِّ مُوسىٰ أَنْ أَرْضِعيهِ فإذا خِفْتِ عَلَيهِ فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ ولا تَخافِي ولا تَحْزَني إنَّا رادُّوهُ إليكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ﴾ .[١]

أفصارت أُمّ موسى بهذا الإلهام نبيّة من الأنبياء؟

وهذه مريم البتول، تكلّمها الملائكة من دون أن تكون نبيّة، قال سبحانه: ﴿وإذْ قالَتِ الملائِكَةُ يا مَريمُ إنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ العالَمِينَ * يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ... ﴾ .[٢]

بلغت مريم العذراء مكاناً شاهدت رسول ربّها المتمثّل لها بصورة البشر، قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً * قَالَتْ إِنّي أَعُوذُ بالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيّاً * قَالَ إنَّما أنا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً * قَالَتْ أَنّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً * قَالَ كَذٰلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنّا وَكانَ أَمْراً مَقْضِيّاً﴾.[٣]

نرى أنّ مريم البتول رأت الملك وسمعت كلامه ولم تُصبح نبيّة ولا رسولة.

فمن تدبّر في الكتاب والسنّة يقف على أبدال شملتهم العناية الإلهية و وقفوا على أسرار الشريعة ومكامن الدين بفضل من الله سبحانه من دون أن يصيروا أنبياء.

ثمّ إن بيان نظام الحكم في الإسلام يأتي ضمن فصول:

---

١. القصص: ٧.
٢. آل عمران: ٤٢ـ ٤٣.
٣. مريم: ١٧ـ ٢١.

الفصل الأوّل

المصالح العامة و ومقتضيات نظام الحكم

إنّ الموضوع المهم هو تبيين نظام الحكم بعد رحيل النبي ﷺ ودراسة الظروف التي رافقت رحيله، فهل الظروف السائدة آنذاك تؤكّد على تنصيب الإمام وتعيينه من جانبه سبحانه، أو على تفويضها إلى الأُمّة وقيامها بتعيين الحاكم الإسلامي، ودراسة هذا الموضوع عن كثب، رهن الإشارة إلى الأخطار المحدقة بالمجتمع الإسلامي الفتيّ.

○ مثلَّث الخطر

إنّ الأُمة الإسلامية قُبيل وفاة النبي ﷺ كانت محاصرة من جهة الشمال والشرق من قبل امبراطوريتين عظيمتين، وهما: الروم وإيران، هذا من الخارج.

وأمّا من الداخل فلقد كان الإسلام والمسلمون يعانون من المنافقين الذين كانوا يشكّلون العدو الداخلي أو ما يسمّىٰ بالطابور الخامس، ولأجل الوقوف على مدى الخطر المحدِق من قبل هذه الأطراف الثلاثة، نتناول كلّ واحد منها على وجه الإيجاز.

١. خطر الامبراطورية الساسانية

لقد كانت الامبراطورية الساسانية ذات حضارة مزدهرة، ونفوذ واسع فرضته على أصقاع شاسعة خلال أحقاب عديدة من السنين، إلى حدّ أصبح من العسير أن يعترفوا بسيادة أُمة طالما كانت تعيش تحت سلطانهم، ولذلك رفض ملكهم «خسرو برويز» دعوة النبي ﷺ حتى مزّق كتابه الذي أرسله ودعاه فيه إلى الإسلام وعبادة الله تعالى، وكتب خسرو برويز إلى عامله في اليمن: إبعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتياني به.[1]

٢. خطر الامبراطورية الرومية

كانت الامبراطورية الرومية في شمال الجزيرة العربية وكانت تشغل بال النبي ﷺ طيلة حياته، وقد نشبت بينها و بين المسلمين معارك طاحنة في السنة الثامنة من الهجرة، عندما قتلوا رسول النبي ﷺ أعني : الحارث بن عمير الأزدي، فانّه لمّا وصل أرض «مؤتة» تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسّاني وضرب عنقه، وقد أدّىٰ هذا الأمر إلى أن يبعث النبي ﷺ جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة جعفر بن أبي طالب، وزيد بن الحارثة، وعبد الله بن رواحة فقُتل الجميع، ورجع الجيش منهزماً إلى المدينة.

ولقد أثارت هزيمة المسلمين في هذه المعركة نكسة في نفوس المسلمين، وزادت جرأة جيوش الروم على التعرض للمسلمين. فلذلك قاد النبي ﷺ في السنة التاسعة جيشاً جرّاراً قصد به غزو الروم لما وصلت إليه الأخبار بأنّ الروم بصدد الإغارة عليهم، فقاد النبي ذلك الجيش إلى تبوك و كان له أثر بالغ في زعزعة معنويات جيوش الروم، ورفع معنويات المسلمين، ومع ذلك لم يكن النبي ﷺ

١. الكامل في التاريخ: ٢/ ١٤٥.

بغافل عن خطرهم، وقد أوصى في أواخر حياته بتجهيز جيش بقيادة أُسامة بن زيد بغية مواجهة الروم.

٣. خطر المنافقين

المنافقون هم الذين استسلموا للمدّ الإسلامي وأسلموا بألسنتهم دون قلوبهم إمّا خوفاً أو طمعاً، فكانوا يتجاهرون بالولاء للإسلام، و يخفون نواياهم السيئة ويتحيّنون الفرُص بغية الانقضاض على المسلمين والإطاحة بهم.

ولقد بلغ خطر المنافقين بمكان أصبح يهدد كيان المجتمع الإسلامي، لأنّهم كانوا يحيكون مؤمرات خفيّة ينقاد لها السُّذّج من الناس، ولأجل ذلك شدّد القرآن الكريم على ذكر عذابهم أكثر من أي صنف آخر، وقال: ﴿**إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّار...**﴾.[١]

ويحدّثنا التاريخ كيف لعب المنافقون دوراً خبيثاً وخطيراً في تعكير الصف الإسلامي وإتاحة الفرصة لأعداء الإسلام بغية تمرير مخططاتهم سواء أكان قبل انتشار صولة الإسلام و بعده.

وعلى هذا فكان من المحتمل بمكان أن يتحد هذا الخطر الثلاثي الاجتثاث جذور الإسلام عقب رحيل النبي ﷺ وغياب شخصه عن ساحة الصراع السياسي.

○ سيادة الروح القبلية على المجتمع الإسلامي الفتي

لقد كانت الروح القبلية سائدة على المجتمع الإسلامي الفتيّ يومذاك، وكان لرئيس القبيلة نفوذ واسع بين أفراد قبيلته، وقد كان الولاء للقبيلة متوغلاً في

١. النساء: ١٤٥.

نفوسهم حتى بعد إسلامهم رغم ما تلقّوه من التعاليم الإسلامية و التربية القرآنية، ولذلك كانت تلك النزعة تظهر بين الفينة والأُخرى و ينشب بسببها النزاع و يكاد يتسع لولا حكمة الرسول ﷺ وتدبيره.

ويكفي في ذلك ما رواه أهل السير في تفسير قوله سبحانه: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ وَللهِ العِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لٰكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ .[1]

وقد نشب نزاع في العام السادس من الهجرة في أرض بني المصطلق عند ماء، حيث تنازع رجلان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار على سقي الماء، فاقتتلا، فصرخ الأنصاري فقال: يا معشر الأنصار، والآخر قال: يا معشر المهاجرين، فاجتمع من كلّ رهطٌ بسيوفهم، فلولا حكمة النبيّ ﷺ لسالت دماء في أرض العدو حيث قدم النبي ﷺ و قال: «دعوها فانّها دعوى منتنة»[2] يعني أنّها كلمة خبيثة لأنّها من دعوى الجاهلية، وجعل الله المؤمنين إخوة وحزباً واحداً.

وكم لهذا الموقف من نظائر في التاريخ، وبإمكانك أن تقرأ دور شاس بن قيس الذي كان شيخاً من اليهود كيف خطّط لإثارة النعرات الطائفية بين الأوس والخزرج حتى كادت أن تندلع الفتنة بينهما مرة أُخرى إلاّ أنّ النبيّ ﷺ أخمدها بحكمة بالغة، قائلاً: يا معشر المسلمين الله الله، أبدعوى الجاهلية و انا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم».[3]

---

١. المنافقون: ٨.

٢. السيرة النبوية:٢/ ٢٩٠ـ ٢٩١.

٣. السيرة النبوية:١/ ٥٥٥ـ٥٥٧.

كل ذلك يدل على وجود رواسب الجاهلية بين قبيلتي الأوس والخزرج حتى بعد اعتناقهم الإسلام وانضوائهم تحت لوائه. ويشهد على ذلك مضافاً إلى ما مرّ ما أخرجه البخاري في صحيحه في قصة الإفك، قال: قال النبي ﷺ و هو على المنبر: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي والله ماعلمت علىٰ أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما يدخل على أهلي إلاّ معي».

قالت عائشة: فقام سعد بن معاذ أخو بني عبد الأشهل، فقال: أنا يا رسول الله أعذرك، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا.

قالت: فقام رجل من الخزرج وهو سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ــ قالت: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميّة ـ فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمرو اللّه، والله لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل.

فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمرالله ، لنقتلنّه، فإنّك منافق تجادل عن المنافقين.

قالت عائشة : فثار الحيّان (الأوس والخزرج) حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر.

قالت : فلم يزل رسول الله يخفّضهم حتى سكتوا وسكت . [1]

فكيف يجوز والحال هذه أن يترك الرسول ﷺ أُمّته المفطورة على العصبيات القبلية، وعلى الاستئثار بالسلطة والزعامة وحرصها على النفس، ورفض

١. صحيح البخاري: ٥/ ١١٩، باب غزوة بني المصطلق.

سلطةالآخر؟

فهل كان يجوز للنبي ﷺ أن يترك تعيين مصير الخلافة لأُمّة هذه حالها، وفي تعيينه قطع لدابر الاختلاف والفرقة؟

وهل كان من المحتمل أن تتفق كلمة الأُمّة جمعاء على واحد، ولا تخضع للرواسب القبلية، ولا تبرز إلى الوجود مرة أُخرى ما مضى من الصراعات العشائرية وما يتبع ذلك من حزازات؟

أم هل يجوز لقائد يهتم ببقاء دينه و أُمّته أن يترك أكبر الأُمور وأعظمها وأشدها دخالة في حفظ الدين، إلى أُمة نشأت على الاختلاف، و تربَّت على الفرقة، مع أنّه كان يشاهد الاختلاف منهم في حياته أحياناً، كما عرفت؟

إنّ التاريخ يدل على أنّ هذا الأمر قد وقع بعد وفاة النبيّ ﷺ في السقيفة حيث سارعت كلّ قبيلة إلى ترشيح نفسها للزعامة، منتحلة لنفسها أعذاراً وحججاً وطالبة ما تريد بكلّ ثمن حتى بتجاهل المبادئ وتناسي التعاليم الإسلامية والوصايا النبوية.

فقد ذكر ابن هشام تحت عنوان «أمر سقيفة بني ساعدة، تفرق الكلمة»[1] نقلاً عن عمر بن الخطاب ما يدل على اختلاف الكلمة وعدم الاتفاق على أحد.

○ فذلكة وتحليل

هذه صورة مصغرة من تاريخ المسلمين في العصر الأوّل، وقد عرفت أنّ الأعداء كانوا يتربصون با لمسلمين الدوائر للقضاء عليهم من الخارج والداخل.

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٦٥٩ـ ٦٦٠.

ومن جانب آخر كانت الرواسب القبلية خامرة في نفوسهم تبرز بين الحين والآخر.

فهذه الظروف تفرض على قائد حكيم كالنبي ﷺ أن يفكّر مليّاً في مستقبل الأُمة الإسلامية بعد رحيله، فيخطّط تخطيطاً حكيماً للحيلولة دون مضاعفات الخطر الثلاثي والتعصبات القبلية التي تهدد كيان الإسلام وتقوّض أركانه من خلال نصب قائد بأمر من قبل الله سبحانه يقود الأُمة الإسلامية إلى ساحة الجهاد بُغية دفع الأخطار المحدقة بهم، وبقداسته ومثاليته وكونه منصوباً من الله سبحانه يقطع دابر الخلاف في تعيين الخليفة، وهذا بخلاف ما لو ترك الأُمة على حالها والعدو ببابها والنزاع القبلي على قدم و ساق.

○ الصحابة ومؤهلات القيادة

لم تبلغ الأُمّة الإسلامية ـ كما يشهد عليه التاريخ ـ المستوى الفكري الذي يؤهلها إلى تدبير أُمورها و إدارة شؤونها وقيادة سفينتها إلى ساحل الأمان دون حاجة إلى نصب قائد من الله سبحانه.

وقد كان عدم بلوغ الأُمّة هذا المستوىٰ أمراً طبيعياً، لأنّ إعداد أُمّة كاملة بحاجة إلى مزيد من الوقت ولا يتيسر ذلك في فترة وجيزة تبلغ ٢٣ سنة، وهي حافلة بأحداث مريرة ومشحونة بحروب طاحنة.

إنّ إعداد مثل هذه الأُمة لا يمكن في العادة إلاّ بعد انقضاء جيل أو جيلين، و بعد مرور زمن طويل يكفي لبلورة التعاليم الإسلامية ورسوخها في أعماق النفوس بحيث تخالط مفاهيمُ الدين دماءهم، وتتمكن العقيدة في نفوسهم إلى حد

يحفظهم من التذبذب والتراجع إلى الوراء .

و هذا الحد من الكمال لم يكن حاصلاً في فترة قصيرة، و تشهد على ذلك الأحداث والوقائع التي كشفت عن تأصُّل الأخلاق الجاهلية في نفوسهم وعدم تغلغل الإيمان في قلوبهم، حتى أنّنا نجد أنّ القرآن يشير إلى ذلك تعليقاً على ما حدث ووقع منهم في معركة أُحد، إذ يقول سبحانه: ﴿وَما محمّدٌ إلاّ رَسُولٌ قد خلَتْ مِنْ قَبلهِ الرُّسلُ أَفَإِنْ ماتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلىٰ أعقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ علىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيئاً وسَيَجْزِي اللهُ الشّاكِرِينَ﴾ .[١]

ويقول أيضاً: ﴿وَطائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيءٍ﴾ .[٢]

وربما يتصوَّر أنّ هذه النكسات تختص بالسنين الأُولى من الهجرة، ولا تختص بالسنين التي أعقبت وفاة النبي ﷺ لانتشار الإسلام في الجزيرة العربية واعتناق خلق كثير منهم الإسلام، ولكن التاريخ يرد تلك المزعمة ويثبت عدم بلوغهم الذروة في أمر القيادة بحيث تغنيهم عن نصب قائد محنّك من جانبه سبحانه.

وهذه هي غزوة «حنين» التي غزاها النبي ﷺ في السنة الثامنة، وقد أُصيب المسلمون بهزيمة نكراء تركوا النبي ﷺ في ساحة الوغى ولم ينصره سوى عدد قليل، فلمّا رأى النبي ﷺ تفرّق المسلمين حينها قارعهم بصوت عال، وقال: «أيّها الناس هلمُّوا إليّ أنا رسول الله»، إلى غير ذلك من الكلمات التي علّمها لعمّه العباس حتى يُجهر بها، وقد نقل القرآن الكريم إجمال تلك الهزيمة، وقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ

---

١. آل عمران: ١٤٤.

٢. آل عمران: ١٥٤.

اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ .[1]

إنّ قوله سبحانه: ﴿ولّيتم مدبرين﴾ يعرب عن عدم نهوضهم بمهمة الدفاع عن النبي ﷺ، ومثل هذه الأُمّة بحاجة ماسّة إلى نصب قائد محنّك يلمّ شعثهم ولا يصح تفويض أُمورها إلى جماعة هذه حالهم وهذا مقدار ثباتهم في ساحات الحرب والدفاع عن كيان الدين.

وهناك كلمة قيمة للشيخ الرئيس في بيان الأُسلوب الأفضل للحكومة الإسلامية حيث يقول: الاستخلاف بالنص أصوب، فانّ ذلك لا يؤدي إلى التشعب والتشاغب والاختلاف.[2]

---

١. التوبة: ٢٥.

٢. الشفاء، الفن ١٣ في الإلهيات، المقالة العاشرة، الفصل الخامس، ص ٥٦٤.

الفصل الثاني

أهل السنَّة ومعالم الحكومة الإسلامية

إنّ النبي ﷺ هو القائد الـذي تفانى في أداء رسالـة ربّه وهداية أُمّتـه بكلّ إخلاص و عـزيمة، ولم يكـن شيء عنده أعزّ مـن هدايـة الناس و بقـاء شريعته والنظام الذي يحمي الشريعة، فعلى ذلك كان على مفترق طرق:

أ: أن ينصب قائداً محنكـاً يخلفه في كلّ مهامه و يقطع دابـر الخلافات بعده ويكون عمله نموذجاً للآخرين.

ب: أن يبيِّن معالم الحكومة وخصوصياتها بكلّ دقة وتفصيل، حتى تستغني الأُمة بـذلك عـن التنصيب ويكون كـلامه هـو الملهم عبْر الأجيـال في تعيين نوع الحكومة للمسلمين.

بيد أنّ التصور السائد عند أهـل السنّة هو أنّه ﷺ لم يسلك الطريق الأوّل ولم ينصب خليفة بعـده، بل ترك الأمر إلى الأُمّـة، ومع ذلك لا يوجـد في مجموع ما بأيدينا مـن الكتاب والروايات المروية في الصحاح والمسانيـد شيء يرسم الخطوط العريضـة لنوع الحكـومة وأركانها وخصـائصها وصفات الحاكـم وبرامجه، مـع أنّه تكلم في أبسـط الأُمور فضـلاً عن أخطرهـا، كما هو واضـح لمن طالـع الصحاح والمسانيد خصوصاً فيما يرجع إلى حياة الإنسان.

---

١. آل عمران: ١٥٩.

ولمّا وجد علماء أهل السنة أنفسهم أمام تلك المعضلة حاولوا حلَّ عقدتها بترسيم خطوط عريضة لحكومة إسلامية من عند أنفسهم تارة باسم الشورى، وأُخرى باسم أهل الحل والعقد، وثالثة باتخاذ حكومة الخلفاء الأربعة وما يليها أُسوة وبياناً لنوع الحكومة الإسلامية وخصوصياتها.

كلّ ذلك يعرب عن أنّ علماء أهل السنة لم يتجردوا عن كلّ رأي مسبق فأخذوا خصوصيات الحكومات القائمة بعد النبي ﷺ حجّة شرعية للمسلمين عامة.

مع أنّهم لم يعتمدوا في إقامة دعائم الحكومة على دليل قرآني أو سنة نبوية، وإنّما وضعوا حلولاً استحسانية والتي لا تكون حجّة إلاّ على أنفسهم.

وها نحن نطرح هذه الفروض على بساط البحث كي يعلم مدى إتقانها.

○ هل الشورى أساس الحكم الإسلامي؟

هناك من اتخذ الشورىٰ أساساً للحكم الإسلامي، واستدلّوا على ذلك بآيتين:

الأُولى: قوله سبحانه: ﴿... وَشاوِرْهُمْ في الأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَىَ اللهِ...﴾[1] قائلين بأنّه سبحانه أمر نبيَّه بالمشاورة تعليماً للأُمّة، بأن يتشاوروا في مهام الأُمور ومنها الخلافة.

والذي يؤخذ عليه: انّ الخطاب موجّه إلى الحاكم الذي ثبت كونه حاكماً بوجه من الوجوه ثمّ أمره بالمشاورة في غير هذا الأمر. بأن يشاور أفراد الأُمّة فيما

١. آل عمران: ١٥٩.

يرجع إلى غير أصل الحكومة، غاية الأمر يتعدّى عنه إلى غير النبيّ ﷺ من أفراد الأُمّة، لكن مع حفظ الموضوع، وهو إذا تمت حكومة فرد و ثبتت مشروعيته، فعليه أن يشاور الأُمّة، وأمّا المشاورة في تعيين الإمام والخليفة عن طريق الشورىٰ فلا تعمُّه الآية.

الثانية: قوله سبحانه ﴿وَ أَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ﴾.[١]

استدلُّوا بالآية على أنّ نوع الحكومة يتلخص في الشورىٰ فإنّ إضافة المصدر(أمر) إلى الغير(هم) يفيد العموم والشمول لكل أمر ، و منه الخلافة والإمامة فالمؤمنون بحسب هذه الآية يتشاورون في جميع أُمورهم حتى الخلافة.

يلاحظ عليه: أنّ الآية تأمر بالمشورة في الأُمور الموضوعة على عاتق المؤمنين فلابدّ أن يحرز أنّ هذا الأمر(تعيين الإمام) أمر مربوط بهم فما لم يحرز ذلك لم يجز التمسك بعموم الآية في مورده.

وبعبارة أُخرى انّ النزاع في أنّ الخلافة هل هي مفوّضة إلى الأُمّة، أو هي أمر مختص بالسماء؟ و مادام لم يحرز كون هذا الموضوع من مصاديق الآية لا يحتج بها على أنّ صيغة الحكومة الإسلامية هي الشورىٰ.

○ نقد فكرة أنَّ الشورىٰ أساس الحكم

١. و مما يدل على أنّ الشورى لم تدخل حيز التنفيذ طيلة التاريخ هي انّ بيعة أبي بكر قد انعقدت بخمسة، وهم :عمر بن الخطاب ، أبو عبيدة الجراح، أسيد بن حضير، بشر بن سعد، و أسلم مولى أبي حذيفة.

---

١. الشورىٰ: ٣٨.

ثمّ خـرجوا من السقيفة وابـوبكر قدّامهم يـدعون الناس لمبايعتـه، ولأجل ذلك كان عمـر بن الخطاب يرفع عقيرتـه فوق المنبر، ويقول: كانـت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها.

وأمّا خلافة عمـر فقد عقدت له الخلافة بتعيين الخليفة الأوّل، و أمّـا خلافة عثمان فقـد حصر عمر الشـورىٰ في سـتـة أشخاص انتخبهـم هـو بنفسه ليعقـدوا لأحدهم، كما هو واضح من التاريخ.

٢. لو كـان أساس الحكم و منشـؤه هو الشـورى، لوجب على الـرسولﷺ الخوض في تفـاصيلهـا وخصوصيـاتها وأُسلـوبها على الأقـلّ. مع انّـه لا نجـد في الصحاح والمسانيد أثراً لذلك.

فلو كانت الشورىٰ مبدأً للحكومة لكان علىٰ النبي ﷺ بيان حدود الشورى وتوعية الأُمّة وإيقافها علىٰ ذلك حتى لا تتحيّر بعد رحيله، و مع الأسف الشديد لا نجد شيئاً من ذلك في كلام النبي ﷺ.

ومن جملة الأُمور التي كان من المفروض بيانها، هي:

أوّلاً: من هم الذين يجب أن يشتركـوا في الشورى المذكورة؟ هل هـم العلماء وحدهم، أو السياسيون وحدهم، أو المختلط منهـم؟

ثانياً: من هـم الذين يختارون أهل الشورىٰ؟

ثالثاً: لو اختلف أهل الشورى في شخص فبماذا يكون الترجيح، هل يكون بملاك الكم، أم بملاك الكيف؟

إنّ جميع هذه الأُمور تتصل بجوهر مسألة الشورى، فكيف يجوز ترك بيانها، وتوضيحهـا وكيف سكت الإسلام عنهـا، إن كان جعل الشورى طـريقاً إلى تعيين الحاكم؟

٣. لو كانـت الشورى مبدأً للحكم لكـانت واضحة المعالم فيما يمـس متن الشورى، ومنها العدد الذي تنعقد به الشورى، وقد اختلفوا في عدد من تنعقد بهم الشورى إلى مذاهب شتى يذكرهـا الماوردي (٣٦٤ـ ٤٥٠هـ) في كتابه: «الاحكام السلطانية» و يقول:

الإمامة تنعقد بوجهين:

أحدهما: باختيار أهل العقد و الحل.

والثاني: بعهد الإمام من قبل.

فأمّا انعقادهـا باختيار أهل العقد والحل، فقد اختلـف العلماء في عدد من تنعقد بـه الإمامة منهم على مـذاهب شتىٰ، فقـالت طائفة: لا تنعقـد إلاّ بجمهور أهل العقـد والحل من كلّ بلـد ليكون الرضـا به عامـاً، والتسليم لإمامتـه إجماعاً، وهذا مـذهب مدفـوع ببيعة أبي بكر على الخلافة، بـاختيار من حضرهـا ولم ينتظر ببيعته قدوم غائب عنها.

وقالت طائفة أُخرى: أقلُّ من تنعقد به منهم الإمامة (خمسة) يجتمعون على عقدها أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة، استدلالاً بأمرين:

أحدهما: أنّ بيعـة أبي بكر انعقـدت بخمسة اجتمعـوا عليها، ثـمّ تابعهـم الناس فيها، و هـم: عمر بن الخطاب، و أبوعبيدة الجرّاح، وأسيد بن حضير، وبشر ابن سعد، وسالم مولى أبي حذيفة.

الثاني: أنّ عمر جعل الشورىٰ في ستة ليعقد لأحـدهم برضا الخمسة، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلّمين من أهل البصرة.

وقال آخرون من علماء الكـوفة: تنعقد بثلاثة يتولاّها أحـدهم برضا الاثنين

ليكونوا حاكماً وشاهدين، كما يصحّ عقد النكاح بولي و شاهدين.

وقالت طائفة أُخرى: تنعقد بواحد لأنّ العباس قال لعلي: أُمدد يدك أُبايعك، فيقول الناس: عمّ رسول الله بايع ابن عمه، فلا يختلف عليك اثنان، ولأنّه حكم و حكم الواحد نافذ.[١]

وهذه الوجوه تسقط كون الشورى أساس الحكم و أنّ النبي ﷺ ارتحل واعتمد في صيانة دينه بنظام مبني على الشورى وهي مجملة من جهات شتى.

○ هل البيعة أساس الحكم الإسلامي؟

هل البيعة سبيل إلى تعيين الحاكم الإسلامي و أساس له. وقد اتخذه غير واحد ممن كتب في نظام الحكومة الإسلامية أساساً لها، وقد أمضاها النبي ﷺ عن غير موضع، حيث بايعه أهل المدينة في السنة ١١ و ١٢ و ١٣ من البعثة، بايعوه على أن لا يشركوا بالله ولا يسرقوا ولا يقترفوا فاحشة.

كما بايعوه في البيعة الثانية على نصرته والدفاع عنه، كما يدافعون عن أولادهم وأهليهم.[٢]

إنّ الموارد التي بايع فيها المسلمون رسول الله ﷺ لا تنحصر في هذين الموردين بل توجد في موارد أُخرى، أعظمها وأفضلها بيعة الرضوان المذكورة في تفسير قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ

---

١. الأحكام السلطانية: ٧.

٢. السيرة النبوية: ١/ ٤٣١ـ٤٣٨.

فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ .[١]

يذكر المفسرون أنّ رسول الله ﷺ بعث رسولاً في صلح الحديبية إلى قريش، وقد شاع أنّ مبعوث النبي ﷺ قد قتل، فاستعدّ المسلمون للانتقام من قريش، ولمّا رأى النبي ﷺ أنّ الخطر على الأبواب، وبما أنّ المسلمين لم يخرجوا للقتال وإنّما خرجوا للعمرة، قرر رسول الله ﷺ أن يُجدِّد بيعته مع المسلمين فجلس تحت شجرة وأخذ أصحابه يبايعونه على الاستقامة والثبات والوفاء واحداً بعد الآخر، ويحلفون له أن لا يتخلّوا عنه أبداً وأن يدافعوا عن حياض الإسلام حتى النفس الأخير، وقد سميت هذه البيعة «بيعة الرضوان».[٢]

وقد بايعت المؤمنات النبي ﷺ في فتح مكة، وقد ذكر التفصيلَ قوله سبحانه وقال: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلىٰ أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً ولا يَسْرِقنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَولادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ في مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .[٣]

○ نقد فكرة انّ البيعة أساس الحكم

لو أمعن القارئ الكريم في تفاصيل الموارد التي بايع فيها المسلمون ـ كلّهم أو بعضهم ـ قائدهم يقف على أنّه لم تكن الغاية من البيعة الاعتراف بزعامة الرسول و رئاسته فضلاً عن نصبه و تعيينه، بل كان الهدف التأكيد العملي

---

١. الفتح: ١٨.
٢. السيرة النبوية: ٢/ ٣١٥.
٣. الممتحنة: ١٢.

على الالتزام بلوازم الإيمان المسبق، ولـذلك نجد جرير بن عبداللّـه، قال: بايعت رسول اللّه ﷺ علىٰ إقام الصَّلاة، و إيتاء الزَّكاة، و النصح لكلِّ مسلم.[١]

وقال أيضاً: «و أن تدفعوا عني العدو حتى الموت[٢] ولا تفرُّوا من الحرب».[٣]

والحاصل أنّ البيعة كانت تأكيداً للإيمان الذي أظهروه برسالته ونبوّته فلازم ذلك إطاعة قوله وأمره، فكانت البيعة تأكيداً لما أضمروا من الإيمان.

نعـم لا يمكن أن ينكـر أنّ البيعة في العهـود التي أعقبـت وفاة النبـي ﷺ كانت طريقاً لتنصيب الحاكم وذلك تقليداً للجاهلية، حيث كان الرائج فيها انّه إذا مات أمير أو رئيس عمدوا إلىٰ شخص فأقاموه مقام الراحل من خلال البيعة.

والظاهر أنّ تعيين بعض الخلفاء من خـلال البيعة كان تقليداً لما كان رائجاً بينهم قبـل الإسلام ، ولا يكـون هذا دليلاً تـاريخياً أو شرعيـاً على أنّ البيعة طـريق لتعيين الخليفة، بغـض النظر عن سـائر المواصفات والضوابـط، و غاية مـا هناك أنّ البيعة إحدى الطرق فيما لم يكـن هناك نص إذا كان المبايع واجـداً للملاكات والمواصفات التي يجب أن يتمتع بها الحاكم.

---

١. كتاب الإيمان.: لاحظ ايضاً صحيح البخاري،٥/ ٥٥، بيعة الأنصار.

٢. مسند أحمد:٤/ ١٥.

٣. مسندأحمد:٣/ ٢٩٢.

الفصل الثالث:

نظرية الحكم
عند النبي ﷺ

دلّت البحوث السابقة على أنّ الشورى والبيعة ليسا أساس الحكم، فحان البحث لبيان نظرية الحكم في كلمات النبيّ ﷺ.

والسبر في كلماته طيلة حياته من البعثة إلى الوفاة، يُثبت أنّ الإمامة عنده كالنبوة أمر موكول إلى الله تبارك و تعالى وليس للأُمّة حتى النبي ﷺ فيها دور.

إنّ الكلمات المأثورة عن الرسول ﷺ وموقفه من قضية القيادة، تعرب عن أنّه كان يعتبر أمر القيادة وتعيين القائد مسألة إلهية وحقاً إلهياً، فالله سبحانه هو الذي له أن يعّين القائد و ينصب خليفة النبي ﷺ بعد رحيله، نجد ذلك في كلماته بوفرة ولا نجد في كل ما نقل عن النبي ﷺ ما يدل على إرجاع الأمر إلى اختيار الأُمّة ونظرها، أو آراء أهل الحلّ والعقد، وها نحن نذكر هنا شاهدين من كلمات الرسول يكشف الستار عن وجه الحقيقة.

١. لما عرض الرسول ﷺ نفسه على بني عامر الذين جاءوا إلى مكة في موسم الحجّ ودعاهم إلى الإسلام. قال له كبيرهم: أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك ثمّ أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟

فقال النبي ﷺ: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء».[١]

٢. لما بعث النبي ﷺ سليط بن عمرو العامري إلى ملك اليمامة (هوذة بن علي الحنفي) الذي كان نصرانياً، يدعوه إلى الإسلام وقد كتب معه كتاباً، فقدم على هوذة، فأنزله وحباه وكتب إلى النبي ﷺ يقول فيه: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي، وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر أتبعك).

فقدم سليط على النبي ﷺ وأخبره بما قال هوذة، وقرأ كتابه، فقال النبي ﷺ: « لو سألني سيابة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يده».[٢]

و نقل ابن الأثير على نحو آخر، فقال: أرسل هوذة إلى النبي ﷺ وفداً فيهم مُجاعة بن مرارة والرّجال بن عنفوة ، يقول له:

إن جعل الأمر له من بعده أسلم وصار إليه ونصره، وإلاّ قصد حربه.

فقال رسول الله ﷺ: «لا ولا كرامة، اللّهم اكفنيه»، فمات بعده بقليل.[٣]

إنّ هذين النموذجين التاريخيين اللّذين لم تمسّهما يد التحريف والتغيير يدلاّن بوضوح كامل على أنّ رؤية النبيﷺ في مسألة الحكم والخلافة هي انها أمر سماويّ خارج عن صلاحيته، فالإرجاع إلى الله وضرب الصفح عن الشورىٰ والبيعة أو الاستفتاء العام خير دليل على كونه منصباً إلهياً، والعجب انّه لم يكن هذا رُؤى النبي ﷺ في مورد الحكم فقط بل كانت الصحابة بعد رحيله يسيرون على هذا النهج غير انّهم بدّلوا التنصيب الإلهي بتنصيب الخليفة لمن يقوم مكانه بعده.

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٤٢٤ـ ٤٢٥.

٢. الطبقات الكبرى: ١/ ٢٦٢.

٣. الكامل في التاريخ : ٢/ ١٤٦.

٣. و هذا هو أبو بكر عيَّن عمر بن الخطاب للخلافة في عهد كتبه عثمان ابن عفان.[١]

٤. كما أنّه تم استخلاف عثمان عن طريق الشورىٰ الستة التي عيَّن اعضاءها عمر بن الخطاب.[٢]

٥. وقد كانت السيدة عائشة تتبنى نظرية التنصيب من جانب الخليفة، وقالت لعبد الله بن عمر: يا بني بلِّغ عمر سلامي، فقل له لا تدع أُمّة محمد بلا راع، استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملاً، فانّي أخشىٰ عليهم الفتنة؛ فأتى عبد الله إلى أبيه فأعلمه.[٣]

والعجب انّ أُمّ المؤمنين التفتت إلى أنَّ ترك الأُمة هملاً يورث الفتنة، ولكن النبي ﷺ حسب زعم القوم ـ لم يلتفت إلى تلك النكتة ـ فلقي الله سبحانه و ترك الأُمّة هملاً !!!

٦. انّ عبد الله بن عمر دخل على أبيه قُبيل وفاته، فقال: إنّي سمعت الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لك، وزعموا انّك غير مستخلف، وانّه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثمّ جاءك وتركها لرأيت أن قد ضيَّع، فرعاية الناس أشد.[٤]

٧. قدم معاوية المدينة ليأخذ من أهلها البيعة ليزيد، فاجتمع مع عدّة من الصحابة، وأرسل إلى ابن عمر فأتاه و خلاٰ بهِ، فكلّمه بكلام، قال: إنّي كرهت أن أدع أُمّة محمد بعدي كالضعن بلا راع لها.[٥]

---

١. الإمامة والخلافة: ١٨؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ٢٩٢؛ الطبقات الكبرى: ٣/ ٢٠٠.

٢. الكامل في التاريخ: ٣/ ٣٥.

٣. الإمامة والسياسة: ٣٢.

٤. حلية الأولياء: ١/ ٤٤.

٥. الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٨

هذه النصوص تدل بجلاء على أنّ انتخاب الخليفة عن طريق الاستفتاء الشعبي، أو بمراجعة أهل الحلّ والعقد، أو اتفاق الأنصار والمهاجرين، أو بالشورىٰ، أو بالبيعة كلها فروض اختلقها المتكلّمون بعد تمامية الخلافة للخلفاء، ولم يكن أي أثر من هذه العناوين بعد رحيل النبي ﷺ إلاّ شيئاً لا يذكر عند محاجة علي عليه السلام مع المتقمّصين منصّة الخلافة.

هذه الكلمات تعرب عن أنّ نظرية التنصيب هي التي كانت مهيمنة على الأفكار والعقول.

○بلاغات غير رسمية

لقد بلّغ رسول الله ﷺ خلافة علي عليه السلام بصورة رسمية في غدير خم كما سيوافيك، ولكن لم يكن ذلك البلاغ بصورة عفوية بل هيّأ النبي ﷺ أرضيته منذ أن صدع بالنبوّة في مواقف مختلفة نذكر منها:

١. دعوة الأقربين وتنصيب علي للخلافة

يقول المفسرون: لمّا نزل قوله سبحانه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] أمر رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يعد طعاماً ولبناً، فدعا خمسةً وأربعين رجلاً من وجوه بني هاشم، ولما فرغوا من الطعام تكلم رسول الله ﷺ، فقال: «إنّ الرائد لا يكذب أهله؛ والله الذي لاإله إلاّ هو إنّي رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتُنّ كما تنامون، ولتبعثنّ كما تستيقظون، ولتحاسبُنّ بما تعملون، وإنّها الجنّة أبداً أو النار أبداً.

---

١. الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٥.

ثمّ قال:

يا بني عبـد المطلب إنّي والله ما أعلم شابّـاً في العرب جاء قومه بـأفضل ممّا جئتكم به، إنيّ قدجئتكم بخير الدنيا والآخـرة، وقد أمرني الله عزّوجلّ أن أدعوكم إليه فأيُّكم يؤمن بي ويؤازرني على هـذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟

ولمّا بلغ النبيﷺ إلى هذه النقطة ، و بينما أمسك القوم وسكتـوا عن آخرهم وأخذوا يفكّرون مليّاً في ما يؤول إليه هذاالأمـر العظيم، وما يكتنفه من أخطار قام عليعليه السلام فجأة، وهو آنذاك في الثالثة أو الخامسة عشرة من عمره، وقال وهو يخترق بكلماته الشجاعة جدار الصمت والذهول:

أنا يا رسول الله أكون وزيرك على ما بعثك الله.

فقال لـه رسول الله ﷺ: اجلس، ثـمّ كرّر دعوته ثـانية وثالثة وفي كـلّ مرة يحجـم القوم عـن تلبية دعـوته، ويقـوم علي ويعلن عـن استعداده لمؤازرة النبـي، ويأمره رسول الله بالجلوس حتى إذا كانت المرة الثالثة أخذ رسول الله بيده والتفت إلى الحاضرين من عشيرته الأقربين، وقال:

إنّ هذا أخي، ووصيي، وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا.

فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع وجعله عليك أميراً.[١]

هـذا موجـز مـا ذكـره المفسرون والمحدّثـون حـول الآيـة، وفي صحاحهـم ومسانيدهم.

١. تاريخ الطبري: ٢/ ٦٢ـ ٦٣، الكامـل في التاريخ: ٢/ ٤٠ـ ٤١، مسند أحمد:١/ ١١١، شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢١٠ـ ٢١١.

وهناك من حرّف الكلم عن مواضعه، أو حرّفها المستنسخون في كتبهم:

١. منهم محمد بن جرير الطبري (المتوفّى عام ٣١٠هـ) حيث ذكر في تاريخه حديث بدء الدعوة كما نقلناه غير أنّه حرف الكلم في موضعين:

أحدهما: قول النبي ﷺ: «على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي» وضع في مكانه قوله: «على أن يكون كذا وكذا».

ثانيهما: قول النبي ﷺ: إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي» حيث حرّفه إلى قوله:إنّ هذا أخي وكذا وكذا.

ونحن لا نتّهم الطبري شخصاً بالتحريف، ولكن يحتمل تطرق التحريف إلى تفسيره من جانب النُّسّاخ، بشهادة سرد الواقعة في تاريخه برمّتها دون أدنى تحريف.

٢. منهم ابن كثير(المتوفّى عام ٧٧٤هـ): فقد حرف الكلم عن مواضعه في تفسيره وتاريخه ولم يقتنع بالتحريف في مكان واحد.[1]

ولا نستبعد أن يكون التحريف مستنداً إلى نفس المؤلف لأنّ له مواقف معادية من أهل بيت النبوة ﷺ.

ومما يثير الاستغراب أن تصدر تلك الهفوة من وزير المعارف المصرية «حسنين هيكل» الأسبق فقد أثبت في الطبعة الأُولى من كتابه «حياة محمد» قول النبي ﷺ: أيُّكم يؤازرني على أن يكون أخي و وصيي وخليفتي، ولم يذكر خطاب النبيﷺ لعليعليه السلام عند ما أعلن مؤازرته له و هو قوله : إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي.

ولكنّه ارتكب في الطبعات الأُخرى جناية كبيرة بحذفه كلتا الجملتين من

---

١. انظر البداية والنهاية :٢/ ٤٠، تفسير ابن كثير:٣/ ٣٥١.

رأس وكأنّ النبي ﷺ لم يتفوه بها وكأنّ الكاتب لم يذكر إحدى الجملتين في الطبعة الأُولى، وبذلك أسقط كتابه عن أيَّة قيمة علمية.

فلو كان هذا هو الميزان في ضبط الحقائق لثبت أنّ كثيراً من فضائل آل البيت عليهم السلام لعبت بها يد التحريف الجانية وما بقي ليس إلاّ فلتات التاريخ .

٢. آية الولاية وخلافة علي

لم تزل الشيعة عن بكرة أبيهم يستدلون على إمامة علي عليه السلام وقيادته وزعامته بعد النبي ﷺ بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ راكِعُونَ* وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرسُولَهَ وَالّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ﴾ .[١]

استدلت الشيعة بهذه الآية على أنّ عليّاً عليه السلام وليّ المسلمين بعد رسول الله ﷺ قائلين بأنّ الآية تعد الولي ـ بعد الله و رسوله ـ الّذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة في حال الركوع، و قد تضافرت الروايات بأنّ علياً عليه السلام تصدّق بخاتمه و هو راكع فنزلت الآية في حقّه.

أخرج الحفاظ و أئمّة الحديث عن أنس بن مالك و غيره أنّ سائلاً أتى المسجد و عليٌّ عليه السلام راكعٌ فأشار بيده للسائل، أي اخلع الخاتم من يدي. قال رسول الله : يا عمر وجبت. قال: بأبي أنت و أُمّي يا رسول الله ما وجبت؟!قال: وجبت له الجنّة، والله ما خلعه من يده حتّى خلعه الله من كلّ ذنب و من كلّ خطيئة. قال: فما خرج أحدٌ من المسجد حتّى نزل جبرئيل بقوله عزّ وجلّ: ﴿إنما

---

١. المائدة: ٥٥ـ٥٦.

وليّكم اللهُ و رسوله و الّذين آمنوا الّذين يُقيمون الصَّلاة و يُؤتون الزَّكاة و هُمْ راكعون﴾. فأنشأ حسّان بن ثابت يقول:

أبا حسن تفديك نفسي و مهجتي	بطيءٍ في الهدى و مسارع
أيذهب مدحي و المحبّين ضايعاً؟!	وما المدح في ذات الإله بضائع
فأنت الذي أعطيت إذ أنت راكعٌ	فدتك نفوس القوم يا خير راكع
بخاتمك الميمون يا خير سيّدٍ	و يا خير شارٍ ثمّ يا خير بائع
فأنزل فيك الله خير ولاية و قد و كلّ	و بيّنها في محكمات الشرائع [1]

وقد أخرجه ابن جرير الطبري [2] والحافظ أبوبكر الجصاص الرازي في أحكام القرآن[3] و الحاكم النيسابوري (المتوفّى ٤٠٥هـ) [4] و الحافظ أبو الحسن الواحدي النيسابوري (المتوفّى ٤٦٨هـ) [5] و جار الله الزمخشري (المتوفّى ٥٣٨هـ) إلى غير ذلك من أئمّة الحفاظ و كبار المحدثين ربما ناهز عددهم السبعين ، وهم بين محدّث ومفسّر و مؤرخ و يطول بنا الكلام لو قمنا بذكر أسمائهم ونصوصهم، و كفانا في ذلك مؤلّفات مشايخنا في ذلك المضمار. [6]

١. بلوغ المرام للبحراني:١٠٦، نقلاً عن الحافظ أبي نعيم الإصفهاني في كتابه الموسوم بـ «نزول القرآن في أميرالمؤمنين عليه السلام».

٢. تفسير الطبري: ٦/ ١٨٦.

٣. أحكام القرآن:٢/ ٥٤٢ و رواه من عدّة طرق.

٤. معرفة أصول الحديث: ١٠٢.

٥. أسباب النزول: ١٤٨.

٦. لاحظ المراجعات للسيد شرف الدين العاملي، المراجعة الأربعون، ص ١٦٢ــ ١٦٨ والغدير:٣/ ١٦٢، و قد رواه من مصادر كثيرة.

و لا يمكـن لنا إنكـار هذه الـروايات المتضـافرة لـو لم تكن متـواترة، فـانّ اجتماعهم على الكذب أو على السهو و الاشتباه أمر مستحيل.

و المراد من الـولي في الآية المباركة هـو الأولى بالتصرف كما في قولنـا : فلان وليّ القاصر، و قول الرسول ﷺ «أيّما امرأة نُكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل» وقد صرّح اللغويّون و منهـم الجوهري في صحاحه بأنّ كلّ مـن ولي أمر أحد فهو وليّه ، فيكون المراد: انّ الّذي يلي أُموركم فيكون أولى بها منكم إنّما هو الله عزّوجلّ و رسوله و من اجتمعت فيه هذه الصفات: الإيمان و إقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة في حـال الـركـوع. و لم يجتمـع يـوم ذاك إلاّ في الإمـام علي عليه السلام حسب النصوص المتضافرة.

و في حقّه نزلت هذه الآية.

و الدليل على أنّ المراد مـن الولي هو الأولى بالتصرّف أنّه سبحـانه أثبت في الآية الولاية لنفسه و لنبيّه و لوليّه على نسق واحد، وولاية الله عزّوجلّ عامة فولاية النبي و الـولي مثلها و على غرارها. غير انّ ولايـة الله، ولاية ذاتية و ولاية الـرسول والولي مكتسبة معطاة، فهما يليان أُمور الأُمّة بإذنه سبحانه.

ولو كـانت الولايـة المنسوبة إلى الله تعالى في الآيـة غير الولاية المنسـوبة إلى الّذين آمنوا» لكان الأنسب أن تفرّد ولاية أُخرى للمؤمنين بالذِّكر، دفعاً للالتباس، كما نرى نظيرها في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ باللهِ و يُؤْمِنُ للمُؤمِنين ﴾.[1]

نرى أنّـه سبحانه كـرر لفظ الإيمان، و عـدّاه في أحدهما بالبـاء، و في الآخر

---

١. التوبة: ٦١.

بالـلاّم لاختلاف في حقيقة إيمانـه بالله، و للمؤمنين حيـث إنّ إيمانه بالله سبحـانه إيمان جـدّي و تصديـق واقعي، بخـلاف تصديقـه للمؤمنين المخبريـن بقضايـا متضـادة حيث لا يمكـن تصديـق الجميع تصـديقاً جـدّياً، و الـذي يمكن هـو تصديقهم بالسماع و عدم الرفض و الرد، ثمّ التحقيق في الأمر، و ترتيب الأثر على الواقع المحقّق.

و ممّا يكشـف عن وحدة الـولاية في الآية المبحـوثة انّـه سبحانه أتـى بلفظ «وليكم» بالإفراد ، و نسبه إلى نفسه و إلى رسـوله و إلى الّذين آمنوا، و لم يقل: «إنّما أولياؤكم»، ومـا هذا إلاّ لأنّ الولاية في الآية بمعنى واحـد و هو: الأولى بالتصرف، غير أنّ الأولوية في جانبه سبحانه بالأصالة و في غيره بالتبعية.

وعلى ضـوء ذلك يُعلـم أنّ القصر والحصر المستفاد مـن قولـه:«إنّما» لقصر الإفراد ، و كأنّ المخاطبين يظنـون أنّ الولاية عامّة للمذكـورين في الأُمة و غيرهم، فأُفرد المذكورون للقصر، و أنّ الأولياء هؤلاء لا غيرهم.

ثمّ يقـع الكلام في تبيين هـؤلاء الّذين وصفهـم الله سبحانه بـالولايـة و هم ثلاثة:

١ . الله جلّ جلاله.

٢ . و رسوله الكريم ﷺ.

وهما غنيان عن البيان.

٣. فبما أنّه كان مبهماً بيّنه بذكر صفاته و خصوصياته الأربع:

١ . ﴿الّذين آمنوا﴾.

٢ . ﴿الّذين يقيمون الصلاة﴾.

٣. ﴿و يؤتون الزكاة﴾ .

و لا شكّ أنّ هذه السمات، سمات عامة لا تميّز الولي عن غيره.

فالمقام بحاجة إلى مزيد توضيح يجسّد الولي و يحصره في شخص خاص لا يشمل غيره، و لأجل ذلك قيّده بالسمة الرابعة أعني قوله: ﴿و هم راكعون﴾.

وهي جملة حاليّة لفاعل «يؤتون»، وهو العامل فيها. وعند ذلك انحصر في شخص خاص على ما ورد في الروايات المتضافرة.

هذا هو منطق الشيعة في تفسير الآية لا تتجاوز في تفسيرها عن ظاهرها قيد أنملة.

○ بلاغ رسمي في غديرخُم

تقدّم أنّ النبي ﷺ قد فوّض في كلامه أمر الخلافة إلى الله سبحانه، فقد كان يترصد أمره سبحانه في ذلك المجال حتى وافاه الوحي، وخاطبه بقوله سبحانه: ﴿يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الكافِرين﴾.[1]

نزلت الآية الشريفة يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة حجة الوداع في العام العاشر من الهجرة، لما بلغ النبي الأعظم غدير خم فأتاه جبرئيل بها، فقال: يا محمد إنّ الله يقرئك السلام ويقول لك: ﴿يا أَيُّها الرَّسُول بَلِّغ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّك﴾ وكان أوائل القوم قريبين من الجحفة، فأمره أن يرد من تقدّم منهم، ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، وأن يقيم علياً عليه السلام علماً للناس ويبلغهم ما أنزل الله فيه و أخبره بأنّ الله عزّوجلّ قد عصمه من الناس.

---

١. المائدة: ٦٧.

وقد اتّفقت الشيعة الإمـامية على نزول الآية في يوم غديـر خم، وافقهم على ذلـك لفيف مـن المحدّثين والمؤرّخين، فقـد ذكـر الواقعـة الطبري في تفسيره، كما رواها السيوطي في الدر المنثور عن جماعة من الحفاظ، منهم:

١. الحافظ ابن أبي حاتم أبو محمد الحنظلي الرازي (المتوفى ٣٢٧هـ).

٢. الحافظ أبو عبد الله المحاملي(المتوفّى ٣٣٠هـ).

٣. الحافظ أبو بكر الفارسي الشيرازي(المتوفّى ٤٠٧هـ).

٤. الحافظ ابن مردويه (المتوفى ٧١٦هـ)

وغيرهم من أعـلام الحديث والتاريخ ، وقد جمع المحقّـق الأميني أسماء من روى نزول هذه الآية في يوم غدير خم من أصحاب السنّة فبلغ ٣٠ رجلاً.[١]

وعلى كلّ حال فقد قام النبي ﷺ بتحقيق البلاغ في يوم غدير خم، فخطب خطبـة، و قال: «أيّها النـاس، إنيّ أوشك أن أُدعـى فأُجِبْـتُ، وإنّي مسؤول وأنتـم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟»

قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت، وجهدت، فجزاك الله خيراً.

قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمّداً عبده و رسوله، وأنّ جنته حق، وناره حق، وأنّ الموت حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟»

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال: «اللّهمّ اشهد»، ثمّ قال: أيّها الناس، ألا تسمعون؟

قالوا: نعم.

---

١. الغدير: ١/ ٢١٤ـ٢٢٣.

قال: «فإنّي فرط على الحوض، فانظروني كيف تخلّفوني في الثقلين».

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله ؟

قال: «الثقل الأكبر، كتاب الله، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني انّهما لـن يفترقا حتـى يردا عليّ الحوض، فـلا تقدمـوهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا».

ثمّ أخذ بيـد علي فرفعها، حتى رُؤي بيـاض آباطهما، وعرفه القـوم أجمعون، فقال: «أيّها الناس من أولى الناس با لمؤمنين من أنفسهم؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال:« إنّ الله مـولاي، وأنا مـولى المؤمنين، وأنا أولى بهم مـن أنفسهم.فمـن كنت مولاه، فعليّ مولاه» ـ يقولها ثلاث مرات ـ

ثمّ قال: «اللّهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، و ابغض من أبغضـه، وانصر من نصره، واخذل مـن خذله، وأدر الحقّ معـه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثمّ لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله:

﴿اَلْيَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دينكُمْ وَأَتْمَمْـتُ عَلَيْكُـمْ نِعْمَتـي﴾ الآيـة، فقـال رسول الله ﷺ: «الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمـة ورضى الربّ برسـالتي، والولاية لعليّ من بعدي».

ثمّ أخذ الناس يهنّئون علياً، وممن هنّأه في مقدم الصحابة الشيخان أبو بكر وعمر، كلّ يقول: بخ بخ، لك يا ابن أبي طـالب أصبحت مولاي و مولى كلّ مؤمن ومؤمنة.

وقال حسـان: ائذن لي يا رسـول الله أن أقول في عليّ أبيـاتاً، فقـال: قل على

بركة الله ، فقام حسان، فقال:

يناديهم يوم الغدير نبيهم	بخمٍّ واسمع بالرسول منادياً
فقال فمن مولاكم ونبيكم	فقالوا ولم يُبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت نبيّنا	ولم تلق منا في الولاية عاصياً
فقال له قم يا عليُّ فإنّني	رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
فمن كنت مولاه فهذا وليُّه	فكونوا له أتباع صدق مواليا
هناك دعا اللّهمّ وال وليّه	وكن للذي عادىٰ عليّاً معادياً

فلمّا سمع النبي أبياته، قال: «لا تزال يا حسّان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك».[1]

إنّ النبي ﷺ وإن أشار إلى ولاية الإمام علي بن أبي طالب بعد رحيله، فتارة في بدء الدعوة ، و أُخرى في غزوة تبوك[2]، غير انّ ما ذكره متقدماً على حديث الغدير لم يكن بياناً رسمياً لعامة الأُمة بل كانت بلاغات مقطعية، وأمّا في ذلك اليوم فقد قام بإبلاغ المحتشد العظيم على نحو أخذ منهم الإقرار والاعتراف بولاية علي عليه السلام.

وبذلك أكمل دعائم دينه وأتم نعمة الله عليهم كما سيوافيك.

وأمّا تواتر الحديث فحدّث عنه ولا حرج، فقد رواه من الصحابة ما يربو علىٰ ١٢٠ صحابياً وأمّا من التابعين ما يقارب ٨٤ تابعياً، وأمّا العلماء الذين نقلوه عبر القرون فيزيد على ٣٦٠ عالماً، تجد نصوصهم و أسماءهم وأسماء كتبهم

١. الغدير: ٢/ ٣٤ـ ٤٢.

٢. حديث المنزلة: أنت بمنزلة هارونَ من موسىٰ إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي.

بتفصيل في كتاب الغدير.[١]

ولا أظن انّ ذا مسكة و من له إلمام بعلم الحديث و قراءة الصحاح والمسانيد ينكر صحة حديث الغدير أو تضافره بل تواتره، ولو أنكره فإنّما أنكره بلسانه لا بجنانه وقلبه اللّهمّ إلاّ إذا كان غير ملم بعلم الحديث.

وإنّما المهم دلالة الحديث على ولاية الإمام وإمامته.

وقد استخدم النبي ﷺ لفظة «مولى» وقال: «من كنت مولاه» فهي بمعنى أولى، كما في قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ لاٰ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاٰ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النّارُ هِيَ مَولاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.[٢]

والمعنى أولى بكم النار كما فسره غير واحد من المفسرين، وهناك قرائن تؤيد على أنّ المقصود من المولى هو الأولى. الوارد في قوله سبحانه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾.[٣]

وهناك قرائن لفظية محفوفة بالحديث وقرائن حالية تثبت انّ المراد من المولى هو الأولى الوارد في الآية المتقدمة، وإليك تلك القرائن:

القرينة الأُولى: قوله ﷺ في صدر الحديث: «أَلَسْتُ أولىٰ بِكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ» وهو دليل على أنّ المرادمن قوله: «فمن كنت مولاه» هو الأولى و ذلك لأنّه رتب الثاني على الأوّل.

القرينة الثانية: دعاؤه في صدر الحديث: «اللّهم وال من والاه، و عاد من عاداه» فلو أُريد منه غير الأولى بالتصرّف فما معنى هذا التطويل؟ فانّه لا يلتئم

---

١. الغدير: ١/ ٧٣ـ ١٥٢، تحت عنوان «طبقات الرواة من العلماء».

٢. الحديد: ١٥.

٣. الأحزاب: ٦.

ذكر هذا الدعاء إلاّ بتنصيب علي عليه السلام مقاماً شامخاً يؤهله لهذا الدعاء.

القرينة الثالثة: أخذ الشهادة من النـاس، حيث قال ﷺ: «ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده و رسـوله» فـانّ وقوع «مـن كنت مـولاه» في سياق الشهادة بـالتوحيد والـرسالة والمعـاد، يُحقق كـون المراد الإمامة والخلافـة الملازمة للأولوية على الناس.

القرينة الرابعة: التكبير على إكمال الدين حيـث لم يتفرقوا بعد كـلامه حتى نزل إليه الوحي، بقوله تعالى : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الديـن و إتمام النعمة ورضى الرب بـرسالتي والولايـة لعلي من بعدي، فبـأي معنى يكمـل به الـدين وتتـم به النعـم و يرضـى به الـرب في عداد الرسالة، غير الإمامة التي بها تمام الرسالة وكمال نشرها وتوطيد دعائمها.

القرينة الخامسة: نعى النبي ﷺ نفسه إلى الناس حيث قال : «كأنّي دعيت فأجبت»، وفي نقل آخر انّه يوشك أن أُدعى فأُجيب، وهو يعطي هذا الانطباع انّ النبيﷺ قد بلّـغ أمراً مهمّاً كـان يحذر أن يدركـه الأجل قبـل الإشارة إليـه، و هو يعرب عن كون مـا أشار إليه في هذا المحتشد هو تبليغ أمر مهـم يخاف فوته وليس هو إلاّ الإمامة.

القرينة السادسة: الأمر بإبـلاغ الغائبين حيث أمر في آخر خطبتـه بأن يبلغ الشاهد الغائب، فلو لم يكن هذا الأمر الإمامة فما معنى هذا التأكيد؟!

إلى غير ذلك من القرائن التي استقصاها شيخنا الأميني في غديره.[1]

وقد أفرغ أُدباء الإسلام حديث النبي في قالب الشعر، فترى أنّهم يعبرون عن

---

١. الغدير: ١/ ٣٧٠ـ٣٨٣.

حديث الغدير بقرائضهم وقصائدهم، وفي ذلك دلالة باهرة على أنّ المراد من المولى هي الأولوية، وها نحن نذكر شيئاً ممّا أنشد في عصر الرسالة أو بعده وراء مانقلناه عن حسان بن ثابت.

قال علي عليه السلام في أُرجوزته:

وأوجب لي ولايته عليكم ... رسول الله يوم غدير خم[1]

وقال قيس بن سعد بن عبادة ذلك الصحابي العظيم:

وعليٌّ إمامنا وإمامٌ ... لسوانا أتى به التنزيلُ

يوم قال النبيُّ من كنت مولا ... ه فهذا مولاه خطبٌ جليلُ[2]

إنّ داهية العرب عمرو بن العاص أنشد قصيدة طويلة معروفة بالجلجلية معترضاً فيها على معاوية حيث لم يف بها وعده، و جاء فيها ما يلي:

وكم قد سمعنا من المصطفى ... وصايا مخصّصة في علي

وفي يوم خم رقى منبراً ... يُبلّغ والركب لم يرحلِ

فأنحله إمرة المؤمنين ... من الله مُستخلف المنحلِ[3]

إلى غير ذلك من القصائد و المنظومات والأراجيز لأُدباء العصر وشعراء الإسلام الّذين يحتجّ بقولهم و كلماتهم، فقد صَبُّوا حديث الغدير في قرائضهم ولم يفهم الجميع منها إلاّ الأولوية، كأولوية الرسول التي هي مناط الإمامة والخلافة ، فلو لم يكن القائد أولى من المقود لما كان لكلامه نفوذ.

وفي الختام نذكر نزول آية إتمام النعمة في حقّ علي عليه السلام ليُعلم أنّ حديث

---

١ و ٢ و٣. الغدير: ٢/ ٢٥ و ٦٧ و ١١٥.

الغدير محفوف بآيتين : آية قبل النزول وهي آية التبليغ، وآية بعده وهي آية الإكمال، قال سبحانه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .

أصفقت الإمامية عن بكرة أبيهم على نزول هذه الآية الكريمة حول نص الغدير بعد أصحار النبي ﷺ بولاية مولانا أمير المؤمنين ؑ بألفاظ درّية صريحة، فتضمَّن نصّاً جليّاً عرفته الصحابة وفهمته العرب فاحتج به من بلغه الخبر، وصافق الإماميّة على ذلك كثيرون من علماء التفسير وأئمة الحديث وحفظة الآثار من أهل السنة، وهو الذي يساعده الاعتبار ويؤكّده النقل الثابت في تفسير الرازي (٣/ ٥٢٩) عن أصحاب الآثار : انّه لمّا نزلت هذه الآية على النبي ﷺ لم يُعمّر بعد نزولها إلاّ أحداً وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين، وعيَّنه أبو السعود في تفسيره بهامش تفسير الرازي :(٣/ ٥٢٣) وذكر المؤرخون منهم: انّ وفاته ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأوّل، وكأنّ فيه تسامحاً بزيادة يوم واحد على الاثنين وثمانين يوماً بعد إخراج يومي الغدير والوفاة.

وعلى أي حال فهو أقرب إلى الحقيقة من كون نزولها يوم عرفة، كما جاء في صحيحي البخاري و مسلم وغيرهما لزيادة الأيام حينئذ، على أنّ ذلك معتضد بنصوص كثيرة لا محيص عن الخضوع لمفادها.[1]

وقد أُثيرت حول الاستدلال بالآية إشكالات من قبل الإمام الفخر الرازي (٥٤٣ـ٦٠٨هـ) في تفسيره الكبير.[2]

---

١. الغدير:١/ ٢٣٠.

٢. التفسير الكبير:١٢/ ٢٦ . وقد أجبنا عن هذه الأسئلة بتفصيل في مقال خاص طبع في كتاب رسائل و مقالات، لاحظ ص ٥٦٨ ـ ٥٧٥ من الكتاب المذكور.

تمّ البحث حول الإمامة و الخلافة،
وكما ذكرنا في المقدّمة لمّا كان
بين الإمامة و التعرف على أهل البيت عليهم السلام
صلة وثيقة عقدنا فصلاً حول أهل البيت
في القرآن الكريم يتناول سماتهم و
حقوقهم عليهم السلام

أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم

لقدحاز أهل البيت عليهم السلام على أهمية بالغة في القرآن الكريم،وأشار إليهم في غير واحد من آياتـه ببيان سماتهم، وحقوقهم، وما يمت إليهـم بصلة، لا سيما آية التطهير المعروفـة بين المسلمين، أعني: قـوله سبحـانه: ﴿إِنّما يُـريدُ اللهُ لِيُـذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

ولأجـل أهمية الموضـوع ألّـف غير واحد مـن علماء الفـريقين كتباً ورسـائل حوله، أفاضوا فيها الكلام حول هوية أهل البيت ومناقبهم وفضائلهم.

وقد استرعى انتبـاهي في الفترة الأخيرة كتابان حول أهـل البيت: أحدهما: «**حقوق أهل البيت** عليهم السلام» لابن تيميـة (المتوفّى عـام ٧٢٨هـ)، والآخـر: «**الشيعة وأهل البيت**» للكاتب المعـاصر إحسان إلهي ظهير حيث بذلا الوسـع لبيان نزول الآية في نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم و الكتاب الثاني أشدّ بخساً في هـذا المجال. وقد أنصف الكتاب الأوّل بعض الإنصاف.

هذا وذاك ممّا دعاني إلى تبيين هوية أهـل البيت من خلال القرائن الموجودة في الآية والـروايات المتضافـرة ، مضافـاً إلى بيان سماتهم وحقوقهـم عسى أن يجبر بعض ما هضم من حقوقهم في ذينك الكتابين خصوصاً الكتاب الأخير.

وأود أن أشير في الختـام إلى نكتـة وهـي انّ آيـة التطهير لحنهـا لحن الثنـاء والتمجيد على أهل البيت عليهم السلام في حين انّ لحن الآيات الواردة في نسـاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم النصح والوعظ تارة، والتنديد والتوبيخ أُخرى.

أمّا الأوّل فكما في الآيات الواردة في سورة الأحزاب.

يقول سبحانه: ﴿يا أيُّها النَّبيُّ قُل لأزواجِكَ إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَميلاً﴾ .[١]

﴿يا نِساءَ النَّبيِّ مَنْ يَأتِ مِنكُنَّ بِفاحِشة مُبيّنةٍ يُضاعَفْ لَها العَذابُ ضِعْفَينِ وَكانَ ذلِكَ عَلى اللهِ يَسيراً﴾ .[٢]

﴿يا نِساءَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَولاً مَعْرُوفاً﴾ .[٣]

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ .[٤]

وأمّا الثاني أي التنديد و التوبيخ ففي الآيات الواردة في سورة التحريم:

﴿يا أيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرضاةَ أَزْواجِكَ واللهُ غَفُورٌ رَحيم﴾ .[٥]

﴿إن تَتُوبا إلى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وَ إنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وجِبْرِيلُ وصَالِحُ الْمُؤمِنِينَ والمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِير﴾ .[٦]

﴿عَسىٰ رَبُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيراً مِنكُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً﴾ .[٧]

فأُمّهات المؤمنين كسائر الصحابيات لهنّ من الفضل ما لغيرهنّ، ولكن آية التطهير بلغت من الثناء على أهل البيت بمكان تأبىٰ من الانطباق عليهن بما عرفت لهنّ من السمات في الآيات وستوافيك دلالة الآية على عصمة أهل البيت وتنزيههم من الزلل والخطأ.

---

١. الأحزاب: ٢٨. ٢. الأحزاب: ٣٠. ٣. الأحزاب: ٣٢. ٤. الأحزاب: ٣٣.
٥. التحريم: ١. ٦. التحريم: ٤. ٧. التحريم: ٥.

أهل البيت عليهم السلام

سماتهم و حقوقهم

لقد وردت لفظة «أهل البيت» مرّتين في القرآن الكريم.

قال سبحانه حاكياً عن لسان الرسل: ﴿قالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أمرِ اللهِ رَحمةُ اللهِ وبَركاتُهُ عَلَيْكُمْ أهلَ البَيْتِ إنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيد﴾ .[1]

وقال تعالى : ﴿وقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجاهِلِيَّةِ الأُولى وأَقِمْنَ الصلاةَ وآتِينَ الزكاةَ واطِعْنَ اللهَ ورَسُولَهُ إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾ .[2]

فالآية الأُولى تخاطب أهل بيت خليل الله عند ما جاءتهم الرسل فبشّروا امرأته بإسحاق ومن وراء إسحاق بيعقوب.

ولمّا كانت هذه البشارة على خلاف السنن الكونية حيث كان الخليل شيخاً وزوجته طاعنة في السن، فلذلك تعجبت وقالت مخاطبة الرسل: ﴿يا وَيْلَتي ءَأَلِدُ وأنَا عَجُوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخاً إنّ هَذا لَشَيْءٌ عَجِيب﴾ [3] فوافاها الجواب من

---

١. هود: ٧٣.

٢. الأحزاب: ٣٣.

٣. هود: ٧٢.

جانب الرسل الذين كانوا ملائكة وتمثّلوا بصورة الإنسان، قائلين: ﴿**أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انّه حميد مجيد**﴾ .

وأمّا الآية الثانية فقد وردت في ثنايا الآيات التي نزلت في شأن نساء النبي ﷺ بدعوتهنّ إلى التخلّي عن الدنيا والتحلّي بالتقوىٰ إلى غير ذلك من الوصايا التي وردت ضمن آيات. [١]

والمهم في هذا المقام هو معرفة أهل البيت في الآية الثانية وما هي سماتهم وحقوقهم في الذكر الحكيم؟

فهناك مباحث ثلاثة:

من هم أهل البيت عليهم السلام ؟

و ماهي سماتهم؟

وماهي حقوقهم؟

وها نحن نقوم بدراسة هذه المواضيع في فصول ثلاثة مستمدين من الله العون والتوفيق.

---

١ . انظر سورة الأحزاب، الآيات: ٢٨ ـ ٣٤.

الفصل الأوّل

من هم أهل البيت عليهم السلام

إنّ المعروف بين المفسرين والمحدّثين، هو انّ المراد من أهل البيت في الآية المباركة، العترة الطاهرة الذين عرّفهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الثقلين، وقال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي».

غير انّ تحقيق مفاد الآية وتبيين المراد من أهل البيت فيها وانطباقها على حديث الثقلين يستدعي البحث في موردين:

أ. أهل البيت لغة وعرفاً.

ب. أهل البيت في الآية المباركة.

وإليك الكلام فيهما واحداً تلو الآخر .

***

أ. أهل البيت لغة وعرفاً:

هذا اللفظ مركب من كلمتين ولكل مفهوم، ويمكن تحديد مفهوم «الأهل» من موارد استعماله فيقال:

١. أهل الأمر والنهي. ٢. أهل الإنجيل.
٣. أهل الكتاب. ٤. أهل الإسلام.
٥. أهل الرجل. ٦. أهل الماء.

وهـذه الموارد توقفنـا على أنّ كلمة «أهـل» تستعمل مضـافاً فيمـن كان لـه علاقـة قوية بمـن أُضيف إليـه، فأهل الأمـر والنهي هم الـذين يمارسـون الحكم والبعث والـزجر، وأهـل الإنجيل هـم الذين لهم اعتقـاد به كـأهل الكتـاب وأهل الإسلام.

وقد اتفقت كلمة أهل اللغة على أنّ الأهل والآل كلمتان بمعنى واحد، قال ابن منظور: آل الرجـل: أهله، وآل الله وآل رسوله: أولياؤه، أصلها أهـل ثم أُبدلت الهاء همزة فصارت في التقديـر أأل، فلمّـا توالت الهمـزتان أبدلوا الثـانية ألفاً، كما قالوا: آدم وآخر، وفي الفعل آمن وآزر .

وقد أنشأ عبد المطلـب عند هجوم ابرهة على مكة المكرمـة، وقد أخذ حلقة باب الكعبة وقال:

وانصر على آل الصـليـب وعابديـه اليـــوم آلك

وعلى ما ذكرنا، فهذا اللفظ إذا أُضيف إلى شيء يقصد منه المضاف الذي له علاقـة خاصـة بالمضاف إليـه، فأهـل الرجـل مثلاً هـم أخـص الناس بـه، وأهل المسجد، المتردّدون كثيراً إليـه، وأهل الغابـة القاطنـون فيها ... فإذا لاحظنـا موارد

استعمال هذه الكلمة لا نتردّد في شمولها للزوجة والأولاد، بل وغيرهم ممّن تربطهم رابطة خاصة بالبيت من غير فرق بين الأولاد والأزواج، ولأجل ذلك ترى أنّه سبحانه يطلقه على زوجة إبراهيم كما عرفت في الآية.

هذا هو حق الكلام في تحديد مفهوم هذه الكلمة، ولنأت ببعض نصوص أئمّة اللغة.

قال ابن منظور: أهل البيت سكانه، وأهل الرجل أخص الناس به، وأهل بيت النبي : أزواجه وبناته وصهره، أعني: علياً عليه السلام ، وقيل: نساء النبي والرجال الذين هم آله . [1]

فلقد أحسن الرجل في تحديد المفهوم أوّلاً ، وتوضيح معناه في القرآن الكريم ثانياً، كما أشار بقوله: «قيل» إلى ضعف القول الآخر، لأنّه نسبه إلى القيل.

وقال ابن فارس ناقلاً عن الخليل بن أحمد: أهل الرجل: زوجه، والتأهّل، التزوّج، وأهل الرجل: أخص الناس به، وأهل البيت: سكّانه، وأهل الإسلام: من يدين به . [2]

وقال الراغب في «مفرداته»: أهل الرجل من يجمعه وإيّاهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد، فأهل الرجل في الأصل من يجمعه وإيّاهم مسكن واحد، ثم تجوز به فقيل: أهل بيت الرجل لمن يجمعه وإيّاهم النسب وتعورف في أُسرة النبي عليه الصلاة والسلام مطلقاً إذا قيل أهل البيت . [3]

وقال الفيروز آبادي: أهل الأمر : ولاته، وللبيت سكّانه، وللمذهب من يدين به، وللرجل زوجته كأهله، وللنبي أزواجه وبناته وصهره علي ـ رضي الله تعالى

١. لسان العرب: ١١/ ٢٩، مادة «أهل».
٢. معجم مقاييس اللغة: ١/ ١٥٠.
٣. المفردات: ٢٩.

عنه ـ أو نساؤه والرجال الذين هم آله .[١]

هذه الكلمات ونظائرها بين أعلام أهل اللغة كلّها تعرب عن أنّ مفهوم أهل البيت في اللغة هم الذين لهم صلة وطيدة بالبيت، وأهل الرجل من له صلة به بنسب أو سبب أو غيرهما.

هذا هو الحق الذي لامرية فيه والعجب من إحسان إلهي ظهير الذي ينقل هذه النصوص من أئمّة اللغة وغيرهما ثم يستظهر انّ أهل البيت يطلق أصلاً على الأزواج خاصة، ثم يستعمل في الأولاد والأقارب تجوّزاً، ثم يقول: هذا ما يثبت من القرآن الكريم كما وردت هذه اللفظة في قصة إبراهيم بالبشرى، فقال الله عزّ وجلّ في سياق الكلام: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾[٢] وقال: فاستعمل الله عزّ وجلّ هذه اللفظة على لسان ملائكته في زوجة إبراهيم عليه السلام لا غير، وهكذا قال الله عزّ وجلّ في كلامه المحكم في قصة موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾[٣]، فالمراد من الأهل زوجة موسى عليه السلام، وهي بنت شعيب .[٤]

نحن نسأل الكاتب من أين استظهر من كلمات أهل اللغة انّ «الأهل»

---

١. القاموس المحيط: ٣/ ٣٣١.

٢. هود: ٧٣.

٣. القصص: ٣٠.

٤. الشيعة وأهل البيت: ١٦ ـ ١٧.

تطلق أصلاً على الأزواج خاصة، ثم تستعمل في الأولاد تجوّزاً ؟!

أليس قد تقدّم لنا كلام ابن منظور: أهل الرجل: أخص الناس به؟ ! أليس الأولاد أخص الناس بالرجل؟ ومن فسره بقوله: أهل الرجل زوجه لا يريد اختصاصه بالزوج، بل يشير إلى أحد موارد استعماله، ولأجل ذلك يستدركه ويصرح بقوله: أهل الرجل: أخص الناس به.

ثم نسأله عن دلالة الآيتين على اختصاص الأهل بالأزواج وهل في منطق اللغة والأدب جعل الاستعمال دليلاً على الانحصار ؟ فلا شك انّ الأهل في الآيتين أُطلق على الزوجة، وليس الإطلاق دليلاً على الانحصار، على أنه أُطلق في قصة الخليل وأُريد الزوجة والزوج معاً، أي نفس الخليل بشهادة قوله تعالى: ﴿عليكم أهل البيت﴾ والإتيان بضمير الجمع المذكر، وإرادة واحد منهما وحمل الخطاب العام على التعظيم، لا وجه له في المقام.

وحصيلة الكلام: انّ مراجعة كتب اللغة، وموارد استعمال الكلمة في الكتاب والسنّة تعرب عن أنّ مفهوم «الأهل» هو المعنى العام وهو يشمل كل من له صلة بالرجل والبيت صلة وطيدة مؤكدة من نسب أو سبب أو غير ذلك، من غير فرق بين الزوجة والأولاد وغيرهم، وانّ تخصيصها بالزوجة قسوة على الحق، كما أنّ تخصيصها لغة بالأولاد وإخراج الأزواج يخالف نصوص القرآن واستعمالها كما عرفت في الآيات الماضية.

هذا هو الحق في تحديد المفهوم، فهلّم معي نبحث عما هو المراد من هذا المفهوم في الآية الكريمة، وهل أُريد منه كل من انتمى إلى البيت من أزواج وأولاد أو أنّ هناك قرائن خاصة على أنّ المقصود قسم من المنتمين إليه؟ وليس هذا بشيء غريب، لأنّ المفهوم العام قد يطلق ويراد منه جميع الأصناف والأقسام كما يطلق

ويراد منه حسب القرائن بعضهم، وقد عـرفت أنّ المراد من الأهل في قصة موسى زوجته وفي قصـة إبراهيم زوجتـه، وعلى هذا لا شـك في شمول كلمة أهـل البيت للزوجـة والأولاد وغيرهما إلاّ أن تقوم قرائن على أنّ المراد صنف خـاص، والمدّعى انّه قد قامت القرائن على إرادة صنف خاص منهم، وتتبيّـن في البحث الآتي:

ب. أهل البيت في الآية المباركة؟

اختلف المفسرون في بيان ما هو المراد من «أهل البيت» في الآية المباركة على أقوال، غير انّ العبرة بقولين، والأقوال الأُخر شاذة لا يعبأ بها، وانّما اختلقت لحل الإشكالات الواردة على القول الثاني كما سيوافيك بيانها في آخر البحث.

١. المراد بنت النبي وصهره وولداهما الحسن والحسين عليهم السلام.

٢. نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم.[١]

ولا بـد من إمعـان النظـر في تعيين المراد بعد قـابليـة اللفـظ لشمول كلتـا الطائفتين، فيقـول: إنّ هناك قـرائن تدل بـوضوح على أنّ المراد مـن هذه الكلمـة جماعة خاصة منتمين إلى البيت النبوي بوشائج خاصة لا كل المنتمين إليه، وإليك تلك القرائن:

القرينة الأُولى: اللام في «أهل البيت» للعهد

لا شك أنّ اللام قد تطلق ويراد منها الجنس المدخول كقوله سبحانه: ﴿إنّ الإنسان لفي خُسر﴾.[٢]

---

١. وهناك أقوال أُخر شاذة جداً ستوافيك في مختتم البحث.

٢. العصر : ٢.

وقد يطلق ويراد منها استغراق أفراده كقوله سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ .[1]

وثالثة تستعمل في العهد باعتبار معهودية مدخولها بين المتكلّم والمخاطب.

ولا يمكن حمل اللام في «البيت» على الجنس أو الاستغراق، لأنّ الأوّل انّما يناسب إذا أراد المتكلم بيان الحكم المتعلّق بالطبيعة كما يعلم من تمثيلهم لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلإِنسانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ [2] ، ومن المعلوم أنّ الآية الكريمة ليست بصدد بيان حكم طبيعة أهل البيت ، كما لا يصح أن يحمل على العموم، أي: جميع البيوت في العالم، أو بيوت النبي ، وإلاّ لناسب الإتيان بصيغة الجمع فيقول: أهل البيوت، كما أتى به عندما كان في صدد إفادة ذلك، وقال في صدر الآية : ﴿وقرن في بيوتكن﴾ .

فتعين أن يكون المراد هو الثالث، أي البيت المعهود، فالآية تشير إلى إذهاب الرجس عن أهل بيت خاص، معهود بين المتكلم والمخاطب، وحينئذ يقع الكلام في تعيين هذا البيت المعهود، فما هو هذا البيت؟ هل هو بيت أزواجه، أو بيت فاطمة وزوجها والحسن والحسين عليهم السلام ؟

لا سبيل إلى الأوّل، لأنّه لم يكن لأزواجه بيت واحد حتى تشير اللام إليه، بل تسكن كل واحدة في بيت خاص، ولو أُريد واحداً من بيوتهن لاختصت الآية بواحدة منهم، وهذا ما اتفقت الأُمّة على خلافه.

أضف إلى ذلك أنّه على هذا يخرج بيت فاطمة مع أنّ الروايات ناطقة بشمولها، وانّما الكلام في شمولها لأزواج النبي كما سيوافيك بيانه.

---

١. التوبة: ٧٣.

٢. المعارج: ١٩.

هـذا كلّه على تسليـم انّ المراد من البيـت هـو البيت المبنـي من الأحجـار والآجر والأخشاب، فقد عرفت أنّ المتعيّـن حمله على بيت خاص معهود ولا يصح إلاّ حمله على بيت فاطمة، إذ ليس هناك بيت خاص صالح لحمل الآية عليه.

وأمّا لـو قلنا بـأنّ البيت قـد يطلق ويراد منـه تارة هـذا النسق، كما في قـوله تعالى: ﴿وقرن في بيـوتكن ولا تبرجن تبرج الجـاهلية الأولى﴾ ، وأُخرى غير هـذا النمط من البيت، مثل قول القائل: «بيت النبوة» و «بيت الوحي» تشبيهاً لهما على المحسوس، فـلا محيص أن يـراد منه المنتمون إلى النبـوة والوحي بـوشائج معنـوية خاصة على وجه يصح مع ملاحظتها، عدّهـم أهلاً لذلك البيت، وتلك الوشائج عبارة عن النزاهة في الروح والفكر، ولا يشمل كل من يرتبط ببيت النبوة عن طريق السبب أو النسـب فحسب، وفي الـوقت بنفسه يفتقـد الأواصر المعنويـة الخاصة، ولقد تفطّن العـلاّمة الزمخشري صاحب التفسير لهذه النكتـة، فهو يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [١]، لأنّها كانـت في بيت الآيـات ومهبط المعجزات والأُمـور الخارقة للعـادات، فكان عليها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهـي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة، وان تسبـح الله وتمجّده مكـان التعجـب، وإلى ذلـك أشارت الملائكـة في قـولها: ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أرادوا انّ هذه وأمثالها ممّا يكرمكم به رب العزة، ويخصّكم بالأنعام به يا أهل بيت النبوة. [٢]

وعلى ذلـك لا يصـح تفسير الآيـة بكـل المنتسبين عـن طـريـق الأواصر الجسمانية لبيـت خاص حتـى بيت فـاطمة، إلاّ أن تكـون هناك الـوشائج المشـار

١. هود: ٧٣.

٢. الكشاف: ٢/ ١٠٧.

إليها، ولقد ضل من ضل في تفسير الآيـة بغير تلك الجماعة عليها السلام، فحمل البيت في الآية على البيت المبني من حجر ومدر مع أنّ المراد غيره.

ولقد جـرى بين قتادة ذلك المفسر المعـروف وبين أبي جعفر محمـد بن علي الباقر عليه السلام محادثة لطيفة أرشـده الإمام فيها إلى هذا المعنى الذي أشرنـا إليه، قال ـ عندما جلس أمام الباقر عليه السلام ـ : لقد جلست بين يدي الفقهـاء وقدّام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدّام واحد منهم ما اضطـرب قدّامك. قال له أبو جعفر عليه السلام : «ويحك، أتدري أين أنت؟ أنت بين يدي: ﴿في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالغُدُوِّ والآصالِ * رجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ﴾ [١] فأنت ثم ونحن أُولئك» فقـال له قتادة: صدقت والله جعلني الله فداك، والله ما هي بيوت حجارة ولا طين . [٢]

وهذه القرينة تحضّ المفسر على التحقيق عن الأفراد الذين يرتبطون بالبيت بأواصر معينة، وبـذلك يسقط القول بـأنّ المراد منه أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لأنّه لم تكن تلـك الوشـائج الخاصة بـاتفاق المسلمين بينهـم وأقصـى ما عنـدهن انهن كـن مسلمات مؤمنات.

○ القرينة الثانية: تذكير الضمائر

نرى أنّه سبحانه عندما يخاطب أزواج النبي يخاطبهن حسب المعتاد بضمائر التأنيث، ولكنّه عندما يصل إلى قوله: ﴿إنّما يريد الله ليذهب ...﴾ يغير الصيغة الخطابية في التأنيـث ويأتي بصيغة التذكير، فما هو السر في تبديـل الضمائر لو كان المراد أزواج النبي؟ وإليك نص الآيات:

---

١. النور: ٣٦ ـ ٣٧.
٢. الكافي: ٦/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

﴿يا نِسَاءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ .[1]

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلجَاهِلِيَّةِ ٱلأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلاَةَ وَآتِينَ ٱلزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ .[2]

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ ٱللهِ وَالحِكْمَةِ إِنَّ ٱللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ .[3]

ترى أنّه سبحانه يخاطبهن في الآية الأُولى بهذه الخطابات:

١ . لستن. ٢ . اتقيتن. ٣ . فلا تخضعن. ٤ . وقلن.

ويخاطبهن في الآية الثانية بهذه الخطابات:

١ . قرن. ٢ . بيوتكن. ٣ . لا تبرجن. ٤ . أقمن. ٥ . آتين. ٦ . أطعن.

كما يخاطبهن في الآية الثالثة بقوله:

١ . واذكرن . ٢ . بيوتكن.

وفي الوقت نفسه يتخذ في ثنايا الآية الثانية موقفاً خاصاً في الخطاب ويقول:

١ . عنكم. ٢ . يطهركم.

فما وجه هذا العدول إذا كان المراد نساء النبي ؟!

أو ليس هذا يدل على أنّ المراد ليس نساءه ﷺ.

---

١ . الأحزاب: ٣٢.

٢ . الأحزاب: ٣٣.

٣ . الأحزاب: ٣٤.

وقد حاول القرطبي التفصّي عن الإشكال فقال: إنّ تذكير الضمير يحتمل لأن يكون خرج مخرج «الأهل» كما يقول لصاحبه: كيف أهلك، أي امرأتك ونساؤك؟ فيقول: هم بخير، قال الله تعالى: ﴿أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ .[1]

ولكن المحاولة فاشلة فانّ ما ذكره من المثال على فرض سماعه من العرب، إنّما إذا تقدّم «الأهل» وتأخّر الضمير، دون العكس كما في الآية، فإنّ أحد الضميرين مقدّم على لفظ «الأهل» في الآية كما يقول: ﴿عنكم الرجس أهل البيت﴾.

وأمّا الاستشهاد في الآية فغير صحيح، لأنّ الخطاب فيها لإبراهيم وزوجته، فيصح التغليب تغليب الأشرف على غيره في الخطاب والمفروض في المقام انّ الآية نزلت في زوجاته ونسائه خاصة فلا معنى للتغليب.

نعم انّما تصح فكرة التغليب لو قيل بأنّ المراد منه، هو أولاده وصهره وزوجاته، وهو قول ثالث سنبحث عنه في مختتم البحث، وسيوافيك انّ بقية الأقوال كلها مختلقة لتصحيح الإشكالات الواردة على النظرية الثانية، فلاحظ.

القرينة الثالثة: الإرادة تكوينية لا تشريعية

سيوافيك الكلام عند البحث في سمات أهل البيت، انّ من سماتهم، كونهم معصومين من الذنب وذلك بدليل كون الإرادة في قوله: ﴿إنّما يريد الله ...﴾ هي الإرادة التكوينية، التي لا ينفك المراد فيها عن الإرادة وبكون متحقّقاً وثابتاً في

---

١. جامع الأحكام: ١٤/ ١٨٢.

الخارج، وبما أنّ المراد هو إذهـاب الرجس و إثبـات التطهير وتجهيزهـم بـالأسباب والمعدّات المنتهية إلى العصمة، فلا يصح أن يـراد من أهل البيت أزواج النبي ، إذ لم يدّع أحد من المسلمين كونهن معصومات من الذنب ومطهرات من الزلل . فلا مناص عن تطبيقـه على جماعة خاصة مـن المنتمين إلى البيت النبوي الذيـن تحقّق فيهم تعلّقهم بالأسباب والمقتضيات التـي تنتهي بصاحبها إلى العصمة ولا ينطبق هـذا إلاّ على الإمــام علي وزوجتـه والحسنين ﷺ ، لأنّ غيرهـم مجمـع على عـدم اتصافهم بهذه الأسباب.

القرينة الرابعة انّ الآيات المربوطة بأزواج النبي تبتدئ من الآية ٢٨ وتنتهي بـالآية ٣٤ ، وهـي تخاطبهـن تارة بلفـظ «الأزواج» ومـرتين بلفـظ «نساء النبـي» الصريحين في زوجاتـه، فما هو الوجه في العـدول عنهما إلى لفظ «أهل البيـت» فإنّ العدول قرينة على أنّ المخاطب به غير المخاطب بهما .

أهل البيت في كلام النبي الأكرم ﷺ

قـد وقفت على المراد مـن أهل البيـت في الآية المبـاركة مـن خلال دراسـة مفردات الآية وجملها وهدفها.

وهناك طريق آخـر للتعرّف عليهم، وهو دراسة الأحاديـث الواردة في كلام النبي ﷺ فإنّها تكشـف عن وجـه الحقيقة، فنقـول: إنّ للنبي الأكرم عنـاية وافرة بتعريف أهل البيت لم ير مثلها إلاّ في أقلّ الموارد، حيث قام بتعريفهم بطرق مختلفة سيوافيك بيانها، كما أنّ للمحـدّثين والمفسرين وأهل السير والتاريخ عنايـة كاملة بتعريف أهل بيت نبيه ﷺ في مواضع مختلفة حسب المناسبات التي تقتضي طرح هذه المسـألة، كما أنّ للشعراء الإسلاميين المخلصين في طـوال قرون، عنايـة بارزة

ببيان فضائل أهل البيت والتعريف بهم، والتصريح بأسمائهم على وجه يظهر من الجميع اتفاقهم على نزول الآية في حق العترة الطاهرة، وسيوافيك نزر من شعرهم في مختتم البحث.

كل ذلك يعرب عن أنّ الرأي العام بين المسلمين في تفسير أهل البيت هو القول الأوّل، وانّ القول بأنّ المقصود منهم زوجاته كان قولاً شاذاً متروكاً ينقل ولا يعتنى به، ولم ينحرف عن ذلك الطريق المهيع إلاّ بعض من اتخذ لنفسه تجاه أهل البيت موقفاً يشبه موقف أهل العداء والنصب.

قام النبي ﷺ بتعريف أهل البيت بطرق ثلاثة نشير إليها:

١. صرّح بأسماء من نزلت الآية في حقّهم حتى يتعين المنزول فيه باسمه ورسمه.

٢. قد أدخل جميع من نزلت الآية في حقّهم تحت الكساء، ومنع من دخول غيرهم، وأشار بيده إلى السماء وقال: «اللّهم إنّ لكل نبي أهل بيت وهؤلاء أهل بيتي» كما سيوافيك نصه.

٣. كان يمر ببيت فاطمة عدة شهور، كلّما خرج إلى الصلاة فيقول: الصلاة أهل البيت: **﴿إنَّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾**.

وبهذه الطرق الثلاثة حدّد أفراد أهل البيت وعين مصاديقهم على وجه يكون جامعاً لهم ومانعاً عن غيرهم، ونحن ننقل ما ورد حول الطرق الثلاثة في التفسيرين: الطبري والدر المنثور للسيوطي، ثم نأتي بما ورد في الصحاح الستة حسب ما جمعه ابن الأثير الجزري في كتابه «جامع الأُصول» وأخيراً نشير إلى

الجوامع التي جمعت فيها أحاديث الفريقين حول نزول الآية في حق الخمسة الطيبة، ونترك الباقي إلى القارئ الكريم، فإنّ البحث قرآني لا حديثي والاستيعاب في الموضوع يحوجنا إلى تأليف مفرد.

الطائفة الأُولى: التصريح بأسمائهم

١. روى الطبري: عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة : فيّ، وفي عليّ رضي الله عنه، وحسن رضي الله عنه، وحسين رضي الله عنه، وفاطمة رضي الله عنها: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** ».

٢. عن أبي سعيد، عن أُم سلمة زوج النبي ﷺ انّ هذه الآية نزلت في بيتها **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** قالت: وأنا جالسة على باب البيت، فقلت: أنا يا رسول الله ألست من أهل البيت ؟ قال: «إنّك إلى خير، أنت من أزواج النبي ﷺ » قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم.

وفي «الدر المنثور » ما يلي:

٣. روى السيوطي عن ابن مردويه، عن أُم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** وفي البيت سبعة: جبريل، وميكائيل عليهما السلام ، وعلي ، وفاطمة، والحسن، والحسين رضي الله عنهم؛ وأنا على باب البيت، قلت: يا رسول الله ألست من أهل البيت ؟ قال: «إنّك إلى خير، إنّك من أزواج النبي ﷺ».

٤. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي سعيد الخدري ـ

رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيّ، وفي علي، وفاطمـة، وحسن، وحسين ﴿إنّما يـريد الله ليـذهب عنكم الـرجس أهـل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾».

الطائفة الثانية: إدخالهم تحت الكساء

إدخالهم تحت الكساء أو «مرط أو ثـوب» أو «عباءة أو قطيفة»: فقد وردت حوله هذه الروايات:

٥. أخرج الطبري قال: قالت عائشة: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مِرط مرجل مـن شعر أسود فجاء الحسـن فأدخله معه، ثـم جاء علي فأدخله معـه، ثم قال: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾.

٦. أخرج الطبري قـال: عن أُمّ سلمة قـالت: كـان النبي ﷺ عندي وعلي وفاطمة والحسن والحسين فجعلت لهم خزيرة فأكلوا وناموا وغطّى عليهم عباءة أو قطيفة ثم قال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

٧. أخرج الطبري: عن أبي عمار قال: إنّـي لجالس عند واثلة بن الأسقع إذ ذكروا عليّـاً رضي الله عنه فشتمـوه، فلمّا قامـوا قال: اجلـس حتى أخبرك عـن هذا الذي شتموا، انّي عنـد رسول الله ﷺ إذ جاءه علي وفاطمة وحسـن وحسين فألقى عليهم كسـاء له ثـم قال: اللّهـم هؤلاء أهل بيتـي، اللهم اذهـب عنهم الـرجس وطهرهـم تطهيراً.

٨. أخرج الطبري: عن أبي عمار قال: سمعت واثلة بن الأسقع يحدث قال: سـألـت عـن علي بن أبي طـالـب في منـزلـه، فقـالـت فـاطمة: قـد ذهـب يـأتي برسول الله ﷺ إذ جاء، فدخل رسول الله ﷺ ودخلت، فجلس رسول الله ﷺ على

الفراش وأجلس فاطمة عن يمينه وعليّاً عن يساره وحسناً وحسيناً بين يديه، فلفع عليهم بثوبه، وقال: « ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ اللّهم هؤلاء أهلي اللّهم أهلي».

٩. أخرج الطبري: عن أبي سعيد الخدري عن أُمّ سلمة قالت: لمّا نزلت هذه الآية ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ دعا رسول الله ﷺ عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فجلّل عليهم كساءً خيبرياً، فقال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي، اللّهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت: أُمّ سلمة قلت: ألست منهم؟ قال: «أنت إلى خير».

١٠. أخرج الطبري: عن أبي هريرة، عن أُم سلمة: قالت: جاءت فاطمة إلى رسول الله ﷺ ببرمة لها قد صنعت فيها عصيدة تحلها على طبق، فوضعته بين يديه فقال: «أين ابن عمك وابناك؟» فقالت: «في البيت» فقال: «ادعيهم»، فجاءت إلى علي فقالت: «أجب النبي ﷺ أنت وابناك»، قالت أُمّ سلمة: فلما رآهم مقبلين مدَّ يده إلى كساء كان على المنامة فمدّه وبسطه وأجلسهم عليه، ثم أخذ بأطراف الكساء الأربعة بشماله فضمه فوق رؤوسهم وأومأ بيده اليمنى إلى ربّه، فقال: «هؤلاء أهل البيت فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

١١. أخرج الطبري: عن عمر بن أبي سلمة، قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ في بيت أُمّ سلمة: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ فدعا حسناً وحسيناً وفاطمة فأجلسهم بين يديه، ودعا علياً فأجلسه خلفه، فتجلّل هو وهم بالكساء، ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالت أُم سلمة: أنا معهم، قال: «مكانك، وأنت على خير».

١٢. أخرج الطبري: قال عامر بن سعد، قال: قال سعد: قال رسول الله ﷺ حين نزل عليه الوحي فأخذ علياً وابنيه وفاطمة، وأدخلهم تحت ثوبه ثم قال: «رب هؤلاء أهلي وأهل بيتي».

١٣. أخرج الطبري: عن حكيم بن سعد قال: ذكرنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند أم سلمة، قالت: فيه نزلت **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** قالت أم سلمة: جاء النبي ﷺ إلى بيتي فقال: لا تأذني لأحد، فجاءت فاطمة فلم استطع أن أحجبها عن أبيها، ثم جاء الحسن فلم استطع أن أمنعه أن يدخل على جدّه وأُمّه، وجاء الحسين فلم استطع أن أحجبه، فاجتمعوا حول النبي ﷺ على بساط فجللهم نبي الله ﷺ بكساء كان عليه ثم قال: «هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط. قالت فقلت: يا رسول الله: وأنا؟ قال: «إنّك إلى خير».

١٤. روى السيوطي: وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أُم سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنّ رسول الله ﷺ كان ببيتها على منامة له عليه كساء خيبري، فجاءت فاطمة رضي الله عنها ببرمة فيها خزيرة، فقال رسول الله ﷺ: «ادعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً»، فدعتهم، فبينما هم يأكلون إذ نزلت على رسول الله ﷺ: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** فأخذ النبي ﷺ بفضلة أزاره فغشاهم إياها، ثم أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء ثم قال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، قالها ثلاث مرات، قالت أُم سلمة ــ رضي الله عنها ــ: فأدخلت رأسي في الستر، فقلت: يا رسول الله وأنا

معكم؟ فقال: «إنّك إلى خير» مرّتين.

١٥. روى السيوطي: وأخرج الطبراني عن أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ انّ رسول الله ﷺ قال لفاطمة ـ رضي الله عنها ـ : «إئتني بزوجك وابنيه»، فجاءت بهم، فألقى رسول الله ﷺ عليهم كساءً فدكياً ثم وضع يده عليهم، ثم قال: اللّهم إنّ هؤلاء أهل محمد وفي لفظ: آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد». قالت أُم سلمة ـ رضي الله عنها ـ : فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي وقال: «إنّك على خير».

١٦. روى السيوطي: وأخرج الطبراني عن أُم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاءت فاطمة ــ رضي الله عنها ــ إلى أبيها بثريدة لها، تحملها في طبق لها حتى وضعتها بين يديه، فقال لها: «أين ابن عمك؟» قالت: «هو في البيت». قال: «اذهبي فادعيه وابنيك»، فجاءت تقود ابنيها كل واحد منهما في يد وعلي ـ رضي الله عنه ــ يمشي في أثرهما حتى دخلوا على رسول الله ﷺ، فأجلسهما في حجره وجلس علي ــ رضي الله عنه ــ عن يمينه وجلست فاطمة ــ رضي الله عنها ــ عن يساره، قالت أُمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ : فأخذت من تحتي كساء كان بساطناً على المنامة في البيت. [1]

١٧. روى السيوطي: وأخرج ابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: كان يوم أُمّ سلمة أُم المؤمنين ـ رضي الله عنها ــ فنزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله ﷺ بهذه الآية ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ قال: فدعا رسول الله ﷺ بحسن وحسين وفاطمة وعلي فضمهم إليه ونشر عليهم الثوب، والحجاب على أم سلمة مضروب، ثم قال:

---

١. واجمال الحديث وابهامه يرتفع بالرجوع إلى سائر ما روي عن أُم سلمة في ذلك المضمار.

«اللّهم هؤلاء أهل بيتـي، اللّهم أذهب عنهم الرجس وطهـرهم تطهيراً»، قالت أُم سلمة ـ رضي الله عنها ـ: فأنا معهم يا نبي الله ؟ قال: «أنـت على مكانك، وأنّك على خير».

١٨ . روى السيوطي: وأخـرج الترمذي وصحّحه، وابن جريـر، وابن المنذر، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه والبيهقي في سننه، من طرق، عن أُمّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالـت: في بيتي نـزلت: ﴿**إنّما يريـد الله ليذهب عنكم الـرجس أهل البيت**﴾ وفي البيـت فـاطمـة وعلي والحسـن والحسين فجلّلهـم رسـول الله ﷺ بكساء كـان عليه ثـم قال: «هـؤلاء أهل بيتـي فأذهـب عنهم الـرجس وطهـرهم تطهيراً».

١٩ . روى السيوطـي: وأخرج ابـن أبي شيبة، وأحمد، ومسلـم، وابن جـرير، وابن أبي حاتم، والحاكم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: خرج رسول الله ﷺ غداة وعليه مـرط مرجّل من شعر أسود، فجـاء الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ فأدخلها معه، ثم جاء علي فـأدخله معه، ثم قال: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾ .

٢٠ . روى السيوطي: وأخـرج ابن جرير والحاكـم وابن مردويه، عـن سعد قال: نزل على رسول الله ﷺ الوحي ، فأدخل علياً وفاطمة وابنيهما تحت ثوبه ثم قال : «اللّهم هؤلاء أهلي وأهل بيتي» .

٢١ . روى السيـوطـي: وأخـرج ابـن أبي شيبـة، وأحمد، وابـن جريـر، وابـن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه، عن واثلة ابن الأسقـع ـ رضي الله عنـه ـ قـال: جاء رسـول الله ﷺ إلى فاطمة ومعـه حسن وحسين وعلي، حتى دخل فأدنى علياً وفاطمـة فأجلسها بين يديه وأجلس حسناً

وحسيناً كل واحد منهما على فخذه ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾.

الطائفة الثالثة: تعيينهم بتلاوة الآية على بابهم

٢٢. أخرج الطبري: عن أنس، انّ النبي ﷺ كان يمر ببيت فاطمة ستة أشهر كلّما خرج إلى الصلاة، فيقول: الصلاة أهل البيت: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾».

٢٣. أخرج الطبري: أخبرني أبو داود، عن أبي الحمراء، قال: رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد النبي ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ إذا طلع الفجر جاء إلى باب علي وفاطمة فقال: الصلاة الصلاة: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾.

٢٤. أخرج الطبري: عن يونس بن أبي إسحاق باسناده، عن النبي ﷺ مثله.

٢٥. روى السيوطي: أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسّنه، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني، والحاكم وصحّحه، وابن مردويه، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ كان يمرّ بباب فاطمة ـ رضي الله عنها ـ إذا خرج إلى صلاة الفجر ويقول: «الصلاة يا أهل البيت: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾».

٢٦. روى السيوطي: أخرج ابن مردويه، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: لما دخل علي رضي الله عنه بفاطمة رضي الله عنها جاء النبي ﷺ أربعين

صباحاً إلى بابها يقول: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، الصلاة رحمكم الله **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** أنا حرب لمن حاربتم، أنا سلم لمن سالمتم».

٢٧. روى السيوطي: أخرج ابن جرير، وابن مردويه، عن أبي الحمراء رضي الله عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرّة يخرج إلى صلاة الغداة إلاّ أتى إلى باب علي رضي الله عنه فوضع يده على جنبتي الباب ثم قال: «الصلاة الصلاة: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** ».

٢٨. روى السيوطي: وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ـ قال: شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند وقت كل صلاة، فيقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** الصلاة رحمكم الله» كل يوم خمس مرّات.

٢٩. روى السيوطي: وأخرج الطبراني عن أبي الحمراء رضي الله عنه، قال: رأيت رسول الله ﷺ يأتي باب علي وفاطمة ستة أشهر فيقول: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** .[1]

مرور على ما رواه العلمان

قد تعرفت على أكثر ما رواه الطبري والسيوطي في تفسيرهما، وتركنا بعض ما

---

١. لاحظ للوقوف على مصادر هذه الروايات تفسير الطبري: ٢٢/ ٥ ــ ٧، والدر المنثور: ٥/ ١٩٨ ـ ١٩٩.

نقلاه في ذلك المجال عن أعلام التابعين، وما رويناه ينتهي اسناده إلى أقطاب الحديث من الصحابة وعيون الأثر ، وهم:

١ . أبو سعيد الخدري.

٢ . أنس بن مالك.

٣ . ابن عباس.

٤ . أبو هريرة الدوسي.

٥ . سعد بن أبي وقاص.

٦ . واثلة بن الأسقع.

٧ . أبو الحمراء، أعني: هلال بن الحارث.

٨ . أمّهات المؤمنين: عائشة وأُم سلمة.

أيصح بعد هذا لمناقش أن يشك في صحة نزولها في حق العترة الطاهرة؟! وليس الطبري والسيوطي فريدين في نقل تلك المأثورة، بل سبقهما، أصحاب الصحاح والمسانيد فنقلوا نزول الآية في حقهم صريحاً أو كناية، ولا بأس بنقل ما جاء في خصوص الصحاح حتى يعضد بعضه بعضاً فنقول:

٣٠ . أخرج الترمذي: عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ ، قال: لمّا نزلت هذه الآية : ﴿فَقُلْ تَعالَوا نَدعُ أبناءَنا وأبناءَكُمْ ونساءَنا ونساءَكُمْ﴾ [١] الآية، دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: «اللّهم هؤلاء أهلي».

---

١ . آل عمران: ٦١.

٣١. أخرج الترمذي: عن أم سلمة رضي الله عنها: قالت إنّ هذه الآية نزلت في بيتي ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ قالت: وأنا جالسة عند الباب فقلت: يا رسول الله ألست من أهل البيت؟ فقال: «إنّك إلى خير، أنت من أزواج رسول الله ﷺ»، قالت: وفي البيت رسول الله ﷺ وعلي وفاطمة وحسن وحسين، فجلّلهم بكسائه وقال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

وفي رواية انّ النبي ﷺ جلل على الحسن والحسين وعلي وفاطمة ثم قال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي وحامّتي اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت أُم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال: «إنّك إلى خير».

٣٢. أخرج الترمذي: عن عمر بن أبي سلمة قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾ في بيت أُم سلمة، فدعا النبي ﷺ فاطمة وحسناً وحسيناً، فجلّلهم بكساء، وعليٌّ خلف ظهره، ثم قال: «اللّهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». قالت أُم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: «أنت على مكانك وأنت على خير».

٣٣. أخرج الترمذي: عن أنس بن مالك: انّ رسول الله ﷺ كان يمرُّ بباب فاطمة إذا خرج إلى الصلاة حين نزلت هذه الآية قريباً من ستة أشهر يقول: الصلاة أهل البيت ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾.

٣٤. أخرج مسلم: عن عائشة قالت: خرج النبي ﷺ وعليه مِرط مُرَحَّل أسود، فجاءه الحسن فأدخله، ثم جاءه الحسين فأدخله، ثم جاءت فاطمة

فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس﴾ الآية.

٣٥. أخرج مسلم: عن زيد بن أرقم: قال يزيد بن حيان: انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم، فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه، وغزوت معه، وصلّيت خلفه، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً، حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: يا ابن أخي، والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا ومالا فلا تكلّفونيه، ثم قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بماء يدعى: خماً، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أمّا بعد: ألا أيّها الناس، إنّما أنا بشر، يوشك أن يأتيني رسول ربّي فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أوّلهما: كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغّب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده قال: ومن هم؟ قال: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم ، زاد في رواية «كتاب الله فيه الهدى والنور من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ومن أخطأه ضل».

وفي أُخرى نحوه: غير أنّه قال: «وإنّي تارك فيكم ثقلين أحدهما: كتاب الله وهو حبل الله فمن اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على ضلالة، وفيها

فقلنا: من أهل بيته؟ نساؤه قال: لا وأيـم الله انّ المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهـل بيته: أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده .[١]

هـذا ما رواه أصحـاب الصحاح حـول نـزول الآية في حـق العترة الطاهـرة وتركنا ما رواه الإمام أحمد في مسنده روماً لـلاختصار، وفي هذا غنى وكفاية لمن رام الحق واتبعه وعرف البـاطل فاجتنبه، ومـن أراد التوسع فعليه الـرجوع إلى المصادر التالية:

١. العمدة للمحدث الحافظ يحيى بن سعيد المتوفّى عام ٦٠٠ هـ الطبعة الحديثة .[٢]

٢. بحار الأنوار : ٣٥/ ٢٠٦ ـ ٢٢٦.

٣. غاية المرام: ٢٨٧و ٢٩٤، فقد أورد فيه واحداً وأربعين حديثاً من كتب أهل السنّة، وأربعاً وثلاثين من كتب الشيعة.

٤. تفسير البرهان: ٣/ ٣٠٩ ـ ٣٢٥، فقد أورد فيه خمساً وستين حديثاً.

٥. نور الثقلين: ٤/ ٢٧٠ ـ ٢٧٧، أورد فيه خمسة وعشرين حديثاً.

٦. إحقـاق الحق: ٢/ ٥٠٢ ـ ٥٤٤، فقـد نقل نـزول الآيـة في حـق العترة الطاهرة عن كتب أهل السنة حديثـاً وتفسيراً، ثم استدرك ما فاته في الجزء التاسع والرابع عشر.

---

١. راجع للوقوف على هذه المأثورات جامع الأصول لابن الأثير: ١٠/ ١٠٠ ـ ١٠٣، وصحيح مسلم: ٧/ ١٢٢ـ١٢٣.

٢. حُقّق تحقيقاً أنيقاً ونشر من قبل مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام في عام ١٤١٢ هـ .

٧. آية التطهير في حديث الفريقين فقد استقصى في جزء خاص الأحاديث الواردة حول الموضوع من طريق الفريقين شكر الله مساعي الجميع.

وبعد هذا، حان حين البحث عن دلائل القول الآخر : وهو نزول الآية في نسائه.

نزولها في نسائه عليه الصلاة والسلام

قد تعرفت على دلائل القول وقرائنه ومؤيداته وأحاديثه المتواترة التي أطبق على نقلها تسع وأربعون [١] صحابياً وصحابية من أمهات المؤمنين، وقد تلقته الأُمّة بالقبول في القرون الماضية، وأمّا القول الثاني أعني نزولها في نسائه وزوجاته ﷺ فقد نسب إلى أشخاص نقل عنهم، منهم:

١. ابن عباس.

٢. عكرمة.

٣. عروة بن الزبير.

٤. مقاتل بن سليمان.

أمّا الأوّل: فقد نقل عنه تارة، عن طريق سعيد بن جبير، وأُخرى عن طريق عكرمة، قال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن أبي حاتم، وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس عن قوله: ﴿إنّما يريد الله ...﴾ قال: نزلت في نساء النبي ﷺ.

وقال أيضاً: أخرج ابن مردويه عن طريق سعيد بن جبير، عن ابن عباس

---

١. سيوافيك مصدره.

قال: نزلت في نساء النبي ﷺ.

وأمّا الثاني: أعني عكرمة، فقد نقله عنه الطبري، عن طريق «علقمة» وانّ عكرمة كان ينادي في السوق: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس** ...﴾ نزلت في نساء النبي ﷺ.

ونقل في الدر المنثور : أخرج ابن جرير وابن مردويه، عن عكرمة في قوله: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم**...﴾ إنّه قال ليس بالذي تذهبون إليه إنّما هو نساء النبي ﷺ.

وأمّا الثالث: أعني: عروة بن الزبير، فقال السيوطي: وأخرج ابن سعد عن عروة بن الزبير انّه قال: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**﴾ قال: أزواج النبي نزلت في بيت عائشة.

وأمّا الرابع: فقد نقل عنه في أسباب النزول .[1]

تحليل هذه النقول

أمّا نقله عن ابن عباس فليس بثابت، بل نقل عنه خلاف ذلك، فقد نقل السيوطي في «الدر المنثور» قال: وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾ ».

وليس ابن مردويه فريداً في هذا النقل، فقد نقله عنه الحاكم الحسكاني في

---

١. تفسير الطبري: ٢٢/ ٧ و ٨؛ والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي: ٥/ ١٩٨؛ وأسباب النزول للواحدي: ٢٠٤.

شواهد التنزيل [١] بسند ينتهي إلى أبي صالح، عن ابن عباس: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً﴾** نزلت في رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين. والرجس: الشك .

كما نقله الحافظ الحسين بن الحكم الحبري في «تنزيل الآيات» عن أبي صالح بمثل ما سبق. [٢]

وممن رواه عن ابن عباس صاحب أرجح المطالب ص ٥٤ طبع لاهور، والعلاّمة إسماعيل النقشبندي «في مناقب العترة» .

أضف إلى ذلك أنّ من البعيد أن يخفى على ابن عباس حبر الأُمّة ما اطّلع عليه عيون الصحابة وأُمّهات المؤمنين، وقد أنهى بعض الفضلاء السادة [٣] عدد رواة الحديث من الصحابة إلى تسعة وأربعين صحابياً. وجمعها من مصادر الفريقين في الفضائل والمناقب.

وأمّا عكرمة

فقد ثبت تقوّله بذلك كما عرفت، لكنّ في نفس كلامه دليلاً واضحاً على أنّ الرأي العام يوم ذاك في شأن نزول الأُمّة هو نزولها في حق فاطمة، وانّما تفرّد هو بذلك، ولأجله رفع عقيرته في السوق بقوله: ليس بالذي تذهبون إليه وإنّما هو نساء النبي. أضف إلى ذلك: انّ تخصيص هذه الآية بالنداء في السوق وانّها نزلت في نساء النبي يعرب عن موقفه الخاص بالنسبة إلى من اشتهر نزول الآية في حقهم،

١. شواهد التنزيل: ٢/ ٣٠.

٢. تنزيل الآيات: ٢٤ «مخطوط» منه نسخة في جامعة طهران. لاحظ إحقاق الحق: ١٤/ ٥٣.

٣. آية التطهير في حديث الفريقين.

وإلاّ فالمتعارف بين الناس هو الجهر بالحقيقة بشكل معقول لا بهذه الصورة المعربة عن الانحراف عنهم.

هذا كله حول ما نقل عنه، وأمّا تحليل شخصيته وموقفه من الأمانة والوثاقة، وانحرافه عن علي وانحيازه إلى الخوارج وطمعه الشديد بما في أيدي الأُمراء فحدث عنه ولا حرج، ولأجل إيقاف القارئ على قليل مما ذكره أئمّة الجرح والتعديل في حقه نأتي ببعض ما ذكره الإمام شمس الدين الذهبي نقّاد الفن في كتابيه: «تذكرة الحفاظ»، و «سير أعلام النبلاء»، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب الجرح والتعديل.

نقل الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفّى ٧٤٨هـ في «سير أعلام النبلاء» هذه الكلمات في حق عكرمة:

١. قال أيوب: «قال عكرمة: إنّي لأخرج إلى السوق فأسمع الرجل يتكلّم بالكلمة فينفتح لي خمسون باباً من العلم...» ما معنى هذه الكلمة؟ وهل يقولها إنسان يملك شيئاً من العقل والوقار ؟!

٢. قال ابن لهيعة: وكان يحدّث برأي نجدة الحروري [١] وأتاه، فأقام عنده ستة أشهر، ثم أتى ابن عباس فسلّم، فقال ابن عباس: قد جاء الخبيث .

٣. قال سعيد بن أبي مريم، عن أبي لهيعة، عن أبي الأسود قال: كنت أوّل من سبّب لعكرمة الخروج إلى المغرب وذلك أنّي قدمت من مصر إلى المدينة فلقيني عكرمة وسألني عن أهل المغرب، فأخبرته بغفلتهم، قال: فخرج إليهم وكان أوّل ما أحدث فيهم رأي الصفريّة . [٢]

---

١. هو نجدة بن عامر الحروري الحنفي من بني حنيفة رأس الفرقة النجدية، انفرد عن سائر الخوارج بآرائه.

٢. هم فرقة من الخوارج أتباع زياد بن الأصفر.

٤. قال يحيى بن بكير: قدم عكرمة مصر ونزل هذه الدار وخرج إلى المغرب، فالخوارج الذين بالمغرب عنه أخذوا .

٥. قال علي بن المديني: كان عكرمة يرى رأي نجدة الحروري.

٦. وقال أحمد بن زهير: سمعت يحيى بن معين يقول: إنّما لم يذكر مالك عكرمة ـ يعني في الموطأ ـ قال: لأنّ عكرمة كان ينتحل رأي الصفريّة.

٧. وروى عمر بن قيس المكي، عن عطاء قال: كان عكرمة أباضياً . [١]

٨. وعن أبي مريم قال: كان عكرمة بيهسياً . [٢]

٩. وقال إبراهيم الجوزجاني: سألت أحمد بن حنبل عن عكرمة، أكان يرى رأي الأباضية؟ فقال: يقال: انّه كان صفرياً، قلت: أتى البربر ؟ قال: نعم، وأتى خراسان يطوف على الأمراء يأخذ منهم.

١٠. وقال علي بن المديني: حكى عن يعقوب الحضرمي عن جده قال: وقف عكرمة على باب المسجد فقال: ما فيه إلاّ كافر. قال: وكان يرى رأي الاباضية . [٣]

وقال في «ميزان الاعتدال» [٤] : وقد وثقه جماعة، واعتمده البخاري، وأمّا مسلم فتجنّبه، وروى له قليلاً مقروناً بغيره، وأعرض عنه مالك، وتحايده إلاّ في حديث أو حديثين.

عفان، حدثنا وهيب قال: شهدت يحيى بن سعيد الأنصاري ، وأيوب، فذكرا عكرمة فقال يحيى: كذاب، وقال أيوب: لم يكن بكذاب.

---

١. هم أتباع عبد الله بن أباض، رأس الأباضية.

٢. فرقة من الصفرية أصحاب أبي بيهس هيصم بن جابر الضبغي رأس الفرقة البيهسية من الخوارج.

٣. لاحظ سير أعلام النبلاء للذهبي: ٥/ ١٨ ـ ٢٢.

٤. ميزان الاعتدال: ٣/ ٩٣ ـ ٩٧.

عن عبد الله بن الحارث: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس فإذا عكرمة في وثاق عند بـاب الحش فقلت: ألا تتقي الله؟ قال: إنّ هـذا الخبيث يكذب على أبي.

سئل محمد بن سيرين عن عكرمة؟ فقال: ما يسؤني أن يكون من أهل الجنة ولكنّه كذّاب.

هشام بـن عبد الله المخزومـي: سمعت ابـن أبي ذئب يقول: رأيت عكـرمة وكان غير ثقة.

وعـن بريـد بـن هارون قـال: قدم عكـرمـة البصرة، فأتـاه أيـوب ويونـس وسليمان التيمـي، فسمع صـوت غنـاء فقـال: اسكتوا، ثـم قـال: قـاتله الله لقـد أجاد.

وعن خالد بن أبي عمران قال: كنّا بـا لمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم فقال: وددت أن بيدي حربة فاعترض بها من شهد الموسم يميناً وشمالاً.

وعـن يعقوب الحضرمـي عن جـده قال: وقـف عكرمـة على باب المسجـد فقال: مـا فيه إلاّ كافر . قـال: ويرى رأي الأباضيـة، انّ عكرمة لم يدع مـوضعاً إلاّ خرج إليـه: خراسـان والشام واليمن ومصر وافـريقية، كـان يأتي الأمـراء فيطلب جوائزهم.

وقـال عبد العـزيز الـدراوردي: مات عكـرمة وكثير عـزة في يوم واحـد فما شهدهما إلاّ سودان المدينة.

وعن ابن المسيب أنّه قال لمولاه «برد»: لا تكذب عليّ كما كذب عكرمة على ابن عباس.

أفبعد هذه الكلمات المتضافرة الحاكية عن انحراف الرجل عن جادة الحق،

وتكفيره عامّة المسلمين، وتمنّيه أن يقتل كل مـن شهد الموسم، يصح الاعتماد عليه في تفسير الذكر الحكيـم؟ والأسف أنّ المفسرين نقلوا أقواله وأرسلـوها ولم يلتفتوا إلى أنّ الـرجل كـذّاب على مـولاه وعلى المسلمين، فـواجب على عشـاق الكتـاب العزيز وَطلاب التفسير، تهذيب الكتب عـن أقوال وآراء ذلك الدجال ومن يحذو حذوه.

عروة بن الزبير

وأمّا عروة بن الزبير فيكفي في عدم حجيـة قوله، عداؤه لعلي وانحرافه عنه، ففي هذاالصدد يقـول ابن أبي الحديد: روى جرير بن عبد الحميـد، عن محمد بن شيبة قال: شهدت مسجد المدينة، فإذا الزهـري وعروة بن الزبير جالسان يذكران عليّاً عليه السلام فنالا منـه، فبلغ ذلـك علي بن الحسين عليه السلام ، فجاء حتـى وقف عليهما، فقال: أما أنت يا عروة فإنّ أبي حاكم أباك إلى الله فحكم لأبي على أبيك، وأمّا أنت يا زهري فلو كنت بمكة لأريتك كير أبيك.

وقد روي مـن طرق كثيرة: أنّ عروة بـن الزبير كـان يقول: لم يكن أحـد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يزهو إلاّ علي بن أبي طالب، وأُسامة بن زيد.

وروى عاصم بن أبي عامر البجلي، عن يحيى بن عروة قال: كان أبي إذا ذكر عليّاً نال منه، وقـال لي مرّة: يا بني والله ما أحجم الناس عنه إلاّ طلبـاً للدنيا، لقد بعث إليه أُسامة بن زيد أن أبعث إلي بعطائي فوالله انّك لتعلم انّك لو كنت في فم أسد لـدخلت معـك. فكتب إليه: إنّ هـذا المال لمن جاهـد عليه، ولكـن لي مالاً بالمدينة، فأصب منه ما شئت.

قال يحيى: فكنت أعجب من وصفه إياه بها وصفه به ومن عيبه له وانحرافه عنه .[١]

مقاتل بن سليمان

وهو رابع النقلة لنزول الآية في نسائه ﷺ ويكفي في عدم حجية قوله ما نقله الذهبي في حقه في «سير أعلام النبلاء» قال: قال ابن عيينة: قلت لمقاتل: زعموا أنّك لم تسمع من الضحاك؟ قال: يغلق علي وعليه باب فقلت في نفسي: أجل باب المدينة.

وقيل: إنّه قال: سلوني عمّا دون العرش، فقالوا: أين أمعاء النملة؟ فسكت، وسألوه لما حج آدم من حلق رأسه؟ فقال: لا أدري، قال وكيع: كان كذّاباً.

وعن أبي حنيفة قال: أتانا من المشرق رأيان خبيثان: جهم معطل [٢] ومقاتل مشبّه، مات مقاتل سنة نيف وخمسين ومائة، وقال البخاري: مقاتل لا شيء البتة. قلت: اجمعوا على تركه .[٣]

تجد اتفاق المتكلمين من الأشاعرة والمعتزلة ومن قبلهم على أنّ القول بالتشبيه انّما تسرب إلى الأوساط الإسلامية من مقاتل، فهو الزعيم الركن بالقول

---

١. شرح النهج لابن أبي الحديد: ٤/ ١٠٢؛ وراجع سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٢١ ـ ٤٣٧ ما يدل على كونه من بغاة الدنيا وطالبيها، وقد بنى قصراً في العقيق وأنشد شعراً في مدحه، وكان مقرباً لدى الأمويين خصوصاً عبد الملك بن مروان.

٢. التعطيل: هو انّ لا تثبت لله الصفات التي وصف بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ والتشبيه:أن يُشبّه الله سبحانه وتعالى بأحد من خلقه.

٣. سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٠٢.

بأنّ له سبحانه أعضاء مثل ما للإنسان من اليد والرجل والوجه وغير ذلك، قاتل الله مقاتل، كيف يفتري على الله سبحانه كذباً ويُفسر آياته بغير وجهها ؟!

وقال الذهبي أيضاً في «ميزان الاعتدال» [١] ، ما هذا تلخيصه: قال النسائي: كان مقاتل يكذب.

وعن يحيى: حديثه ليس بشيء. وقال الجوزجاني: كان دجّالاً جسوراً.

وقال ابن حبان: كان يأخذ من اليهود والنصارى من علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان يشبّه الرب بالمخلوقات، وكان يكذب في الحديث.

وعن خارجة بن مصعب: لم استحل دم يهودي، ولو وجدت مقاتل بن سليمان خلوة لشققت بطنه.

وقال ابن أبي حاتم: حديثه يدل على أنّه ليس بصدوق.

مشكلة السياق؟!

قد تعرفت على ما هو المراد من أهل البيت في الآية الشريفة من خلال الامعان فيها وفي ظل الروايات الواردة في كلام النبي ﷺ غير انّ هناك مشكلة باسم مشكلة السياق وهي انّ الآية وردت في ثنايا الآيات المربوطة بنساء النبي ﷺ على وجه يكون قبلها وبعدها راجعاً إليهنّ ومع ذلك كيف يمكن أن تكون هذه الآية راجعة إلى أهل البيت بالمعنى الذي عرفت؟

وبعبارة أُخرى: إنّ آية التطهير جزء من الآية الثالثة الثلاثين، التي يرجع صدرها وذيلها إلى نساء النبي، فعندئذ كيف يصح القول بأنّها راجعة إلى

---

١ . ميزان الاعتدال: ٤/ ١٧٢ ـ ١٧٥.

غيرهنّ، فإنّ وحدة السياق قاضية على أنّ الكل راجع إلى موضوع واحد، وإرجاعها إلى غير نسائه يستلزم التفكيك بين أجزاء آية واحدة، نعم لو كانت آية التطهير آية مستقلة لكان الأمر سهلاً إذ كان الإشكال أضعف، ولكنّها جزء من آية واحدة نزلت في نساء النبي.

والجواب: لا شك أنّ السياق من الأُمور التي يستدل بها على كشف المراد ويجعل صدر الكلام ووسطه وذيله قرينة على المراد، ووسيلة لتعيين ما أُريد منه، ولكنه حجة إذا لم يقم دليل أقوى على خلافه، فلو قام ترفع اليد عن وحدة السياق وقرينيّته.

وبعبارة أُخرى: إنّ الاعتماد على السياق إنّما يتم لو لم يكن هناك نص على خلافه، وقد عرفت النصوص الدالة على خلافه.

أضف إليه أنّ هناك دلائل قاطعة على أنّ آية التطهير آية مستقلة نزلت كذلك ووقعت في ثنايا الآية المربوطة بأزواج النبي ﷺ لمصلحة كان صاحب الشريعة أعرف بها.[1] وإليك الدلائل الدالة على استقلالها:

الدليل الأوّل :

أطبقت الروايات المنتهية إلى الأصحاب وأُمّهات المؤمنين والتابعين لهم بإحسان على نزولها مستقلة، سواء أقلنا بنزولها في حق العترة الطاهرة أو زوجات النبي أو أصحابه، فالكل ـ مع قطع النظر عن الاختلاف في المنزول فيه ـ اتفقوا

١. نقل السيوطي عن ابن الحصّار : إنّ ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنّما كان بالوحي كان رسول الله ﷺ يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا. لاحظ الإتقان: ١/ ١٩٤، الفصل الثامن عشر في جمع القرآن وترتيبه من طبعة مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

على نزولها مستقلة، وقد مضت النصوص عن الطبري و «الدر المنثور» والصحاح ترى أنّ أُمّ سلمة تقول: نزلت في بيتي **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾** .

ويروي أبو سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: فيَّ وفي علي وفاطمة وحسن وحسين **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾** ».

وروت عائشة: خرج النبي ﷺ ذات غداة وعليه مرط مرجّل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله معه، ثم جاء الحسين فأدخله معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معه، ثم قال: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾** . إلى غير ذلك من النصوص.

حتى انّ ظاهر كلام عكرمة وعروة بن الزبير نزولها مستقلة بقول السيوطي: كان عكرمة ينادي في السوق **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾** نزلت في نساء النبي .

وأخرج ابن سعد عن عروة بن الزبير أنّه قال: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾** قال: أزواج النبي، نزلت في بيت عائشة . [1]

فالموافق والمخالف اتفقا على كونها آية مستقلة إمّا نزلت في بيت أُمّ سلمة أو بيت عائشة، وإمّا في حق العترة أو نسائه.

وعلى ذلك تسهل مخالفة السياق، والقول بنزولها في حق العترة الطاهرة، وانّ الصدر والذيل راجعان إلى نسائه ﷺ لا ما ورد في ثناياها، فهو راجع إلى غيرهن.

---

١. لاحظ: ١٤٠ ـ ١٥٣ من هذا الجزء.

ولا غرو في أن يكون الصدر والذيل راجعين إلى موضوع وما ورد في الأثناء راجعاً إلى غيره فإنّ ذلك من فنون البلاغة وأساليبها، نرى نظيره في الذكر الحكيم وكلام البلغاء، وعليه ديدن العرب في محاوراتهم، فربما يرد في موضوع قبل أن يفرغ من الموضوع الذي كان يبحث عنه ثم يرجع إليه ثانياً.

يقول الطبرسي: من عادة الفصحاء في كلامهم انّهم يذهبون من خطاب إلى غيره ويعودون إليه، والقرآن من ذلك مملوء، وكذلك كلام العرب وأشعارهم. [١]

قال الشيخ محمد عبده: إنّ من عادة القرآن أن ينتقل بالإنسان من شأن إلى شأن ثم يعود إلى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة . [٢]

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : «إنّ الآية من القرآن يكون أوّلها في شيء وآخرها في شيء ». [٣]

ولأجل أن يقف القارئ على صحة ما قاله هؤلاء الأكابر نأتي بشاهد، فنقول: قال سبحانه ناقلاً عن «العزيز» مخاطباً زوجته: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ . [٤] نرى أنّ العزيز يخاطب أوّلاً امرأته بقوله: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ وقبل أن يفرغ من كلامه معها، يخاطب يوسف بقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ ... ثم يرجع إلى الموضوع الأوّل ويخاطب زوجته بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ ... فقوله ﴿يُوسُفُ

---

١. مجمع البيان: ٤/ ٣٥٧.
٢. تفسير المنار: ٢/ ٤٥١.
٣. الكاشف: ٦/ ٢١٧.
٤. يوسف: ٢٨ ـ ٢٩.

﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ جملة معترضة وقعت بين الخطابين، والمسوّغ لوقوعها بينهما كون المخاطب الثاني أحد المتخاصمين، وكانت له صلة تامّة بالواقعة التي رفعت إلى العزيز.

والضابطة الكليّة لهذا النوع من الكلام هو وجود التناسب المقتضي للعدول من الأوّل إلى الثاني، ثم منه إلى الأوّل ، وهي أيضاً موجودة في المقام، فإنّه سبحانه يخاطب نساء النبي ﷺ بالخطابات التالية:

١ . **﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين﴾**.

٢ . **﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ان اتقيتن ... ﴾** .

٣ . **﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأُولى﴾** .

فعند ذلك صح أن ينتقل إلى الكلام عن أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وذلك لوجهين:

١ . تعريفهنّ على جماعة بلغوا في التورع والتقى، الذروة العليا، وفي الطهارة عن الرذائل والمساوئ، القمة. وبذلك استحقوا أن يكونوا أُسوة في الحياة وقدوة في مجال العمل، فيلزم عليهن أن يقتدين بهم ويستضيئنّ بضوئهم.

٢ . التنبيه على أنّ حياتهنّ مقرونة بحياة أُمّة طاهرة من الرجس ومطهرة من الدنس، ولهن معهم لحمة القرابة ووصلة الحسب، واللازم عليهن التحفّظ على شؤون هذه القرابة بالابتعاد عن المعاصي والمساوئ، والتحلّي بما يرضيه سبحانه ولأجل ذلك يقول سبحانه : **﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾** ، وما هذا إلاّ لقرابتهن منه ﷺ وصلتهن بأهل بيته. وهي لا تنفك عن المسؤولية الخاصة، فالانتساب للنبي الأكرم ﷺ ولبيته الرفيع، سبب المسؤولية ومنشؤها، وفي ضوء

هذين الوجهين صح أن يطرح طهارة أهل البيت في أثناء المحاورة مع نساء النبي والكلام حول شؤونهن.

ولقد قام محقّقو الإمامية ببيان مناسبة العدول في الآية ، نأتي ببعض تحقيقاتهم، قال السيد القاضي التستري: «لا يبعد أن يكون اختلاف آية التطهير مع ما قبلها على طريق الالتفات من الأزواج إلى النبي ﷺ وأهل بيته ﷺ على معنى أنّ تأديب الأزواج وترغيبهن إلى الصلاح والسداد، من توابع إذهاب الرجس والدنس عن أهل البيت ﷺ ، فالحاصل نظم الآية على هذا: انّ الله تعالى رغب أزواج النبي ﷺ إلى العفة والصلاح بأنّه إنّما أراد في الأزل أن يجعلكم معصومين يا أهل البيت واللائق أن يكون المنسوب إلى المعصوم عفيفاً صالحاً كما قال: ﴿والطّيبات للطَّيّبينَ﴾ [١] . [٢]

وقال العلاّمة المظفر: وإنّما جعل سبحانه هذه الآية في أثناء ذكر الأزواج وخطابهن للتنبيه على أنّه سبحانه أمرهن ونهاهن وأدّبهن إكراماً لأهل البيت وتنزيهاً لهم عن أن تنالهم بسببهن وصمة، وصوناً لهم عن أن يلحقهم من أجلهن عيب، ورفعاً لهم عن أن يتصل بهم أهل المعاصي، ولذا استهل سبحانه الآيات بقوله: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ ضرورة أنّ هذا التميّز انّما هو للاتصال بالنبي وآله، لا لذواتهن فهن في محل، و أهل البيت في محل آخر، فليست الآية الكريمة إلاّ كقول القائل: يا زوجة فلان لست كأزواج سائر الناس فتعففي، وتستّري، وأطيعي الله تعالى، إنّما زوجك من بيت أطهار يريد الله حفظهم من الأدناس وصونهم عن النقائص. [٣]

---

١. النور: ٢٦.

٢. إحقاق الحق: ٢/ ٥٧٠.

٣. دلائل الصدق: ٢/ ٧٢.

الدليل الثاني

إنّ لسان الآيـات الواردة حول نساء النبـي لسان الإنذار والتهديـد، ولسان الآية المربـوطة بأهـل بيته لسان المدح والثنـاء، فجعل الآيتين آية واحـدة وإرجاع الجميع إليهن ممّا لا يقبله الذوق السليم، فأين قوله سبحانه : ﴿**يا نساء النبي من يأت منكنَّ بفاحشة مبيّنة يضاعف لها العذاب**﴾ من قوله: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾ ؟!

كما انّ لسان القرآن في أزواج النبي، لسان المدح والانذار ويكفيك الإمعان في آيات سورة التحريم فلاحظ.

الدليل الثالث

إنّ قوله سبحانه : ﴿**إنّما يريد الله ...**﴾ في المصاحف جزء من الآية الثالثة والثلاثين فلو رفعناه منها لم يتطرق.أيّ خلل في نظم الآية ومضمونها وتتحصل من ضم الآية الرابعـة والثلاثين إلى ما بقيت، آية تامة واضحـة المضمون، مبينة المرمى منسجمة الفاصلـة، مع فواصل الآيـات المتقدمة عليها، وإليـك تفصيل الآية في ضمن مقاطع:

ألف. ﴿**وقرن في بيوتكـن ولا تبرّجن تبرُّج الجاهلية الأُولـى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله**﴾ .

ب.﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً**﴾ [1]

---

١. الأحزاب: ٣٣.

ج. ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إنّ الله كان لطيفاً خبيراً﴾ . [١]

فلو رفعنا قوله: ﴿إنّما يريد الله﴾ وضممنا ما تقدم عليه بما تأخر، جاءت الآية تامة من دون حدوث خلل في المعنى والنظم، وهذا دليل على أنّ قوله تعالى: ﴿إنّما يريد الله﴾ آية مستقلة وردت في ضمن الآية لمصلحة ربما نشير إليها.

إنّ الأحاديث على كثرتها صريحة في نزول الآية وحدها، ولم يرد حتى في رواية واحدة نزولها في ضمن آيات نساء النبي ﷺ ولا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآية بأزواج النبي كما ينسب إلى عكرمة وعروة، فالآية لم تكن حسب النزول جزءاً من آيات نساء النبي ولا متصلة بها، وانّما وضعت إمّا بأمر النبي ﷺ أو عند التأليف بعد الرحلة.

ويؤيده أنّ آية ﴿وقرن في بيوتكن﴾ باقية على انسجامها واتصالها لو قدّر ارتفاع آية التطهير من بين جملها . [٢]

وليس هذا أمراً بدعاً فله نظير في القرآن الكريم .

فقد تضافرت السنّة، وروى الفريقان أن قوله سبحانه : ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾ [٣] نزلت في غدير خم عندما نصّب النبي ﷺ علياً إماماً للأُمّة ولياً للمؤمنين، مع أنّه في المصاحف جزء الآية الثالثة من «سورة المائدة» التي تبيّن أحكام اللّحوم، وإليك نفس الآية في مقاطع

١. الأحزاب: ٣٤.

٢. الميزان: ١٦/ ٣٣٠.

٣. المائدة: ٣.

ثلاثة:

ألف. ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللهِ بِهِ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَالمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَىٰ النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِٱلأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ .[١]

ب. ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .

ج . ﴿فَمَنْ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لأِثْمٍ فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .[٢]

فإذا رفعنا الجزء الثاني يحصل من ضم الأوّل إلى الثالث آية تامة من دون طروء خلل في مضمونها ونظمها، وذلك دليل على أنّ الجزء الثاني آية مستقلة وردت في ضمن آية أُخرى بتصويب صاحب الشريعة الغراء أو بتصويب من جامعي القرآن بعد رحلته ﷺ.

أضف إلى ذلك أنّ مضمون الآية ـ أعني: أحكام اللحوم ـ قد ورد في آيات أُخر من دون أن تشتمل على هذه الزيادة، فهذه قرينة على أنّ ما ورد في الأثناء ليس من صميم الآية في سورة المائدة، وإنّما وضع في أثنائها بأمر من النبي الأكرم لمصلحة عامة نشير إليها .

ما هو السر في جعلها جزءاً من آية أُخرى

قد اتضح مما ذكرنا أن القرآن الكريم إنّما انتقل إلى موضوع أهل البيت

---

١ و ٢. المائدة: ٣.

وخطابهم لأجل إعلام نساء النبي ﷺ بأنّهن في جوار هؤلاء المطهرين فيجب عليهن القيام بأداء حقوق هؤلاء العظماء، الذين ميّزهم الله تعالى عن غيرهم من هذه الأُمّة بالتطهير والعصمة و الاقتداء بهم في القول والسلوك.

ولكن يبقى هنا سؤال آخر، وهو أنّه إذا كانت الآية ، آية مستقلة فلماذا جاءت في المصحف جزءاً من آية أُخرى، ولم تكتب بصورة آية تامّة في جنب الآيات الأُخرى ؟

الجواب: التاريخ يطلعنا بصفحات طويلة على موقف قريش وغيرهم من أهل البيت ﷺ ، فإنّ مرجل الحسد ما زال يغلي والاتجاهات السلبية ضدهم كانت كالشمس في رابعة النهار، فاقتضت الحكمة الإلهية أن تجعل الآية في ثنايا الآيات المتعلّقة بنساء النبي ﷺ من أجل تخفيف الحساسية ضد أهل البيت ، وان كانت الحقيقة لا تخفى على من نظر إليها بعين صحيحة، وأنّ الآية تهدف إلى جماعة أُخرى غير نساء النبي ﷺ كما بيّناه قبل قليل.

وللسيد عبد الحسين شرف الدين هنا كلام ربّما يفصل ما أجملناه فإنّه ـ قدّس الله سرّه ـ بعد ما أثبت أنّ قوله سبحانه : ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [1] منزل في حق الإمام أمير المؤمنين ﷺ طرح سؤالاً ، وهو أنّه إذا كان أمير المؤمنين ﷺ هو المراد من الآية فلماذا عبر عن المفرد بلفظ الجمع؟

فقال: إنّ العرب قد تعبّر عن المفرد بلفظ الجمع لنكتة التعظيم حيث يستوجب، ثم قال: وعندي في ذلك نكتة ألطف وأدق، وهي أنّه إنّما أُتي بعبارة الجمع دون عبارة المفرد بُقياً منه تعالى على كثير من الناس، فإنّ شانئي علي وأعداء

---

١. المائدة: ٥٥.

بني هاشم وسائر المنافقين وأهل الحسد والتنافس لا يطيقون أن يسمعوها بصيغة المفرد إذ لا يبقى لهم حينئذ مطمع في التمويه ولا ملتمس في التضليل فيكون منهم بسبب يأسهم حينئذ ما تخشى عواقبه على الإسلام فجاءت الآية بصيغة الجمع مع كونها للمفرد اتقاء من معرتهم، ثم كانت النصوص بعدها تترى بعبارات مختلفة ومقامات متعددة وبث فيهم أمر الولاية تدريجاً حتى أكمل الله الدين وأتمَّ النعمة جرياً منه ﷺ على عادة الحكماء في تبليغ الناس ما يشق عليهم، ولو كانت الآية بالعبارة المختصة بالمفرد لجعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكباراً، وهذه الحكمة مطردة في كل ما جاء في القرآن الحكيم من آيات فضل أمير المؤمنين وأهل بيته الطاهرين كما لا يخفى، وقد أوضحنا هذه الجمل وأقمنا عليها الشواهد القاطعة والبراهين الساطعة في كتابينا «سبيل المؤمنين» و «تنزيل الآيات» والحمد لله على الهداية والتوفيق والسلام.[1]

---

١. المراجعات: المراجعة: ٤٢ ص ١٦٦.

نظريات أُخرى في تفسير الآية

قد عرفت القولين المعروفين حول الآية ، كما عرفت الحق الواضح منهما، فهلم معي ندرس سائر الأقوال الشاذة التي لا تعتمد على ركن وثيق وإنّما هي آراء مختلقة لأجل الفرار من المشاكل المتوجهة إلى ثاني القولين، ونحن نذكرها واحداً بعد آخر على نحو الإيجاز :

١. المراد من «البيت»هو بيت الله الحرام والمراد من أهله هم المقيمون حوله.

٢. المراد من «البيت» هو مسجد النبي ﷺ والمراد من أهله هم القاطنون حوله، وكان لبيوتهم باب إلى المسجد .

٣. المراد من تحرم عليهم الصدقة وهم ولد أبي طالب: علي، جعفر، وعقيل، وولد العباس.

٤. المراد من البيت بيت النسب والحسب، فيعم أبناء النبي ﷺ ونساءه. [١]

وهذه الوجوه كلّها عليلة ، أمّا الأوّل والثاني، فلأنّ إطلاق «أهل البيت» واستعماله في أهل مكة والمدينة استعمال بعيد لا يحمل عليه الكلام إلّا بقرينة قطعية، والمتبادر منه هو أهل بيت الرجل، وعلى ذلك جرى الذكر الحكيم في موردين أحدهما في قصة إبراهيم قال سبحانه : ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ . [٢] وثانيهما في قصة موسى قال سبحانه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ﴾ . [٣]

أضف إليه أنّ الآية واقعة في سياق البحث عن نساء النبي، فصرف الآية عنه ﷺ وإرجاعها إلى من جاور بيت الله أو من بات حول مسجده لا يساعد عليه

---

١. لاحظ في الوقوف على هذه الأقوال تفسير الطبري: ٢٢/ ٥ ــ ٧؛ وتفسير القرطبي: ١٤/ ١٨٢؛ ومفاتيح الغيب للرازي: ٦/ ٦١٥؛ والكشاف: ٢/ ٥٣٨؛ وغيرها.

٢. هود: ٧٣.

٣٠. القصص: ١٢.

ظاهر الآيات أبداً .

ويتلوهما الثالث: فإنّ تفسير «أهل بيت النبي ﷺ» بمن تحرم عليه الصدقة من صلب أبي طالب والعباس تفسير بلا شاهد ، وكأنّه حمل البيت على البيت النسبي، أضف إليه أنّ الصدقة غير محرمة على خصوص أبنائهما، بل هي محرمة على أبنائهما وكل من كان من نسل عبد المطلب .

قال الشيخ الطوسي في الخلاف: تحرم الصدقة المفروضة على بني هاشم من ولد أبي طالب العقيليين والجعافرة والعلويين، وولد العباس بن عبد المطلب، وولد أبي لهب، وولد الحارث بن عبد المطلب، ولا عقب لهاشم إلاّ من هؤلاء، ولا يحرم على ولد المطلب، ونوفل، وعبد شمس بن عبد مناف، قال الشافعي: تحرم الصدقة المفروضة على هؤلاء كلهم وهم جميع ولد عبد مناف . [١]

وقال بمثله أيضاً في كتاب قسمة الصدقات: ٢/ ٣٥٣، المسألة ٢٦.

وعلى ذلك فليس لهذه النظرية دليل سوى ما رواه مسلم عن زيد بن أرقم، وقد قدمنا نصّه عند ذكر الأحاديث الواردة حول الآية . [٢]

وأمّا النظرية الرابعة: فقد ذهب إليها بعضهم، جمعاً بين الأحاديث المتضافرة الحاكية عن نزول الآية في العترة الطاهرة، وسياق الآيات الدالة على رجوعها إلى نسائه، فحاول القائل الجمع بين الدليلين بتفسير الآية بأولاده وأزواجه، وجعل عليّاً أيضاً منهم بسبب معاشرته وملازمته للنبي ﷺ.

قال الرازي: والأولى أن يقال هم: أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلي معهم، لأنّه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بيت النبي وملازمته . [٣]

وقال البيضاوي: والتخصيص بهم أولاده لا يناسب ما قبل الآية

---

١. الخلاف: ٢/ ٢٢٧، المسألة ٤ كتاب الوقوف والصدقات.

٢. لاحظ ص ١٥٠، الحديث ٣٥.

٣. مفاتيح الغيب: ٦/ ٦١٥.

وما بعدها، والحديث يقتضي أنّهم من أهل البيت لا أنّ غيرهم ليس منهم. [١]

وقال المراغي: أهل بيته من كان ملازماً له من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب. [٢]

وهذه النظرية موهونة أيضاً

أوّلاً: انّ اللام في «أهل البيت» ليس للجنس ولا للاستغراق، بل هي لام العهد وهي تشير إلى بيت معهود بين المتكلم والمخاطب، وهو بيت واحد، ولو صح ذلك القول لوجب أن يقول «أهل البيوت» حتى يعم الأزواج والأولاد وكل من يتعلّق بالنبي نسباً أو حسباً أو لعلاقة السكنيّة مثل الإماء.

والحاصل: انّه لو أُريد «بيت النبي» المادي الجسماني لا يصح، إذ لم يكن له بيت واحد، بل كان لكل واحدة من نسائه بيت مشخص، فكان النبي صاحب البيوت لا البيت الواحد.

ولو أُريد منه بيت النسب، كما يقال: بيت من بيوتات «حمير» أو «ربيعة»، فلازمه التعميم إلى كل من ينتمي إلى هذا البيت بنسب أو سبب، مع أنّه كان بعض المنتمين إليه يوم نزول الآية من عبدة الوثن وأعداء النبي ، فإنّ سورة الأحزاب نزلت سنة ست من الهجرة، وقد ورد فيها زواج النبي من زينب بنت جحش، وهو حسب ما ذكره صاحب «تاريخ الخميس» من حوادث سنة الخمس، وعلى ذلك فلا تتجاوز الآيات النازلة في نساء النبي عن هذا الحد وكان عند ذاك، بعض من ينتمي إلى النبي بالنسب مشركاً، كأبي سفيان بن عبد المطلب ابن عم رسول الله، وعبد الله بن أُمية بن المغيرة ابن عمته، وقد أسلما في عام الفتح، وأنشد الأوّل قوله في إسلامه واعتذر إلى النبي ممّا كان مضى منه فقال:

---

١. أنوار التنزيل: ٤/ ١٦٢.

٢. تفسير المراغي: ٢٢/ ٧.

لعمرك إنّي يوم أحمل راية　　لتَغْلِبَ خَيلَ اللات، خيلُ محمد

لكا لمُدلج الحيرانِ أظلم ليلُهُ　　فهذا أواني حين أُهدي وأهتدى [1]

ولو أُريد منه «بيت الوحي» فلازمه الاختصاص بمن بلغ من الورع والتقوى ذروتها، حتى يصح عدّه من أهل ذلك البيت الرفيع المعنون، ومثله لا يعم كل من ينتمي بالوشائج النسبية أو الحسبية إلى هذا البيت، وإن كان في جانب الإيمان والعمل في درجة نازلة تلحقه بالعاديين من المسلمين.

ثانياً: قد عرفت أنّ الإرادة الواردة في الآية تكوينية تعرب عن تعلّق إرادته الحكيمة على عصمة أهل ذلك البيت، ومعه كيف يمكن القول بأنّ المراد كل من ينتمي إلى ذلك البيت بوشائج النسب والحسب؟!

ثالثاً: انّ النظرية في جانب مخالف للأحاديث المتضافرة الدالة على نزول الآية في حق العترة الطاهرة، وقد قام النبي ﷺ بتفسيرها بوجوه مختلفة أوعزنا إليها عند البحث عن القول الأوّل، والنبي ﷺ هو المبين الأوّل لمفاد كتابه الذي أرسل معه قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. [2]

فليست وظيفة النبي ﷺ القراءة والتلاوة بل التبيين والتوضيح من وظائفه التي تنص الآية عليها.

هذا هو موجز القول في تفسير الآية ولا بأس بإكمال البحث بنقل بعض ما أنتجته قريحة الشعراء الإسلاميين حول أهل البيت وفضائلهم، على وجه يعرب عن أنّ المتبادر من ذلك اللفظ في القرون الإسلامية لم يكن إلاّ العترة الطاهرة، أعني: فاطمة وأباها وبعلها وابنيها سلام الله عليهم أجمعين، وإليك نزراً يسيراً في هذا المجال.

---

١. السيرة النبوية: ٢/ ٤٠١.　　٢. النحل: ٤٤.

خاتمة المطاف

أهل البيت في الأدب العربي

ما حقّقناه حول الآية كان أمراً واضحاً لا لبس فيه عند المسلمين في الصدر الأوّل فقد فهموا عن الآية الكريمة و بفضل الروايات من هم أهل البيت من دون تردّد أو تـريّث، وصاغـوا ما فهموه في قـوالب شعريـة رائعة، فنقتطف منهـا هذه الشذرات.

قال عمـرو بن العاص في قصيدتـه الجلجلية المعروفة يمـدح بها الإمام علي ابن أبي طالب، وفيها هذا البيت في حق العترة الطاهرة:

فـــوال مـــواليـــه يـــا ذا الجلال

وعـــاد معـــادي أخ المرســـل

ولا تنقضـــوا العهـــد مـــن عترتي

فقـــاطعهـــم بي لم يـــوصـــل [1]

و قال الكميت بن زيد الأسدي في قصيدة له:

---

١. الغدير: ٢/ ١١٥.

ألم تـــرني مـــن حـــب آل محمـــد

أروح وأغـــدو خـــائفـــاً أتـــرقـــب

فـإن هـــي لم تصلـح لحي ســواهـم

فـإنّ ذوي القـربـــى أحـق وأوجـب

يقـــولـــون لم يـورث ولـــولا تـراثـــه

لقـد شركـت فيها بكيـل وأرحـب [١]

قال العبدي الكوفي (المتوفّى ١٢٠ هـ) :

ولما رأيـت النـــاس قـد ذهبــت بهم

مـذاهبهـــم في أبحـر الغـــي والجهـل

ركبـت على اسم الله في سفـن النجـا

وهـم أهل بيت المصطفى خاتم الرسل

وأمسكـت حبـــل الله وهـو ولاؤهـــم

كما قـد أمرنـا بـالتمسّـك بالحبـل [٢]

وقال الإمام الشافعي:

يـــا أهـــل بيـــت رســول الله حبكـــم

فـــرض مـــن الله في القـــرآن أنـــزلـــه

---

١. الغدير: ٢/ ١٩١.

٢. الغدير: ٢/ ٢٩٠ ـ ٣٢٦.

كفـاكـم مـن عظيـم القـدر أنّكـم
مـن لم يصل عليكـم لا صلاة لـه [١]

وذكر ابن الصباغ المالكي في «الفصول» لقائل:

هـم العـروة الـوثقـى لمعتصـم بها
مناقبهـم جـاءت بـوحـي وانـزال
منـاقـب في شورى وسـورة هـل أتـى
وفي سـورة الأحـزاب يعـرفهـا التـالي
وهـم آل بيـت المصطفـى فـودادهـم
على الناس مفروض بحكم وإسجال [٢]

وذكر الشبلنجي في «نور الأبصار» عن أبي الحسن بن جبير:

أحـب النبـيّ المصطفـى وابـنَ عمـه
عليـاً وسبطيـه وفـاطمـة الـزهـرا
هم أهـل بيت أذهب الرجس عنهم
وأطلعهـم أفـق الهدى أنجماً زهـرا
مـوالاتهم فـرض على كـل مسلـم
وحبهـم أسنـى الذخـائر لـلأُخـرى

١. الغدير: ٢/ ٣٠٣.
٢. الغدير: ٢/ ٣١٠ ـ ٣١١، نقلاً عن الفصول: ١٣.

وما أنا للصحب الكرام بمبغض
فإنّي أرى البغضاء في حقهم كفرا [١]

وقال العبدي:

يا سادتي يا بني علي
يا «آل طه» و «آل صاد»
من ذا يوازيكم وأنتم
خلائف الله في البلاد
أنتم نجوم الهدى اللواتي
يهدي بها الله كل هاد
لولا هداكم إذاً ضللنا
والتبس الغي بالرشاد
لازلت في حبكم أوالي
عمري وفي بغضكم أعادي
وما تزودت غير حبي
إياكم وهو خير زاد
وذاك ذخري الذي عليه
في عرصة الحشر اعتمادي

---

١. الغدير: ٢/ ٣١١، نقلاً عن نور الأبصار: ١٣.

ولاكـــم والبراءة ممـــن

يشنـــأكـــم اعتقـــادي[١]

وقال دعبل الخزاعي:

أتسكـب دمـع العين بـالعبرات

وبـتّ تقاسي شـدّة الـزفـرات؟!

وتبكـي لآثـار لال محمـد

فقـد ضاق منـك الصدر بـالحسرات

ألا فـابكهـم حقّاً وبـلّ عليهـم

عيـونـاً لـريـب الـدهـر منسكبـات

ولا تنس في يـوم الطفـوف مصـابهم

وداهيـة مـن أعظـم النكبـات

سقـى الله أجـداثاً على أرض كـربـلا

مـرابيـع أمطـار مـن المزنـات

وصلّـي على روح الحسين حبيبـه

قتيـلاً لـدى النهـريـن بـالفلـوات

قتيـلاً بـلا جـرم فجعنـا بفقـده

فـريـداً ينـادي: أيـن أيـن حماتي

---

١. الغدير: ٢/ ٣١٧.

أنا الظامئ العطشان في أرض غربة
قتيلاً ومظلوماً بغير ترات

وقد رفعوا رأس الحسين على القنا
وساقوا نساءً ولّهاً خفرات

فقل لابن سعد عذب الله روحه
ستلقى عذاب النار باللعنات

سأقنت طول الدهر ما هبت الصبا
واقنت بالآصال والغدوات

على معشر ضلّوا جميعاً وضيّعوا
مقال رسول الله بالشّبهات [١]

وقال أيضاً:

نطق القرآن بفضل آل محمد
وولاية لعليّه لم تجحد

بولاية المختار من خير الذي
بعد النبي الصادق المتودد [٢]

---

١ و ٢. الغدير: ٢/ ٣٨١ ـ ٣٨٢.

وقال الحماني (المتوفّى ٣٠١ هـ):

يـا آل حـاميـم الـذيـن بحبهـم
حكـم الكتـاب منـزَّلٌ تنـزيـلا
كـان المديـح حُلـى الملوك وكنتم
حلـل المدايـح غـرّةً وحجـولا
بيـت إذا عَـدَّ المآثـر أهلـه
عـدّوا النبـي وثـانيـاً جبريـلا
قـوم إذا اعتـدلـوا الحمايـل أصبحـوا
متقسِّمين خليفـة ورسـولا
نشـأوا بـآيـات الكتـاب فما انثنـوا
حتـى صـدرن كهـولـة وكهـولا
ثقـلان لـن يتفـرّقـا أو يطفيـا
بـالحوض مـن ظمأ الصـدور غليـلا
وخليفتـان على الأنـام بقـولـه
الحق أصـدق مـن تكلّـم قيـلا
فـأتـوا أكـف الآيسين فـأصبحـوا
مـا يعدلـون سوى الكتـاب عديـلا [1]

١. الغدير: ٣/ ٦٦.

وقال العجلوني (المتوفّى ١١٦٢ هـ):

لقد حاز آل المصطفى أشرف الفخر

بنسبتهم للطاهر الطيِّب الذكر

فحبهم فرض على كل مؤمن

أشار إليه الله في محكم الذكر

ومن يدعي من غيرهم نسبة له

فذلك ملعون أتى أقبح الوزر

وقد خص منهم نسل زهراء الأشرف

بأطراف تيجان من السندس الخضر

ويُغنيهمُ عن لبس ما خصَّهم به

وجوهٌ لهم أبهى من الشمس والبدر

ولم يمتنع من غيرهم لبس أخضر

على رأي من يعزى لا سيوط ذي الخبر

وقد صححوا عن غيره حرمة الذي

رآه مباحاً فاعلم الحكم بالسبر [١]

وقال جرير بن عبد الله البجلي:

فصلى الإلـــــه على أحمد

رســول المليــك تمام النعــم

---

١. الغدير: ٣/ ١٧٣.

وصلى على الطهـــر مـــن بعـــده
خليفتنـــا القـــائم المدَّغـــم

عليّـــاً عنيـــت وصي النبـــي
يجالـــد عنـــه غـــواة الأُمـــم

لـــه الفضـــل والسبـــق والمكـــرمـا
ت وبيـــت النبـــوّة لا المهتضـــم [1]

وقال الزاهي (المتوفّـى ٣٥٢ هـ) :

يـــا ســـادتي يـــا آل يـــاسين فقـــط
عليكـــم الـــوحـــي مـــن الله هبـــط

لـــولاكـــم لم يقبـــل الفـــرض ولا
رحـا لبحـر العفـو مـن أكـرم شـط

أنتـــم ولاة العهـــد في الـــذرِّ ومـــن
هـــواهـــم الله علينـــا قـــد شرط

مـــا أحـــد قـــايسكـــم بغيركـــم
ومـــازج السلســـل بـــالشرب اللمـــط

إلّا كمـن ضـاهى الجبـال بـالحصـى
أو قـايـس الأبحـر جهـلاً بـالنقـط [2]

١. الغدير: ٣/ ٢٣٣.
٢. الغديرْ: ٣/ ٣٩١.

وقال أيضاً ضمن أبيات:

هم آل أحمد والصيد الجحاجحة الز

هــر الغطــارفـة العلــويــة الغــرر

وقال أيضاً:

يــا آل أحمد مــاذا كــان جــرمكــم

فكــل أرواحكـــم بــالسيــف تنتــزع [1]

قال الناشئ الصغير (المتوفّى ٣٦٥ هـ) :

بـــآل محمّـــد عـــرف الصـــواب

وفي أبيـــاتهم نـــزل الكتـــاب

هـــم الكلمات والأسماء لاحـــت

لآدم حين عـــزّ لـــه المتـــاب

وهـــم حجـــج الإلـــه على البرايـــا

بهم وبحكمهـــــــم لا يستراب

إلى آخر الأبيات التي يقول فيها:

يقــول لقــد نجــوت بــأهــل بيــت

بهم يصلى لـــظى وبهم يثـــاب

---

١. الغدير: ٣/ ٣٩٦.

هـم النبـأ العظيـم وفلـك نـوح
وبـاب الله وانقطـع الخطـاب [١]

وقال البشنوي الكردي (المتوفّى بعد ٣٨٠ هـ) :

أليّـة ربي بـالهدى متمسكـاً
بـاثني عشر بعـد النبـي مـراقبـاً
أبقـي على البيـت المطهـر أهلـه
بيـوت قـريـش للـديـانـة طـالبـاً [٢]

وقال أيضاً:

يـا نـاصبـي بكـل جهـدك فـاجهـد
إنّي علقـت بحـب آل محمـد
الطيبين الطـاهـريـن ذوي الهدى
طـابـوا وطـاب وليهـم في المولـد
واليتهـم وبـرئت مـن أعـدائهـم
فـاقلـل مـلامـك لا أبـاً لـك أوزد
فهـم أمـان كـالنجـوم وانّهم
سفـن النجاة مـن الحديث المسنـد [٣]

---

١. الغدير: ٤/ ٢٥. ٢. الغديرة ٤/ ٣٥. ٣. الغدير: ٤/ ٣٨.

وقال الصاحب بن عبّاد (المتوفّى ٣٨٥ هـ):

أواليكـم يـا آل بيـت محمـد
فكلّكـم للعلم والـديـن فـرقـد
وأتـرك مـن نـاواكـم وهـو هتكـه
ينـادى عليـه مـولـد ليـس يحمـد [١]

وقال ابن الحجاج البغدادي (المتوفّى ٣٩١ هـ):

فما وجـدت شفـاء تستفيـد بـه
إلاّ ابتغـاءك تهجـو آل يـاسين
كـافـاك ربُّـك إذ أجـرتـك قـدرتـه
بسـب أهـل العـلا الغـرّ الميـامين

إلى أن يقول:

وانّ أجـر ابـن سعـد في استبـاحـة
آل النبـوّة أجـر غير ممنـون [٢]

وقال أبو الفتح كشاجم (المتوفّى ٣٦٠ هـ) من قصيدة:

لـه في البكـاء على الطـاهـريـن
منـدوحـة عـن بكـاء الغـزل

---

١. الغدير: ٤/ ٦٠.

٢. الغدير: ٤/ ٨٩.

فكم فيهم من هلال هوى
قبيل التمام وبدر أفل
هم حجج الله في خلقه
ويوم المعاد على من خذل
ومن أنزل الله تفضيلهم
فردٌ على الله ما قد نزل
فجدّهم خاتم الأنبياء
ويعرف ذاك جميع الملل[١]

وقال أيضاً:

آل النبي فضّلتم
فضل النجوم الزاهرة
وبهرتم أعداءكم
بالمأثرات السائرة[٢]

وقال أبو محمد الصوري الشاعر (المتوفّى ٤١٩ هـ):

فهل ترك البين من أرتجيه
من الأوّلين والآخرينا

١. الغدير: ٤/ ٣.
٢. الغدير: ٤/ ١٧.

سـوى حـب آل نبـي الهدى
فحبهـم أمـل الآملينـا
هـم عـدّتي لـوفـاتي هـم
نجـاتي هـم الفـوز للفـائزينـا [١]

وقال من قصيدة في أهل البيت:

بماذا تـرى تحتـجُّ يـا آل أحمد
على أحمد فيكـم إذا مـا استعـدت
وأشهـر مـا يـروونـه عنـه قـولـه
تـركـت كتـاب الله فيكـم وعترتي
ولكـن دنيـاهـم سعـت فسعـوا لها
فتلك التـي فلّت ضميراً عـن التي [٢]

وقال أيضاً من قصيدة:

فلهـذا أبنـاء أحمد أبنـاء علي
طـرايـد الآفـاق
فقـراء الحجـاز بعـد الغنـى الأكبر
أسرى الشـام قتلى العـراق

---

١. الغدير: ٤/ ٢٢٢ و ٢٢٥.
٢. الغدير: ٤/ ٢٢٧.

جـانبتهـم جـوانـب الأرض حتى

خلـت انّ السماء ذات انطبـاق

ان أقصر يـا آل أحمد أو أغـر

ق كـان التقصير كـالإغـراق [١]

وقال الشبراوي الشافعي في كتابه «الاتحاف بحب الأشراف»:

آل طـه ومـن يقـل آل طـه

مستجيراً بجـاهكـم لا يـرد

حبكـم مـذهبي وعقـد يقيني

ليس لي مـذهـب سواه وعقـد [٢]

وقال أيضاً في قصيدة أخرى:

آل بيت النبي مـا لي سـواكـم

ملجـأ أرتجيـه للكـرب في غـد

لست أخشى ريب الزمـان وأنتم

عمـدتي في الخطـوب يـا آل أحمد

من يضـاهي فخـاركم آل طـه

وعليكـم سرادق العـز ممتـد

---

١. الغدير: ٤/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

٢. الإتحاف بحبّ الأشراف: ٩٩.

إلى أن يقول في قصيدته هذه:

يـا إلهي ما لي سـوى حب آل البيـت

آل النبـــــي طـــــه المجـــــد

أنـــا عبـد مقصر لســـت أرجـــو

عمـلاً غير حـــب آل محمــد [١]

وقال أيضاً من قصيدة:

يـــا كـــرام الأنـــام يـــا آل طـــه

حبكـــم مــذهبـــي وعقـــد ولائي

ليـس لي ملجـأ سـواكـم وذخـر

أرتجيـــــه في شـــــدتي ورخـــــائي

فـــاز مـــن زار حيكـــم آل طـــه

وجنـــا منكـــم ثمار العطـــاء [٢]

وقال أيضاً في قصيدة:

أنـــا في عـــرض آل بيـــت نبـــي

طهـــــــــر الله بيتهـــــــــم تطهيراً

ســـادة أتقيـــاء أعطـــاهـــم الله

مقـــامـــاً ضخماً وملكـــاً كبيراً

١ و ٢. الإتحاف بحب الأشراف: ١٠٠ و ١٠١.

إلى أن يقول:

يــا بحــور الكمال يــا آل طـــه

كــم مننتــم وكــم جبرتــم كسيراً

هــل على غير بيتهــم نــزل الــو

حــي بجبريـل خــادمــاً مـأمــوراً

هل سواكم قد أذهـب الله عنه الرجـ

ـــس نصّــاً في ذكـره مسطــوراً [١]

﴿أُولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [٢]

○ الشيعة وآية التطهير

استدلـت الشيعة عن بكـرة أبيها بـآية التطهير على عصمة العترة الطـاهرة، وأفاض المفسرون منهم القول حـول الآية وأتوا ببيانات شافيـة في وجه دلالتها على عصمتهم.

وهناك جماعـة من العلماء قامـوا بتأليف رسـائل مفردة حول دلالتهـا وشأن نزولها، نشير إلى ما وقفنا عليه في ما يلي:

١. «**السحاب المطير في تفسير آية التطهير**»، للسيد السعيد القاضي نور الله المرعشي الشهيد عام ١٠١٩ هـ .

---

١. الإتحاف بحبّ الأشراف: ١٠٦ ـ ١٠٩.
٢. الأنعام: ٩٠.

٢. «تطهير التطهير» ، تأليف الفاضل الهندي (المتوفّى عام ١٠٣٥هـ) .

٣. «شرح تطهير التطهير» ، تأليف السيد عبد الباقي الحسيني كتبه شرحاً لكتاب الفاضل الهندي.

٤. «إذهاب الرجس عن حظيرة القدس»، للعلاّمة الشيخ عبد الكريم بن محمد طاهر القمي.

٥. «الصور المنطبعة»، له أيضاً في هذا المجال.

٦. «أقطاب الدوائر»، للعلاّمة عبد الحسين بن مصطفى أحد علمائنا في القرن الثاني عشر فرغ منه عام ١١٣٨ هـ ، وطبع عام ١٤٠٣ هـ .

٧. «تفسير آية التطهير»، تأليف الشيخ إسماعيل بن زين العابدين التبريزي الملقّب بمصباح (المتوفّى عام ١٣٠٠ هـ) .

٨. التنوير في ترجمة رسالة «آية التطهير» باللغة الأوردية، تأليف السيد عباس الموسوي، طبع في الهند عام ١٣٤١ هـ ، وهو ترجمة لرسالة السيد القاضي نور الله .

٩. «جلاء الضمير في حل مشكلات آية التطهير» ، للشيخ محمد البحراني، طبع في بُمباي عام ١٣٢٥ هـ .

١٠. رسالة قيمة في تفسير آية التطهير، للعلاّمة المحقق الشيخ لطف الله الصافي، طبعت عام ١٤٠٣ هـ من منشورات دار القرآن الكريم في قم المقدسة، وله رسالة أُخرى في العصمة طبعت معها، حيّاه الله وبيّاه.

١١. «آية التطهير» في جزءين، للسيد الجليل علي الأبطحي، وقد استقصى الكلام فيها حول المأثورات الواردة فيها في الجزء الأوّل، ودلالتها على العصمة في الجزء الثاني.

١٢. «آيـة التطهير» ، للشيـخ محمد مهـدي الآصفـي وهـي دراسة حـول مداليل الآية الكريمة ﴿إنّما يريد الله ...﴾ واختصاصها بأهل البيت عليهم السلام نشرتها مؤسسة دار القرآن الكريم في قم المقدسة سنة ١٤١١ هـ .

١٣. «آية التطهير ، رؤية مبتكرة»، لآية الله الشيخ محمد الفاضل اللنكراني، طبع في إيران ١٩٧٠ م بالفارسية. و ١٩٨٧م بالعربيّة.

١٤. «آية التطهير في الخمسة أهـل الكساء»، للسيد محيي الـدين الموسوي الغريفي، طبع في النجف الأشرف ـ ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م.

١٥. أخيرها ـ لا آخـرها ـ ما قدمنـاه لكم في هذه الصحائف لكـاتب هذه السطور، عفا الله عنه، ورزقه شفاعة محمد وأهل بيته يوم لا ينفع مال ولا بنون.

الفصل الثاني

سمات أهل البيت عليهم السلام

قدتعرّفت على من هم أهل البيت من خلال التعريف بالحدّ التامّ الذي عرّف به رسول اللّه صلى الله عليه وآله أهل بيته، أهل بيت النبوّة و الرّسالة، وكأنّ التعريف السابق كان بمنزلة التعريف بالحدّ أي التعريف بالذات.

و يمكن أن نتعرف عليهم من خلال التعريف على سماتهم وخصوصيّاتهم الّتي تشبه التعريف بالرّسم والتعريف بالعرضي.

و سماتهم و خصوصيّاتهم كثيرة مبثوثة في ثنايا الآيات و الأحاديث النبويّة، و لكن نقتصر في المقام على ما ورد من السمات في الذكرالحكيم.

١
العصمة

لقد تعرفت على ما هو المراد من أهل البيت في الآية المباركة على وجه لم يدع لقائل كلمة، ولا لمجادل شبهة، في أنّ المقصود منه هو العترة الطاهرة قرناء الكتاب في كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

فحان البحث للتطرق إلى سماتهم وخصوصياتهم، وهي على قسمين:

- ١. ما يستفاد من الآية الشريفة.
- ٢. ما يستفاد من سائر الآيات.

أمّا الأوّل، فالآية ـ بعد الإمعان فيها ـ تدلّ على عصمتهم وطهارتهم من الذنوب، ويعلم ذلك من خلال دراسة أمرين:

١. ما هو المراد من الرجس؟

٢. هل الارادة في الآية المباركة إرادة تكوينية أو تشريعية؟

١. ما هو المراد من الرجس ؟

المراد من الرجس: هو القذارة الأعم من المادية والمعنوية، وقد اتفق على ذلك أئمّة اللغة.

قال ابن فارس: الرجس: أصل يدل على اختلاط، ومن هذا الباب:

الرجس: القذر لأنّه لطخ وخلط.[١]

وقال ابن منظور: الرجس: القذر، وكل قذر رجس، وفي الحديث: أعوذ بك من الرجس النجس. وقد يعبر به عن الحرام والفعل القبيح والعذاب واللعن والكفر. قال الزجّاج: الرجس في اللغة كل ما استقذر من عمل ... فبالغ الله في ذم أشياء وسمّاها رجساً، وقال ابن الكلبي: رجس من عمل الشيطان أي مأثم.[٢]

وقد استعملت هذه اللفظة في الذكر الحكيم ثمانية مرات: ووصف به الخمر والميسر والأنصاب والأزلام والكافر غير المؤمن بالله والميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير والأوثان وقول الزور ... إلى غير ذلك من الموارد التي وصفت به في الذكر الحكيم.

ونكتفي بنقل بعض الآيات قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.[٣]

وقال سبحانه: ﴿إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾.[٤]

وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

والمتفحص في كلمات أئمّة أهل اللغة، والآيات الواردة فيها تلك اللفظة،

١. معجم مقاييس اللغة: ٢/ ٤٩٠.
٢. لسان العرب: ٦/ ٩٤ ـ ٩٥، مادة «رجس».
٣. المائدة: ٩٠.
٤. الأنعام: ١٤٥.
٥. الأنعام: ١٢٥.

يصل إلى أنّها موضوعة بمعنى القذارة التي تستنفر منها النفوس، سواءً أكانت مادية، كما وردت في الآيات، أم معنوية كما هو الحال في الكافر وعابد الوثن ووثنه.

فلو وصف به العمل القبيح عرفاً أو شرعاً، فلأجل انّ العمل القبيح يوصف بالقذارة التي تستنفرها الطباع السليمة، وعلى هذا فالمراد من الرجس في الآية هي الأعمال القبيحة عرفاً أو شرعاً، ويدل عليه قوله سبحانه بعد تلك اللفظة: ﴿ويطهّركم تطهيراً﴾ ، فليس المراد من هذا التطهير إلاّ تطهيرهم من الرجس المعنوي الذي لا تقبله النفوس السليمة.

وقد ورد نظير قوله: ﴿ويطهركم تطهيراً﴾ في حق السيدة مريم عليها السلام ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ﴾ .[1]

نعم: انّ لتطهير النفوس وطهارتها مراتب ودرجات، ولا تكون جميعها مستلزمة للعصمة، وانّما الملازم لها هو الدرجة العليا، قال سبحانه : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ .[2]

قال العلاّمة الطباطبائي: الرجس ـ بالكسر والسكون ـ صفة من الرجاسة وهي القذارة، والقذارة هيئة في النفس توجب التجنّب والتنفّر منها، وهي تكون تارة بحسب ظاهر الشيء كرجاسة الخنزير ، قال تعالى : ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وبحسب باطنه، أُخرى، وهي الرجاسة والقذارة المعنوية كالشرك والكفر وأثر العمل السيّء، قال تعالى: ﴿وأَمّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجساً إِلى رِجْسِهِمْ ومَاتُوا وَهُمْ كافِرون﴾ [3] ، وقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً

١. آل عمران: ٤٢.
٢. التوبة: ١٠٨.
٣. التوبة: ١٢٥.

حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .[١]

وأيّاً ما كان فهو إدراك نفساني وأثر شعوري يحدث من تعلّق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيّء وإذهاب الرجس عبارة عن إزالة كل هيئة خبيثة في النفس تضاد حق الاعتقاد والعمل، وعند ذلك يكون إذهاب الرجس معادلاً للعصمة الإلهية التي هي صورة علمية نفسانية، تحفظ الإنسان من رجس باطني الاعتقاد وسيّء العمل .[٢]

○ المنفي مطلق الرجس

إذا كان المراد من الرجس في الآية الكريمة هو الأفعال القبيحة عرفاً أو شرعاً والمعاصي صغيرها وكبيرها، فيجب أن يقال: إنّ المنفي في الآية هو عموم الرجس، وذلك لأنّ المنفي هو جنس الرجس لا نوعه ولا صنفه، ونفي الجنس يلازم نفي الطبيعة بعامة مراتبها، ولأجل ذلك لم يكتف سبحانه بقوله: ﴿ليذهب عنكم الرجس﴾ بل أكّده بقوله: ﴿ويطهّركم تطهيراً﴾ ، فلو كان المراد نفي قسم خاص من الرجس ـ أعني: الشرك، أو الأوسع منه كالمعاصي الكبيرة ـ لما كان لهذه العناية وجه.

والحاصل: انّ المفهوم من قول القائل لا خير في الحياة، أو لا رجل في الدار، هو المفهوم من قوله: ليذهب عنكم الرجس، والتفكيك بين المقامين غير مقبول. هذا هو الأمر الأوّل وإليك الكلام في الأمر الثاني :

---

١. الأنعام: ١٢٥.

٢. الميزان: ١٦/ ٣٣٠.

٢. هل الإرادة في الآية تكوينية أم تشريعية ؟

إنّ انقسام إرادته سبحانه إلى تكوينية وتشريعية من الانقسامات الواضحة التي لا تحتاج إلى بسط في القول، ومجمل القول فيها هو انّه إذا تعلّقت إرادته سبحانه على إيجاد شيء وتكوينه في صحيفة الوجود، فهي الإرادة التكوينية ولا تتخلّف تلك الإرادة عن مراده، وربّما يعبّر عنها بالأمر التكويني قال سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ﴾ .[١]

ففي هذا المجال يكون متعلّق الإرادة تكوّن الشيء وتحقّقه وتجسّده، والله سبحانه لأجل سعة قدرته ونفوذ إرادته لا تنفك إرادته عن مراده ولا أمره التكويني عن متعلّقه.

وأمّا إذا تعلّقت إرادته سبحانه بتشريع الأحكام وتقنينها في المجتمع حتى يقوم المكلّف مختاراً بواجبه، فهي إرادة تشريعية، ففي هذا المجال يكون متعلّق الإرادة تحقيقاً هو التشريع والتقنين، وأمّا قيام المكلّف فهو من غايات التكليف، ولأجل ذلك ربّما تترتب عليه الغاية، وربّما تنفك عنه، ولا يوجب الانفكاك خللاً في إرادته سبحانه ، لأنّه ما أراد إلاّ التشريع وقد تحقق، كما انّه ما أراد قيام المكلّف بواجبه إلاّ مختاراً، فقيامه بواجبه أو عدم قيامه من شعب اختياره، هذا هو إجمال القول في الإرادتين، وللتفصيل محل آخر .

والقرائن التي ستمر عليك تدل على أنّ الإرادة في الآية تكوينية لا تشريعية بمعنى انّ إرادته التكوينية التي تعلّقت بتكوين الأشياء وإبداعها في عالم الوجود، تعلّقت أيضاً بإذهاب الرجس عن أهل البيت، وتطهيرهم من كل رجس وقذر، ومن كل عمل يستنفر منه، وإليك تلك القرائن:

---

١. يس: ٨٢.

١. انّ الظاهر من الآية هو تعلّق إرادة خاصة بإذهاب الرجس عن أهل البيت، والخصوصية إنّما تتحقّق لو كانت الإرادة تكوينية، إذ لو كانت تشريعية لما اختصت بطائفة دون طائفة، لأنّ الهدف الأسمى من بعث الأنبياء هو إبلاغ تشريعاته ودساتيره إلى الناس عامة لا لأُناس معيّنين، ولأجل ذلك ترى أنّه سبحانه عندما شرّع للمسلمين الوضوء والغسل بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ...﴾ علّله بقوله: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [1] خاطب سبحانه المؤمنين عامة بالوضوء والغسل وعلّل تشريعه العام بتطهيرهم وإتمام نعمته عليهم وهذا بخلاف الآية التي نحن بصددها، فإنّها خصّصت إرادة تطهيره بجمع خاص تجمعهم كلمة «أهل البيت» وخصّهم بالخطاب وقال: «عنكم أهل البيت» أي لا غيركم.

وبالجملة فتخصيص تعلّق الإرادة بجمع خاص على الوجه الوارد في الآية، يمنع من تفسير الإرادة بالإرادة التشريعية التي عمّت الأُمّة جميعاً.

نعم لا يتوهم من ذلك انّ أهل البيت خارجون عن إطار التشريع، بل التشريع في كل المجالات يعمّهم كما يعم غيرهم، ولكن هنا إرادة تكوينية مختصة بهم.

٢. انّ العناية البارزة في الآية المباركة أقوى شاهد على أنّ المقصود بالإرادة، الإرادة التكوينية لا التشريعية، لوضوح أنّ تعلّق الإرادة التشريعية بأهل البيت لا يحتاج إلى العناية في الآية، وإليك بيان تلك العناية:

---

١. المائدة: ٦.

أ. ابتدأ سبحانه كلامه بلفظ الحصر، ولا معنى له إذا كانت الإرادة تشريعية، لأنّها غير محصورة بأُناس مخصوصين.

ب. عيّن تعالى متعلّق إرادته بصورة الاختصاص، فقال: ﴿أهل البيت﴾ أي أخصّكم أهل البيت.

ج. قد بيّن متعلّق إرادته بالتأكيد، وقال بعد قوله: ﴿ليذهب عنكم الرجس ... ويطهركم﴾.

د. قد أكّده أيضاً بالإتيان بمصدره بعد الفعل، وقال: ﴿ويطهّركم تطهيراً﴾ ليكون أوفى في التأكيد.

هـ. انّه سبحانه أتى بالمصدر نكرة، ليدل على الإكبار والإعجاب، أي تطهيراً عظيماً معجباً.

و. انّ الآية في مقام المدح والثناء، فلو كانت الإرادة إرادة تشريعية لما ناسب الثناء والمدح.

وعلى الجملة: العناية البارزة في الآية تدل بوضوح على أنّ الإرادة هناك غير الإرادة العامة المتعلّقة لكل إنسان حاضر أو باد، ولأجل ذلك فإنّ المحقّقين من المفسرين يفسرون الإرادة في المقام بالإرادة التكوينية ويجيبون عن كل سؤال يطرح عنها.

قال الشيخ الطبرسي: إنّ لفظة ﴿إنّما﴾ محقّقة لما أُثبت بعدها، نافية لما لم يثبت، فإنّ قول القائل: إنّما لك عندي درهم، وإنّما في الدار زيد، يقتضي انّه ليس عنده سوى الدرهم وليس في الدار سوى زيد، وعلى هذا فلا تخلو الإرادة في الآية أن تكون هي الإرادة المحضة التشريعية، أو الإرادة التي يتبعها التطهير وإذهاب الرجس؛ ولا يجوز الوجه الأوّل، لأنّ الله تعالى قد أراد من كل مكلّف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق، ولأنّ هذا القول يقتضي

المدح والتعظيم لهم بغير شك وشبهة ولا مدح في الإرادة المجرّدة، فثبت الوجه الثاني، وفي ثبوته ثبوت عصمة المعنيين بالآية من جميع القبائح.[1]

وقال السيد ابن معصوم المدني في تقريب دلالة الآية على عصمة المعنيّين بالآية: إنّ لفظة ﴿إنّما﴾ محققة لما أُثبت بعدها، نافية لما لم يثبت، فإنّ قول القائل إنّما لك عندي درهم، وإنّما في الدار زيد، يقتضي انّه ليس له عنده سوى درهم وليس في الدار سوى زيد، إذا تقرر هذا فلا تخلو الإرادة في الآية أن تكون هي الإرادة المطلقة أو الإرادة التي يتبعها التطهير وإذهاب الرجس، فلا يجوز الوجه الأوّل، لأنّ الله تعالى قد أراد من كل مكلّف هذه الإرادة المطلقة، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق. وهذا القول يقتضي المدح والتعظيم لهم بغير شك ولا شبهة ولا مدح في الإرادة المجرّدة، فثبت الوجه الثاني، وفي ثبوته ثبوت عصمة المعنيّين بالآية من جميع القبائح، لأنّ اللام في الرجس للجنس، ونفي الماهية نفي لكل جزئياتها، وقد علمنا أنّ من عدا ما ذكرناه من أهل البيت حين نزول الآية غير مقطوع على عصمته، فثبت أنّ الآية مختصة بهم، لبطلان تعلّقها بغيرهم. وما اعتمدوا عليه من أنّ صدر الآية وما بعدها في الأزواج، فجوابه انّ من عرف عادة العرب العرباء في كلامهم واسلوب البلغاء والفصحاء في خطابهم لا يذهب عليه انّ هذا من باب الاستطراد، وهو خروج المتكلم من غرضه الأوّل إلى غرض آخر ثم عوده إلى غرضه الأوّل، واتفقت كلمة أهل البيان على أنّ ذلك من محاسن البديع في الكلام نثراً ونظماً والقرآن المجيد وخطب البلغاء وأشعارهم مملوءة من ذلك.[2]

---

١. مجمع البيان: ٤/ ٣٥٧ تفسير سورة الأحزاب؛ وقريب منه ما أفاده الشيخ الطوسي في تبيانه: ٨/ ٣٤٠.

٢. رياض السالكين: ٤٩٧، الروضة السابعة والأربعون، وقد نقلنا عن الطبرسي ما يقرب منه.

أسئلة وأجوبة

قد تعرفت على مفاد الآية: واتضح لديك انّ القرائن الداخلية في نفس الآية تدل بوضوح على أنّ الإرادة الواردة في الآية إرادة تكوينية تعلّقت بطهارة أهل البيت وإذهاب الرجس عنهم، ويكون وزان الإرادة فيها وزان الإرادة الواردة في الآيات التالية ونظائرها:

١. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ .[١]

٢. ﴿وَيُرِيدُ ٱللهُ أَنْ يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ .[٢]

٣. ﴿وَمَنْ يُرِدِ ٱللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .[٣]

وعند ذلك تطرح في المقام أسئلة لا بد من الإجابة عليها:

○ السؤال الأوّل: هل الإرادة التشريعيّة تتعلّق بفعل الغير؟

هل يصح تعريف الإرادة التشريعية بالإرادة المتعلّقة بفعل الغير، كتكليفه سبحانه عباده بالصلاة والزكاة، وتكليف الآمر البشري غيره بالسقي والرعي؟ وإذا كانت الإرادة التشريعية عبارة عمّا ذكر، فتكون الإرادة التكوينية عبارة عن تعلّقها بفعل نفس المريد كتعلّق إرادته سبحانه بخلق السماوات والأرض، وإرادة غيره بالأكل والشرب ؟

الجواب: انّ تعريف الإرادة التكوينية بما ذكر وإن كان صحيحاً، لكن

---

١. القصص: ٥.
٢. الأنفال: ٧.
٣. المائدة: ٤١.

تعريف التشريعية منها بتعلّقها بفعل الغير غير صحيح قطعاً، وذلك لأنّ الإرادة لا تتعلّق إلاّ بأمر اختياري وهو فعل المريد، وأمّا فعل الشخص الآخر، فهو بما انّه خارج عن اختيار المريد، لا تتعلّق به إرادته، وكيف يصح لشخص أن يريد صدور فعل من الغير مع أنّ صدوره منه تابع لإرادة ذلك الغير وليس تابعاً لإرادة المريد الآخر ؟

وإن شئت قلت: إنّ زمام فعل الفاعل المختار بيد الفاعل المباشر ، فلو أراده لقام به. ولو لم يرده لما قام به وليس زمامه بيد الآمر، حتى يريده منه جداً ولا تصيّره إرادة الآمر مسلوب الاختيار ولا تجعله مضطراً مقهوراً مسخراً في مقابل إرادة الآمر، لأنّ المفروض انّ الفاعل بعد، فاعل مختار، ومن هذا شأنه لا تتعلّق بفعله، إرادة الغير الجدية، لأنّ معنى تعلّقها بفعل الغير أنّه في اختيار المريد ومتناوله، ويوجد بإرادته وينتفي بانتفائه، مع أنّه ليس كذلك وإنّما يوجد بإرادة الفاعل المباشر وينتفي بانتفاء إرادته، ولا ملازمة بين إرادة الآمر وإرادة المأمور ولأجل ذلك كثيراً ما يعصى ويخالف.

وفي الجملة: ليست ماهية الإرادة التشريعية أمراً يخالف ماهية الإرادة التكوينية، بل الكل من واد واحد تختلفان في الاسم وتتحدان في الماهية، والجميع يتعلّق بفعل نفس المريد، غير انّ المراد فيهما مختلف حسب الاعتبار، وهو في التكوينية، عبارة عن الفعل الخارجي الصادر عنه مباشرة ، كالتكوين والتصنيع، سواء كان المريد هو الله سبحانه أم أحد عباده القادرين على الأفعال الخارجية باقداره، ولكنّه في التشريعية عبارة عن نفس الطلب والإنشاء بالإيماء والإشارة واللفظ والكتابة، وهو أيضاً فعل المريد الواقع في اختياره، وأمّا قيام الغير بالمطلوب فهو من غايات إرادة المريد ومقاصده وأغراضه، وهي تترتب تارة،

وتنفك أُخرى، فلو تكونت في نفسه مبـادئ الخوف والرجال لقام به وإلاّ فلا يقوم به ولا تتحقّق الغاية لكن تتم عليه الحجة.

وعلى ذلك فما اشتهر على الألسن من أنّ الإرادة التشريعيـة عبارة عن تعلّق إرادة الآمر بفعل الغير تسامح في التعبير ومن باب إقامة الغاية مكان ذيها.

والذي يوضح ذلك: انّ إرادته سبحانه لا تنفك عن مراده، ومن المستحيل أن يخاطب شيئاً بـ «كن» ولا يتحقّـق، ولسعة قدرته وعمـوميتها، قال سبحـانه: ﴿إِنَّمَا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُـنْ فَيَكُونُ﴾ [1]، فلو تعلّقت إرادتـه بفعل العباد كـالصلاة والصـوم لما انفك عنهـم ولو تعلّقـت على إيمانهم وهدايتهـم، لما وجد على أديم الأرض عاص ومتمرد، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ﴾ [2]، وتكون نتيجة ذلك كونهم مجبورين في قبول الهداية، ومضطرين إلى الطاعة، فلا يقـام لمثلها وزن ولا قيمة، وهذا يعرب بوضوح عن أنّ متعلّـق إرادته في مجال التشريع هو فعـل نفس المشرع وهو التشريـع، وهو بعد غير منفك عن إرادته، موجود معها.

○ السؤال الثاني: هل الإرادة التكوينيّة توجب سلب الاختيار؟

لو كانـت الإرادة في المقام إرادة تكوينية فبما انّ إرادته سبحـانه لا تتخلّف عن المراد فلازمها هنا كون طهارتهم وابتعادهم عن الرجس أمراً جبرياً لا يتخلّف، وهذا لا يعد فضيلة وثناء لأهل البيت مع أنّ الآية بصدد الثناء عليهم.

وقد أجاب عنه المحقّقون على وجه الإجمال وقـالوا: إنّ القدرة والتمكّن من فعل المعصية ثابت للمعصوم، والعصمة مـانع شرعي، ولا منافاة بين عدم القدرة الشرعية والقدرة الذاتيـة، وهذا الجواب بإجماله كاف لأهل التحقيـق ولكن يحتاج

---

١. يس: ٨٢.
٢. الأنعام: ٣٥.

إلى إيضاح، فنقول:

إنّ مشكلة الجبر تنحل بالتعرّف على كيفية تعلّق إرادته سبحانه بأفعال العباد، والإمعان في هذا الموضوع يكفي لحل بعض المشاكل المطروحة في مسألة الجبر والاختيار.

وبعبارة أُخرى: هل تعلّقت إرادته سبحانه بصدور أفعال العباد عنهم باختيارهم وإرادتهم، أم تعلّقت بصدورها منهم مطلقاً وإن لم تكن مسبوقة باختيارهم وإرادتهم، فالجبر لازم القول الثاني، والاختيار نتيجة القول الأوّل، والحق هو القول الأوّل فنقول في توضيحه:

إنَّ لازم التوحيد في الفاعلية والخالقية ـ كما هو منصوص الآيات ومقتضى البراهين ـ هو انّ كل ما يقع في صفحة الوجود سواء كان فعلاً للعباد أم لغيرهم لا يخرج عن إطار الإرادة التكوينية لله سبحانه ، ولا يقع شيء في الكون إلاّ بإرادته وإذنه سبحانه ، قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِن لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [1] ، وهذه الآية وغيرها تدلّ بصراحة على أنّ أفعال العباد حلالها وحرامها غير خارجة عن إطار الإرادة التكوينية لله وإلاّ لزم أن يكون الإنسان أو الفواعل الأُخر مستقلة في الفعل والتأثير، وهو يستلزم الاستقلال في الذات، وهو عين الشرك ونفي التوحيد في الأفعال والخالقية.

ومع ذلك فليس العباد مجبورين في أفعالهم وتصرفاتهم، لأنّ إرادته سبحانه وإن تعلّقت بأفعالهم لكن إرادته سبحانه متعلّقة بأفعالهم بتوسط إرادتهم الخاصة وفي طول مشيئتهم، وبذلك صح أن يقال لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين.

---

١. الحشر: ٥.

وعلى ذلك فالله سبحانه وإن أراد طهارتهم عن الذنوب بالإرادة التكوينية ولكن تلك الإرادة تعلّقت بها، لما علم سبحانه انّهم بها زودوا من إمكانات ذاتية ومواهب مكتسبة نتيجة تربيتهم وفق مبادئ الإسلام، لا يريدون إلاّ ما شرّع لهم سبحانه من أحكام، فهم لا يشاءون إلاّ ما يشاء الله، وعند ذلك صح له سبحانه أن يخبر بأنّه أراد تكويناً إذهاب الرجس عنهم، لأنّهم ﷺ ما داموا لا يريدون لأنفسهم إلاّ الجري على وفق الشرع لا يفاض عليهم إلاّ هذا النوع من الوصف.

وحصيلة الكلام: انّ مبنى الإشكال هو الغفلة عن كيفية تعلّق إرادته سبحانه بأفعال العباد حيث توهّم المستشكل:

أوّلاً: انّ أفعال العباد خارجة عن إطار الإرادة التكوينية لله سبحانه ، وغفل عن أنّ هذا النوع من الاعتقاد يساوق الشرك ويصادم التوحيد.

وثانياً: انّ سبق الإرادة التكوينية على أفعال العباد يستلزم سلب الاختيار عنهم، وغفل عن أنّ إرادته سبحانه انّما تتعلّق بتوسط إرادة العباد واختيارهم، فهم إذا أرادوا لأنفسهم شيئاً، فالله سبحانه يريد ذلك الشيء لهم تكويناً، وليس في ذلك أيّة رائحة للجبر، بل هو الأمر بين الأمرين.

وعندئذ يكون المراد من تطهيرهم ـ بعد تجهيزهم بإدراك الحق في الاعتقاد والعمل، وإعطائهم البصيرة الكاملة لمعرفة الحق في مجال الاعتقاد والعمل ـ تعلّق إرادته التكوينية بطهارتهم من الذنوب، لأجل تعلّق إرادتهم بذلك، فقد تعلّقت إرادته سبحانه بتنزيههم عن طريق إرادتهم واختيارهم، وأين هذا من الجبر ؟

○ تفسير آخر للإرادة التكوينية

ما ذكرناه في كيفية تعلّق إرادته سبحانه بأفعال العباد، جواب عام سار في

جميع الموارد ورافع للإشكال في مجال الجبر، وانّ من أعضل الموارد في الجبر والاختيار ، هي تحليل كيفية تعلّق إرادته بأفعال العباد وانّه : هل يوجب الجبر ويسلب الاختيار، باعتبار انّ إرادته لا تنفك عن المراد، أم لا ؟ لأنّ إرادته تعلّقت بصدور أفعالهم عن أنفسهم عن مبادئها المكونة فيهم وهي إرادتهم واختيارهم، فلو صدرت عنهم بلا هذه الخصوصية لزم انفكاك إرادته عن مراده.

ولمّا استشكل هذا المطلب على بعضهم انصرفوا إلى إخراج أفعال العباد عن إطار إرادته سبحانه ، وانّما تتعلّق بالكائنات دون أفعالهم، وهو كما ترى ، لأنّه يستلزم تحقّق شيء في صحيفة الوجود بغير إذنه وإرادته، مع أنّ مقتضى التوحيد في الخالقية انتهاء كل ما في عالم الإمكان إلى وجوده وخالقيته، وبالتالي إلى إرادته، فإخراج أفعال العباد عن مجال إرادة الله، يخالف الأُسس التوحيدية التي جاء بها القرآن ودعمها العقل.

إلاّ أنّ في مسألة العصمة وكيفية تعلّق إرادته تعالى بعصمة المعصوم تحليلاً آخر يختص بهذا المقام ولا يتعدّاه.

وحاصل هذا التحليل يتوقف على معرفة كيفية العصمة وحقيقتها، فنقول:

إنّ حقيقة العصمة ترجع إلى الدرجة العليا من التقوى، بمعنى انّ التقوى إذا بلغت قمتها تعصم الإنسان عن اقتراف الذنب وجميع القبائح.

وإن شئت قلت: العصمة نتيجة العلم القطعي الثابت والعرفان بعواقب المعصية علماً يصد الإنسان عن اجتراح المعاصي واقتراف المآثم، كالإنسان الواقف أمام الأسلاك التي يجري فيها التيار الكهربائي، فانّه لا يقدم بنفسه على إمساكها.

وبعبارة ثالثة: العصمة: الاستشعار بعظمة الرب وكماله وجلاله استشعاراً منقطع النظير حيث يحدث في المستشعر التفاني في الحق، والعشق لجماله، وكماله، بحيث لا يستبدل برضاه شيئاً.

فإذا كانت حقيقة العصمة نفس هذه الحقائق أو قريباً منها، فليس اتصاف الإنسان بهذه الحقائق موجباً للجبر وسالباً للاختيار ، بل المعصوم مع هذه المواهب الإلهية قادر على اقتراف المعاصي وارتكاب الخطايا غير انّه لأجل حصوله على الدرجة العليا من التقوى، والعلم القطعي بآثار المعاصي والاستشعار المنقطع النظير بعظمة الخالق، يختار الطاعة وترك المعصية مع القدرة على خلاف ذلك، فحاله كالوالد العطوف لا يقدم على قتل ولده ولو أُعطيت له الكنوز الكثيرة .

إنّ هذه الحقائق الموهوبة للمعصوم أشبه بحبل يلقى إلى الغارق في البحر والساقط في البئر حتى يتمسك به وينجي نفسه، فلا شك انّ العاقل يتمسّك به دائماً وينجي نفسه، ولكن هذا العمل لا يخالف قدرته على ترك التمسك به وإلقاء نفسه في مهاوي الهلكة.

فهذه الحقائق النفسانية الموهوبة ليست إلاّ أسباباً لترك العصيان ومقتضيات للطاعات، ومعدّات لقرب العبد من ربّه، ومع ذلك تتوسط بينها وبين فعل العبد من طاعة أو عصيان، إرادته واختياره، فليست هذه المواهب عللاً تامة لتوجه العبد إلى جانب واحد وانحيازه عن جانب آخر، بل هي أسباب مقربة ومعدات للإرادة، ومع ذلك كله فاختيار المعصوم وإرادته باقيان على حالهما.

فمعنى تعلّق إرادته سبحانه بعصمتهم ليس تعلّقها بالطاعة وترك العصيان، بل معناه تعلّق إرادته التكوينية بإفاضة هذه المواهب عليهم وجعلها في

مكامن نفوسهم وتحليتهم بهذه الحلية الإلهية، ولكن هذا الجعل والتحلية لا يهدف إلى كونهم مكتوفي الأيدي أمام التكاليف ومسوقين إلى جانب واحد، فالاشتباه في المقام حصل في تعيين ما هو المفاض من الله سبحانه على هذه الشخصيات فتخيل: «انّ المفاض هو العصمة المفسرة بترك المعصية ونفس الطاعة» غفلة عن أنّ المفاض هو هذه الكيفيات والصفات العليا النفسانية عليهم، وهي توجد استعداداً في النفس بترك العصيان واختيار الطاعة مع القدرة على الخلاف.

نعم: لو كان هناك جبر، فالجبر في تحليتهم بهذه المواهب والعطايا الإلهية، ولكنّهم معها مختارون في التوجه، لأي طرف أرادوا، وإن كانوا لا يشاءون إلاّ الطاعة وترك المعصية.

○ ما هو الوجه لتفسير الإرادة بالتشريعية؟

ثمّ إنّ الجمهور لمّا ذهبوا إلى كون الإرادة تشريعية احتالوا في توجيهها يقول المفسر المعاصر سيد قطب في هذا الصدد: إنّه سبحانه يجعل تلك الأوامر ـ الأوامر الواقعة قبل الآية من قوله: ﴿وقرن ... ولا تبرجن﴾ ـ وسيلة لإذهاب الرجس وتطهير البيت، فالتطهير وإذهاب الرجس يتم بوسائل يأخذ الناس بها أنفسهم ويحقّقونها في واقع الحياة العملي ... ويختم هذه التوجيهات لنساء النبي بمثل ما بداها، بتذكيرهنّ بعلو مكانتهنّ وامتيازهنّ على النساء بمكانتهنّ من رسول الله وبما أنعم الله عليهنّ فجعل بيوتهنّ مهبط القرآن ومنزل الحكمة وتشرف النور والهدى والإيمان، وانّه لحظ عظيم يكفي التذكّر به لتحس النفس جلالة قدره ولطيف صنع الله فيه وجزالة النعمة التي لا يعد لها نعيم. [١]

---

١. في ظلال القرآن، في تفسير سورة الأحزاب.

وحاصل ما ذكره مبني على نزول القرآن في مورد نساء النبي، وانّه سبحانه علّل خطاباته لهنّ بأنّه يريد من هذه التكاليف إذهاب الرجس عنهنّ، ويكون المعنى انّ التشديد في التكاليف وتضعيف الثواب والعقاب ليس لانتفاع الله سبحانه به، بل لإذهاب الرجس عنكنّ وتطهيركنّ.

ولا يخفى انّ ما ورد في الآيات من الأحكام ليست أحكاماً خاصة بنساء النبي ﷺ، فهذا قوله سبحانه قبل آية التطهير: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلجَاهِلِيَّةِ ٱلأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلاَةَ وَآتِينَ ٱلزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ .[1]

وهذا قوله سبحانه بعد الآية: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ...﴾ كلّها أحكام عامة لنساء المسلمين، فالله سبحانه بهذه التكاليف يريد أن يطهر الكل وإذهاب الرجس عن عموم النساء، لا عن زوجات النبي خاصة، وعندئذ لا وجه لتخصيصهنّ بالخطاب بالعناية التي عرفت.

وإنّما ذهب بعض الجمهور إلى ما ذهب، لأجل انّهم تصوّروا نزول الآية في حق نساء النبي ﷺ، فاحتالوا لتفسير الإرادة بما ذكره سيد قطب ونظراؤه، وانّما ذهبوا إلى ذلك بزعمهم اتصال الآية بما قبلها من الآيات، مع أنّه سيوافيك انّ الآية آية التطهير آية مستقلة لا صلة لها بما قبلها ولا ما بعدها، وانّما وضعت في هذا الموضع لمصلحة خاصة سنشير إليها، والأحاديث بكثرتها البالغة ناصة على نزول الآية وحدها، ولم يرد نزولها في ضمن آيات نساء النبي ﷺ، ولا ذكره أحد حتى أنّ القائل باختصاص الآية بأزواج النبي ينسب القول إلى عكرمة وعروة لا إلى الرواية.

فالآية لم تكن بحسب النزول من آيات النساء، ولا متصلة بها، وستوافيك

---

١. الأحزاب: ٣٣.

الروايات الكثيرة الواردة في هذا المضمار .

○ السؤال الثالث: هل العصمة الموهوبة مفخرة ؟

وهذا سؤال ثالث يتردد في المقام وفي غيره، وقد طرحناه عند البحث عن العصمة على وجه الإطلاق ونطرحه هنا بشكل آخر، وهو انّ عصمة أهل البيت لو كانت أمراً موهوباً من الله سبحانه كيف يمكن أن تعد مفخرة لأهله ؟

والإجابة عن هذا السؤال واضحة بعد الوقوف على معنى العصمة الموهوبة لهم، وقد عرفت أنّ المراد من هبتها لهم هو إعطاء المقتضيات والمعدات لهم التي لا تسلب الاختيار عنهم وهم بعد قادرون على الطاعة والعصيان والنقض والإبرام، والسائل تخيل انّ العصمة الموهوبة هي نفس ترك العصيان والمخالفة، فزعم أنّ شيئاً مثلها لا يعد فخراً ولا يوجب ثناءً، وقد أوضحنا هذا في السؤال السابق، فراجع.

○ السؤال الرابع: هل الآية تدل على فعلية التطهير ؟

وربّما يقال: إنّ أقصى ما تدل عليه الآية هو إخباره سبحانه عن أنّه يريد إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيرهم، وليس في الآية ما يدل على تحقّق هذه الإرادة بالفعل، وانّها صدرت منه سبحانه ، مع أنّ القائلين بعصمة أهل البيت يذهبون بدلالتها على اتصافهم بالعصمة، وفي هذا الصدد ينقل الشيخ زين الدين البياضي العاملي إشكالاً عن المخالف ويقول: ﴿يريد﴾ لفظ مستقبل، فلا دليل على وقوعه . [1]

---

١. الصراط المستقيم: ١/ ١٨٤.

ولا يخفى أنّ هـذا الإشكال نشأ مـن اتخاذ موقـف خاص بالنسبـة إلى أهل البيت بشهادة انّ هذه اللفظة وردت في كثير من الآيات مع أنّه ما خطر ببال أحد مثل هذا الإشكال قال سبحانه : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [١] ، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [٢] ، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [٣] ، وقال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [٤] ، أضف إلى ذلـك انّ هناك قـرينة واضحـة على تحقّق الإرادة بشهادة انّ الآية في مقام المدح والثناء.

وأمّا الإتيان بصيغـة المستقبل والعدول عن الماضي، فهو لأجـل ظهور فعل المستقبل في الدوام، وهـو سبحانه يريـد إفادة دوام هذه الإرادة واستمرارهـا مدى الأيام والسنين.

○ السؤال الخامس: هل الإذهاب يستلزم الثبوت؟

خلاصة هذا السؤال ترجع إلى أنّ الإذهاب يتعلّق بشيء موجود، فعلى ذلك يستلزم أن يكـون هناك رجس موجـود أذهبه الله وطهرهـم منه، وهذا يضاد مقـالة أهل العصمة، ولكن السائل أو المعترض غفل عن أنّ هذه التراكيب كما تستعمل في إذهاب الشيء الموجود، كـذلك تستعمل فيما إذا لم يكن موجوداً، ولكـن كانت هناك مقتضيات ومعدات له حسب الطبيعة الإنسانية وإن لم يكن موجوداً بالفعل كقول الإنسان لغيره: أذهبَ الله عنك كل مرض، ولم يكن حاصلاً له، ولكن كانت بعض المعدات للمرض موجودة.

---

١. النساء: ٢٦.

٢. النساء: ٢٧.

٣. النساء: ٢٨.

٤. النساء: ٢٦.

وفي المقام نزيد توضيحاً: انّ الإنسان حسب الطبيعة الأوّلية مجهّز بالغرائز والميول العادية المتجاوزة عن الحدود، ولم يشذ أهل البيت عنها ولم تكن لهم في العالم الجسماني خلقة خاصة بهم، فكانت هناك أرضية صالحة للتعدي والطغيان، فلمّا جهّزوا بهذه الغرائز أوّلاً، ثم بالعصمة ـ بالمعنى الذي عرفت ـ ثانياً صح أن يقال: إنّه سبحانه أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً من العصيان.

وهذه الأسئلة وأشباهُها لا تحتاج إلى البسط في المقال، ولأجل ذلك نطوي الكلام عنها.

٢

المحبّة في قلوب المؤمنين

إنّ الإيمان بالله و العمل الصالح يُورث محبَّة في قلوب الناس، إذ للإيمان أثر بالغ في القيام بحقوق الله أوّلاً، وحقوق الناس ثانياً، لا سيَّما إذا كان العمل الصالح نافعاً لهم، و لذلك استقطب المؤمنون حُبَّ النّاس، لدورهم الفعّال في إصلاح المجتمع الإنساني. وهذا أمر ملموس لكلّ النّاس، وإليه يشير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدّاً﴾ .[1]

وبما أنّ الأنبياء بلغوا قمَّة الإيمان كما بلغوا في العمل الصالح ذروته، نرى أنّ لهم منزلة كبيرة في قلوب الناس لا يضاهيها شيء، لأنّهم صرفوا أعمارهم في سبيل إصلاح أُمور الناس وإرشادهم إلى مافيه الخير و الرشاد. هذا حال الأنبياء ويعقبهم الأوصياء والأولياء والصلحاء.

أخرج أبو إسحاق السعدوي في تفسيره باسناده عن البراء بن عازب، قال:

---

١. مريم:٩٦

قال رسول الله ﷺ لعلي: «اللّهمَّ اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي في صدور المؤمنين مودَّة»، فأنزل الله تعالى الآية المذكورة آنفاً.

•

إنّ أهل البيت عليهم السلام لأجل انتسابهم إلى البيت النبوي الرفيع حازوا مودة الناس واحترامهم بكلّ وجودهم. وقد أُشير إلى ذلك في آثارهم وكلماتهم.

روى معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ حبّ علي عليه السلام قُذف في قلوب المؤمنين، فلا يُحبّه إلاّ مؤمن ولا يبغضه إلاّ منافق، وإنّ حبّ الحسن والحسين عليهما السلام قذف في قلوب المؤمنين والمنافقين والكافرين فلا ترى لهم ذامّاً، و دعا النبي ﷺ الحسن والحسين عليهما السلام قرب موته فقبّلهما وشمّهما وجعل يرشفهما وعيناه تهملان».[1]

و قد تعلّقت مشيئته سبحانه على إلقاء محبتهم في قلوب المؤمنين الصالحين، حتى كانت الصحابة يميّزون المؤمن عن المنافق بحبّ علي أو بغضه.

روى أبو سعيد الخدري، قال: إنّا كنّا لَنَعرف المنافقين نحن معشرَ الأنصار ببغضهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام.[2]

وقد تضافر عن علي أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «والّذي فلق الحبة وبرأ النسمة، انّه لعهد النبي الأُمّي إليّ: انّه لا يحبني إلاّ مؤمن ولا يبغضني إلاّ منافق».[3]

و يروى عنه عليه السلام أيضاً أنّه قال: واللّه إنّه ممّا عهد إليَّ رسول اللّه ﷺ انّه لا

---

١. المناقب لابن شهر آشوب: ٣/ ٣٨٣؛ سفينة البحار: مادة حب: ١/ ٤٩٢.

٢. جامع الترمذي: ٥/ ٦٣٥ برقم ٣٧١٧؛ حلية الأولياء: ٦/ ٢٩٥.

٣. أسنى المطالب: ٥٤، تحقيق محمد هادي الأميني.

يبغضني إلاّ منافق و لا يُحبّني إلاّ مؤمن .[١]

و قد أعرب عن ذلك الإمام علي بن الحسين عليهما السلام في خطبته في جامع دمشق، عند ما صعد المنبر وعرَّف نفسه فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثمّ خطب خطبة أبكى منها العيون، و أوجل منها القلوب، ثمّ قال:

«أيّها الناس أُعطينا ستّاً و فُضِّلنا بسبع، أُعطينا : العلم، والحلم، والسماحة، والفصاحة، والشجاعة، و المحبّة في قلوب المؤمنين».[٢]

و لا عجب في أنّه تبارك و تعالى سمّاهم كوثراً أي الخير الكثير، وقال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوثر... ﴾ قال الرازي: الكوثر: أولاده، لأنّ هذه السورة إنّما نزلت ردّاً على من عابه صلى الله عليه وآله بعدم الأولاد ، فالمعنى أنّه يعطيه نسلاً يبقون على مرّ الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت عليهم السلام، ثم العالم ممتلئ منهم ولم يبق من بني أُمية في الدنيا أحد يُعبأ به، ثمّ انظر كم كان فيها من الأكابر من العلماء كالباقر و الصادق و الكاظم والرضا عليهم السلام .[٣]

إنّ محبة النبي صلى الله عليه وآله للحسين عليه السلام لم تكن محبة نابعة من حبه لنسَبه بل كان واقفاً على ما يبلغ إليه ولده الحسين عليه السلام في الفضل والكمال والشهادة في سبيله، ونجاة الأُمّة من مخالب الظلم، والثورة على الظلم والطغيان، و هناك كلام للعلاّمة المجلسي يقول:

إنّ محبة المقربين لأولادهم وأقربائهم وأحبّائهم ليست من جهة الدواعي

---

١. مسند أحمد:١/ ٨٤، إلى غير ذلك من المصادر المتوفرة.

٢. بحار الأنوار: ٤٥/ ١٣٨.

٣. تفسير الفخر الرازي:٣٢/ ١٢٤.

النفسانيـة والشهوات البشريـة، بل تجرّدوا عـن جميع ذلـك و أخلصوا حُبَّهـم، و وُدَّهم لله. و حُبّهم لغير الله إنّما يرجع إلى حبهم له، ولذا لم يحب يعقوب من سائر أولاده مثل مـا أحب يـوسف ﷺ منهـم، و لجهلهـم بسبـب حبه لـه نسبـوه إلى الضلال، و قالوا: نحن عصبة، ونحن أحقّ بأن نكون محبوبين له، لأنّا أقوياء على تمشية مـا يريـده من أُمور الـدنيا، ففـرط حبّه يوسـف إنّما كان لحب الله تعـالى له واصطفائه إيّاه فمحبوب المحبوب محبوب.[1]

١. سفينة البحار:١/ ٤٩٦، مادة حبب.

٣

استجابة دعائهم عليهم السلام

الابتهال إلى الله وطلب الخير منه أو طلب دفع الشرّ ومغفرة الذنوب، أمر مرغوب، يقوم به الإنسان تارة بنفسه، وأُخرى يتوصل إليه بدعاء الغير.

واستجابة الدعاء رهن خرق الحجب و الوصول إليه سبحانه، حتى يكون الدعاء مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿أُدْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [١] وليس كلّ دعاء مستجاباً و صاعداً إليه سبحانه، فانّ لاستجابة الدعاء شروطاً مختلفة قلّما تجتمع في دعاء الإنسان العادي.

نعم هناك أُناس مطهرون من الذنوب يكون دعاؤهم صاعداً إلى الله سبحانه و مستجاباً قطعاً، ولذلك حثّ سبحانه المسلمين على التشرّف بحضرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم و طلب الاستغفار منه، قال سبحانه: ﴿وَلَو أنّهُمْ إذ ظَلَمُوا أنفسهُمْ جاءُوكَ فاستغفروا الله وَاسْتَغْفر لَهُمُ الرَّسُول لَوَجدوا الله تَوّاباً رَحيماً﴾ . [٢]

وقال سبحانه: ﴿وَإذا قيلَ لَهُمْ تَعالَوا يَسْتَغْفِر لَكُمْ رَسُول الله لَوّوا رُءُوسهُمْ

١. غافر: ٦٠.

٢. آل عمران: ٦٥.

وَرأيتهم يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ .[١]

ولـذلـك طلب أبنـاء يعقـوب مـن أبيهـم أن يستغفر لهم كما يحكيـه قلـه سبحانه: ﴿قالُوا يا أَبانا استَغْفِر لَنا ذُنُوبنا إنّا كُنّا خاطِئين﴾ .[٢]

ويظهر ممّا جرى بين النبي ﷺ و وفد نجران من المحاجّة والمباهلة انّ أهل البيت إذا أمّنوا علىٰ دعاء النبي ﷺ يُستجاب دعاءه، فقد وفد نصارى نجران على الرسول و طلبوا منه المحاجّـة، فحاجّهم الرسول ﷺ ببرهان عقلي تشير إليـه الآية المباركة: ﴿إِنَّ مَثَل عيسىٰ عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قال لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ .[٣]

فقد قارعهم النبي ﷺ بهذا البيان البليغ الذي لا يرتاب فيه ذو مرية، حيث كان نصارىٰ نجران يحتجون ببنوة المسيح بـولادته بلا أب فوافاهم الجواب: «بأنّ مثل المسيح كمثل آدم، إذ لم يكن للثاني أب ولا أُمّ مع أنّه لم يكن ابناً لله سبحانه» وأولى منه أن لا يكون المسيح ابناً له.

ولمّا أُفحموا في المحاجّة التجأوا إلى المباهلة والملاعنة، وهي وإن كانت دائرة بين الرسول ﷺ و رجال النصارى، لكـن عمّت الدعوة للأبناء والنسـاء، للدلالة على اطمئنان الداعي بصدق دعوتـه وكونه على الحقّ، و ذلك لما أودع الله سبحانه في قلـب الإنسان مـن محبة الأولاد والشفقـة عليهـم، فتراه يقيهم بنفسـه ويركـب الأهـوال و الاخطار دونهم، ولـذلك قـدّم سبحانـه في الآية المباركة الأبناء على النساء، وقال: ﴿فَمَنْ حاجّكَ فيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعالَوا نَدْعُ

---

١. المنافقون: ٥.
٢. يوسف: ٩٧.
٣. آل عمران: ٥٩.

أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنساءَناو نساءكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمّ نَبْتَهِل فَنَجْعَل لَعْنَةَ الله عَلى الكاذِبين﴾.[١]

وإنَّ إتيـانه سبحـانـه بلفـظ الأبناء بصيغـة الجمـع يعـرب عن أنّ طـرف الدعوى لم يكن النبي ﷺ وحده بل أبناؤه ونساؤه، ولذلك عدَّتهم الآية نفس النبي ونساء النبي وأبناءه من بين رجال الأُمة ونسائهم و أبنائهم .

ثمّ إنّ المفسريـن قد سـاقوا قصـة المباهلـة بشكل مبسـوط منهم صـاحب الكشاف، قال: لماّ دعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع و ننظر.

فلّما تخالوا قالـوا للعاقب، وكان ذا رأيهم: يـا عبد المسيح ما تـرى؟ فقال: والله لقد عرفتم يامعشر النصارى أنّ محمّداً نبيّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكـم، والله ما باهل قوم نبيـاً قط، فعاش كبيرهم ولا نبـت صغيرهم ولئن فعلتم لتهلكـنّ ، فإن أبيتـم إلاّ إِلف دينكم والإقـامة على ما أنتـم عليه، فـوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا رسول الله ﷺ وقد غدا محتضناً الحسين، آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه، وعليّ خلفها، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمِّنوا».

فقال أُسقـف نجران: يا معشر النصـارى! إنّي لأرى وجوهاً لـو شاء الله أن يُزيل جبـلاً من مكانه لأزالـه بها فلا تباهلوا فتُهلكـوا، ولا يبقىٰ على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامـة، فقالوا: يا أبـا القاسم رأينا أن لا نبـاهلك، وأن نقرّك على دينـك، ونثبت على ديننـا. قال: «فـإذا أبيتـم المباهلـة، فـأسلموا، يكـن لكم مـا للمسلمين، وعليكم ما عليهم».

---

١. آل عمران: ٦١.

فأبـوا. قال: «فإنيّ أُنـاجزكـم»، فقالوا: مـا لنا بحرب العـرب طاقـة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا، ولا تخيفنا، ولا تردُّنا عن ديننا، على أن نؤدّي إليك كلّ عام ألفي حلّة، ألـف في صفر، وألف في رجب، وثلاثين درعاً عاديـة من حديد، فصالحهم على ذلك.

وقال: «والـذي نفسي بيده انّ الهلاك قد تـدلى على أهل نجران، ولـو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير و لاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله حتـى الطير على رؤوس الشجـر، ولما حـال الحول على النصـارى كلّهـم حتـى يهلكوا».

وعن عائشة انّ رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فـأدخله، ثـمّ جاء الحسين فأدخلـه، ثمّ فاطمـة ،ثمّ علي، ثـمّ قال: **﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾** .[١]

الشاهدعلى استجابة دعائهم أمران:

أ: قول النبي ﷺ إذا أنا دعوت فـأمّنوا، فكان دعاء النبي يصعـد بتأمينهم، وأيُّ مقام أعلى وأنبل من أن يكون دعاء النبي ﷺ صاعداً بفضل دعائهم.

ب: قول أُسقـف نجران: «إنّي لأرىٰ وجوهاً لـو شاء الله أن يزيل جبـلاً من مكانه لأزاله بها» والضمير يرجع إلى الوجوه، أي لأزاله بدعائهم أو لأزاله بالقسم على الله بهم، وقد أيّد القـول الثاني ابن البطريـق في «العمدة» حيث قال: المبـاهلة بهم تصدق دعـوى النبي ﷺ، فقـد صار إبطـال محاجّـة أهـل نجران في القـرآن الكريم بالقسم على الله بهم.[٢]

---

١. الكشّاف: ١/ ٣٢٦ـ ٣٢٧، ط عام ١٣٦٧هـ.

٢. العمدة: ٢٤٣.

وقد تركت مباهلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته أثراً بالغاً في نفوس المسلمين، يشهد عليها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ،عن أبيه، قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً، فقال: ما يمنعك أن تسبَّ أباتراب؟ فقال: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلن أسبَّه، لأن تكون لي واحدة منهنّ أحبّ إليّ من حمر النعم.

سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له وقد خلفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله، خلّفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبوّة بعدي؟

و سمعته يوم خيبر، يقول: لأعطينّ الراية رجلاً يحب الله و رسوله، و يحبّه الله ورسوله .

قال: فتطاولنا لها، فقال: ادعوا لي عليّاً، فأُتي به أرمد العين، فبصق في عينيه، ودفع الراية إليه، ففتح الله على يديه.

ولما نزلت هذه الآية : ﴿فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ دعا رسول الله عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، وقال: اللّهم هؤلاء أهل بيتي.[1]

---

١ . صحيح مسلم: ٧/ ١٢٠، باب فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام .

٤

ابتغاء مرضاة الله تعالىٰ

الإنسان الكامل، هو الذي لا يفعل شيئاً ولا يتركه إلّا لابتغاء مرضاة الله تبارك و تعالى، فيصل في سلوكه ورياضاته الدينيّة إلىٰ مكان تفنىٰ فيه كلّ الدوافع والحوافز إلّا داع واحد و هو طلب رضا الله تبارك و تعالى، فإذا بلغ هذه الدرجة فقد بلغ الذروة من الكمال الإنساني، وربّما يبلغ الإنسان في ظل الرضا درجة لا يتمنّى وقوع مالم يقع، أو عدم ما وقع، وإلى ذلك المقام يشير الحكيم السبزواري بما في منظومته:

وبهجة بما قضى الله رضا ... و ذو الرضا بما قضى ما اعترضا

اعظم باب الله، في الرضا وُعي[1] ... وخازن الجنة رضواناً دُعي

فقرا على الغنى صبورٌ ارتضى ... وذان سيّان لصاحب الرضا

عن عارف عُمّر سبعين سنة ... إن لم يقل رأساً لأشيا كائنة

يا ليت لم تقع و لا لما ارتفع ... ممّا هو المرغوب ليته وقع[2]

---

١. إشارة إلى ما روي انّ الرضا باب الله الأعظم.

٢. شرح منظومة السبزواري: ٣٥٢.

وممّن يمثـل ذلك المقام في الأُمّة الإسـلامية هو إمام العـارفين وسيد المتّقين علي أمير المؤمنين عليه السلام فهو في عامّة مواقفه ، في جهاده و نضاله، وعزلته وقعوده في بيتـه، وفي تسنّمه منصّـة الخلافـة بـإصرار من الأُمّـة، فهـو في كـلّ هذه الأحـوال والمواقف، لا همّ له إلاّ طلب رضوانه تعالى.

و قد صرح الإمام بذلك عندما طلب منـه تسلّم مقاليد الخلافة، فقال:«أما والذي فلق الحبَّة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر، وقيام الحجّة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألاّ يقـارُّوا على كظّة ظالم، ولا سغـب مظلوم، لألقيـت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرهـا بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهـد عندي من عفطة عنز».[1]

و قد تجلّت هذه الخصلة في علي عليه السلام حين مبيته في فراش النبي صلى الله عليه وآله.

روى المحدّثـون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أراد الهجرة خلّـف علي بن أبي طـالب عليه السلام بمكة لقضاء ديونـه و ردّ الودائع التي كانت عنده، وأمـره ليلة خرج إلى الغار وقد أحاط المشركـون بالدار أن ينام على فـراشه فقال صلى الله عليه وآله له: يـا علي اتَّشح ببردي الحضرمي الأخضر، ثمّ نـم على فراشي، فانّه لا يخلص إليك منهـم مكروه، إن شاء الله عزّ وجلّ، ففعل ذلك عليه السلام فأوحى الله عزّ وجلّ إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام إنّي قد آخيـت بينكما وجعلت عمـر أحدكما أطـول من الآخـر، فأيّكما يـؤثر صـاحبه بالحياة؟، فاختار كلاهما الحياة، فـأوحى الله عزّ وجلّ إليهما: ألا كنتما مثل علي بن أبي طالب ، آخيت بينه وبين محمّد صلى الله عليه وآله فنام على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فنزلا فكـان جبرئيل عند رأسه و ميكائيل عند رجليه.

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٣.

فقال جبرئيل: بَخٍّ بَخٍّ مَن مثلك يابن أبي طالب ؟ يباهي الله بك الملائكة، فأنـزل الله تعالى علىٰ رسـوله ﷺ و هـو متـوجّه إلى المدينـة في شـأن علي بـن أبي طالب عليه السلام : ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ الله﴾.[1]

وقد نقل غير واحد نزول الآية في حقّ علي عليه السلام.

وقال ابن عباس : أنشدني أمير المؤمنين شعراً قاله في تلك الليلة:

وقيـت بنفسي مـن وطـئ الحصـا ... وأكـرم خلق طـاف بـالبيت والحجـر

وبـتُّ أُراعـي منهـم مـا يسـوءني ... و قدصبَّرت نفسي على القتـل والأسر

وبـات رسـول الله في الغـار آمنـاً ... ومـازال في حفـظ الإلـه وفي الستر[2]

وإلى هذه الفضيلة الرابية وغيرها يشير حسان بـن ثابت في شعره عند مدح علي عليه السلام:

مـن ذا بخـاتمه تصـدَّق راكعـا ... و أسرّهـا في نفسـه إسرارا

مـن كـان بـات على فـراش محمّـد ... ومحمـد اسرى يـوم الغـارا

مـن كـان في القـرآن سمّـي ... في تسـع آيـات تلين غـزارا[3]

محاولة طمس الحقيقة لولا...

إنّ عظمـة هذه الفضيلـة وأهمية هـذا العمل التضحـويّ العظيم، دفعـت بكبار علماء الإسلام إلى اعتبارها واحدة من أكبر فضائل الإمام علي عليه السلام، وإلى أن

---

١. البقرة: ٢٠٧.

٢. شواهد التنزيل: ١/ ١٣٠؛ أُسد الغابة: ٤/ ٢٥.

٣. سبط ابن الجوزي: تذكرة الخواصّ: ٢٥، ط عام ١٤٠١هـ.

يَصِفُوا بها علياً بالفداء و البـذل و الإيثار، وإلى أن يعتبروا نزول الآيـة المذكورة في شأنه من المسلّمات، كلّما بلغ الحديث في التفسير والتاريخ إليها.[١]

إنّ هذه الحقيقة لا تنسي أبداً، فـإنّه من الممكن إخفاء وجه الـواقع والتعتيم عليه بعض الوقت إلاّ أنّه سرعان مـا تمزّق أشعةُ الحقيقة الساطعة حجبَ الأوهام، وتخرج شمس الحقيقة من وراء الغيوم.

إنّ معاداة معاوية لأهل بيت النبـوة وبخاصة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ممّا لا يمكن النقاش فيه.

فقد أراد هذا الطاغية من خـلال تطميع بعض صحابة النبي صلى الله عليه وآله أن يلوّث صفحات التاريخ اللامعة ويخفي حقائقـه بوضع الأكاذيب، ولكنّه لم يحرز في هذا السبيل نجاحاً.

فقد عمد«سمرة بن جنـدب» الذي أدرك عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ انضمّ بعد وفاته صلى الله عليه وآله إلى بلاط معاوية بـالشام، عمد إلى تحريف الحقائق مقابـل أموال أخذها من الجهاز الأموي، الحاقد على أهل البيت.

فقد طلـب منه معاويـة بإصرار أن يرقـى المنبر ويكذّب نزول هـذه الآية في شأن علي عليه السلام ، ويقول للنـاس أنّها نزلت في حقّ قـاتل عليّ (أي عبد الـرحمٰن بن ملجم المرادي)،ويأخذ في مقابل هذه الأُكذوبة الكبرى، وهذا الاختلاق الفضيع ـ الذي أهلك به دينه ـ مائة ألف درهم.

فلـم يقبل «سمـرة» بهذا المقدار ولكـن معاويـة زاد له في المبلـغ حتى بلـغ أربعمائة ألف درهم، فقبـل الرجل بذلك، فقـام بتحريف الحقائق الثـابتة، مسوّداً

---

١. الغدير:٢/ ٤٨.

بذلك صفحته السوداء أكثر من ذي قبل، وذلك عندما رقى المنبر وفعل ما طلب منه معاوية.[١]

وقبل السامعون البسطاء قوله، ولم يخطر ببال أحد منهم أبداً أنّ (عبد الرحمٰن بن ملجم) اليمنيّ لم يكن يوم نزول الآية في الحجاز بل لعلّه لم يكن قد وُلِد بعد آنذاك. فكيف يصحّ؟!

ولكن الحقيقة لا يمكن أن تخفى بمثل هذه الحجب الواهية، ولا يمكن أن تُنسىٰ بمثل هذه المحاولات العنكبوتية الرخيصة.

فقد زالت حكومة معاوية و هلك أعوانها ، واندثرت آثار الاختلاق والافتعال الذي وقع في عهدها المشؤوم، و طلعت شمس الحقيقة من وراء حُجبُ الجهل والافتراء مرة أُخرى، و اعترف أغلبُ المفسرين الأجلّة والمحدّثين الأفاضل ـ في العصور والأدوار المختلفة ـ بأنّ الآية المذكورة نزلت في «ليلة المبيت» في بذل علي عليه السلام ومفاداته النبي صلى الله عليه وآله بنفسه.

---

١. لاحظ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤/ ٧٣.

٥

الإيثار

إنّه سبحانه تبارك وتعالى وصف الإيثار في كتابه الكريم، و هو من صفات الكرام حيث يقدِّمون الغير على أنفسهم، يقول سبحانه في وصف الأنصار: ﴿وَالّذِينَ تَبَوَّءُو الدّارَ وَالإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَإِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمّا أُوتوا ويُؤْثِرُونَ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْكانَ بِهِمْ خَصاصَة وَمَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾ .[1]

كما أنّه سبحانه أمر بالوفاء بالنذر، قال سبحانه: ﴿ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نذر فَانَّ اللهَ يعلمهُ﴾ [2]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ لْيقضُوا تَفثهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورهُمْ﴾ .[3]

وفي الوقت نفسه ندب إلى الخوف من عذابه، يقول سبحانه: ﴿يَخافُونَ يَوماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوب وَالأَبْصار...﴾[4]، و قال سبحانه: ﴿وَالّذِينَ يصلُونَ ما أَمَر الله بِهِ

---

١. الحشر: ٩.
٢. البقرة: ٢٧٠.
٣. الحجّ: ٢٩.
٤ . النور: ٣٧.

أَنْ يُوصل وَيَخشونَ ربَّهم ويخافُونَ سُوء الحِساب﴾ .[١]

ما ذكرنا من الصفات الثلاث هي من أبرز الصفات التي يتحلّ بها أولياؤه سبحانه، ونجد هذه الصفات مجتمعة في أهل البيت عليهم السلام في سورة واحدة، يقول سبحانه:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخافُونَ يَوماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطيراً * وَيطعِمُونَ الطَّعام عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسيراً * إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لا نُرِيدُ مِنكُمْ جزاءً وَلا شكوراً * إِنَّا نَخاف مِنْ رَبِّنا يَوماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ .[٢]

فقوله سبحانه :﴿ويُطْعِمُونَ الطَّعام عَلىٰ حُبِّهِ﴾ إشارة إلى إيثارهم الغير على أنفسهم، والضمير في ﴿عَلى حُبِّهِ﴾ يرجع إلى الطعام أي انّهم مع حبّهم للطعام قدَّموا المسكين على أنفسهم، كما أنّ قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْر...﴾ إشارة إلى صلابتهم في طريق إقامة الفرائض.

ثمّ قوله: ﴿وَيَخافُونَ يَوماً﴾ إشارة إلى خوفهم من عذابه سبحانه يوم القيامة.

وقد نقل أكثر المفسرين لو لم نقل كلّهم، انّ الآيات نزلت في حقّ أهل البيت عليهم السلام.

روي عن ابن عباس (رض) انّ الحسن والحسين عليهما السلام مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أُناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما، إن شفاهما الله تعالى أن يصوموا ثلاثة أيام، فشفيا وما

---

١. الرعد: ٢١.

٢. الإنسان: ٧ ـ ١٠.

معهم شيء، فاستقرض علي عليه السلام من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم ووضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل، فقال: السلام عليكم أهل بيت محمّد مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلاّ الماء و أصبحوا صائمين.

فلمّا أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، وجاءهم أسير في الثالثة، ففعلوا مثل ذلك فلما أصبحوا أخذ علي عليه السلام بيد الحسن والحسين عليهما السلام و دخلوا على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فلمّا أبصرهم، وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق بطنها بظهرها وغارت عيناها فساءه ذلك.

فنزل جبرئيل عليه السلام و قال: خذها يا محمّد هنّأك اللهُ في أهل بيتك، فأقرأه السورة.[1]

روى السيوطي في الدر المنثور، وقال: اخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ويُطعمون الطَّعام علىٰ حُبِّهِ﴾ الآية، قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.[2]

ورواه الثعلبي في تفسيره، وقال: نزلت في علي بن أبي طالب و فاطمة عليهما السلام وفي جاريتهما فضة، ثمّ ذكر القصة على النحو الذي سردناه لكن بصورة مبسطة.

وقال: وذهب محمّد بن علي صاحب الغزالي على ما ذكره الثعلبي في كتابه

---

١. الكشاف: ٣/ ٢٩٧؛ تفسير الفخر الرازي: ٣٠/ ٢٤٤.

٢. الدر المنثور:٨/ ٣٧١، تفسير سورة الإنسان.

المعروف بـ«البلغة» انّهم عليهم السلام نزلت عليهم السلام مائدة من السماء فأكلـوا منها سبعة أيّام، وحديث المائدة ونزولها عليهم في جواب ذلك مذكور في سائر الكتب.[1]

وقد سرد سبب نزول هذه الآية في حقّ أهل البيت عليهم السلام غير واحد من أئمّة الحديث.[2]

---

١. العُمدة: ٢/ ٤٠٧ـ ٤١٠.

٢. شواهد التنزيل: ٢/ ٤٠٥ ـ ٤٠٨؛ أُسد الغابة: ٥/ ٥٣٠؛ مناقب ابن المغازلي: ٢٧٢.

٦
هم خير البريّة

إنّ خير الناس في منطق القرآن الكـريم من آمن بالله ورسولـه وعرف خالقه ومنعمه، وقد قال سبحانه: ﴿لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُـوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلٰكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتابِ وَالنَّبِيّينَ وَآتَى المالَ عَلىٰ حُبّهِ ذَوِي القُرْبىٰ وَاليَتامىٰ وَالْمَساكينَ وَابْـنَ السَّبِيلِ وَالسّائلينَ وَفِي الرِّقابِ و أقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عَـاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْساءِ والضَّرّاءِ وحِينَ البَأْس أُولئكَ الّذِينَ صَدَقُوا وَأُولِئكَ هُمُ الْمُتَّقُون﴾ .[1]

وهذه الصفـات المذكورة في الآية تجدهـا، متمثلة في أهـل البيت عليهم السلام شهدَ على ذلك سيرتهم، ولذلك صاروا خير البرية.

أخرج الطبري في تفسير قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحات أُولئِكَ هُمْ خَيْرُالْبَرِيَّة ﴾ .[2] باسناده عن أبي الجارود ،عن محمـد بن علي ، قال: قال

---

١ . البقرة: ١٧٧ .

٢ . البيّنة: ٧.

النبي ﷺ: «أنت يا علي و شيعتك».[١]

روى الخوارزمي عن جابر قال: كنّا عند النبي ﷺ فأقبل علي بن أبي طالب، فقال رسول الله: «قد أتاكم أخي» ثمّ التفت إلى الكعبة فضربها بيده، ثمّ قال: «والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة»، ثمّ قال: «إنّه أوّلكم إيماناً معي، وأوفاكم بعهد الله، وأقومكم بأمر الله، وأعدلكم في الرعيّة، وأقسمكم بالسوّية،وأعظمكم عند الله مزيّة»، قال: وفي ذلك الوقت نزلت فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحات أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّة﴾ ، و كان أصحاب النبي ﷺ إذا أقبل عليّ، قالوا: قد جاء خير البرية.[٢]

وروى أيضاً من طريق الحافظ ابن مردويه، عن يزيد بن شراحيل الأنصاري، كاتب علي عليه السلام، قال: سمعت علياً يقول: «حدَّثني رسول الله وأنا مُسْنده إلى صدري، فقال أي عليّ! ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحات أُولئكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّة﴾ ؟ أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض إذا جاءت الأُمم للحساب تُدعون غرّاً محجّلين».[٣]

وأرسل ابن الصباغ المالكي في فصوله عن ابن عباس، قال: لمّا نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «أنت و شيعتك تأتي يوم القيامة، أنت و هم راضين مرضيين، ويأتي أعداؤك غضاباً مقمحين».[٤]

---

١. تفسير الطبري: ٣٠/ ١٤٦.

٢. المناقب للخوارزمي: ١١١ برقم ١٢٠.

٣. المناقب للخوارزمي: ٢٦٥ برقم ٢٤٧.

٤. الفصول: ١٢٢.

٧

أهل البيت عليهم السلام ورثة الكتاب

اختلفت الأُمّة الإسلامية بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أمر الخلافة ــ وإن كان اللائق بها عدم الاختلاف فيها، للنصوص الصحيحة الصادرة عنه في مختلف الموارد ـ وقد استقصينا البحث فيها في مبحث الإمامة من هذا الجزء.

والذي نركِّز عليه في هذا البحث هو تبيين المرجع العلمي بعد رحيله ـ سواء أكانت الخلافة لمن نصَّ عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم الغدير أو من اختاره بعض الصحابة في سقيفة بني ساعدة ـ.

والمراد من المرجع العلمي مَن ترجع إليه الأُمّة في أُصول الدين وفروعه، ويصدر عنهم في تفسير القرآن وتبيين غوامضه، ويستفهم منه أسئلة الحوادث المستجدَّة.

يقول سبحانه: ﴿وَالّذي أَوحَيْنا إِلَيْكَ الكِتابَ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ الله بِعِبادِهِ لَخبير بَصير* ثُمَّ أَورَثْنَا الكِتاب الّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالخَيرات بِإِذْنِ الله ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ

الكَبير﴾.[١]

المراد من الكتاب في قوله: ﴿أوحينا إليك الكتاب﴾ هو القرآن بلا شكّ وكونه حقّاً لأجل براهين قطعية تُثبت أنّه منزل من ربّه فانّ قوانينه تنسجم مع الفطرة الإنسانية، والقصص الواردة فيها مصونة من الأساطير، والمجموع خالٍ من التناقض إلى غير ذلك من القرائن الدالة على أنّه حقّ. ومع ذلك هو مصدِّق لما بين يدي الرسول ﷺ من الكتاب السماوي.

هذا هو مفاد الآية الأُولى.

ثمّ إنّه سبحانه يقول: ﴿ثُمَّ أَورَثْنا الكتاب﴾ المراد من الكتاب هو القرآن: لأنّ اللاّم للعهد الذكري أي الكتاب المذكور في الآية المتقدمة، والوراثة عبارة عمّا يستحصله الإنسان بلا مشقة وجهد، والوارث لهذا الكتاب هم الذين أُشير إليهم بقوله: ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾، فلو قلنا بأنّ «من» للتبيين فيكون الوارث هو الأُمة الإسلامية جميعاً، ولو قلنا: إنّ «مِن» للتبعيض فيكون الوارث جماعة خاصة ورثوا الكتاب.

والظاهر هو التبيين كما في قولنا: ﴿وَسَلامٌ عَلىٰ عِبادِهِ الّذينَ اصْطَفىٰ﴾.[٢]

ولكن الأُمة الإسلامية صاروا على أقسام ثلاثة:

أ: ظالم لنفسه: الّذين قصّروا في وظيفتهم في حفظ الكتاب والعمل بأحكامه، وفي الحقيقة ظلموا أنفسهم، فلذلك صاروا ظالمين لأنفسهم.

ب: مقتصد: الذين أدُّوا وظيفتهم في الحفظ و العمل لكن لا بنحو كامل

---

١. فاطر: ٣١ـ ٣٢.

٢. النمل: ٥٩.

بل قصّروا شيئاً فيهما .

ج: سابق بالخيرات بإذن الله: هم الجماعة المثلىٰ أدّوا وظائفهم بالحفظ والعمل على النحو الأتم، فلذلك سبقوا إلى الخيرات كما يقول سبحانه: ﴿سابِقٌ بالخَيرات بِإذْنِ اللّهْ﴾ .

و علىٰ هذا فإنَّ ورثة الكتاب في الحقيقة هم الطائفة الثالثة أعني الذين سبقوا بالخيرات.

وأمّا ما هو المراد من الطائفة الثالثة، فيتكفَّل الحديث لبيان ملامحها .

روى الكليني عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير الآية انّه قال: «السابق بالخيرات الإمام، والمقتصد العارف بالإمام، والظالم لنفسه الذي لا يعرف الإمام».

وروي نفس الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام .

وهناك روايات أُخرى تؤيد المضمون فمن أراد فليراجع.[1]

ثمّ إنّ النبي صلى الله عليه وآله قد أوضح ورثة الكتاب في حديثه المعروف الذي اتّفق على نقله أصحاب الصحاح والمسانيد.

أخرج مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فينا خطيباً، بماء يدعىٰ خمّاً بين مكة والمدينة، فحمد الله تعالى، وأثنىٰ عليه ووعظ وذكّر، ثمّ قال:

«أمّا بعد: ألا أيّها الناس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أوّلهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب اللهُ استمسكوا به»، فحثّ على كتاب الله و رغّب فيه؛ ثمّ قال: «وأهل بيتي، أُذكّركم الله في أهل

---

١. البرهان في تفسير القرآن: ٣/ ٣٦٣.

بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي، أُذكِّركم الله في أهل بيتي».[١]

هذا ما أخرجه مسلم، و من الواضح انّه لم ينقل علىٰ وجه دقيق، وذلك لأنّ مقتضى قوله: «أوّلها»، أن يقول النبي ﷺ: ثانيهما أهل بيتي، مع أنّه لم يذكر كلمة «ثانيهما».

و قد رواها الإمام أحمد بصورة أفضل ممّا سبق، كما رواه النسائي في فضائل الصحابة كذلك.

أخرج أحمد في مسنده عن أبي الطفيل، عن زيد بن الأرقم، قال: لما رجع رسول الله من حَجّة الوداع و نزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن، ثمّ قال: «كأنّي قد دعيت فأجبت: إنّي قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله و عترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

ثمّ قال:« إنّ الله مولاي، وأنا ولي كلّ مؤمن»، ثمّ أخذ بيد عليّ، فقال: «من كنت وليّه فهذا وليّه، اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه».[٢]

هذه إلمامة سريعة بحديث الثقلين، ومن أراد أن يقف على أسانيده ومتونه فعليه أن يرجع إلى الكتب المؤلفة حوله، وأبسط كتاب في هذا الموضوع ما ألفه السيد المجاهد «مير حامد حسين» حيث خصّ أجزاءً من كتابه «العبقات» لبيان تفاصيل أسانيده ومضمونه، وقد طبع ما يخصّ بالحديث في ستّة أجزاء.

كما بسط الكلام في أسانيده و أسانيد غيره سيد مشايخنا البروجردي (١٢٩٢ ــ ١٣٨٠هـ) في كتابه «جامع أحاديث الشيعة»، فقال بعد استيفاء

---

١. صحيح مسلم: ٤/ ١٨٧٣ برقم ٢٤٠٨، ط عبد الباقي.

٢. المسندالجامع: ٥/ ٥٠٥ برقم ٣٨٢٨.

نصوص الحديث وأسانيده: وقد ظهر ممّا ذكرنا انّ النبي ﷺ أوجب على الأُمّة قاطبة التمسُّك بالعترة الطيبة في الأُمور الشرعية والتكاليف الإلهية ، وأكَّد وجوبه وشدَّده و أوثقه وكرَّره بكلمات عديدة وألفاظ مختلفة بحيث لا يمكن إنكاره ولا يجوز تأويله، و قد اكتفينا بذلك و أنّ كثيراً من طرق الحديث قد ضمن مضافاً إلى المذكورات، ما يدل على حجّية أقوالهم ووجوب اتّباعهم وحرمة مخالفتهم.[1]

والجدير بالمسلمين التركيز على مسألة تعيين المرجع العلمي بعد رحيل النبي ﷺ، إذ لا يسوغ في منطق العقل أن يترك صاحب الرسالة، الأُمّة المرحومة بلا راع، وهو يعلم أنّه ﷺ برحيله سوف يواجه المسلمون حوادث مستجدة ووقائع جديدة تتطلب أحكاماً غير مبيّنة في الكتاب والسنّة، فلا محيص من وجود مرجع علمي يحُلّ مشاكلها ويذلّل أمامها الصعاب، وقد قام ﷺ ببيان من يتصدّىٰ لهذا المنصب بحديث الثقلين.

ومن العجب أنّ كثيراً من المسلمين يطرقون كلّ باب إلاّ باب أئمّة أهل البيت عليهم السلام مع أنّه ﷺ لم يذكر شيئاً ممّا يرجع إلى غير هؤلاء، فلا أدري ما هو وجه الإقبال علىٰ غيرهم والإعراض عنهم؟!

قال السيد شرف الدين العاملي: والصحاح الحاكمة بوجوب التمسك بالثقلين متواترة، وطرقها عن بضع وعشرين صحابياً متضافرة. وقد صدع بها رسول الله ﷺ في مواقف له شتىٰ.

تارة يوم غدير خم كما سمعت، وتارة يوم عرفة في حجّة الوداع، وتارة بعد انصرافه من الطائف، ومرّة على منبره في المدينة، وأُخرى في حجرته المباركة في

---

١. جامع أحاديث الشيعة: ١/ ١٣١ـ ١٣٢.

مرضـه، والحجرة غاصّة بـأصحابه، إذ قـال: «أيّها الناس يوشك أن أُقبـض قبضاً سريعاً فينطلـق بي، وقد قـدمت إليكـم القول معـذرة إليكم ألا إنّي مخلّـف فيكم كتاب الله عزّوجلّ وعترتي أهـل بيتي»، ثمّ أخذ بيد علي فرفعهـا، فقال: «هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض».

وقد اعترف بذلك جماعة من أعلام الجمهـور، حتى قال ابن حجر: ثم اعلم أنّ لحديث التمسك بهما طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً.

قال: ومرّ له طرق مبسوطة في حادي عشر الشبه، وفي بعض تلك الطرق انّه قال:ذلك بحجّة الوداع بعرفة، وفي أُخرى انّه قـاله با لمدينة في مرضه، وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وفي أُخرى انّه قال: ذلـك بغدير خم، وفي أُخرى انّه قال: ذلك لمّا قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف.

قال: ولا تنافي إذ لا مانـع من أنّه كرّر عليهم ذلك في تلـك المواطن وغيرها اهتماماً بشأن الكتاب العزيز والعترة الطاهرة.

وحسب أئمّة أهل العترة الطاهرة أن يكونوا عند الله ورسوله بمنزلة الكتاب، لا يأتيه ا لباطل من بين يديه ولا من خلفه. وكفىٰ بذلك حجة تأخذ بالأعناق إلى التعبُّد بمذهبهم، فانّ المسلم لا يرتضي بكتـاب الله بدلاً، فكيف يبتغي عن أعداله حولاً.[1]

---

١. المراجعات: المراجعة رقم ٨.

٨

حرمة الصدقة عليهم

اتّفق الفقهاء على أنّه لا تحل الصدقة المفروضة على بني هاشم الواردة في الآية المباركة، أعني: قوله سبحانه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِها و تُصلِّ عليهم انَّ صَلاتكَ سَكنٌ لَهُمْ﴾.[١] وذلك لأنّ التطهير والتزكية إنّما يتعلّق بما فيه وسخ وأهل البيت أعلى من أن يعيشوا بأوساخ الناس.

قال ابن قدامة: «لا نعلم خلافاً في أنّ بني هاشم لا تحلُّ لهم الصدقة المفروضة».[٢]

وقد تضافرت الروايات على ذلك وجمعها ابن حجر العسقلاني في بلوغ المرام، نقتبس منها ما يلي:

١. عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الصدقة لا تنبغي لآل محمّد، إنّما هي أوساخ النّاس».[٣]

وفي رواية: «وانّهالا تحلُّ لمحمد ولا لآل محمد» رواه مسلم.[٤]

---

١. التوبة: ١٠٣.

٢. المغني: ٢/ ٥٤٧.

٣ و ٤ .بلوغ المرام: ١٢٩، برقم ٦٦٥.

٢. روى أبو هريرة، قال: أخذ الحسن بن علي عليه السلام تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كخِ، كخِ » ليطرحها، ثمّ قال: «أما شعرت أنّا لا نأكل الصدقة»، رواه الشيخان البخاري و مسلم.

ولمسلم: أما علمت أنّا لا تحل لنا الصدقة.[١]

٣. عن أنس انّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرّبتمرة في الطريق، وقال: «لولا أن تكون من الصدقة لأكلتها».

رواه مسلم وأبو داود.[٢]

٤. عن عائشة، قالت: أُتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بلحم، فقلت: هذا ما تصدّق به على بريرة، فقال: «هو لها صدقة، ولنا هديّة».

رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود.[٣]

٥. كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا أُتي بطعام سأل عنه، فإن قيل: هدية أكل منها، وإن قيل: صدقة، لم يأكل منها.

رواه الترمذي ومسلم.[٤]

٦. عن عبد الله بن حرث الهاشمي ـ وساق حديثاً حتى قال ـ: إنّ هذه الصدقات إنّما هي أوساخ الناس وانّها لا تحل لمحمّد ولا لآل محمّد.

رواه مسلم والنسائي.[٥]

٧. عن أبي رافع أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث رجلاً على الصدقة من بني مخزوم، فقال لأبي رافع: اصحبني فإنّك تصيب منها، قال: حتى آتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسأله، فأتاه فسأله، فقال: مولى القوم من أنفسهم وإنّا لا تحلُّ لنا الصدقة.

أخرجه أبو داود والترمذي وصححه.[٦]

---

١ ـ ٦. التاج الجامع للأُصول: ٢/ ٣٠ـ ٣١، ط الثانية.

الفصل الثالث

حقوق أهل البيت عليهم السلام

في القرآن الكريم

قد عرفت من هم أهل البيت عليهم السلام في الآيات والروايات الواردة على لسان النبي صلى الله عليه وآله، وما جادت به القرائح العربية حولهم من قصائد و أراجيز كما عرفت سماتهم و خصوصياتهم.

وحان البحث لبيان حقوقهم على المسلمين الّتي نزل بها الوحي في الكتاب العزيز، وها نحن نذكر بعض حقوقهم:

١

ولاية أهل البيت عليهم السلام

قد دلّت الروايات المتضافرة على أنّ النبي صلى الله عليه وآله ارتحل وقد نصّب علياً عليه السلام للولاية والخلافة، فأبان ولايته وولاية من بعده من الأئمّة في مواقف مختلفة، نذكر منها موقفين:

الأوّل: انّ سائلاً أتى مسجد النبي صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام راكع، فأشار بيده للسائل، أي اخلع الخاتم من يدي، فنزل قوله سبحانه: **﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ راكِعُون﴾** .[1]

وقد تضافرت الروايات على نزول الآية في حقّ علي عليه السلام و نقلها الحفّاظ، منهم: ابن جرير الطبري[2]، والحافظ أبو بكر الجصاص الرازي[3]، و الحاكم النيسابوري[4]، و الحافظ أبو الحسن الواحدي النيسابوري[5]، وجار الله الزمخشري[6]، إلى غيرهم من أئمّة الحفاظ و كبار المفسّرين ربّما ناهز عددهم السبعين . وهم بين

١. المائدة: ٥٥.

٢. تفسير الطبري:٦/ ١٨٦.

٣. أحكام القرآن:٢/ ٥٤٢.

٤. معرفة أُصول الحديث: ١٠٢.

٥. أسباب النزول : ١١٣.

٦. الكشاف:١/ ٤٦٨.

محدِّث ومفسّر ومؤرِّخ.

والذي يجب التركيز عليه هو فهم معنى الولي الوارد في الآية المباركة والذي وقع وصفاً لله سبحانه ولرسوله ومن جاء بعده.

المراد من الولي في الآيـة هو الأولوية الواردة في قولـه سبحانه:﴿النَّبِيُّ أولىٰ بِالمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ .[١]

فالنبي ﷺ أولىٰ من المؤمنين بأنفسهم و أمـوالهم، فهو بما انّه زعيم المسلمين ووليّهم، يتصرّف فيهم حسـب ما تقتضيه المصالـح في طريق حفظ كيـان الإسلام وصيانة هويَّتهم والدفاع عن أراضيهم لغاية نشر الإسلام.

وليست الغـاية مـن هذه الولايـة الموهوبـة للنبي ﷺ هي حفظ مصـالح النبي ﷺ الشخصية، بل الغاية كما عرفت صيانة مصالح الإسلام والمسلمين.

فـالولايـة بهذه المعنـى هي المراد مـن قـولـه سبحانـه: ﴿إِنَّما وَلِيّكُـمُ اللّهُ وَرَسُولُه﴾ و القرائن الدالَّة على تعُّين هذا المعنى كثيرة، نذكر منها ما يلي:

الأوّل: إذا كان المراد من الـوليّ هو الزعامـة، يصحّ تخصيصها بالله سبحـانه ورسوله ومن أعقبه، وأمّا لو كان المراد منـه هو الناصر و المحب، فهو ليس مختصاً بهؤلاء، لأنّ كلّ مؤمن محب للآخرين أو ناصر لهم كما يقول سبحانه: ﴿وَالمُؤْمِنُونَ وَ المُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَولياءُ بَعْضٍ﴾ .[٢]

الثاني: انّ ظـاهر الآيـة انّ هنـاك أولياء و هنـاك مـولّى عليهم، ولا يتحقّـق التمايـز إلاّ بتفسير الولايـة بمعنى الـزعامـة حتى يتميّـز الزعيـم عن غيره، وهـذا بخلاف ما لو فسرّناه بمعنى الحب والود أو النصر، فتكون الطوائف الثلاث عندئذ على حد سواء

---

١. الأحزاب: ٦.

٢. التوبة: ٧١.

الثالث: إذا كان المراد من الولي هو الزعيـم، يصحّ تخصيصه بالمؤمن المؤدّي للزكاة حال الصلاة، و أمّا لو كان المراد بمعنى المحبّ والناصر و ما أشبههما يكون القيـد زائداً ، أعني: إعطـاء الزكـاة في حال الصـلاة، فانّ شرط الحب هـو إقامـة الصلاة وأداء الزكاة، وأمّا تأديتها في حال الركوع فليس من شرائط الحب والنصرة، وهـذا دليل على أنّ المراد فـرد أو جماعـة خـاصة يـوصفـون بهذا الـوصف لا كـلّ المؤمنين.

الرابع: انّ الآية التالية تفسر معنى الـولاية، يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغالِبُونَ﴾ .[1]

فانّ لفظة ﴿الّذين آمنوا﴾ في هذه الآية هـو الوارد في الآية المتقدمـة، أعني: ﴿وَالّذينَ آمَنُوا الّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ﴾ ، وعلى هذا يكون المراد من الـولي أخذهم زعيماً وولياً بشهادة انّ حزب الله لا ينفك من زعيم يدبِّر أُمورهم.

إلى هنا تبيّن انّ الإمعـان في القرائن الحافّـة بالآيـة تفسّر معنى الـولي وتعيَّن المعنى و تثبت انّ المقصود هو الزعيم، لكن من نكات البلاغة في الآية انّه سبحانه صرح بولايته و ولايـة رسوله ومن جاء بعـده و على ذلك صارت الولايـة للثلاثة، وكان اللازم عندئذٍ أن يقـول إنّما أولياؤكم بصيغة الجمع لكنّه أتـى بصيغة المفرد إشارة إلى نكتة، وهي انّ الولاية بالأصالـة لله سبحانه وأمّا ولاية غيره فبإيهاب من الله سبحانه لهم ، ولـذلك فرّد الكلمة ولم يجمعهـا، لكن هذه الولايـة لا تنفك من آثار، وقد أُشير إلى تلك الآثار في آيات مختلفة، وإليك بيانها:

١. ﴿أَطيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ .[2]

فانّ لزوم إطـاعة الله والرسول وغيرهما من آثـار ولايتهم وزعامتهم،فـالزعيم

---

١. المائدة: ٥٦.

٢. النساء: ٥٩.

يجب أن يكون مطاعاً.

٢. ﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ .[1]

فينفذ قضاؤه سبحانه و الّذي هو من آثار الزعامة، ونظيره قوله سبحانه: ﴿إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللهُ﴾ .[2]

٣. ﴿فَلْيَحْذَرِ الّذينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَو يُصيبَهُمْ عَذابٌ أَليمٌ﴾ .[3] فحرمة مخالفة أمر الله ورسوله من توابع زعامتهم وولايتهم.

فهذه الحقوق ثابتة للنبي ﷺ بنص القرآن الكريم ولمن بعده بحكم انّهم أولياء بعد النبي فانّ ثبوتها للنبي ﷺ لأجل ولايته فإذا كانت الولاية مستمرة بعده فيتمتع كلّ وليٍّ بهذه الحقوق.

وبهذا تبيّنت دلالة الآية على ولاية علي عليه السلام وانّها حقّ من حقوق أهل البيت عليهم السلام لصالح الإسلام والمسلمين.

نعم بعض من لا تروقهم ولاية أهل البيت عليهم السلام وزعامتهم حاولوا تضعيف دلالة الآية بشبهات واهية واضحة الرد، وقد أجبنا عنها في بعض مسفوراتنا فلنكتف في المقام بهذا المقدار.

غير انّا نركز على نكتة وهي انّ الصحابة الحضور لم يفهموا من الآية سوى الولاية ولذلك صبَّ شاعر عهد الرسالة حسان بن ثابت ما فهمه من الآية بصفاء ذهنه في قالب الشعر ، وقال:

---

١. الأحزاب: ٣٦.
٢. النساء: ١٠٥.
٣. النور: ٦٣.

فأنت الذي أعطيت إذ أنت راكعٌ فدتك نفوس القوم يا خير راكع
بخاتمك الميمون يا خير سيد ويا خير شارٍ ثمّ يا خير بايعٌ
فأنزل فيك اللهُ خير ولاية وبيّنها في محكمات الشرائع[1]

والظاهر ممّا رواه المحدّثون انّ الأُمّة الإسلامية سيُسألون يوم القيامة عن ولاية علي عليه السلام، حيث ورد السؤال في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾.[2]

روى ابن شيرويه الديلمي في كتاب «الفردوس» في قافية الواو، باسناده عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ عن ولاية علي بن أبي طالب.[3]

ونقله ابن حجر عن الديلمي، وقال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ أي عن ولاية علي وأهل البيت، لأنّ الله أمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم أن يعرف الخلق أنّه لا يسألهم علىٰ تبليغ الرسالة أجراً إلاّ المودة في القربىٰ، والمعنى انّهم يسألون هل والوهم حق الموالاة كما أوصاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم أضاعوها وأهملوها فتكون عليهم المطالبة والتبعة.[4]

الثاني[5]: من تلك المواقف هو يوم الغدير و هو أوضحها وآكدها وأعمّها وقد صدع بالولاية في اليوم الثامن عشر من ذي الحجّة الحرام في منصرفه من حجّة الوداع، وقد قام في محتشد كبير بعدما خطب خطبة مفصّلة وأخذ من الناس الشهادة على التوحيد والمعاد ورسالته وأعلن انّه فرط على الحوض، ثمّ ذكر الثقلين وعرّفهما، بقوله:« الثقل الأكبر: كتاب الله، والآخر الأصغر: عترتي؛ وانّ اللطيف

---

١. مناقب الخوارزمي: ١٧٨؛ كفاية الطالب للكنجي: ٢٠٠؛ تذكرة ابن الجوزي: ٢٥.
٢. الصّافات: ٢٤.
٣. شواهد التنزيل: ٢/ ١٠٦.
٤. الصواعق المحرقة: ١٤٩.
٥. مضى الأول: ٢٤٧.

الخبير نبّأني انّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»، ثمّ قال: «أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه»، ثمّ قال: «اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ففي هذه الواقعة الفريدة من نوعها أعلن النبي ولاية علي عليه السلام للحاضرين وأمرهم بإبلاغها للغائبين، ونزل أمين الوحي بآية الإكمال، أعني: قوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾.[1]

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضى الربّ برسالتي، والولاية لعلي من بعدي».

ثمّ طفق القوم يهنّئون أمير المؤمنين عليه السلام و ممّن هنّأه في مقدّم الصحابة: الشيخان أبو بكر وعمر، كلّ يقول:

بَخٍّ بَخٍّ لك يابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة.

وقد تلقّى الصحابة الحضور انّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوجب ولايته على المؤمنين، وقد أفرغ شاعر عهد الرسالة حسّان بن ثابت ما تلقّاه عن الرسول، في قصيدته وقال:

فقال له قم يا عليّ فانّني ... رضيتك من بعدي إماماً وهادياً
فمن كنت مولاه فهذا وليّه ... فكونوا له أنصار صدق موالياً

قد ذكرنا مصادر الخطبة والأبيات عند البحث عن الإمامة فراجع.

---

١. المائدة: ٣.

٢

أهل البيت عليهم السلام
وضرورة إطاعتهم

أمر سبحانه بإطاعة الرسول و أُولي الأمر، وقال: ﴿يا أَيُّهَاالّذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإنْ تَنازَعْتُمْ في شَيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُول إنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخر ذلِكَ خَيرٌ وَأَحْسَنُ تَأْويلاً﴾ .[١]

تأمر الآية بإطاعة الله كما تأمر بإطاعة الرسول و أُولي الأمر لكن بتكرار الفعل، أعني: ﴿وأَطيعُوا الرَّسُول﴾ وما هذا إلاّ لأنّ سنخ الإطاعتين مختلف، فإطاعته سبحانه واجبة بالذات، و إطاعة النبي و أُولي الأمر واجبة بإيجابه سبحانه.

والمهم في الآية هو التعرُّف على المراد من أُولي الأمر، فقد اختلف فيه المفسرون على أقوال ثلاثة:

١. الأُمراء، ٢. العلماء، ٣. صنف خاص من الأُمّة، وهم أئمّة

---

١. النساء: ٥٩.

أهل البيت عليهم السلام .

وبما انّه سبحانه أمر بإطاعة أُولي الأمر إطاعة مطلقة، غير مقيّدة بما إذا لم يأمروا بالمعصية يمكن استظهار أنّ أُولي الأمر المشار إليهم في الآية والذين وجبت طاعتهم على الإطلاق، معصومون من المعصية والزلل، كالنبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى اقترنوا في لزوم الطاعة في الآية.

وبعبارة أُخرى: انّه سبحانه أوجب طاعتهم بالإطلاق، كما أوجب طاعته، وطاعة رسوله، ولا يجوز أن يوجب اللّه طاعة أحد على الإطلاق إلاّ من ثبتت عصمته،وعلم أنّ باطنه كظاهره، وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح،وليس ذلك بحاصل في الأمراء، ولا العلماء سواهم، جلّ الله عن أن يأمر بطاعة من يعصيه، أوبالانقياد للمختلفين في القول والفعل، لأنّه محال أن يطاع المختلفون، كما أنّه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه.[1]

وقد أوضحه الرازي في تفسيره، وذهب إلى أنّ المقصود من أُولي الأمر هم المعصومون في الأُمّة، وإن لم يخض في التفاصيل، ولم يستعرض مصاديقهم ،لكنّه بيّن المراد منهم بصورة واضحة، وقال:

والدليل على ذلك انّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع، لابدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير إقدامه على الخطأ يكون قد أمر الله بمتابعته، فيكون ذلك أمراً بفعل ذلك الخطأ، والخطأ لكونه خطأً منهي عنه، فهذا يُفضي إلى اجتماع الأمر والنهي في الفعل الواحد بالاعتبار الواحد وانّه

---

١. مجمع البيان:٣/ ١٠٠.

محال.

فثبت انّ الله تعالى أمر بطاعة أُولي الأمـر على سبيل الجزم، وثبت أنّ كلّ من أمر الله بطاعته على سبيـل الجزم، وجب أن يكون معصوماً عن الخطـأ، فثبت قطعاً أنّ أُولي الأمر المذكور في هذه الآية لابدّ وأن يكون معصوماً.[1]

وقد أوضح السيد الطباطبائي دلالـة الآية على عصمة أُولي الأمر ببيان رائق وإليك نصّه، قـال: الآية تدل على افتراض طاعة أُولي الأمر هـؤلاء، ولم تقيّده بقيد ولا شرط، وليس في الآيات القرآنية ما يقيّد الآية في مدلولها حتى يعود معنى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَأُولي الأَمْر مِنكُمْ﴾ إلى مثل قولنا: وأطيعوا أُولي الأمر منكم فيما لم يأمروا بمعصية أو لم تعلمـوا بخطئهم، فإن أمروكم بمعصية فـلا طاعة عليكم، وإن علمتم خطأهم فقوّموهم بالـردّ إلى الكتاب والسنّة و ليس هذا معنى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُول وَأُولي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ .

مع أنّ الله سبحـانه أبـان ما هـو أوضح مـن هذا القيـد فيما هو دون هـذه الطاعـة المفترضة، كقـوله في الـوالديـن: ﴿وَوَصَّيْنَا الإنْسـان بِوالِـدَيهِ حُسنـاً وَإِنْ جاهَداكَ لتشرِكَ بِي مالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما﴾ .[2] فما باله لم يُظهر شيئاً من هـذه القيود في آيـة تشتمل على أُس أسـاس الديـن، وإليهـا تنتهي عـامة اعـراق السعادة الإنسانية.

على أنّ الآية جمع فيها بين الرسول و أُولي الأمر، وذكر لهما معاً طاعة واحدة، فقال: ﴿وأطيعوا الـرسول وأُولي الأمـر منكم﴾ ، ولا يجوز على الـرسـول أن يـأمـر

---

١. التفسير الكبير: ١٠/ ١٤٤.

٢. العنكبوت: ٨.

بمعصية أو يغلط في حكم، فلو جاز شيء من ذلك على أُولي الأمر، لم يسع إلاّ أن يذكر القيد الوارد عليهم فلا مناص من أخذ الآية مطلقة من غير أن تقيّد، ولازمه اعتبار العصمة في جانب أُولي الأمر، كما اعتبر في جانب رسول الله ﷺ من غير فرق.[1]

وبذلك تبيَّن أنّ تفسير أُولي الأمر بالخلفاء الراشدين أو أُمراء السرايا أو العلماء أمر غير صحيح، لأنّ الآية دلَّت على عصمتهم ولا عصمة لهؤلاء، فلابدّ في التعرُّف عليهم من الرجوع إلى السنَّة التي ذكرت سماتهم ولا سيما حديث الثقلين حيث قورنت فيه العترة بالكتاب، فإذا كان الكتاب مصوناً من الخطأ، فالعترة مثله أخذاً بالمقارنة.

ونظيره حديث السفينة: «مَثَل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق».[2]

إلىٰ غير ذلك من الأحاديث التي تنصُّ على عصمة العترة الطاهرة، فإذاً هذه الأحاديث تشكّل قرينة منفصلة على أنّ المراد من أُولي الأمر هم العترة أحد الثقلين.

بل يمكن كشف الحقيقة من خلال الإمعان في آية التطهير، وقد عرفت دلالتها على عصمة أهل البيت الذين عيَّنهم الرسول بطرق مختلفة.

وعلى ضوء ذلك فآية التطهير، وحديث الثقلين، وحديث السفينة إلى غيرها من الأحاديث الواردة في فضائل العترة الطاهرة كلّها تدل على عصمتهم.

هذا من جانب و من جانب آخر دلَّت آية الإطاعة على عصمة أُولي الأمر،

---

١. الميزان: ٤/ ٣٩١.

٢. الحاكم: المستدرك: ٣/ ١٥١ أخرجه مسنداً إلى أبي ذر.

فبضم القرائن الآنفة الذكر إلى هذه الآية يتضح المراد من أُولي الأمر الذين أمر الله سبحانه بطاعتهم و قرن طاعتهم بطاعة الرسول.

وأمّا الرواية عن النبيّ: فقد روى ابن شهراشوب عن تفسير مجاهد انّ هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام حين خلّفه رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة، فقال: «يا رسول الله، أتخلّفني بين النساء و الصبيان؟» فقال صلى الله عليه وآله: «يا علي، أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي، حين قال له: ﴿**اخلفني في قومي وأصلح**﴾، فقال: أبلىٰ واللّه؛ ﴿**وأُولي الأمر منكم**﴾ قال: علي بن أبي طالب ولاّه اللّه أمرالأُمّة بعد محمّد حين خلّفه رسول اللّه صلى الله عليه وآله بالمدينة فأمراللّه العباد بطاعته و ترك خلافه».[1]

وأمّا ما رُوي عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام حول الآية فحدث عنها ولا حرج، فلنقتصر في المقام على رواية واحدة نقلها الصدوق باسناده عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال:

لمّا أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا أَطيعوا الله وأَطيعُوا الرسول وأُولي الأَمْر منكم**﴾ قلت: يا رسول الله ، عرفنا الله ورسوله، فمن أولوالأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟ فقال صلى الله عليه وآله: «هم خلفائي يا جابر وأئمة المسلمين من بعدي، أوّلهم علي بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ علي بن الحسين، ثمّ محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر ستدركه ياجابر، فإذا لقيته فاقرأه مني السلام، ثمّ الصادق جعفر بن محمد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ علي بن موسى، ثمّ محمّد بن علي، ثمّ علي بن محمّد، ثمّ الحسن بن علي، ثمّ سَمِيٍّ محمّد و

---

١. المناقب لابن شهراشوب: ٣/ ١٥، ط المطبعة العلميّة.

كنيتي، حجة الله في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح الله تعالى على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيه على القول بإمامته إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان».

قال جابـر: فقلت له: يا رسـول الله فهل يقع لشيعته الانتفـاع به في غيبته؟ فقال ﷺ: «اي والذي بعثنـي بالنبـوة إنهّم يستضيئون بنـوره،وينتفعون بـولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلاها سحاب.

يا جابر هذا من مكنون سر الله ومخزون علم الله ،فاكتمه إلاّ عن أهله».[1]

---

١. البرهان في تفسير القرآن: ١/ ٣٨١.

٣

وجوب مودّتهم وحبّهم

قام الرسل بابلاغ رسالات الله سبحانه إلى الناس، دون أن يبغوا أجراً منهم، بل كان عملهم خالصاً لوجهه سبحانه، لأنّ إبلاغ رسالاته كانت فريضة إلهية على عواتقهم، فكيف يطلبون الأجر للعمل العبادي الذي لا يبعثهم إليه إلاّ طاعة أمره وطلب رضاه،ولـذلك كان شعارهـم دوماً، قولهم ﴿وَمَا أسْأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِيَ إلاّ على ربِّ العالَمِين﴾ .[١]

فقد ذكر سبحانه على لسان الأنبياء تلك الآية في سورة الشعراء، ونقلها عن عديد من أنبيائه، نظراء:

نوح[٢]، هود[٣]، صالح[٤]، لوط[٥]، شعيب[٦].

وقد جاء هذا الشعار في سور أُخرى نقلها القرآن الكريم عن رسله وأنبيائه، فقد كانوا يخاطبون أُممهم بقولهم:

---

١. الشعراء: ١٠٩.

٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ . الشعراء:١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

﴿وَ يا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلى اللهِ﴾ .[١]

﴿يا قَوم لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلىَ الّذي فطرني﴾.[٢]

فإذا كان هذا موقف الأنبياء من أُممهم، فكيف يصح للنبي الخاتم ﷺ أن يطلب الأجر؟! بل هو أولى بأن يكون عمله خالصاً لله، لأنّه خاتم الرسل وأفضلهم، وقد كان يرفع ذلك الشعار أيام بعثته، بأمر منه سبحانه و يتلو قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُو إِلاّ ذِكرى لِلْعالَمين﴾.[٣]

هذه هي حقيقة قرآنية لا يمكن إنكارها، ومع ذلك نرى انّه سبحانه يأمره في آية أُخرى بأن يطلب منهم مودة القربى أجراً للرسالة.

ويقول: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ المَوَدَّةَ فِي القُربىٰ﴾ .[٤]

فكيف يمكن الجمع بين هذه الآية، وما تقدم من الآية الخاصّة بالنبي ﷺ والآيات الراجعة إلى سائر الأنبياء، فانّهم عليهم السلام كانوا على نهج واحد؟

هذا هو السؤال المطروح في المقام.

والإجابة عليه تتوقّف على نقل ما ورد حول الموضوع في القرآن الكريم، فنقول:

الآيات التي وردت حول أجر النبي ﷺ على أصناف أربعة:

الأوّل: أمره سبحانه بأن يخاطبهم بأنّه لا يطلب منهم أجراً، قال سبحانه: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاّ ذِكرى لِلْعالَمين﴾ .[٥]

---

١. هود:٢٩. ٢. هود: ٥١.
٣. الأنعام: ٩٠. ٤. الشورىٰ: ٢٣.
٥. الأنعام: ٩٠.

الثاني: ما يشعر بأنّه طلب منهم أجراً يرجع نفعه إليهم دون النبي صلى الله عليه وآله وسلم: فيقول سبحانه: ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .[1]

الثالث: ما يُعرّف أجره، بقوله: ﴿قُلْ ما أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلىٰ رَبِّهِ سَبيلاً﴾ .[2] فكان اتخاذ السبيل إلى الله هو أجر الرسالة.

الرابع: ما يجعل مودة القربى أجراً للرسالة، ويقول: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ﴾ .

فهذه العناوين الأربعة لابدّ أن ترجع إلى معنى واحد، وهذا هو الذي نحاول أن نسلّط عليه الأضواء.

الجواب: انّ لفظة الأجر يطلق على الأجر الدنيوي والأُخروي غير انّ المنفي في تلك الآيات بقرينة نفي طلبه عن الناس هو الأجر الدنيوي على الإطلاق، ولذلك لم ينقل التاريخ أبداً أن يطلب نبي لدعوته شيئاً بل نقل خلافه.

هذه هي قريش تقدّمت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي طليعتهم أبو الوليد، فتقدم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: يابن أخي إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر، مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فانّه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوىٰ منه، أو كما قال له

---

١. سبأ: ٤٧.

٢. الفرقان: ٥٧.

حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني قال: أفعل، فقال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحيم* حم* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحيم* كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرآناً عَرَبِياً لِقَوم يَعْلَمُونَ* بَشيراً وَنَذِيراً فَأعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُون* وَقالُوا قُلُوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمّا تَدْعُونا إِلَيْه﴾ .[1]

ثمّ مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلمّا سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقىٰ يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثمّ انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثمّ قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.[2]

هذا النصّ وغيره يعرب عن أنّ مدار الإثبات والنفي هو الأجر الدنيوي بعامة صوره، وهذا أمر منفي جداً لا يليق لنبي أن يطلبه من الناس.

قال الشيخ المفيد: إنّ أجر النبي ﷺ في التقرّب إلى الله تعالى هو الثواب الدائم، وهومستحق على الله تعالى في عدله وجوده وكرمه، وليس المستحق على الأعمال يتعلّق بالعباد، لأنّ العمل يجب أن يكون لله تعالى خالصاً، وما كان لله فالأجر فيه على الله تعالى دون غيره.[3]

إذا عرفت ذلك، فنقول:

إنّ مودة ذي القربىٰ وإن تجلّت بصورة الأجر حيث استثنيت من نفي الأجر، لكنّه أجر صوري وليس أجراً واقعياً، فالأجر الواقعي عبارة عمّا إذا عاد نفعه إلى النبي ﷺ، ولكنّه في المقام يرجع إلى المحب قبل رجوعه إلى النبي ﷺ، وذلك لأنّ مودة ذي القربى تجرّ المحب إلى أن ينهج سبيلهم في الحياة، ويجعلهم أُسوة في

---

١. فصّلت: ١ ـ ٥.

٢. السيرة النبوية: ١/ ٢٩٣ـ ٢٩٤.

٣. تصحيح الاعتقاد: ٦٨.

دينه ودنياه، ومن الواضح انّ الحبّ بهذا المعنى ينتهي لصالح المحب. قال الصادق عليه السلام : «ما أحب الله عزّ و جلّ من عصاه» ثمّ تمثّل، فقال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته ... انّ المحبّ لمن يحب مطيع[1]

وسيوافيك انّ المراد من ذوي القربىٰ ليس كلّ من ينتمي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنسب أو سبب، بل طبقة خاصة من أهل بيته الذين عرفهم بأنّهم أحد الثقلين في قوله: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وانّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».[2]

فإذا كان المراد من ذوي القربىٰ هؤلاء الذين أنيط بهم أمر الهداية والسعادة فحبُّهم ومودَّتهم يرفع الإنسان من حضيض العصيان والتمرد إلى عزّ الطاعة.

إنّ طلب المودة من الناس أشبه بقول طبيب لمريضه بعد ما فحصه وكتب وصفة: لا أُريد منك أجراً إلاّ العمل بهذه الوصفة، فانّ عمل المريض بوصفة الطبيب و إن خرجت بهذه العبارة بصورة الأجر، ولكنّه ليس أجراً واقعياً يعود نفعه إلى الطبيب بل يعود نفعه إلى نفس المريض الذي طلب منه الأجر.

وعلى ذلك فلابدّ من حمل الاستثناء على الاستثناء المنقطع، كأن يقول: قل لا أسألكم عليه أجراً، وإنّما أسألكم مودة ذي القربى، وليس الاستثناء المنقطع

---

١. سفينة البحار: مادة حبّب.

٢. أخرجه الحاكم في مستدركه: ٣/ ١٤٨، وقال: هذا حديث صحيح الاسناد على شرط الشيخين و لم يخرجاه؛ وأخرجه الذهبي في تلخيص المستدرك معترفاً بصحته على شرط الشيخين **أقول**: هذا حديث متواتر وقد ألّف غير واحد من المحقّقين رسائل حوله.

أمراً غريباً في القرآن بل له نظائر مثل قوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاّ سَلاماً﴾ .[١]

وعلى ذلك جرى شيخ الشيعة المفيد في تفسير الآية، حيث طرح السؤال، وقال:

فإن قال قائل: فما معنى قوله: ﴿قُلْ لا أَسألكم عليهِ أَجْراً إِلاّ المَودَّة فِي القُربىٰ﴾ أو ليس هذا يفيد انّه قد سألهم مودة القربى لأجره على الأداء؟

قيل له: ليس الأمر على ما ظننت لما قدمنا من حجّة العقل والقرآن، والاستثناء في هذا المكان ليس هو من الجملة لكنّه استثناء منقطع، ومعناه قل لا أسألكم عليه أجراً لكنّي ألزمكم المودة في القربىٰ و اسألكموها، فيكون قوله: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عليهِ أَجراً﴾ كلاماً تاماً، قد استوفىٰ معناه، ويكون قوله: ﴿إلاّ المودة في القُربى﴾ كلاماً مبتدأً، فائدته لكن المودة في القربى سألتكموها، وهذا كقوله: ﴿فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلاّ إِبْلِيس﴾ .[٢] والمعنى فيه لكن إبليس، وليس باستثناء من جملة.[٣]

وعلى ضوء ذلك يظهر معنى قوله سبحانه: ﴿ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ .[٤]

وقد تبيّن انّ حبّ الأولياء والصالحين لصالح المحب قبل أن يكون لصالحهم.

كما تبيّن معنى قوله سبحانه في شأن ذلك الأجر: ﴿ما أَسأَلُكُمْ عليه مِنْ أَجْرٍ إِلاّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾ .[٥]

---

١ . مريم: ٦٢.
٢. الحجر: ٣٠ـ ٣١.
٣.تصحيح الاعتقاد:٦٨.
٤. سبأ: ٤٧.
٥. الفرقان: ٥٧.

فانّ اتخاذ السبيل لا يخلو من أحد احتمالين:

١. مودَّة القربىٰ والتفاني في حبهم الذي سينتهي إلى العمل بالشريعة الموجب لنيل السعادة.

٢. نفس العمل بالشريعة الذي يصل إليها الإنسان عن طريق حبهم ومودتهم.

وبذلك ترجع الآيات الثلاث إلى معنى واحد من دون أن يكون بينهما أي تناف واختلاف.

وقد جاء الجمع بين مفاد الآيات الثلاث في دعاء الندبة الذي يشهد علو مضامينه على صدقه، حيث جاء فيه:

«ثمّ جعلت أجر محمّد ﷺ مودّتهم في كتابك، فقلت ﴿لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى﴾، و قلت: ﴿ما سألتكم من أجر فهو لكم﴾، وقلت: ﴿ما أسألكم عليه من أجر إلّا من شاء أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً﴾، فكانوا هم السبيل إليك، والمسلك إلى رضوانك».

وإلى ذلك يشير شاعر أهل البيت و يقول:

موالاتهم فرض، وحبهم هدى وطاعتهم ودٌّ، و ودُّهم تقوا

***

وأمّا القربى فهو على وزن البشرى والزلفىٰ بمعنى القرابة، يقول الزمخشري: القربىٰ مصدر كالزلفىٰ والبشرىٰ، بمعنى القرابة والمراد في الآية «أهل القربىٰ».[1]

وقد استعمل القرآن الكريم لفظة القربى في عامة الموارد بالمضاف، فتارة

---

١. الكشاف: ٣/ ٨١ في تفسير الآية.

بلفظة ذي، قال سبحانه: ﴿وبالوالدَيْنِ إحْساناً وذِي القُربىٰ واليَتامىٰ﴾.[١]

وأُخرى بلفظة ذوي، قـال سبحانه: ﴿وَ آتى المالَ عَلى حُبِّهِ ذَوي القُربىٰ وَاليَتامىٰ﴾.[٢]

وثـالثة: بلفظـة «أُولي»، قـال سبحانـه: ﴿مـا كانَ لِلنَّبـيِّ وَالّـذِينَ آمَنُـوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوكانُوا أُولِي قُربىٰ﴾.[٣]

و قد جاءت مرّة واحدة دون إضافة وهي نفس الآية المباركة، فلأجل ذلك يلزم تقدير شيء مثل لفظة «أهل» كما قدّره الزمخشري أو لفظاً غير ذلك مثل كلمة «ذي» أو «ذوي» أو «ذوي قربىٰ».

إلى هنا تمّت الإجابة عن السؤال الأوّل حول الآية.

السؤال الثاني[٤]

دلّـت الآيـة الكـريمـة على أنّ النبـي ﷺ فـرض مودة ذي القـربـىٰ، على المسلمين ولكن يبقى هنا سؤال وهو انّ الآية تحتمل وجهين:

أ: أن يكون المراد مودّة ذوي القربىٰ من أقرباء النبي وأهل بيته.

ب: أن يكون المراد ودّ كلّ مسلـم أقربائه وعشيرته و من يمـتُّ إليه بصلة، وليس في الآية ما يدل على المعنى الأوّل.

أقول: إنّ ذي القربىٰ كما علمت بمعنى صاحب القرابة والوشيجة النسبية، و يتعينّ مورده بتعينُّ المنسوب إليه، وهو يختلف حسب اختلاف موارد الاستعمال،

---

١. البقرة: ٨٣.

٢. البقرة: ١٧٧.

٣. التوبة: ١١٣.

٤. مضى السؤال الأوّل: ٢٦٠.

ويستعان في تعيينه بالقرائن الموجودة في الكلام، وهي:

الأشخاص المذكورون في الآية أو ما دلّ عليه سياق الكلام.

فتارة يراد منه الأقرباء دون شخص خاص، مثل قوله سبحانه: ﴿ما كانَ لِلنَّبي وَالّذِينَ آمَنُوا أنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكينَ وَلَو كانُوا أُولي قُربىٰ﴾ .[1]

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذا قُلْتُمْ فاَعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذا قُربىٰ﴾ .[2]

فانّ ذكر النبي والذين آمنوا معه آية على أنّ المراد قريب كلّ إنسان، كما أنّ جملة ﴿فإذا قلتم فاعدلوا﴾ آية أنّ المراد كل إنسان قريب إليه.

وأمّا قوله سبحانه: ﴿قُلْ لا أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ المَوَدَةَ فِي القُربىٰ﴾ فالفعل المتقدّم عليه يعني ﴿لا أسألكم﴾ آية انّ المراد أقرباء السائل، مثل قوله سبحانه: ﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرىٰ فَلِلّهِ وللرَّسُولِ وَلِذِي القُربىٰ﴾ .[3]

فانّ لفظة ﴿علىٰ رَسُولِهِ﴾ آية أنّ المراد أقرباء الرسول.

وعلى ذلك فلابدّ من الرجوع إلى القرائن الحافّة بالآية وتعيين المراد منه، وبذلك ظهر أنّ المراد هو أقرباء الرسول.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ناقداً انتخاب الخليفة الأوّل في السقيفة لأجل انتمائه إلى النبي صلى الله عليه وآله بالقرابة:

وإن كنت بالقربىٰ حججت خصيمهم

فغيرك أولىٰ بالنبي و أقرب[4]

---

١. التوبة: ١١٣.

٢. الأنعام: ١٥٢.

٣. الحشر: ٧.

٤. شرح ابن أبي الحديد: ١٨/ ٤١٦.

السؤال الثالث

إنّ سورة الشورىٰ سورة مكية، فلو كان المراد من ذوي القربىٰ هو عترته الطاهرة، أعني: عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فلم يكن يومذاك بعض هؤلاء كالحسن والحسين عليهما السلام؟

والجواب: إنّ الميزان في تمييز المكي عن المدني، أمران، وكلاهما يدلاّن على أنّ الآية نزلت في المدينة المنورة.

الأمر الأوّل: دراسة مضمون الآيات

فقد كانت مكافحة الوثنية والدعوة إلى التوحيد والمعاد هي مهمة النبي قبل الهجرة، ولم يكن المجتمع المكّي مؤهلاً لبيان الأحكام والفروع أو مجادلة أهل الكتاب من اليهود و النصارى، ولذلك تدور أغلب الآيات المكّية حول المعارف والعقائد والعبرة بقصص الماضين، و ما يقرب من ذلك.

ولمّا استتب له الأمر في المدينة المنورة واعتنق أغلب سكّانها الإسلام حينها سنحت الفرصة لنشر الإسلام وتعاليمه و لمناظرة اليهود والنصارى حيث كانوا يثيرون شبهاً ويجادلون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت آيات حول اليهود و النصارى في السور الطوال.

فلو كان هذا هو الميزان بغية تميّز المكّي عن المدني، فالآية مدنية قطعاً دون ريب لعدم وجود أيّة مناسبة لسؤال الأجر أو طلب مودة القربى من أُناس لم يؤمنوا به بل حشّدوا قواهم لقتله، بخلاف البيئة الثانية فقد كانت تقتضي ذلك حيث التفّ حوله رجال من الأوس والخزرج وطوائف كثيرة من الجزيرة العربية.

الأمر الثاني: الاعتماد على الروايات والمنقولات

فلو كان هذا هو الميزان فقد صرح كثير منهم بأنّ أربعة آيات من سورة الشورى مكّية، حتى أنّ المصاحف المطبوعة في الأزهر وغيره، تصرح بذلك و تُقرأ فوق السورة هذه الجملة: سورة الشورى مكية الآيات إلاّ ثلاث وعشرين وأربع وعشرين وسبع وعشرين.

أضف إلى ذلك انّ كثيراً من المفسّرين و المحدّثين صرحوا بذلك.[1]

وهذا هو البقاعيّ مؤلف «نظم الدرر وتناسب الآيات والسور» يصرح بأنّ الآيات مدنيّة، كما نقله المحقّق الزنجاني في «تاريخ القرآن».[2]

السؤال الرابع

الإنسان مفطور على حب الجميل وكراهة القبيح فيكون الودّ أمراً خارجاً عن الاختيار، فكيف يقع في دائرة السؤال ويطلبه النبي صلى الله عليه وآله من المؤمنين مع أنّه كذلك؟.

والجواب: **أوّلاً**: انّ الحبّ لو كان أمراً خارجاً عن الاختيار فلا يتعلّق به الأمر، كما لا يتعلّق به النهي، مع أنّه سبحانه ينهى عن ود من حادّ الله ورسوله، ويقول: ﴿لا تَجد قَوماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ يُوادّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَ رَسُولَهُ﴾ .[3]

---

١. انظر الكشاف: ٣/ ٨١؛ تفسير الرازي: ٧/ ٦٥٥؛ تفسير أبي السعود في هامش تفسير الرازي نفس الصفحة ؛ تفسير أبي حيان: ٧/ ٥١٦؛ تفسير النيسابوري:٦/ ٣١٢.

وأمّا من المحدّثين كمجمع الزوائد للهيتمي:٩/ ١٦٨؛ الصواعق المحرقة:١٠١ ـ ١٣٥،

٢. تاريخ القرآن: ٥٧.

٣. المجادلة: ٢٢.

كما أنّه ﷺ يدعو إلى التراحم والتعاطف النابعين عن الود والحب، ويقول: «مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».[١]

كلّ ذلك يدل على أنّ الودّ والبغض ليس على النسق الذي وصفه السائل، ولذلك نرى الدعوة الكثيرة إلى الحب في الله والبغض في الله.

قال الإمام الصادق عليه السلام : «من أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله».[٢]

وقد كتب الإمام علي عليه السلام إلى عامله في مصر مالك الأشتر رسالة قال فيها: «واشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم».[٣]

روى الخطيب في تاريخه عن النبي ﷺ: «عنوان صحيفة المؤمن حبّ علي بن أبي طالب عليه السلام ».[٤]

و قال ﷺ : «من سرّه أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن غرسها ربي، فليوال علياً بعدي، وليوال وليّه، وليقتد بالأئمّة من بعدي، فانّهم عترتي خلقوا من طينتي، رزقوا فهماً و علماً».[٥]

- روى أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه قول النبي ﷺ: «من أحبني فليحب علياً».[٦]

---

١. مسند أحمد: ٤/ ٢٧٠.

٢. سفينة البحار: ٢/ ١١ مادة الحبّ.

٣. نهج البلاغة: قسم الرسائل: الرسالة ٥٣.

٤. تاريخ بغداد: ٤/ ٤١٠.

٥. حلية الأولياء: ١/ ٨٦.

٦. مسند أحمد: ٥/ ٣٦٦؛ صحيح مسلم: كتاب الفتن: ١١٩.

و أخرج أحمد في مسنده عن الرسول : «من أحبني وأحب هذين وأباهما وأُمُّهما، كان معي في درجتي يوم القيامة».[1]

وثانياً: أنّ الإيصاء إنّما لا يفيد إذا لم يتوفر في الموصى له ملاك الحب والود كما إذا كان الرجل محطّاً للرذائل الأخلاقية، وأمّا إذا كان الموصى له إنساناً مثالياً متحلياً بفضائل الأخلاق ومحاسنها، فانّ الإيصاء به يعطف النظر إليه وبالتالي يجيش حبّه كلّما تعمّقت الصلة به.

وحاصل الكلام : أنّ دعوة الناس إلى الحبّ تقوم على إحدى دعامتين:

الأُولى: الإشادة بفضائل المحبوب وكمالاته التي توجد في نفس السامع حبّاً وولعاً إليه.

الثانية: الإيصاء بالحب والدعوة إلى الودّ، فانّه يعطف نظر السامع إلى الموصى له، فكلّما توطّدت الأواصر بينهما وانكشفت آفاق جديدة من شخصيته ازداد الحبّ والود له. وعلى كلّ تقدير فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم هو المحبوب التام لعامة المسلمين، فحبُّه لا ينفك عن حبّ من أوصى بحبّه وأمر بودّه.

وخير ما نختم به هذا البحث حديث مروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نقله صاحب الكشاف حيث قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من مات على حبّ آل محمّد مات شهيداً، ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات تائباً، ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد بشرّه ملك الموت بالجنة ثمّ منكر ونكير، ألا و من مات على حبّ آل محمد يُزفُّ إلى الجنة كما تزفُّ العروس إلى بيت زوجها،

---

١. مسند أحمد: ١/ ٧٧.

ألا و من مات على حبّ آل محمّد فتح الله له في قبره بابين إلى الجنّة، ألا ومن مات على حبّ آل محمّد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا و من مات على حبّ آل محمّد مات على السنّة والجماعة، ألا و من مات على بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيساً من رحمة الله، ألا و من مات على بغض آل محمّد مات كافراً، ألا و من مات على بغض آل محمّد لم يشم رائحة الجنة».[1]

وروى أيضاً: انّه لما نزلت هذه الآية، قيل: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟

فقال ﷺ: «علي و فاطمة و ابناهما».[2]

١. الكشاف:٣/ ٨٢، تفسير سورة الشورىٰ، ط عام ١٣٦٧.

٢. الكشاف:٣/ ٨١.

٤

الصلوات عليهم

إنّ من حقوق أهل البيت عليهم السلام هي الصلوات عليهم عند الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى النَّبِيّ يا أَيُّهَاالّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ .[١]

ظاهر الآية هو تخصيص الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكن فهمت الصحابة انّ المراد هو الصلاة عليه وعلى أهل بيته، وقد تضافرت الروايات على ضمّ الآل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند التسليم والصلاة عليه، وقد جاء ذلك في الصحاح والمسانيد، نقتصر منها على ما يلي:

١. أخرج البخاري عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: لقيني كعب بن عجرة، قال: ألا أُهدي لك هدية سمعتها من النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: بلى، فأهدها لي، فقال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت، فانّ الله قد علّمنا كيف نسلم؟ قال:

«قولوا: اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى

---

١. الأحزاب: ٥٦.

آل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللّهـمّ بارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد».[1]

وأخرجه أيضاً في كتاب التفسير عند تفسير سورة الأحزاب.[2]

كما أخرجه مسلمٌ في باب الصلاة على النبي من كتاب الصلاة.[3]

٢. أخرج البخاري أيضـاً ، عن أبي سعيد الخدري، قال: قلنـا يا رسول الله، هذا التسليـم فكيف نصلّي عليـك؟ قال: «قـولوا: اللّهـمّ صلّ على محمّـد عبدك ورسـولك، كما صلّيـت على آل إبـراهيـم ، وبارك على محمّـد وعلى آل محمّـد، كما باركت على إبراهيم».[4]

٣. أخرج البخـاري، عن ابن أبي حازم، عـن يزيد، قـال: «كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمّد و آل محمّد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم».[5]

٤. أخرج مسلم، عن أبي مسعود الأنصاري، قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله تعالى أن نصلّي عليك، يا رسول الله: فكيف نصلّي عليك؟

قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنّينا انّه لم يسأله.

ثمّ قـال رسول الله ﷺ «قولـوا: اللّهمّ صـلّ على محمّد وعلى آل محمّـد، كما صليت على آل إبراهيم،وبارك على محمّد وعلى آل محمّد كما باركت على آل إبراهيم

---

١. صحيح البخاري: ٤/ ١٤٦ ضمن باب «يزفّون النَسَلان في المشي» من كتاب بدء الخلق.

٢. صحيح البخاري: ٦/ ١٥١، تفسير سورة الأحزاب.

٣. صحيح مسلم: ٢/ ١٦.

٤. صحيح البخاري: ٦/ ١٥١، تفسير سورة الأحزاب.

٥. المصدر السابق.

في العالمين انّك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم».[١]

إنّ ابن حجر ذكر الآية الشريفة، وروى جملة من الأخبار الصحيحة الواردة فيها، وانّ النبي ﷺ قرن الصلاة على آله بالصلاة عليه، لمّا سئل عن كيفية الصلاة والسلام عليه، قال: وهذا دليل ظاهر على أنّ الأمر بالصلاة على أهل بيته، وبقية آله مراد من هذه الآية، وإلاّ لم يسألوا عن الصلاة على أهل بيته وآله عُقب نزولها ولم يجابوا بما ذكر، فلمّا أُجيبوا به دلّ على أنّ الصلاة عليهم من جملة المأمور به،وانّه ﷺ أقامهم في ذلك مقام نفسه، لأنّ القصد من الصلاة عليه مزيد تعظيمه، ومنه تعظيمهم، ومن ثمّ لمّا أدخل من مرّ في الكساء، قال: «اللّهمّ انّهم منّي وأنا منهم، فاجعل صلاتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك عليّ وعليهم»، وقضية استجابة هذا الدعاء: انّ الله صلّى عليهم معه فحينئذٍ طلب من المؤمنين صلاتهم عليهم معه.

ويروىٰ: لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء، فقالوا: و ما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: اللّهمّ صلّ على محمّد و تمسكون ،بل قولوا: اللّهم صلّ على محمّد وعلى آل محمد. ثمّ نقل عن الإمام الشافعي قوله:

يا أهل بيت رسول الله حبكم	فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر إنكم	من لم يصلّ عليكم لا صلاة له

فقال:فيحتمل لا صلاة له صحيحة فيكون موافقاً لقوله بوجوب الصلاة على الآل، ويحتمل لا صلاة كاملة فيوافق أظهر قوليه.[٢]

---

١. صحيح مسلم: ٢/ ٤٦، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد من كتاب الصلاة.

٢. الصواعق المحرقة: ١٤٦، ط عام ١٣٨٥هـ.

هذا كلّه حول الصلاة على الآل عند الصلاة على الحبيب.

و أما حكم الصلاة على آل البيت في التشهد، فقال أكثر أصحاب الشافعي: انّه سنّة.

وقال التربجي: من أصحابه هي واجبة، ولكن الشعر المنقول عنه يدل على وجوبه عنده، ويؤيده رواية جابر الجعفي ــ الذي كان من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، وفي طبقة الفقهاء ــ عن أبي جعفر عن أبي مسعود الأنصاري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من صلّى صلاة لم يصل فيها عليّ ولا أهل بيتي لم تقبل منه».[1]

وجابر الجعفي ممّن ترجمه ابن حجر في تهذيبه، ونقل عن سفيان في حقّه:

ما رأيت أورع في الحديث منه،وقال وكيع: مهما شككتم في شيء فلا تشكّوا في أنّ جابراً ثقة.

وقال سفيان أيضاً لشعبة: لأن تكلّمت في جابر الجعفي لأتكلمنّ فيك. إلى غير ذلك.[2]

قال ابن حجر: أخرج الدار قطني والبيهقي حديث من صلّى صلاة ولم يصل فيها عليّ وعلى أهل بيتي لم تقبل منه، وكأنّ هذا الحديث هو مستند قول الشافعي انّ الصلاة على الآل من واجبات الصلاة، كالصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم لكنّه ضعيف، فمستنده الأمر في الحديث المتفق عليه، قولوا: اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، والأمر للوجوب حقيقة على الأصحّ.[3]

وقال الرازي: إنّ الدعاء للآل منصب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء

---

١. سنن الدارقطني:١/ ٣٥٥. ٢. تهذيب التهذيب:٢/ ٤٦.

٣. الصواعق المحرقة: ٢٣٤، ط الثانية، عام ١٣٨٥هـ.

خاتمة التشهد في الصلاة، وقوله : اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، وارحم محمّداً وآل محمّد.

وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير الآل، فكلّ ذلك يدل على أنّ حبّ آل محمّد واجب، وقال الشافعي:

يا راكباً قف بالمحصّب من منىٰ	واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منىٰ	فيضاً كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبُّ آل محمّد	فليشهد الثقلان أنّي رافضي[1]

وقال النيسابوري في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبىٰ﴾ كفى شرفاً لآل رسول الله ﷺ وفخراً ختم التشهد بذكرهم والصلاة عليهم في كلّ صلاة.[2]

وروى محب الدين الطبري في الذخائر عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي اللّه عنه انّه كان يقول: لو صلّيت صلاة لم أُصلّ فيها على محمّد وعلى آل محمّد ما رأيت أنّها تقبل.[3]

وقال المحقّق الشيخ حسن بن عليّ السقاف: تجب الصلاة على آل النبي ﷺ في التشهد الأخير على الصحيح المختار، لأنّ أقصر صيغة وردت عن سيدنا رسول الله ﷺ ثبت فيها ذكر الصلاة على الآل، ولم ترد صيغة خالية منه في صيغ تعليم الصلاة، فقد تقدّم حديث سيدنا زيد بن خارجة، انّ رسول الله ﷺ قال:

---

١. تفسير الفخر الرازي:٢٧/ ١٦٦،تفسير سورة الشورى.

٢. تفسير النيسابوري: تفسير سورة الشورى.

٣.ذخائر العقبى:١٩، ذكر الحث على الصلاة عليهم.

«صلّوا عليّ واجتهدوا في الدعاء، وقولوا: اللّهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد».[١]

بلاغ وإنذار

لقد تبين ممّا سبق كيفية الصلاة على النبي ﷺ و انّه لا يصلّى عليه إلاّ بضم الآل إليه، ومع ذلك نرى أنّه قد راجت الصلاة البتراء بين أهل السنّة في كتبهم ورسائلهم، مع أنّ هذه البلاغات من النبي ﷺ نصب أعينهم ولكنّهم رفضوها عملاً واكتفوا بالصلاة عليه خاصة، حتى أنّ ابن حجر الهيتمي(٨٩٩ ـ ٩٧٤هـ) نقل كيفية الصلاة على النبي ﷺ ولكن كتابه المطبوع مليء بالصلاة البتراء. وإليك نصّ ما قال: ويروى لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء، قالوا: وما الصلاة البتراء؟، قال: تقولون: اللّهمّ صلّ على محمّد وتمسكون، بل قولوا: اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد ولا ينافي ما تقرر حذف الآل في الصحيحين، قالوا: يا رسول الله : كيف نصلّي عليك؟ قال: قولوا اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى أزواجه و ذرّيته، كما صليت على إبراهيم إلى آخره.

لأنّ ذكر الآل ثبت في روايات أُخر، وبه يعلم أنّه ﷺ قال ذلك كلّه فحفظ بعض الرواة مالم يحفظه الآخر.[٢]

وفي الختام نذكر ما ذكره الرازي، انّه قال: أهل بيته ساووه في خمسة أشياء: في الصلاة عليه و عليهم في التشهد، وفي السلام، والطهارة، وفي تحريم الصدقة، وفي المحبّة.[٣]

---

١. صحيح صفة صلاة النبي: ٢١٤.

٢. الصواعق المحرقة: ١٤٦، ط الثانية، عام ١٣٨٥.

٣. الغدير: ٢/ ٣٠٣، ط طهران نقله عن تفسير الرازي: ٧/ ٣٩١ ولم نعثر عليه في الطبعتين.

٥

دفع الخمس إليهم

الأصل في ضريبة الخمس، قوله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أنّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيءٍ فأنّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُربىٰ وَاليَتامىٰ وَالمَساكِينِ وَابْنِ السَّبيلِ إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَما أَنْزَلْنا عَلىٰ عَبْدِنا يَومَ الفُرقانِ يَومَ الْتَقى الجَمْعانِ وَاللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِير...﴾.[1]

نزلت الآية يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان وهي غزوة بدر الكبرىٰ، واختلف المفسرون في تفسير الموصول في «ما غنمتم» هل هو عام لكلّ ما يفوز به الإنسان في حياته، كما عليه الشيعة الإمامية، أو خاص بما يظفر به في الحرب، وهذا بحث مهم لا نحوم حوله، لأنّه خارج عمّا نحن بصدده، وقد أشبعنا الكلام فيه في كتابنا «الاعتصام بالكتاب والسنة» وأثبتنا بفضل القرآن والأحاديث النبوية انّ الخمس يتعلّق بكلّ ما يفوز به الإنسان في حياته، وانّ نزول الآية في مورد الغنائم الحربية لا يُخصص الحكم الكلي.[2]

---

١. الأنفال: ٤١.

٢. الاعتصام بالكتاب والسنّة: ٩١ـ ١٠٥.

إنّما الكلام في تبيين مواضع الخمس، وقد قسّم الخمس في الآية إلى ستة أسهم، أعني: لله و للرسول و لذي القربى واليتامى و المساكين وابن السبيل.

فالسهمان الأوّلان واضحان، إنّما الكلام في السهم الثالث و ما بعده، فالمراد من ذي القربى هم أقرباء النبي وذلك بقرينة الرسول ﷺ، و قد سبق منّا القول في تفسير آية المودة :انّ تبيين المراد من القربىٰ رهن القرائن الحافّة بالآية فربما يراد منها أقرباء الناس، مثل قوله: ﴿وَإِذا قُلتُمْ فاْعْدِلُوا وَلَو كانَ ذا قُربىٰ﴾ .[١] المراد أقرباء المخاطبين، بقرينة قوله: ﴿قلتم فاعدلوا﴾ نظير قوله :﴿وإذا حضر القسمة ذوي القربى﴾ والمراد أقرباء الميت.

وعلى ضوء ذلك فإذا تقدَّم عليه لفظ « الرسول» يكون المراد منه أقرباء الرسول كما في الآية ﴿ للرسول و لذي القربى﴾، و مثله قوله: ﴿ما أفاءَ اللهُ عَلىٰ رسولهِ مِنْ أهلِ القُرىٰ فللّهِ ولِلرَّسولِ وَ لِـذي القُربىٰ وَ اليَتامىٰ وَ المَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ﴾.[٢] وقوله: ﴿فَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ والمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ﴾ .[٣] فالمراد من ذي القربى هم أقرباء الرسول بقرينة توجُّه الخطاب إليه أعني «فآت».

ومنه يعلم المراد من المساكين في الآيتين وآية الخمس، أي مساكين ذي القربى وأيتامهم وأبناء سبيلهم.

هذا هو المفهوم من الآية، و على ما ذكرنا فكلّ ما يفوز به الإنسان في مكسبه ومغنمه أو ما يفوز به في محاربة المشركين والكافرين، يُقسّم خمسه بين ستة سهام كما عرفت.

---

١. الأنعام: ١٥٢.
٢. الحشر: ٧.
٣. الروم: ٣٨.

ويؤيده الروايات التالية:

١. روي عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يقسّم الخمس على ستة: لله وللرسول سهمان وسهم لأقاربه، حتى قبض.[١]

٢. وروي عن أبي العالية الرياحي: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيقسمها على خمسة فتكون أربعة أخماس لمن شهدها، ثمّ يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه الذي قبض كفه، فيجعله للكعبة وهو سهم الله، ثم يقسّم ما بقي ،على خمسة أسهم: فيكون سهم للرسول، وسهم لذي القربىٰ، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. قال: والذي جعله للكعبة فهو سهم الله.[٢]

وأمّا تخصيص بعض سهام الخمس بذي القربىٰ ومن جاء بعدهم من اليتامى والمساكين وابن السبيل، فلأجل الروايات الدالة على أنّه لا تحل لهم الصدقة، فجعل لهم خمس الخمس.

أخرج الطبري عن مجاهد، انه قال: كان آل محمّد ﷺ لا تحل لهم الصدقة فجعل لهم الخمس.[٣]

و أخرج أيضاً عنه: قد علم الله أنّ في بني هاشم الفقراء فجعل لهم الخمس مكان الصدقة[٤].

كما تضافرت الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ السهام الأربعة من الخمس، لآل محمّد ﷺ.[٥]

---

١. تفسير النيسابوري: ١٠/ ٤، المطبوع بهامش الطبري.

٢. تفسير الطبري: ١٠/ ٤؛ أحكام القرآن:٣/ ٦٠.

٣. الظاهر زيادة لفظ «خمس» بقرينة ما نقله ثانياً عن مجاهد.

٤. تفسيرالطبري: ١٠/ ٥.

٥. الوسائل: ٦/ الباب٢٩ من أبواب المستحقّين للزّكاة.

هذا ظاهر الآية ويا للأسف لعب الاجتهاد دوراً كبيراً في تحويل الخمس عن أصحابه وظهرت أقوال لا توافق النص القرآني، وإليك مجملاً من آرائهم:

١ـ قالت الشافعية و الحنابلة: تقسّم الغنيمة، وهي الخمس إلى خمسة أسهم: واحد منها سهم الرسول ويصرف على مصالح المسلمين، و واحد يعطى لذوي القربىٰ وهم من انتسب إلى هاشم بالابوة من غير فرق بين الأغنياء والفقراء، والثلاثة الباقية تنفق على اليتامى والمساكين وأبناء السبيل سواء أكانوا من بني هاشم أو من غيرهم.

٢. وقالت الحنفية: إنّ سهم الرسول سقط بموته ، أمّا ذوو القربى فهم كغيرهم من الفقراء يعطون لفقرهم لا لقرابتهم من الرسول.

٣. وقالت المالكية : يرجع أمر الخمس إلى الإمام يصرفه حسبما يراه من المصلحة.

٤. وقالت الإمامية: إنّ سهم الله وسهم الرسول وسهم ذوي القربىٰ يفوّض أمرها إلى الإمام أو نائبه، يضعها في مصالح المسلمين، والأسهم الثلاثة الباقية تعطىٰ لأيتام بني هاشم ومساكينهم وأبناء سبيلهم ولا يشاركهم فيها غيرهم.[1]

٥. وقال ابن قدامة في المغني بعدما روى أنّ أبا بكر وعمر قسّما الخمس على ثلاثة أسهم: و هو قول أصحاب الرأي أبي حنيفة وجماعته، قالوا: يقسم الخمس على ثلاثة: اليتامى، والمساكين، وابن السبيل، وأسقطوا سهم رسول الله بموته وسهم قرابته أيضاً.

٦. وقال مالك: الفيء والخمس واحد يجعلان في بيت المال.

٧. وقال الثوري: والخمس يضعه الإمام حيث أراه الله عزّوجلّ.

---

١. الفقه على المذاهب الخمسة: ١٨٨.

وما قاله أبو حنيفة مخالف لظاهر الآية فإنّ الله تعالى سمّى لرسوله وقرابته شيئاً وجعل لهما في الخمس حقاً، كما سمّى الثلاثة أصناف الباقية، فمن خالف ذلك فقد خالف نصّ الكتاب، و أمّا جعل أبي بكر وعمر سهم ذي القربىٰ ، في سبيل الله، فقد ذُكر لأحمد فسكت وحرك رأسه ولم يذهب إليه، و رأى أنّ قول ابن عباس و من وافقه أولى، لموافقته كتاب الله وسنة رسوله.[1]

وقد أجمع أهل القبلة كافة على أنّ رسول الله ﷺ كان يختص بسهم من الخمس ويخص أقاربه بسهم آخر منه، وأنّه لم يعهد بتغيير ذلك إلى أحد حتى دعاه الله إليه، واختار الله له الرفيق الأعلى.

فلمّا ولى أبوبكر تأوّل الآية فأسقط سهم النبي وسهم ذي القربى بموت النبي ﷺ، و منع بني هاشم من الخمس، وجعلهم كغيرهم من يتامى المسلمين ومساكينهم وأبناء السبيل منهم.

قال الزمخشري عن ابن عباس: الخمس على ستة أسهم : لله ولرسوله سهمان، وسهم لأقاربه، حتى قبض فأجرى أبو بكر الخمس على ثلاثة، وكذلك روي عن عمر و من بعده من الخلفاء، قال: وروي أنّ أبابكر منع بني هاشم الخمس.[2]

و روى البخاري في صحيحه عن عائشة أنَّ فاطمة عليها السلام أرسلت إلى أبي بكر، تسأله ميراثها من رسول الله ﷺ ممّا أفاء الله عليه با لمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فأبىٰ أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلّمه حتى توفيت، وعاشت بعد النبي ﷺ ستة أشهر،

١. الشرح الكبير على هامش المغني: ١٠/ ٤٩٣ـ ٤٩٤.
٢. الكشاف: ٢/ ١٢٦.

فلمّا توفيت دفنها زوجها علي ليلاً ولم يؤذن بها أبا بكر وصلّى عليها.[1]

وفي صحيح مسلم عن بريد بن هرمز، قال: كتب نجدة بن عامر (الحروري الخارجي) إلى ابن عباس، قال ابن هرمز: فشهدت ابن عباس حين قرأ الكتاب وحين كتب جوابه، وقال ابن عباس: والله لولا أن أرد عن نتن يقع فيه، ما كتبت إليه ولا نُعْمةَ عينٍ، قال: فكتب إليه إنّك سألت عن سهم ذي القربىٰ الذي ذكرهم الله من هم ؟ وإنّا كنّا نرى أنّ قرابة رسول الله ﷺ هم نحن فأبى ذلك علينا قومنا.[2]

---

١. صحيح البخاري: ٥/ ١٣٩، باب غزوة خيبر.

٢. صحيح مسلم: ٢/ ١٠٥، كتاب الجهاد و ١٦٧ السير، باب النساء الغازيات.

٦

الفيء لأهل البيت عليهم السلام

الفيء عبارة عن الغنائم التي يحصل عليها المسلمون بلا خيل ولا ركاب، فإنّ هذه الأموال تقع تحت تصرّف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم باعتباره رئيساً للدولة الإسلامية، وكان الفيء في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أمراً هاماً في تنمية الثروة في المجتمع الإسلامي ولا سيّما انتقال الثروة من يد الأغنياء إلى يد الفقراء.

والأساس فيه قوله سبحانه: ﴿وَما أَفاءَ اللهُ عَلىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ وَلٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾ .[١]

﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرىٰ فَلِلّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُربىٰ وَاليَتامىٰ وَالمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنياء مِنكُمْ وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقاب﴾ .[٢]

بيّن سبحانه أحكام الفيء، وقال: ﴿وَما أَفاءَ الله عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾

---

١. الحشر: ٦.

٢. الحشر: ٧.

الضمير يرجع إلى اليهود، ولكن الحكم سار علىٰ جميع الكفّار.

﴿فَما أَوجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاٰ رِكاب﴾ أي الفيء عبارة عن الأموال التي استوليتم عليها بلا إيجاف خيل ولا إبل ولم تسيروا إليها على خيل ولا إبل.

هذا هو الفيء، وأمّا المواضع التي يصرف بها هـذا الفيء فقد بيَّنها سبحانه في الآية الثانية ، وقال: ﴿ما أَفاءَ الله عَلى رَسُولِـهِ مِنْ أَهْل القُرىٰ﴾ ، أي ما ردَّ ما كـان للمشركين على المسلمين بتمليك الله إيّـاهـم ذلـك، ﴿ فللّه﴾ و ﴿للرَّسُول﴾ و﴿لذي القُربى﴾، فهو لله بالذات وللرسول و لذي القربى بتمليك الله إيّاهم.

والمراد من ذي القربىٰ بقرينة الرسول أهل بيت رسول الله وقرابته، و هم بنو هاشم.

﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ أي منهم، بقـرينة الرسـول، فيكون المعنى ويتامى أهل بيته ومساكينهم وأهل السبيل منهم.

وعلىٰ ذلك فالفيء يقسّم على ستة أسهم:

١ . سهم لله المالـك لكلّ شيء غير محتاج لشيء، جعـل نفسه قرينـاً لسائر الاسماء تكريماً لهم.

٢ . سهم الرسول و هو يؤمّن بذلك حاجاته وحاجة الدولة الإسلامية.

٣. سهم ذوي القربىٰ أي أقرباء الرسول، فبما أنّ الصدقة تحرم عليهم حلّ ذلك محلّه.

٤ . سهم اليتامىٰ.

٥ . سهم المساكين.

٦ . سهم أبناء السبيل.

وبكلمة جامعة:

«الغنيمة» ـ كلّ ما أُخذ من دار الحرب بالسيف عنوة مما يمكن نقله إلى دار الإسلام، ومالا يمكن نقله إلى دار الإسلام ـ لجميع المسلمين ينظر فيه الإمام، ويصرف انتفاعه إلى بيت المال لمصالح المسلمين.

«الفيء» ـ كلّ ما أُخذ من الكفّار بغير قتال أو انجلاء أهلها ـ للنبي، يضعه في المذكورين في هذه الآية، ولمن قام مقامه من الأئمّة وقد بيّنه سبحانه في ضمن الآيتين.[1]

---

١. التبيان:٩/ ٥٦٤.

٧

الأنفال لأهل البيت عليهم السلام

وردت لفظـة «الأنفـال» في القرآن مـرتين في آيـة واحـدة، قال سبحـانـه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفالِ قُلِ الأَنْفالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين﴾.[1]

أقول: إنّ الضرائب الواردة في القرآن الكريم لا تتجاوز الأربع:

أ: الزكاة ومقسمها ثمانية.

ب: الخمس ومقسمه هو الستة.

ج: الفيء ومقسمه مقسم الخمس كما عرفت.

د: الأنفال ومقسمها اثنان، وهما ما ذكر في الآية من قوله: ﴿للّهِ والرَّسُول﴾، لكن الكلام في بيان المراد من الأنفال.

اختلف المفسّرون في تفسير الأنفـال اختلافـاً كثيراً، والذي يمكـن أن يقال انّ الأنفال مـن النفل و هـو الزائد من الأمـوال، فيشمل كـلّ زائد عن حـاجات

---

١. الأنفال: ١.

الحياة، و لكن السنَّة المروية عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام فسرته بالنحو التالي:

١. روى حفص البختري عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الأنفال مالم يوجف عليه بخيل أو ركاب[١]، أو قوم صالحوا، أو قوم أعطوا بأيديهم، وكلّ أرض خربة، وبطون الأودية، فهو لرسول الله، وهو للإمام بعده يضعه حيث يشاء».[٢]

٢. وروى حماد بن عيسى، عن بعض أصحابنا، عن الإمام الكاظم عليه السلام في حديث: «والأنفال كلّ أرض خربة باد أهلها، وكلّ أرض لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب ولكن صالحوا صلحاً وأعطوا بأيديهم على غير قتال، وله رؤوس الجبال، وبطون الأودية والآجام، وكلّ أرض ميتة لا ربّ لها، وله صوافي الملوك ما كان في أيديهم من غير وجه الغصب، لأنّ الغصب كلّه مردود، و هو وارث من لا وارث له، يعول من لا حيلة له».[٣]

٣. موثقة إسحاق بن عمّار المروية في تفسير القمي قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن الأنفال، فقال عليه السلام: « هي القرى التي قد خربت وانجلى أهلها، فهي لله وللرسول صلى الله عليه وآله، و ما كان للملوك فهو للإمام ، و ما كان من الأرض الخربة لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، وكلّ أرض لا ربّ لها، والمعادن منها، من مات وليس له مولى فماله من الأنفال».[٤]

إلى غير ذلك من الروايات.

وعلى الرواية الأُولى يكون الفيء من أقسام الأنفال، ولم نجد في تفاسير أهل السنَّة من يوافق الشيعة الإمامية في تفسير الأنفال إلاّ شيئاً قليلاً، فقد عقد أبو

---

١. وعلى هذا يكون الفيء قسماً من الأنفال.

٢ و ٣ و ٤. وسائل الشيعة: ٦، الباب الأوّل من أبواب الأنفال، الحديث ١، ٤، ٢٠.

إسحاق الشيرازي باباً للأنفال وفسرها بقوله: يجوز لأمير الجيش أن ينفل لمن فعل فعلاً يفضي إلى الظفر بالعدو ، كالتجسيس ، والدلالة على طريق أو قلعة، أو التقدم بالدخول إلى دار الحرب أو الرجوع إليها بعد خروج الجيش منها.[1]

---

١. المهذّب في فقه الإمام الشافعي: ٢/ ٢٤٣.

٨

ترفيع بيوتهم

لقد أذن الله تعالىٰ في ترفيع البيوت التي يذكر فيها اسمه ويسبّح له بالغدوّ والآصال في آية مباركة، وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصالِ* رِجالٌ لاٰ تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلاٰ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصار﴾ .[1]

وتفسير الآية رهن دراسة أمرين:

الأوّل: ما هو المقصود من البيوت؟

الثاني: ما هو المراد من الرفع؟

أمّا الأوّل فربما قيل انّ المراد من البيوت هو المساجد.

قال صاحب الكشّاف: ﴿في بيوت﴾ يتعلّق بما قبله، مثل نوره كمشكاة في بعض بيوت الله، وهي المساجد.[2]

ولكن الظاهر أنّ التفسير غير صحيح، لأنّ البيت هو البناء الذي يتشكّل

---

١. النور: ٣٦ ـ ٣٧.

٢. الكشاف: ٢/ ٣٨٩.

من جدران أربعة وعليها سقف قائم، فالكعبة بيت الله لأجل كونها ذات قوائم أربعة وعليها سقف، والقرآن يعبّر عن البيت بالمكان المسقّف، ويقول: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُون﴾ .[١]

فالمستفاد من الآية أنّ البيت لا ينفك عن السقف، هذا من جانب. ومن جانب آخر: لا يشترط في المساجد وجود السقف، هذا هو المسجد الحرام تراه مكشوفاً تحت السماء ودون سقف يظلّله.

وقد ورد لفظ البيوت في القرآن الكريم (٣٦ مرّة) بصور مختلفة، واستعمل في غير المسجد، يقول سبحانه: ﴿طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطّائِفينَ وَالعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود﴾ .[٢] ﴿وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ وَالحِكْمَة﴾ .[٣]

إلى غير ذلك من الآيات، فكيف يمكن تفسيره بالمساجد؟

وبما أنّ جميع المساجد ليس على هذا الوصف، التجأ صاحب الكشاف بإقحام كلمة «بعض»، وقال: في بعض بيوت الله وهي المساجد، وهو كما ترى، وهناك حوار دار بين قتادة فقيه البصرة وأبي جعفر الباقر عليه السلام يؤيد ما ذكرنا .

حضر قتادة في مجلس الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام فقال له الإمام: من أنت؟

قال: أنا قتادة بن دعامة البصري.

فقال أبو جعفر: أنت فقيه أهل البصرة؟

فقال : نعم. قال قتادة: أصلحك الله، ولقد جلستُ بين يدي الفقهاء وقدّام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدّام واحد منهم، ما اضطرب قدّامك!

---

١. الزخرف: ٣٣.
٢. البقرة: ١٢٥.
٣. الأحزاب: ٣٤.

فقال أبو جعفر عليه السلام: ما تدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿ بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالغُدُوِّ وَالآصال* رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وإقام الصَّلاة و إيتاءِ الزَّكاة﴾ ونحن أولئك.

فقال له قتادة: صدقت، والله جعلني فداك، والله ماهي بيوت حجارة ولا طين.[1]

و يؤيّد ما رواه الصدوق في الخصال عن النبي صلى الله عليه وآله: ان اللّه اختار من البيوتات أربعة ثم قرأ هذه الآية: ﴿إنّاللّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحاً و آلَ إِبْراهِيمَ و آلَ عِمْرانَ عَلى الْعالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْض﴾[2].[3]

وعلى هذا الحوار فالمراد من البيت، بيت الوحي وبيت النبوَّة، ومن يعيش في هذه البيوت من رجال لهم الأوصاف المذكورة في الآية الكريمة.

هذا كلّه حول الأمر الأوّل.

وأمّا الأمر الثاني، أعني: ما هو المراد من الرفع؟ فيحتمل وجهين:

الأوّل: أن يكون المراد الرفع المادي الظاهري الذي يتحقّق بإرساء القواعد وإقامة الجدار والبناء، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهيمُ الْقَواعِدَ مِنْ الْبَيْتِ وَإِسماعيل﴾.[4] و على هذا تدل الآية على جواز تشييد بيوت الأنبياء والأولياء وتعميرها في حياتهم بعد مماتهم.

الثاني: أن يكون المراد الرفع المعنوي والعظمة المعنوية، وعلى هذا تدل الآية بتكريم تلك البيوت وتبجيلها وصيانتها وتطهيرها مما لا يليق بشأنها.

---

١. البرهان في تفسير القرآن: ٣/ ١٣٨.
٢. آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.
٣. الخصال: ١/ ١٠٧.
٤. البقرة: ١٢٧.

قال الرازي: المراد من رفعها، بنـائها لقوله تعالى: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوّاها﴾ [١] وثانيها ﴿ترفع﴾ اي تعظم.[٢]

هذا كلّه حسب ما تدل عليه الآية، وأمّا بالنظر إلى الروايات فنذكر منها ما يلي:

١. روى الحافظ السيوطي عن أنس بن مالك و بريدة، انّ رسول الله ﷺ قرأ قوله تعالى: ﴿في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ ترفَع﴾ فقام إليه رجل وقال: أيّ بيوت هذه يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «بيوت الأنبياء».

فقام إليه أبو بكر وقال: يا رسول الله، وهذا البيت منها؟ وأشار إلى بيت علي و فاطمة عليهما السلام.

فقال النبي ﷺ: «نعم من أفاضلها».[٣]

٢. روى ابن شهراشوب عن تفسير مجاهد و أبي يوسف، يعقوب بن سفين، قال ابـن عباس في قـوله تعـالى: ﴿وَإِذا رَأَوا تِجـارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّـوا إِلَيْهـا وَتَرَكُـوكَ قائِماً﴾[٤] :إنّ دحية الكلبـي جاء يوم الجمعة مـن الشام بالميرة، فنزل عنـد أحجار الزيـت، ثمّ ضرب بـالطبول ليـؤذن الناس بقـدومه، فمضـوا الناس إليـه إلاّعلي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام وسلمان وأبو ذر والمقداد وصهيب، وتركوا النبي ﷺ قائماً يخطب على المنبر، فقال النبي ﷺ: قد نظر الله يوم الجمعة إلى مسجدي فلولا

---

١. النازعات: ٢٨

٢. تفسيرالفخرالرازي: ٢٤/ ٣.

٣. تفسير الدر المنثور: ٥/ ٥٠.

٤. الجمعة: ١١.

هؤلاء الثمانية الذين جلسوا في مسجدي لأضرمت المدينة على أهلها ناراً، وحُصبوا بالحجارة كقوم لوط، ونزل فيهم رجال لا تلهيهم تجارة.[١]

وقد وصف الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هؤلاء الرجال الذين يسبِّحون في تلك البيوت؛ عند تلاوته: ﴿رِجالٌ لا تُلهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله﴾ : وإنّ للذكر لأهلاً أخذوه من الدُّنيا بدلاً، فلم يشغلهم تجارة ولا بيع عنه، يقطعون به أيام الحياة، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه فكأنّما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنّما اطَّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه، وحقَّقت القيامة عليهم عِداتُها، فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا، حتى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون.[٢]

---

١. البرهان في تفسير القرآن:٣/ ١٣٩.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٢٢٢.

أهل البيت

في كلام الإمام علي عليه السلام

إلى هنا تمّ ما أردنا استعراضه مـن سماتهم وحقوقهم في القرآن الكريم، ولو حاول الباحث أن يستعرض أوصافهم وخصوصيّاتهم الواردة في الأحاديث النبوية لاحتاج إلى تأليف مفرد، و بما انّ محور بحوثنا هو القرآن الكريم اقتصرنا على ذلك، وهذا لا يمنعنا أن نذكر ما روي عن علي عليه السلام في ذلك المجال:

١ . يقول في حقّهم: «...فإنّهم عيش العلم،وموت الجهل ، هم الذين يُخبركم حُكمُهم عن علمهم، وصَمتُهم عن منطقهم، وظاهرهُم عن باطنهم، لا يخالفون الدين، ولا يختلفون فيه، فهو بينهم شاهدٌ صادق، وصامت ناطق».[1]

٢ . وفي خطبة أُخرى: «لا يقاس بآل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من هذه الأُمّة أحد، ولا يُسوَّى بهم مَن جرت نعمتهم عليه أبداً، هم أساسُ الدين،وعِمادُ اليقين، إليهم يفيءُ الغالي، وبهم يُلحق التالي، ولهم خصائص حقِّ الولاية، وفيهم الوصية والوراثة ، الآنَ إذ رجع الحقّ إلى أهله، ونُقل إلى منتقله».[2]

---

١ .نهج البلاغة: الخطبة ١٤٧.

٢ . نهج البلاغة: الخطبة ٢.

٣. وقال عليه السلام: «نحنُ الشعار والأصحاب، والخزنة والأبواب، ولا تؤتى البيوتُ إلاّ من أبوابها، فمن أتاها من غير أبوابها سُمّي سارقاً».

منها: «فيهم كرائمُ القرآن، وهم كنوز الرحمن، إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا».[1]

٤. وقال عليه السلام: «ألا إنّ مثل آل محمّدٍ صلى الله عليه وآله، كَمَثَلِ نجوم السّماء: إذا خوىٰ نجم، طَلَعَ نَجم، فكأنّكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع، وأراكم ما كنتم تأملون».[2]

٥. وقال عليه السلام: «ألا و إنّ لكلِّ دمٍ ثائراً، ولكلِّ حقٍّ طالباً. و إنَّ الثّائِرَ في دمائِنا كالحاكِمِ في حقِّ نفسِهِ، وهُوَ اللهُ الذي لا يُعجِزُهُ من طَلَبَ، ولا يفُوتُهُ من هرب».[3]

٦. وقال عليه السلام: «أيها الناس، خذوها عن خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله: إنّه يموت من ماتَ منّا وليس بميّت، ويبلىٰ من بَلِي منّا وليس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرِفُون، فإنّ أكثرَ الحقِّ فيما تُنكِرون، واعذِروا من لا حُجّة لكم عليه ـ و هو أنا ـ ألم أعمل فيكم بالثّقل الأكبر، وأترُكْ فيكم الثّقل الأصغر، قد ركزتُ فيكُمْ راية الإيمانِ، ووقفتُكُم على حُدودِ الحلالِ والحرام، وألبستُكُمُ العافيةَ من عدلي، وفرشتكم المعروف من قولي وفعلي، وأريتُكُم كرائمَ الأخلاقِ من نفسي، فلا تستعملوا الرأيَ فيما لا يُدرِكُ قعرَهُ البصرُ، ولا تتغلغل إليهِ الفِكَرُ».[4]

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٥٤.
٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٠٠.
٣. نهج البلاغة: الخطبة ١٠٥.
٤. نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

إلى غير ذلك، الكلمات الناصعة في خطبه ورسائله وقصار كلمه مما نقله الرضي في «نهج البلاغة» وغيره في الكتب الحديثية والتاريخية، ولنقتصر على ذلك فانّ الإفاضة في القول في هذا المضمار يوجب الإطالة.

الشيعة و التفسير

تدويناً و تطويراً

عرض موجز لتاريخ التفسير

عند الشيعة

يتناول بيان تعريف القرآن بنفسه، و موقف النبيّ ﷺ و أهل بيته الطاهرين، في مجال تفسيره، و ما قام به أعلام الشيعة طيلة أربعة عشر قرناً، منذ وفاة النبيّ ﷺ إلى هذااليوم من خدمات كبرىٰ في شتّىٰ أصعده التفسير، تدويناً و تطويراً، و ذكر أسماء مشاهيرهم، و نقدالاتّهامات الموجّهة إلى تفاسيرالعترة و شيعتهم نقداً موضوعياً هادئاً.

الشيعة والتفسير
تدويناً وتطويراً

إنّ التعرّف على عظمة القرآن الكريم وقيمته المثلى، لا يتوقّف على الرجوع إلى كاتب شرقيّ وناطق غربيّ... إلى هذا العالِم أو ذاك الباحث، لغرض جمع الشواهد على عظمته، وسموّ منزلته، وإن كانت هذه الشواهد من مختلف الطبقات لها مكانتها الخاصّة. ومن حسن الحظّ أنّ هناك كمّية هائلة من الدلائل على علوّ شأنه، وسموّ مقامه، في اللفظ والمعنى، وفي الشكل والمحتوى، يعرفها كلّ من وقف على الدراسات القرآنية التي قام بها الباحثون، من شرقيّهم وغربيّهم، منذ نزول القرآن إلى عصرنا هذا.

غير أنّ هناك طريقاً متقناً للاطّلاع على شأن القرآن الكريم، وعلوّ مقاصده، وهو الرجوع إلى نفس ذلك الكتاب العزيز، واستنطاقه في هذا المجال، والجثوّ أمامه واستفساره، وما ذاك إلاّ لأنّ الكلّ معترفون بأنّه لا يبالغ في إخباره وتقييمه، وأنّ كلّ شيء منه، حتى كلمه وحروفه جاءت في الآيات ووفق حسابات دقيقة، بلا إفراط ولا تفريط. وعلى هذا الأساس نرجع إلى الذكر الحكيم، ونسأله عن أهدافه وأبعاده، وموقفه من الإنسان في الهداية والضلالة، والسعادة والشقاء، والسلم والحرب، إلى غير ذلك من الأبعاد الكثيرة التي يجدها الباحث المتعمّق في ذلك

الكتاب. ولكنّ هـذه الدراسة ليست دراسـة مختصرة، بل يمكن أن تقع مـوضوعاً لبحث خاصّ للدارسين له، حسب التفسير الموضوعيّ.

وبما أنّ الهدف ليـس هو التـوسّع في ذلـك، فلنقتصر على نصوص الآيـات المليئة بالنكات:

١. القرآن نور و ضياء للقلوب والعقول. قال سبحانه: ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبينٌ﴾.[١]

٢. القرآن كتـاب هداية للمتّقين وذوي القلـوب المستعدّة. قال سبحـانه: ﴿ذٰلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقينَ﴾.[٢]

٣. القرآن كتـاب نفيس مشحون بالمثـل والقيم. قال سبحـانه: ﴿إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَريمٌ﴾.[٣]

٤. القرآن كتاب الظفـر والانتصار بعيد عن وصمـة الهزيمة والخذلان. قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزيزٌ﴾.[٤]

٥. القرآن زاخر بالحكمة والموعظـة والبرهنة. قال سبحانه: ﴿يٰس * وَالْقُرآنِ الحَكيمِ﴾.[٥]

٦. القرآن فيه من العظمة والجلالة والمقدرة لو نزل على جبلٍ لتصدّع أمامه. قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هٰـذَا القُرآنَ عَلىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَـدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾.[٦]

٧. القرآن يهدي إلى الطريق المستقيم، الذي ليـس فيه عوج، ولا أمت. قال

---

١. المائدة: ١٥. ٢. البقرة: ٢. ٣. الواقعة: ٧٧.
٤. فصّلت: ٤١. ٥. يس: ١ـ٢. ٦. الحشر: ٢١.

سبحانه: ﴿إِنَّ هٰذا القُرآن يَهْدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَم﴾ .[١]

٨. القرآن سليم من التناقض، والاختلاف في التعبير والمضمون. قال سبحانه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اخْتِلافاً كَثيراً﴾.[٢]

٩. القرآن كتاب يدور مع الحقّ حيث دار، والحقّ يدور معه. قال سبحانه: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ أَنْزَلَ الكِتابَ بِالحَقّ﴾ .[٣]

١٠. القرآن كتاب مبارك، حافل بالمعارف والمواعظ التي توقظ العقول، وتذكر القلوب. قال سبحانه: ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ﴾ .[٤]

١١. القرآن كتاب أنزله سبحانه على رسوله، ليبلغه إلى الناس حتى يقوموا بالقسط. قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنا مَعَهُمُ الكِتابَ وَالمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالقِسْطِ﴾ .[٥]

١٢. إنّ القرآن يتضمن أمثالاً بديعة، تهدف إلى معان سامية في سبيل إيجاد نهضة فكرية بين البشر. قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا في هٰذَا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾.[٦]

١٣. القرآن كتاب التزكية للأرواح ، والتصفية للقلوب. قال سبحانه: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ .[٧]

١٤. القرآن جاء بأحسن الحديث وأتقنه، بحيث تتقبّله النفوس بسرعة، وتعيه العقول بدون عناء. قال سبحانه: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَديثِ كِتاباً

---

١. الإسراء:٩.
٢. النساء: ٨٢.
٣. البقرة: ١٧٦.
٤. ص:٢٩.
٥. الحديد: ٢٥.
٦. الكهف: ٥٤.
٧. الجمعة: ٢.

مُتَشابِهاً ... ﴾.[١]

١٥. القرآن يتلو علينا أحسن القصص وأجملها، ممّا فيه العبر الغالية. قال سبحانه: **﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴾**.[٢]

١٦. القرآن يبيّن كلّ دقيق وجليل، ممّا له صلة بسعادة الإنسان وشقائه. قال سبحانه: **﴿ونَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيءٍ ... ﴾**.[٣]

١٧. القرآن أفضل فرقان لتمييز الحقّ من الباطل، وخير محكّ لمعرفة السراب عن الماء. قال سبحانه: **﴿تباركَ الّذي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمينَ نَذيراً﴾**.[٤]

١٨. القرآن خير دليل على صدق النبيّ في نبوّته ورسالته، لفصاحة ألفاظه، وجمال عباراته، وبلاغة معانيه وسموّها، وروعة نظمه وتأليفه، وبداعة أُسلوبه. قال سبحانه: **﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ يُتلىٰ عَلَيْهِمْ﴾**.[٥]

١٩. القرآن ذكر وتذكير لما يعرفه الإنسان بفطرته السليمة. قال سبحانه: **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنا القُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾**.[٦]

٢٠. وفي الختام نقول: إنّ القرآن كتاب يربو عن الريب واعتراء الشكّ. قال سبحانه: **﴿تَنزيلُ الكِتابِ لاْ رَيْبَ فيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمين﴾**.[٧]

لقد أنزل الله سبحانه القرآن الكريم على قلب سيّد المرسلين، ليكون للعالمين نذيراً، يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات

---

١. الزمر: ٢٣. ٢. يوسف: ٣. ٣. النحل: ٨٩.
٤. الفرقان: ١. ٥. العنكبوت: ٥١. ٦. القمر: ٣٢.
٧. السجدة: ٢.

إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، ويكـون مهيمناً لما بين يدي النبيّ من الكتاب. قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْـكَ الكِتابَ بِالحَقِّ مُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَـدَيْهِ مِنَ الكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [١]، وقاضياً بين بني إسرائيل فيما يختلفون. قال سبحانه: ﴿إِنَّ هذا القُرآنَ يَقُصُّ عَلىٰ بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الّذي فيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .[٢]

ولأجل تلك المكانة العليا التي حظي بها، صار الحجّة القويمة للنبيّ الأكرم في عصره وحياتـه، والمعجزة الخالـدة بعد ممـاته، على مـرّ العصور والأحقـاب. وما ذلك إلّا لأنّ الدين الخالد، والرسالة الأبديّة يحتاج في قضاء العقل إلى حجّة قويّة، ومعجزة خـالدة، تشـقّ الطريـق، وتنير المسير ﴿حَتّـى لا يَكُونَ لِلنّـاسِ عَلـى الله حُجَّةٌ﴾، بل يكون لله الحجـة البالغة... نزل القرآن الكـريم نجوماً منـذ بعثة النبيّ إلى أُخريـات أيّامـه في بضع وعشريـن سنة، فقـرع الآذان حتى وصـل إلى الجنان، وملك مجامع قلوب الناس، وسيطر على أحاسيسهم ومشاعرهـم، فدخل الناس في طـاعة القـرآن زرافـاتٍ ووحدانـاً، فأقـام النبـيُّ الأكرم صرح الحقّ على أنقـاض الباطل، بفضل الكتاب الكريم وحجته الخالدة.

هذه لمحـة خاطفـة عن مكـانة القـرآن، وتأثيره في النفـوس، أخذنـاها مـن الكتاب العزيز نفسه، ولا نطيل الكلام فيها. كيف وقد أفاض المحقّقون الكلام في رسائلهم وكتبهـم فيه؟! وإنّما الهدف في المقام الإيعاز إلى ما قام بـه المسلمون من أروع الخدمات في سبيل كتابهم، على وجه لا تجد لـه مثيلاً لدى أصحاب الشرائع والديانات، حتى صارت تلك الخدمات حافزاً لتأسيس علوم خاصّة لفهم كتاب الله سبحانـه، فدوّنـوا علم النحو والصرف، وعلـوم البلاغـة والفصاحـة، والقراءة

---

١. المائدة: ٤٨.
٢. النمل: ٧٦.

والتجويد، وقسماً من التاريخ والمغازي والفقه، لفهم القرآن العزيز. وفي ظلّ تلك العلوم بقي القرآن مفهوماً للأجيال، وصارت اللغة العربية لغة خالدة على جبين الدهر.

ولقد شارك المسلمون عامّة لتسهيل فهم القرآن في تأليف كتب ورسائل خاصة، في مجالات مختلفة، اختلفت بذكرها المعاجم والفهارس، منذ رحلة النبيّ الأكرم إلى يومنا. فلا تجد ظرفاً من الظروف إلاّ فيه اهتمام كبير بفهم القرآن، وتفسير مفاهيمه السامية بصور مختلفة، كلّ ذلك بإخلاص ونيّة طاهرة، من غير فرق بين السنّة و الشيعة. فخدّام القرآن ومفسروه ــ شكر الله مساعيهم ــ أدّوا وظائفهم الكبرىٰ في سبيل رسالتهم الإسلاميّة، ولن تجد أُمّة خدمت كتابها الديني مثل الأُمّة الإسلامية طوال قرون، فقد خدموه بشتّى ألوان الخدمة، بحيث يعسر إحصاؤها وحصرها. ولو قمنا بجمع ما أُلّف حول القرآن في القرون الغابرة، لجاء مكتبة ضخمة، تأتي فهارسها في أجزاء كثيرة.

كما إنّك لا تجد كتاباً سماويّاً، أوجد رجّة وتحوّلاً في الحياة البشريّة مثلما أوجده القرآن الكريم في حياة الأُمم. فهو كوّن الأُمّة الإسلامية وأرسىٰ كيانها، وأعطى لها دستوراً كاملاً في مجال الحياة العامّة. وهذا من خصائص الأُمّة الإسلامية في القرآن الكريم.

فها نحن نأتي بأسماء أعلام التفسير ـ بعد الرسول و الأئمّة المعصومين ـ من الشيعة ، أفاض الله على الجميع شآبيب الرحمة والرضوان. ولكنّ ذلك بعد تبيين موقف الرسول الأعظم وأئمّة أهل البيت من الكتاب العزيز.

الرسول الأكرم ﷺ هو المفسّر الأوّل

إنّ مهمّة الرسول لم تكن منحصرة في تلاوة القرآن الكريم، و إقرائه للناس، بل كان عليه وراء ذلك، تبيين معالمه،وتوضيح مقاصده. يقول سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾.[1]

نرى أنّه سبحانه يقول﴿لتُبيّن﴾ مكان لتقرأ فمهمّة الرسول الخطيرة هي توضيح مفاهيم الذكر الحكيم، وسبر أغواره. ولأجل ذلك كان الرسول يفسّر الآيات واحدة بعد أُخرىٰ أو مجموعة بعد مجموعة.

قال أبو عبد الرحمن السلميّ: حدّثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفّان، وعبد الله بن مسعود،وغيرهما أنّهما كانوا إذا تعلّموا من النبيّ عشر آيات، لم يتجاوزوها حتّى يعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً. ولهذا كانوا يبقون مدّة في حفظ السورة.[2]

فإذا كان الرسول مأموراً من جانبه سبحانه ببيان القرآن و تفسيره، فأين هذه الأحاديث التي صدع بها الرسول ووعاها السلف الصالح؟

نرى أنّ جميع ما ورد عن النبي ﷺ من التفاسير المصرّح برفعها إليه ـ غير ما ورد من أسباب النزول ـ لا يتجاوز المائتين وعشرين حديثاً تقريباً. وقد أتعب جلال الدين السيوطيّ نفسه، فجمعها من مطاوي الكتب في آخر كتابه الإتقان، فرتّبها على ترتيب السور من الفاتحة إلى سورة الناس.[3] ومن المعلوم أنّ هذا المقدار

---

١. النحل: ٤٤.

٢. الإتقان: ٤/ ١٧٥ـ ١٧٦، ط مصر.

٣. المصدر نفسه: ١٧٠.

لا يفي بتفسير القرآن الكريم، ولا يمكن لنا التقوّل بأنّه ﷺ تقاعس عن مهمته، أو أنّه لم يكن مأموراً بأزيد من ذلك.

نعم؛ قام الرسول بمهمته الكبيرة مع ما له من الواجبات الوافرة تجاه رسالته، ووعتها عنه أُذُن واعية، وبلّغها إلى المستحفظين من أُمّة الرسول ﷺ، غير أنّ أهل السنّة ـ إذ لم يهتمّوا بالأخذ والنقل من تلكم الآذان الواعية ـ قصرت أيديهم عن أحاديث الرسول الأعظم في مجال التفسير. فلو أنّهم رجعوا إلى باب علم النبيّ عليه الصلاة والسلام وأهل بيته المطهّرين من الرجس بنصّ الذكر الحكيم[١] لوقفوا على كميّة هائلة من أحاديث الرسول حول القرآن وتفسيره عن طرقهم، منتهية إلى صاحب الرسالة، وإنّ هذا والله لخسارة كبيرة، وحرمان أصاب أهل السنّة والجماعة، حيث أخذوا الحديث من نظراء كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وتميم الداريّ، وأمثالهم ومُسْلِمة أهل الكتاب، أو أخذوا من أُناس كانوا يأخذون قصص الأنبياء، وبدء الخليقة من أهل الكتاب[٢]، ولم يدقّوا باب أهل بيته حتى يسألوهم عمّا ورثوه عن رسول الله، و قد قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الّذينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ...﴾[٣].[٤]

ولأجل ذلك قامت الشيعة بتدوين آثار الرسول عن طريق أهل بيته، فألّفوا في هذا المضمار كتباً جليلة، تفسّر القرآن الكريم بالأثر المرويّ عنه و عن أهل بيته، كما ستوافيك أسماؤها وأسماء مصنّفيها، عند البحث عن مفسّري الشيعة في القرون

١. الأحزاب:٣٣.

٢. المقدمة(ابن خلدون): ٤٣٩؛ ولاحظ «بحوث في الملل و النحل»:١/ ٧٦ـ١٠٨.

٣. فاطر:٣٢.

٤. فلازم على الباحث أن يبحث عن المصطفين من عباده سبحانه الذين أورثهم فهم الكتاب.

الأُولى. ولنذكر نماذج ممّا أُثر عن النبيّ الأكرم ﷺ في مجال التفسير تيمّناً و تبرّكاً:

١. لمّا نزل قوله سبحانه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾.[١] قال عديّ بن حاتم: إنّي وضعت خيطين من شعر أبيض وأسود، فكنت أنظر فيهما، فلا يتبين لي. فضحك رسول الله حتّى رؤيت نواجذه ثمّ قال: «ذلك بياض النهار، وسواد الليل».[٢]

٢. روى علي عليه السلام في تفسير قوله سبحانه: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.[٣] قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله عزّ وجلّ قال: ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلاّ الجنّة».[٤] فالإيمان بتوحيد ذاته وصفاته وأفعاله عمل العبد، قدّمه إلى بارئه، فيجزيه بالجنّة. وفي الوقت نفسه كلاهما من جانبه سبحانه، فهو الذي يوفق عبده للإيمان.

٣. ولمّا نزل قول الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [٥]. فقال أصحابه: وأيّنا لم يظلم نفسه؟ ففسّر النبيّ الظلم بالشرك، لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[٦]. [٧] وهذا من قبيل تفسير القرآن بالقرآن. كيف والله سبحانه يصفه بأنّه تبيان لكلّ شيء ويقول: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [٨] فهل يمكن أن يكون تبياناً لكلّ شيء ولا يكون تبياناً لنفسه؟

---

١. البقرة: ١٨٧.
٢. مجمع البيان: ١/ ٢٨١، ط صيدا.
٣. الرحمن: ٦٠.
٤. تفسير البرهان: ٤/ ٢٧٢.
٥. الأنعام: ٨٢.
٦. لقمان: ١٣
٧. الإتقان: ٤/ ٢١٤ـ ٢١٥.
٨. النحل: ٨٩.

الوصيّ هو المفسر الثاني

من سبر كتب التفسير والحديث يجد أنّ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام هو المفسر الأكبر بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعنه أخذ كثير من الصحابة. قال السيوطيّ: أمّا الخلفاء فأكثر ما روي عنه منهم عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والرواية من الثلاثة نزرة جداً، فأمّا عليّ عليه السلام فروي عنه الكثير. وقد روى معمّر عن وهب بن عبد الله، عن أبي الطفيل قال: شهدت عليّاً يخطب، فيقول: «فوالله لا تسألوني عن شيء إلّا أخبرتكم،وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلّا وأنا أعلم أبليلٍ نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل».

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود، قال: إنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلّا وله ظهر وبطن، وإنّ عليّ بن أبي طالب عنده منه الظاهر والباطن.

وأخرج أيضاً من طريق أبي بكر بن عيّاش، عن نصير بن سليمان الأحمسيّ، عن أبيه، عن عليّ، قال: «والله ما نزلت آية إلّا وقد علمت فيم أُنزلت؟ وأين أُنزلت؟ أنّ ربّي وهب لي قلباً عقولاً،ولساناً سؤولاً».[1]

يقول الذهبي في مكانة «عليّ» في التفسير: جمع علي رضي الله عنه إلى مهارته في القضاء والفتوى، علمه بكتاب الله وفهمه لأسراره وخفيّ معانيه، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل، ومعرفة التأويل، فقد روي عن ابن عبّاس أنّه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب عليه السلام.[2]

---

١. الإتقان:٤/ ٢٠٤.

٢. التفسير والمفسّرون:١/ ٨٩ـ ٩٠.

عثرة لا تقال

إنّ الدكتور محمد حسين الذهبيّ جعل علي بن أبي طالب ـ بحسب كثرة من روى عنه ـ في الدرجة الثالثة، وجعل عبد الله بن عبّاس في الدرجة الأُولى، ثمّ ابن مسعود في الدرجة الثانية[١] والرجل بخس حقّ عليّ بخساً بيّناً، فلو سلّمنا أنّ ما روي عن ابن عبّاس أكثر ممّا روي عن أمير المؤمنين، فهل يمكن لنا أن ننكر اعتراف حبر الأُمّة بأنّه تخرّج على يد عليّ بن أبي طالب وأنّ ما أخذ من تفسير القرآن فإنّما أخذه عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ! كيف لا، وقد لازم عليّاً قرابة ثلاثين سنة كما هو واضح لمن درس حياته؟! قال ابن أبي الحديد: ومن العلم علم تفسير القرآن، وعنه أُخذ، ومنه فرّع. وإذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحّة ذلك، لأنّ أكثره عنه وعن عبد الله بن عبّاس. وقد علم الناس حال ابن عبّاس في ملازمته له، وانقطاعه إليه، وأنّه تلميذه وخرّيجه. وقيل له: أين علمك من علم ابن عمّك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط.[٢]

ومن أراد أن يقف على نموذج من علم الإمام بالتفسير وأقسامه المختلفة، فعليه الرجوع إلى الخطبة المرويّة عنه حول القرآن وأقسام تفسيره،وقد رواها القمّي في أوّل كتابه ، وأدرجها البحرانيّ في تفسيره، عند البحث عن مقدّمات التفسير، وإليك مستهلّ الخطبة:[٣]

«ولقد علم المستحفظون من أُمّة محمّد أنّه قال: إنّي وأهل بيتي مطهّرون، فلا

---

١. المصدر نفسه.

٢. شرح نهج البلاغة:١/ ١٩.

٣. تفسير عليّ بن إبراهيم :١/ ٥ـ١٠، والإمعان فيه يعرب عن دخول ما ليس من كلامه فيه؛ ولاحظ تفسير البرهان:١/ ٣٢.

تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتخلّفوا عنهم فتزلّوا، ولا تخالفوهم فتجهلوا، ولا تعلّموهم فإنّهم أعلم منكم. هم أعلم الناس كباراً، وأحلم الناس صغاراً، فاتّبعوا الحقّ وأهله حيث كان ـ إلى أن قال ـ فالقرآن منه ناسخ و منسوخ، ومنه محكم ومتشابه، ومنه خاصّ وعامٌّ...» إلى آخر ما ذكر من أقسام، وأعطى لكلّ قسم مثالاً من القرآن. والخطبة جديرة بالمطالعة، وهي من خطبه الجليلة، وربما نسبها الغافل إلى غيره وقد طبعت مع مقدمة قصيرة منسوبة إلى السيّد المرتضى ﵀ باسم «المحكم والمتشابه»، لكنّه من خطأ الناسخ والطابع.

هذا وإنّ للذهبيّ عثرات كثيرة، وزلّات وافرة، خصوصاً فيما يرجع إلى قضائه في حقّ الشيعة وكتبهم التفسيريّة، فقد قصّر في أداء الواجب، وبخس حقّهم، ولنا مع الرجل موقف آخر نؤدّي فيه حقّ المقال إن شاء الله تعالى.

ذكر الذهبيّ مشاهير المفسّرين من الصحابة، وعدّ منهم ـ مضافاً إلى من عرفت أسماءهم ـ أُبيّ بن كعب كما ذكر من مشاهير التابعين: سعيد بن جبير، مجاهد بن جبر، عكرمة البربريّ، عطاء بن رباح ،أبا العالية رفيع بن مهران، محمّد بن كعب القرظيّ، علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، الأسود بن يزيد، مرّة الهمدانيّ، عامر الشعبيّ، الحسن البصريّ، و قتادة الدوسيّ.

ولكنّه تنكّب عن مهيع الطريق، فلم يعدّ الحسن والحسين ممّن روي عنهما التفسير من الصحابة، كما لم يعد الإمام زين العابدين، ومحمّداً الباقر وجعفراً الصادق في التابعين الذين روي عنهم التفسير. وهب أنّه لم يستقص رواة التفسير من الصحابة حتّى يكون له عذر في ترك ذكر الإمامين الهُمامين السبطين الشريفين، ولكنّه لماذا لم يذكر أئمّة المسلمين وسادة العارفين والصادقين ﵈ الذين روي

عنهم العلوم في مجالات شتّى، وفي التفسير خاصّة، حتى نقل الناس عن أحدهم،وهو الإمام جعفر الصادق عليه السلام من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر ذكره في البلدان.

هذا هو الرازيّ يقول في تفسيره سورة الكوثر: «ثمّ انظر كم كان فيهم (أولاد الرسول) من الأكابر من العلماء كالباقر و الصادق، والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكيّة و أمثالهم».[1]

هذا هو الحسن البصريّ الذي أثنى عليه الذهبيّ ثناءً جزيلاً يكتب إلى السبط الأكبر ـ الذي أهمل ذكره ـ قائلاً: «فإنّكم معشر بني هاشم، الفلك الجاريّة في اللجج الغامرة، والأعلام النيّرة الشاهرة، أو كسفينةنوح التي نـزلها المؤمنون، ونجا فيها المسلمون».[2]

أو ليس عدم الإشادة بذكره وذكر أخيه بخساً لحقّهم؟! وإن كان الأئمّة الطاهرون الذين أسميناهم، والذين من بعدهم أعرف من أن يُعرفوا، وهم روّاد العلم وقادته، إليهم تنسب كلّ فضيلة غالية، سواء أتى على ذكرهم الذهبيّ أم لم يأتِ.

من تلقَ منهم تلقَ كهلاً أو فتىً   علم الهدى، بحر الندىٰ الموردا

ولأجل ذلك نذكر في مقدم المقال أئمّة الشيعة، وهم أئمّة المسلمين جميعاً، وننقل عن كلّ واحد نـزراً يسيراً في مجال التفسير، ومن أراد الاستيعاب في المقام، فعليه الرجوع إلى كتب التفسير، بالأثر، ليجد فيها بُغيته كما يقف بالرجوع إليها على

١. مفاتيح الغيب:٨/ ٤٩٨، الطبعة المصرية في ثمانية أجزاء.
٢. تحف العقول: ١٦٦، طبع بيروت.

مدىٰ تقصير القوم ـ الذهبيّ وأساتذته ـ في غابر القرون[١] عن الرجوع إليهم، والإشادة بذكرهم والاستضاءة بأنوارهم.

على أنّنا نختار من المأثورات الكثيرة عنهم في مجال التفسير ما يدور على أحد المحاور الثلاثة: إمّا أن يكون تفسيراً للآية بأُختها، أو تفسيراً لغويّاً وبيانيّاً، أو استدلالاً بالآية على مبدأ اعتقاديّ، وإن كانت ألوان التفسير في رواياتهم متشعّبة.

نماذج ممّا روي عن أمير المؤمنين عليه السلام في مجال التفسير

كان عليه السلام يستخرج محاسن المعاني عن الآيات ممّا يبهر العيون ويحيّر العقول قال صلوات الله عليه بعد رحلة الرسول:

١. «كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسّكوا به، أمّا الأمان الذي رفع فهو رسول الله، وأمّا الأمان الباقي فهو الاستغفار، قال الله تعالى: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبهُمْ وأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهَ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ».[٢]

٢. ومن محاسن الاستخراج ولطائف الاستنباط قضاؤه في أقلّ الحملِ، وفهمه من كتاب الله سبحانه ما يلي:

«أخرج الحافظان أبو حاتم والبيهقيّ عن أبي حرب بن أبي الأسودالدؤلي: أنّ عمر بن الخطاب رفعت إليه امرأة ولدت لستّة أشهر فهمّ برجمها. فبلغ ذلك

---

١. كالحافظ شمس الدين الداوديّ في طبقات المفسّرين، وعادل نويهض في معجم المفسّرين، وأخيراً الذهبيّ في التفسير والمفسّرون.

٢. نهج البلاغة: قسم الحكم، الحكمة رقم ٨٨.

علياً، فقال: «ليس عليها رجم» فبلغ ذلك عمر فأرسل إليه، فسأله، فقال: قال الله تعالى: ﴿وَالوالداتُ يُرْضِعْنَ أَولادَهُنَّ حَولَيْنِ كامِلَيْن﴾ وقال: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً﴾ فستة أشهر حمله، وفصاله في حولين، وذلك ثلاثون شهراً فخلّى عنها، فقال عمر: اللّهمّ لا تبقني لمعضلة ليس لها ابن أبي طالب.[1]

٣. سأل يهوديّ علياً عليه السلام عن مدّة لبث أصحاب الكهف، فقال: ﴿وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثَلاثمائة سِنينَ وَازْدادُوا تِسعاً﴾ . فقال اليهودي: إنّا نجد في كتابنا: ثلاثمائة، فقال عليه السلام: «ذاك بسنيّ الشمس، وهذا بسنيّ القمر».[2] وبذلك بيّن الإمام وجه عدول الآية عن التعبير الرائج في أمثال المقام إلى ما ورد فيها، فإنّ التعبير الرائج فيها هو فلبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين، ولكنّه عبّر عنه بقوله: ﴿وازدادُوا تِسْعاً﴾ ، وما هذا إلاّللإشارة إلى أنّ التعبيرين كليهما صحيحان، واحد منهما بالسنوات الشمسيّة، والآخر بالقمريّة.

وكم لعليّ عليه السلام من هذه المواقف في استخراج حكم الوقائع من كتاب الله وسنّة نبيّه، وكم له من حلّ للمعضلات من الأُمور عن طريق تفسير الكتاب، وبما أنّها مبثوثة في الكتب، مشهورة بين المحدّثين والمفسّرين اكتفينا بهذه النماذج.

الحسن بن عليّ عليه السلام والتفسير

الحسن بن علي هو السبط الأكبر، وريحانة رسول الله، ووارث علم أبيه، وحامل راية الإمامة بعده، بتنصيص من الرسول والوالد، وقد أُثر عنه في مجال

---

١. السنن الكبرى:٧/ ٤٤٢؛ ولاحظ تفسير الرازي :٧/ ٤٤، الطبعة المصريّة القديمة.

٢. بحارالأنوار: ٥٨/ ٣٥٢.

التفسير ما تعلو عليه القـوّة والجدارة، رغم ما منيت به آثاره مـن إعراض وإنكار.

وإليك نماذج من آرائه في القرآن وتفسيره:

«إنّ هـذا القـرآن فيـه مصـابيـح النـور، وشفـاء الصـدور، فليجـلُ جـالٍ بضوئه،وليلجـم الصفة قلبـه، فـإنّ التفكير حياة القلـب البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور».[١]

«ما بقي من الدنيا بقيّة غير هذا القرآن، فاتخذوه إماماً يدلّكم على هُداكم، وإنّ أحقّ الناس من عمـل به، وإن لم يحفظه، وأبعدهم من لم يعمـل به، وإن كان يقرأه».[٢]

«إنّ هذا القرآن يجيء يوم القيـامة قائداً وسائقاً: يقود قـوماً إلى الجنّة، أحلّوا حلاله، وحـرّموا حرامه، وآمنوا بمتشـابهه؛ ويسوق قوماً إلى النـار، ضيّعوا حدوده وأحكامه، واستحلّوا محارمه».[٣]

«من قال في القرآن برأيه، فأصاب، فقد أخطأ».[٤]

وإليك نماذج ممّا روي عنه في مجال التفسير:

١. سئل عليه السلام عن معنى الشاهـد والمشهود، في قـوله سبحـانه: ﴿وشاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [٥]. فقـال: أمّا الشـاهد فمحمّـد صلى الله عليه وآله، وأمّا المشهـود فيوم القيامـة، أما سمعته يقول: ﴿إنّا أرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ...﴾[٦] . وقال تعالى: ﴿ذٰلِكَ يَومٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النّاسُ وَذٰلِكَ يَومٌ مَشْهُود﴾[٧].[٨] وهذا كما ترى تفسير للقرآن بالقرآن، وكم له من نظائر في أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

---

١. كشف الغمة: ٢/ ١٩٥.
٢. إرشاد القلوب :٨١.
٣ و ٤. نفس المصدر. ٥. البروج:٣.
٦. الأحزاب:٤٥.
٧. هود: ١٠٣.
٨. بحار الأنوار:١/ ١٣.

٢. وسئل عن تفسير قوله تعالى: ﴿...آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قال: هي العلم والعبادة في الدنيا، والجنّة في الآخرة».[1] فقد نبّه الإمام في كلامه هذا إلى ما يغفل عنه أكثر العامة، إذ أيّة حسنة أعلى من العلم والمعرفة، وعبادته سبحانه في الدنيا؟ وثمرة المعرفة هي الطاعة والعبادة.

٣. كان الحسن بن عليّ إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، وقال: «إنّ الله جميل، ويحبّ الجمال، فأتجمّل لربّي، وقرأ: ﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾»[2]. [3] فالصلاة وفود العبد إلى الله سبحانه، فيليق بالوافد أن يحضر بأجمل الحالات، وأحسن الأوضاع، لأنّ الموفود إليه مالك الملك والملكوت.

الإمام السبط الشهيد عليه السلام والتفسير

الإمام السبط الشهيد ريحانة رسول الله، وسبطه الأصغر، وهو من أهل بيت النبوّة بنصّ من النبيّ الأكرم، وقد استشهد عام ٦١ هـ في أرض الطفّ بيد الجور والعدوان. وقد عاصر الإمام خلافة معاوية عشر سنين، وكانت سياسة ذلك الداهية هي سياسة القمع والإرهاب فلم ينتشر من الإمام إلّا بعض خطبه ورسائله، وكلماته الحكيمة. ومع ذلك ففي هذا النزر اليسير الذي أفلت من يد الأيّام، الحجة البالغة والبرهان اللائح على أنّه وارث علم النبيّ وعلم أبيه، كيف وهو من الثقلين اللّذين أمر النبيّ بالتمسّك بهما؟ وإليك نماذج ممّا أُثر عنه في مجال التفسير:

١. كتب أهل البصرة إليه يسألونه عن «الصمد» فكتب إليهم: «بسم الله

---

١. الاثنا عشرية (الحسيني): ٥٣.
٢. الأعراف: ٣١.
٣. تفسير الصافي: ٢/ ١٨٩، ط بيروت.

الرّحمن الـرّحيم، أمّـا بعد؛ فلا تخوضـوا في القرآن، ولا تجادلـوا فيه بغير علـم، فقد سمعت جدّي رسول الله ﷺ يقول: من قال في القرآن بغير علم، فليتبوّأ مقعده من النار، وإنّ الله سبحانه قد فسّر الصمد، فقال: ﴿الله أَحَدٌ* اللهُ الصَّمَدُ﴾ ثمّ فسره فقال: ﴿لمْ يَلِدْوَلَمْ يُولَد* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ . لم يلد: لم يخرج منه شيء كثيف كـالـولـد، وسـائر الأشياء الكثيفـة التـي تخرج مـن المخلـوقين، ولا شيء لطيـف كـالنفس، ولا يتشعّـب منـه البدوات كـالسنـة، والنوم، والخطـرة، والهمّ، والحزن، والبهجـة، والضحك، والبكـاء، والخوف، والـرجاء، والـرغبـة، والسأمـة، والجوع، والشبع، تعالى أن يخرج منـه شيء، وأن يتولّد منه شيء كثيف أو لطيـف... بل هو الله الصمد الذي لا من شيء، ولا في شيء، ولا على شيء. مبدع الأشياء وخالقها، ومنشئ الأشياء بقـدرته، يتلاشىٰ ما خلـق للفناء بمشيئته، ويبقىٰ مـا خلق للبقاء بعلمه، فـذلكم الله الصمـد الذي لم يلـد ولم يولـد، عالم الغيـب والشهادة الكبير المتعال».[1]

٢. سأله رجل عن معنى قوله سبحانه: ﴿يَومَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإمامِهِمْ﴾ [2] فقال ﷺ: «إمام دعا إلى الله فأجابوه إليه، وإمام دعـا إلى الضلالة فأجابوه إليها. هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار. وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿فَريقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَريقٌ في السَّعير﴾ [3]».[4]

٣. سأله نضر بن مالك، وقال: يا أبا عبد الله حدّثني عن قول الله عزّوجلّ: ﴿هٰذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا في رَبِّهِمْ﴾ [5] فقال ﷺ: «نحن و بنو أُميـة اختصمنا

---

١. توحيد الصدوق:٥٦.
٢. الإسراء:٧١.
٣. الشورى: ٧.
٤. بلاغة الحسين :٨٧.
٥. الحج:١٩.

في الله عزّوجلّ، قلنا: صدق الله، وقالـوا: كذب الله. فنحن وإيّاهـم الخصمان يوم القيامة».[١] والإمام فسر الآيـة بالتنبيـه على المصداق الـواضح. وعلى هـذا جروا في تفسيرهم للآيات القرآنية، فهم يفسّرونها بمصاديق واضحة، وجزئيّات خاصّة، ولا يريدون انحصار مفهومها فيه.

٤. سئل عن معنى قول الله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[٢]، فقال عليه السلام: «أمر النبيّ أن يحدّث بما أنعم الله به عليه في دينه».[٣] وقد لفت الإمام في هذا التفسير نظر السائل إلى أظهر مصـاديق النعمة وأكملها، بما ربما يغفل عنـه الإنسان، ويتصوّر أنّ النعم التـي يجب التحدّث بها هـي النعم الدنيـويّة، مـع أنّها ضئيلة في مقـابل النعـم الأُخرويّـة، فقـد قلنا: إنّ هـذا النمط مـن التفسير في كـلامهم كثير، وهـذا التفسير هو ما يسمّيه العلاّمة الطباطبائي بالجري والتطبيق. ولا يراد انحصار الآية في المصداق الخاصّ، وربما يتصوّر الجاهل بأنّ هذا النوع من التفسير تفسير بالرأي أو تفسير بالباطن، غافلاً عن أنّه تفسير بالمصداق والتطبيق، لأنّ إعطاء الضابطة بالمثال أوقع في النفوس، وأقرب إلى ترسيخهـا فيها، خصوصاً إذا كان المصداق ممّا يغفل عنه المخاطب.

هذه نماذج مـا روي عن الإمام السبـط الشهيد، حسين الإبـاء والعظمة أبي الشهداء، سلام الله عليه سلاماً لا نهاية له.

زين العابدين عليه السلام والتفسير

الإمام زين العـابدين، إمام العارفين، وقـائد الزاهدين، وسيّد السـاجدين،

---

١. بلاغة الحسين:٨٧. ٢. الضحى:١١.

٣. تفسير الصافي:٣/ ٣٦٨؛ و نور الثقلين :٣/ ٤٧٦، نقلاً عن الخصال.

رابع أئمّة العصمة والطهارة، ولد بالمدينة المنورة سنة ستّ وثلاثين من الهجرة يوم فتح البصرة ونزول النصرة على أبي الأئمّة، وتوفّي فيها سنة خمس و تسعين مسموماً، ودفن بالبقيع، وعاش مع جدّه عليّ أربع سنين، ومع عمّه الحسن عشر سنين، ومع أبيه كذلك، إلى أن استلم الوصاية والولاية من أبيه.

ومن آثاره الباقية أدعيته المعروفة بالصحيفة السجاديّة، وقد بلغت في جزالة اللفظ، وبلاغة التعبير، وجودة السبك، ورقة المعاني، ولطافة المفاهيم مبلغاً، لا يدرك شأوه. كما روي عنه عليه السلام أحاديث وافرة في مجال التفسير، ونأتي بنماذج قليلة منها ليكون مثالاً لما لم ننقله عنه:

١. كان التقشّف سائداً على زهاد عصره، فيتخيّلون أنّ الزهد في ترك ملاذّ الحياة وملابسها، ولبس الثوب الخشن، وأكل الطعام الجشب، مع أنه من مظاهر الزهد لا من مقوماته وحقيقة الزهد يرجع إلى أن لا يملك الإنسان شيء، فجاء رجل، فسأله عن الزهد، فقال: إنّ الزهد كلّه في آية من كتاب الله: ﴿لِكَيْلا تَأْسوا عَلى ما فاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾[1].[2]

فكان يشتري كساء الخزّ بخمسين ديناراً، ويقول: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.[3] [4]

وعلى هذا مشى الأئمّة فكان الحسن السبط ـ كما عرفت ـ إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقتل الحسين وعليه جبّة خزّ، وكان للإمام الصادق عليه السلام جبّة خزّ وطيلسان خزّ، فإذا سئل عن لبسه قرأ قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ

---

١. الحديد:٢٣.
٢. مجمع البيان:٥/ ٢٤٠.
٣. الأعراف: ٣٢.
٤. المصدر نفسه:٤/ ٤١٣؛ ورواه الآلوسيّ في روح المعاني:٨/ ١١١.

الله التي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.[١]

فالجاهل ينظر إلى الصور والظواهر، ويغترّبها، ويتخيّل أنّ كلّ متقشّف خشن الثوب والطعام زاهد، وإن ملأ قلبه حبُّ الدنيا والرئاسة. والمؤمن ينظر إلى النيّات والبواطن، فمن كان قلبه فارغاً عن كلّ شيء إلاّ حبّه سبحانه، فهو زاهد بتمام معنى الكلمة، ولكن من علّق قلبه بثوب خلق، وعصاً بالية، فهو راغب غير زاهد.

٢. سئل علي بن الحسين عن قوله سبحانه: ﴿وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرْتيلاً﴾ فقال: «معناه بيّنه تبياناً، ولا تنثره نثر البقل، ولا تهذّه هذّ الشعر[٢]، فقفوا عند عجائبه، لتحرّكوا به القلوب، ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة».[٣]

٣. قال سعيد بن جبير: سألت عليّ بن الحسين عليهما السلام عن قول الله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ المَوَدَّةَ فِي القُربى﴾، قال: «هي قرابتنا أهل البيت».[٤] إنّ الآيات القرآنيّة تشهد على أنّ شعار الأنبياء في طريق دعوتهم كان دائماً هو رفض الأجر، وعدم طلبه من الأُمّة، وكلّهم يهتفون بهذا ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاّ عَلىٰ رَبِّ العالَمين﴾.[٥]

وعند ذلك كيف يصحّ للنبيّ أن يبدّل هذا الشعار، ويجعل مودّة أقربائه أجراً على رسالته؟! والجواب عن هذا السؤال واضح. فإنّ المراد هي الأُجور

---

١. المصدر نفسه: ٤/ ٤١٢.

٢. الهذّ: القطع بسرعة.

٣. نوادر الراوندي: ص٣٠، طبع مع غيبة الشيخ المفيد.

٤. أحكام القرآن: ٣/ ٤٧٥.

٥. الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

الـدنيويـة التي كـان بإمكـان البشر تقديمهـا إلى الرسـل. وأمّا مـودّة أهل بيتهـم وولائهم فليس أجراً دنيويّاً، بل الاتّصال بهم من خلال هذه المودّة ذريعة لتكامل الأمّة في المراحل الفكريّة والعمليّة، فعندئذٍ تنتفع بها الأمّة الإسلاميّة قبل أن تنتفع بها العترة، وفي هذه الصورة لا تكون المودّة في القربـى أجراً، وإن أُخرجت في الآية بصورة الأجـر. ومن المعلوم أنّ الأُمّـة الإسلاميّة إنّما تنتفـع ببعض أقربـاء النبيّ لا كلّهم، وهم أهل بيته الذين طهّرهم الله عن الرجس.

٤. روى ابن كثير في تفسيره ذكر مـا جرى بين الإمام والرجل الشـاميّ، يوم جيء به أسيراً إلى الشام، وقـال له عن جهل بالإمام: الحمـد لله الذي قتلكم، فقرأ عليّ بن الحسين عليه آيات من القرآن و منها هذه الآية، و قال: «نحن قرابته».[1]

الإمام محمّد الباقر عليه السلام والتفسير

الإمام محمّد البـاقر عليه السلام مـن أعلام أئمّـة أهل البيـت عليهم السلام، وأفـذاذ العترة الطاهرة، قام بالإمامة والقيادة الروحيّة بعـد أبيه زين العابدين، ولد عام (٥٧هـ) ولبّىٰ دعوة ربّـه عام (١١٤هـ)، وقد وقـف حياته كلّها لنشر العلـم والحديث بين الناس، ولم يعرف التاريخ له مثيلاً إلّا ولـده البارّ جعفر الصادق، وقد غذّى رجال الفكر، وروّاد العلـم بعلمه، وأرسـىٰ مدرسة كبيرة علميّـة، زخرت بكبـار الفقهاء والمحدّثين والمفسّرين، يقف عليها من درس رجال الحديث في الشيعة، كما صرف قسماً كبيراً من عمره في تفسير القرآن، وقد تخرّج عليه لفيف من المفسّرين.

فهذا أبو الجارود زياد بن المنذر فسّر القرآن من أوّله إلى آخره.

---

١. تفسير ابن كثير: ٤/ ١١٢.

يقول النجاشي: له كتاب تفسير القرآن، رواه عن أبي جعفر عليه السلام.[١]

وقال ابن النديم في «الفهرست»، عند عرضه للكتب المؤلّفة في تفسير القرآن: «كتاب الباقر محمد بن علي بن الحسين رواه عنه أبوالجارود، زياد بن المنذر»[٢] قد روي قسم منه في تفسير عليّ بن إبراهيم القمّي، وسنوافيك بأسماء لفيف من تلامذته، وخرّيجي مدرسته، ممّن ألّفوا في مجال التفسير كتاباً، فانتظر.

نماذج من تفسير الإمام الباقر عليه السلام

١. سئل الإمام عن معنى قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوىٰ﴾[٣]، وما هو المراد من غضب الله؟ فأجاب الإمام: «طرده وعقابه».[٤] وبذلك أعرب الإمام عن أنّ الصفات الخبريّة، كالغضب و الرضا، واليد والعين، وغير ذلك إنّما تجري على الله سبحانه، مجرّدة عن لوازم المادّة والجسمانيّات، فلا مناصَ من تفسيره بمظاهر الغضب، وهو الطرد والعقاب.

٢. سأل بريد العجليّ الإمام الباقر عليه السلام عن الملك العظيم في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهيمَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[٥] فقال: «الملك العظيم أن جعل فيهم أئمّة من أطاعهم أطاع الله، ومن عصاهم فقد عصى الله، فهو الملك العظيم».[٦] فقد نوّه الإمام بتفسيره هذا أنّ الملك العظيم في لسان الشرع ليس هو السلطة الجبّارة التي تركب رقاب الناس، من دون أن تكون لها أيّة مشروعيّة، وإنّما الملك العظيم من استند في سلطته إلى الله سبحانه تكون طاعته

---

١. رجال النجاشي: ١/ ٣٨٨ برقم ٤٤٦.
٢. فهرست ابن النديم: ٥٦.
٣. طه: ٨٢.
٤. الفصول المهمّة: ٢٢٧.
٥. النساء: ٥٤.
٦. البحار: ٢٣/ ٢٨٧ ح ١٠.

طاعته، وعصيانه عصيانه.

٣. روى جابر الجعفي أنّه سأل الإمام عليه السلام عن قوله سبحانه: ﴿لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرهانَ رَبِّهِ﴾.[1] فقال الإمام: «ما يقول فقهاء العراق في هذه الآية؟» قال جابر: رأى يعقوب عاضاً على إبهامه، فقال عليه السلام: «حدّثني أبي عن جدّي علي بن أبي طالب عليه السلام: أنّ البرهان الذي رآه أنّها حين همّت به وهمّ بها، فقامت إلى صنم، فسترته بثوب أبيض خشية أن يراها، أو استحياءً منه. فقال لها يوسف: تستحين من صنم لا ينفع ولا يضر ولا يبصر؟ أفلا أستحي أنا من إلهي الذي هو قائم على كلّ نفس بما كسبت؟ ثمّ قال: والله لا تنالين منّي أبداً! فهو البرهان».[2]

٤. جلس قتادة المفسّر المعروف بين يدي الإمام الباقر عليه السلام وقال له: لقد جلست بين يدي الفقهاء، وقدّام ابن عبّاس فما اضطرب قلبي قدّام واحد منهم ما اضطرب قدّامك. قال له أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ويحك أتدري أين أنت؟ أنت بين يدي ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بالغُدُوِّ وَالآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ﴾[3]، فأنت ثمّ ونحن أُولئك»، فقال له قتادة: صدقت والله ـ جعلني الله فداك ـ ما هي بيوت حجارة ولا طين.[4]

٥. روى جابر بن يزيد الجعفيّ عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه سئل عن قوله سبحانه: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الأَنْعامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾[5]، فقال: «المقصود دين الله».[6] إنّ تفسير «خلق الله» بـ«دين الله» ليس

---

١. يوسف: ٢٤.
٢. البداية والنهاية: ٩/ ٣١٠.
٣. النور: ٣٦ـ ٣٧.
٤. الكافي: ٦/ ٢٥٦.
٥. النساء: ١١٩.
٦. تفسير العياشي: ١/ ٢٧٦.

بـأمر غـريب، كيـف لا؟ وقد أسمـى سبحـانه ديـن الله فطرة الله، وقـال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ الّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدّينُ القَيِّمُ﴾.[1]

٦. إنّ مذهـب الإمام في صـلاة المسافـر هو لـزوم التقصير، لا التخيير بينه وبين الإتمام، كما عليه أئمّة المذاهـب الأُخرى. فسأله بطـلان من تلامذتـه ـ زرارة ومحمد بـن مسلم ـ عن معنى قـوله سبحـانه: ﴿وَإِذا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصـروا مِنَ الصَّلاةِ﴾[2]، وقـالا: كيف صـار التقصير في السفـر واجباً والله سبحانه يقول: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ﴾. ولم يقل: افعَلُوا؟ (فالإمام فسر الآية بأُختها)، فقال: أو ليس قال الله : ﴿إِنَّ الصَّفا وَالمَروة من شعائِر الله فَمَنْ حَجَّ البَيتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما﴾[3] ألا ترون أنّ الطواف بهما واجب مفروض، وأنّ الله عزّ وجلّ ذكره في كتابـه، وصنعه نبيّه، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعه النبيّ وذكره الله تعالى في كتابه.[4]

٧. اختلفت كلمة الفقهاء في وجوب استيعاب الرأس عند المسح أو كفاية البعض، فقد سأل زرارة الإمام الباقر عليه السلام عن ذلك، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ألا تخبرني مـن أين علمـت، وقلت، إنّ المسـح ببعض الـرأس وبعض الـرجلين؟ فضحك، فقـال: يا زرارة قالـه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونزل بـه الكتاب من الله عـزّوجلّ، لأنّ الله عزّوجـلّ قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ فعـرفنا أنّ الـوجـه كلّه ينبغـي أن

---

١. الروم: ٣٠.

٢. النساء: ١٠١.

٣. البقرة: ١٥٨.

٤. تفسير البرهان: ١/ ٤١٠.

يُغسل، ثمّ قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ فوصل اليدين إلى المرفقين بالوجه، فعرفنا أنّه ينبغي لهما، أن يُغسلا إلى المرفقين، ثمّ فصل بين الكلام فقال: ﴿وَامْسَحُوا بِرءُوسِكُمْ﴾ فعرفنا حين قال: ﴿برءُوسكم﴾ أنّ المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثمّ وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه، فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعبين﴾ فعرفنا حين وصلهما بالرأس أنّ المسح على بعضهما، ثمّ فسّر ذلك رسول الله ﷺ للناس فضيّعوه....[1]

الإمام جعفر الصادق عليه السلام و التفسير

الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام من أبرز أئمّة المسلمين، ولد في حجر الرسالة، ونشأ في بيت النبوّة، وترعرع في ربوع الوحي، وتربّى بين جدّه زين العابدين، وأبيه الإمام الباقر عليه السلام ولد عام (٨٣هـ)، واستشهد في خلافة المنصور عام (١٤٨). نشأ في عصر تنازعت فيه الأهواء، واضطربت فيه الأفكار، وتلاطمت أمواج الظلم والإرهاب. فبينما كان القوم يتنازعون في الرئاسة، والتسنّم على عرش الخلافة، واشتعلت نيران الحرب بين الأمويّين والعباسيّين، اغتنم عليه السلام الفرصة وأعطى للأُمّة دروساً خالدة، وغذّى تلاميذه بروح العلم والتفكير، وغرس في قلوبهم بذور المعارف الإلهية، وشحذ أذهانهم، وأرهف طباعهم، فتخرّج من مدرسته أعلام يستضاء بأنوارهم.

وقد نقل المؤرّخون أنّه «نقل الناس عن الصادق عليه السلام من العلوم ما سارت به الركبان، و انتشر ذكره في البلدان، ولم ينقل عن أحد من أهل بيته عليهم السلام العلماء ما نقل عنه، ولا لقي أحد منهم من أهل الآثار ونقلة الأخبار، ولا نقلوا عنهم مثلما

١. وسائل الشيعة: ١/ ٢٩٠ـ٢٩١، الباب ٢٣ من أبواب الوضوء، الحديث ١.

نقلوا عن أبي عبد الله، فإنّ أصحاب الحديث قد جمعوا أسماء الرواة عنه من الثقات، على اختلافهم في الآراء والمقالات، فكانوا أربعة آلاف رجل»[1] وهم بين فقيه بارع، يفتي الناس في مسجد المدينة، كأبان بن تغلب[2]، و مفسّر متضلّع، ومحدّث واعٍ، إلى غير ذلك، حفظ التاريخ والرجال أسماءهم وللإمام خطوات واسعة في التفسير، وآثار خالدة جمعها بعده تلامذته، وسنشير إليها عند البحث عن مفسري الشيعة في القرون الإسلامية. وإليك نزراً يسيراً من تفسيره، حتى يكون نموذجاً من الينبوع المتفجّر، ونمير علمه الصافي:

١ . لقد كانت الزنادقة في عصر الصادق عليه السلام بصدد التشكيك في العقائد، وبذر الشُّبه في الأوساط. وممّا كان تلوكه أشداقهم هو ما سأله ابن أبي العوجاء، هشام بن الحكم فقال له: فأخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنىٰ وَثُلاثَ وَرُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ ألّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً**﴾[3]. أليس هذا فرض؟ قال هشام: بلى. وقال: فأخبرني عن قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوها كَالمُعَلَّقَةِ**﴾[4]، فقال ابن أبي العوجاء أيّ حكيم يتكلّم بهذا؟

فرحل هشام إلى المدينة، و قصد دار الإمام الصادق عليه السلام، فقال: «يا هشام في غير وقت حجّ ولا عمرة؟» قال: نعم ـ جعلت فداك ـ لأمر أهمّني. إنّ ابن أبي العوجاء سألني عن مسألة، لم يكن عندي فيها شيء قال: وما هي؟ قال: فأخبره بالقصّة، فقال الإمام: «فأمّا الآية الأُولى فهي في النفقة، وأمّا الآية الثانية فإنّما

١. إرشاد المفيد: ٢٨٩، طبع إيران.

٢. لاحظ الفهرست لابن النديم: ٣٢٢، ط مصر مطبعة الاستقامة؛ رجال النجاشي: ١/ ٧٣ برقم ٦، ط بيروت، و كلّ ما ننقله فهو من هذه الطبعة.

٣. النساء: ٣.

٤. النساء: ١٢٩.

عنت المودّة، فإنّه لا يقدر واحد أن يعدل بين امرأتين في المودّة». فقدم هشام بالجواب وأخبره. قال ابن أبي العوجاء: والله ما هذا من عندك. وفي حديث آخر قال: هذا حملته من الحجاز.[١]

٢. إنّ قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [٢] ممّا اضطرب فيه كلمات المفسّرين في تبيينها، وذهب كلّ إلى مذهب ورأي. ولكنّ الإمام الصادق عليه السلام فسّرها بوجه واضح ينطبق على ظاهر الآية، فعندما سأل عبد الله بن سنان عن قول الله عزّوجلّ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [٣] ما تلك الفطرة؟ قال: «هي الإسلام، فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وفيه المؤمن والكافر». وقد فسّر الإمام آية الذرّ بآية الفطرة، و بيّن أنّه لم يكن هناك أيُّ كلام عن الاستشهاد والشهادة اللفظيّين.

وجاء في رواية أُخرى رواها أبو بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام كيف أجابوا وهم ذرّ؟ قال: «جعل فيهم ما إذا سألهم أجابوه».[٤]

وبذلك أعرب الإمام عن مفاد الآية، و بيّن أنّ الآيتين تهدفان إلى معنى واحد، وهو أنّ كلّ إنسان في بدء تكوّنه وظهوره، ينطوي فطريّاً تكوينيّاً على السرّ الإلهي، أعني: التوحيد، منذ أن كان موجوداً ذرّياً صغيراً في رحم أُمّه، وكأنّ أوّل خلية إنسانيّة تستقرّ في رحم الأُمّ تنطوي على هذه الوديعة الإلهيّة، وهي الشعور الطبيعيّ بالله، والانجذاب إليه، وكأنّ جينات الخليّة لدى كلّ إنسان تحمل بين

---

١. تفسير البرهان: ١/ ٤٢٠.
٢. الأعراف: ١٧٢.
٣. الروم: ٣٠.
٤. تفسير البرهان: ٢/ ٤٧.

جوانحهـا هذه الخاصيّة الـروحيّة، وأنّ هذه الخاصيّـة تنمو و تتكـامل مع تكـامل الخليّة ونموّها.

وبهذا البيان أغنى الإمام الأُمّة عن كثير من الوجوه المذكورة في الآية التي لا تنطبق على ظاهرها، وأوضح أنّ المفاد هو كون الإنسان مفطوراً على التوحيد.

٣. كـانت المرجئـة من أخطـر الطوائف الإسـلاميّة على شبـاب المسلمين، حيث ذهبوا إلى أنّ الإيمان قول بلا عمل، ونيّة بلا فصل، وأنّه لا يزيد ولا ينقص، وبـذلك أعطـوا للعصاة الضـوء الأخضر حتى يقترفـوا المعاصي الكبيرة، و الآثـام الموبقة، من دون أن يكون لذاك تأثير على إيما نهم. وقد حذّر الإمام في خطبه وكلمه الشيعة من هذه الطـائفة، وقال: «بادروا أولادكم بالحديـث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة».

وعند ما سأل أبـو عمرو الزبيريّ الإمام الصادق عن الإيمان قـائلاً: هل هو عمل أو قول بلا عمل؟ يجيب الإمام قـائلاً: «الإيمان عمل كلّه، والقول بعد ذلك العمل». ثمّ عندمـا يسأله هل الإيمان يتمّ وينقص ويزيـد؟ يقول الإمام: «نعم». فقال السائل: فما الدليل على أنّه يزيد؟ فقال: «قول الله عزّوجلّ: ﴿وَإِذا ما أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هٰذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الّذينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمّا الّذينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلىٰ رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً﴾[2]، فلو كان الإيمان واحداً، لا زيادة فيه ولا نقصان، لم يكن لأحدٍ منهم فضل على الآخر».[3]

---

١. التوبة:١٢٤ـ١٢٥.
٢. الكهف:١٣.
٣. تفسير البرهان: ٢/ ١٧٣ـ ١٧٥، وقد أخذنا موضع الحاجة من الحديث.

٤. روى مسعدة بن صدقة، قال: قيل لأبي عبد الله عليه السلام : إنّ الناس يروون أنّ علياً عليه السلام قال على منبر الكوفة: أيّها الناس؛ إنّكم ستُدعَون إلى سبّي، ثمّ تُدعون إلى البراءة منّي، فلا تبرّأوا منّي، فقال الإمام الصادق عليه السلام : «ما أكثر ما يكذب الناس على عليّ عليه السلام ، ثمّ قال: إنّما قال: إنّكم ستدعون إلى سبّي، فسبّوني ثمّ تدعون إلى البراءة منّي، وإنّي لعلى دين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقل: ولا تبرّأوا منّي» فقال له السائل: أرأيت إن اختار القتل دون البراءة؟ قال: «والله ما ذلك عليه، وما له إلاّ ما مضى عمار بن ياسر، حيث أكرهه أهل مكّة وقلبه مطمئن بالإيمان، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمان﴾ ، فقال له النبيّ عندها: يا عمّار إن عادوا فعد، فقد أنزل الله عزّ وجلّ عذرك ﴿إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمان﴾ وآمرك أن تعود إن عادوا».[١]

ترى أنّ الإمام يرجع الحديث إلى الآية، ويقضي بها في حقّه، وأنّه كيف لا يجوز البراءة مع أنّ عماراً، حسب الرواية، وظهور الآية، تبرّأ من النبيّ، ولم يكن عليه شيء قال سبحانه: ﴿إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمان﴾ ، وأئمّة الشيعة ـ مع شدّة تركيزهم على هذا الموقف، من إرجاع الأحاديث المشكوكة إلى القرآن، فما خالف منها القرآن، يضرب عرض الجدار ـ قاموا بتطبيق هذا المبدأ عملياً في غير واحد من الأحاديث التي لا يسع المقام ذكرها.

٥. وقد ورد «الفقراء والمساكين» في آية الصدقات، وجعلا من الأصناف الثمانية الذين تقسّم الزكاة بينهم. وأمّا الفرق بين الصنفين، فقد كثر البحث فيها بين الفقهاء تبعاً للمفسّرين، ولكنّ الإمام الصادق عليه السلام يفسّر الفقراء في ضوء ما يمليه الذكر الحكيم، ويقول في تفسير قوله سبحانه: ﴿إِنَّما الصَّدقاتُ لِلفُقَراءِ

١. تفسير البرهان: ٢/ ٣٨٥.

وَالمَساكين وَالعامِلينَ عَلَيها وَالمُؤلَّفَةِ قُلوبُهُمْ وفِي الرِّقابِ وَالغارِمينَ وَفي سَبيلِ اللهِ وابْنِ السَّبيلِ فَريضَة مِنَ اللهِ وَاللهُ عَليمٌ حَكيمٌ﴾ .[1]

«أخرج الله من الصدقات جميع الناس، إلاّ هذه الثمانية الأصناف الذي سمّاهم، والفقراء هم الذين لا يسألون الناس، وعليهم مؤونات من عيالهم، والدليل على أنّهم لا يسألون قول الله: ﴿للفُقَراءِ الّذينَ أُحصِرُوا في سَبيلِ اللهِ لا يَستَطيعُونَ ضَرباً فِي الأَرضِ يَحْسَبُهُمُ الجاهِلُ أَغنياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعرِفُهُمْ بِسيماهُمْ لا يَسْأَلُونَ النّاسَ إلحافاً ... ﴾[2]، والمساكين هم أهل الزمانة من العميان والعرجان والمجذومين، وجميع أصناف الزمنى من الرجال والنساء والصبيان...».[3]

والإمام ـ كما ترى ـ يفسّر الآية بالآية، و القرآن بالقرآن، وكم له من نظير في أحاديثهم عليهم السلام ؟ وهذا من أحسن الطرق، وأتقنها للتفسير، ولو قام باحث بجمع ما أُثر عنهم في ذاك المجال لجاء بكتاب.

٦. قال الصادق عليه السلام : «ما من شيء إلاّ وله حدّ ينتهي إليه، إلاّ الذكر فليس له منتهى إليه. فرض الله عزّوجلّ الفرائض، فمن أدّاهنّ فهو حدّهنّ، وشهر رمضان، فمن صامه فهو حدّه، والحجّ فمن حجّ فهو حدّه، إلاّ الذكر فإنّ الله عزّوجلّ لم يرضَ منه بالقليل، ولم يجعل له حدّاً ينتهي إليه. قال الله: ﴿يا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثيراً﴾ .[4] لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه.[5]

---

١. التوبة: ٦٠.

٢. البقرة:٢٧٣.

٣. تفسير البرهان: ٢/ ١٣٤، الحديث ٤.

٤. الأحزاب:٤١.

٥. تفسير نور الثقلين:٤/ ٢٨٥، الحديث ١٤٧.

والروايات المأثورة عن الإمام الصادق عليه السلام في مجال التفسير كثيرة، لا يحيط بها إلّا من صرف شطراً كبيراً من عمره في علم المأثور عنهم.

ثمّ إنّ هناك جماعة من غير الشيعة رموا الروايات المرويّة عن الباقر والصادق عليهما السلام في مجال التفسير بالطائفية، وأنّها تخرج الكتاب العزيز عن كونه كتاباً عالمياً، إلى كتاب طائفيّ، لا يهمّه إلّا أهل البيت، وفي مقدّمتهم الإمام عليّ ابن أبي طالب عليه السلام، وسيوافيك الجواب عن هذا الاعتراض، وستثبت هناك أنّ هؤلاء الناقدين لم يفرقوا بين «التفسير» و «التطبيق» و بين «التنزيل» و«التأويل»، وأنّ لأئمّة أهل البيت عليهم السلام موقفين متغايرين في تبيين الذكر الحكيم. وسيوافيك توضيحه في خاتمة الفصل، فانتظر.

الإمام موسى الكاظم عليه السلام والتفسير

إنّ الإمام الكاظم عليه السلام هو الإمام السابع عند الشيعة، و قد قام بأمر الإمامة بإيصاء من أبيه الإمام جعفر الصادق عليه السلام وقد روى عنه لفيف من محدّثي الأُمّة وعلمائها، وروت الشيعة عنه أحاديث كثيرة في المعارف العامّة، والتفسير والفقه والأخلاق، وقام الباحث عزيز الله العطاردي بجمع ما أُثر عنه في كتاب مستقلّ أسماه مسند الإمام الكاظم، وقد طبع ونشر في ثلاثة أجزاء، وخصّ باباً مفرداً في التفسير، ذاكراً فيه كلّ ما روي عنه في هذا الصعيد على ترتيب السور، ونقتطف منه ـ مع الإشارة إلى مصادره ـ قليلاً من كثير ليكون نماذج من تفسيره.

١. روى سليمان الفرّاء عنه عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾. قال: الصبر: الصوم، إذا نزلت بالرجل الشدة أو النازلة فليصم.

قال: الله تعالى يقول: ﴿وَاستَعينُوا بِالصَّبرِ وَالصَّلاة﴾ .[١] الصبر: الصوم».[٢]

وهذا تفسير للآية ببعض المصاديق الخفيّة، وكم له من نظير في تفسير أئمّة أهل البيت.

٢. روى محمد بن الفضل عنه عليه السلام في تفسير قوله سبحانه: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنهَوْنَ عَنهُ نُكَفِّر عَنكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ .[٣] قال: «من اجتنب ما وعد الله عليه النار، إذا كان مؤمناً كفّر الله عنه سيّئاته».[٤]

٣. روى عمر بن إبراهيم أخو العباسي قال: سألت الإمام الكاظم عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتين﴾ .[٥] فقال: «تجدّد لهم النعم مع تجديد المعاصي».[٦] فما أخصر كلامه وأبلغ معناه! في تبيين معنى الاستدراج.

٤. روى أحمد بن عمير عن أبي الحسن الإمام الكاظم عليه السلام قال: سئل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرى اللهُ عَمَلكُمْ وَرَسُولُهُ وَ المُؤمِنُون﴾ .[٧] قال: «إنّ أعمال العباد تعرض على رسول الله كلّ صباح أبرارها، وفجّارها فاحذروا»[٨]، وعلى ذلك فالمراد من «المؤمنون» طبقة خاصّة منهم، ولا يعم كلّ من يطلق عليه المؤمن، كما ورد في تفسير الشهداء في رواية الإمام الصادق عليه السلام.[٩]

---

١. البقرة:٤٥.
٢. تفسير العياشي:١/ ٤٣.
٣. النساء: ٣١.
٤. تفسير العياشي: ١/ ٢٣٨.
٥. الأعراف:١٨٢ـ١٨٣.
٦. مسند الإمام الكاظم:٢/ ٢٤، نقلاً عن أصل علي بن أسباط المخطوط.
٧. التوبة: ١٠٥.
٨. بصائر الدرجات: ٤٠٢.
٩. لاحظ نور الثقلين:١/ ١١٣ في تفسير قوله سبحانه: ﴿وكذلك جعلناكم أُمّة وسطاً﴾ (البقرة:١٤٣).

هذه نماذج من تفسير الإمام، فمن أراد التوسّع فليرجع إلى مسند الإمام الكاظم عليه السلام.

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام والتفسير

الإمام الرضا، عالم الأُمّة وإمامها، ولد عام (١٤٨هـ)، وقبض في صفر سنة (٢٠٣هـ)، وقد انتشر عنه العلم ما لم ينتشر من غيره من الأئمّة سوى الصادقين عليهما السلام، وقد أُتيحت له الفرصة، ولم تعارضه السلطة، فناظر أحبار اليهود، و بطارقة النصارى، والمجسّمة، والمشبّهة من أصحاب الحديث، فظهر برهانه، وعلا شأنه. يقول كمال الدين بن طلحة في حقّه: نما إيمانه، وعلا شأنه، وارتفع مكانه، وظهر برهانه... فمهما عدّ من مزاياه كان عليه السلام أعظم منه، ومهما فصّل من مناقبه كان أعلى رتبة منه.[1]

كان عليه السلام يعيش في عصر تفتّحت فيه العقول، وانتشرت بذور الشكّ والضلال بين المسلمين عن طريق احتكاك الثقافتين الإسلاميّة والأجنبيّة، وانتشار تراجم الكتب اليونانيّة والهنديّة والفارسيّة، وكان جبلاً صامداً في وجه الآراء الساقطة المضادة للكتاب والسنّة، وسيوافيك بعضها:

١. روى صفوان بن يحيى قال: سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ لإبراهيم: ﴿أَوَ لَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[2]، أكان في قلبه شك؟ قال: «لا، كان على يقين، ولكنّه أراد من الله الزيادة في يقينه».[3]

٢. روى ابن الفضيل عن الرضا عليه السلام قال: سألته عن قول الله : ﴿إذا حَضَرَ

١. مطالب السؤول: ٨٥.
٢. البقرة: ٢٦٠.
٣. المحاسن: ٢٤٧.

﴿أَحَدَكُمُ المَوتُ حينَ الوَصِيَةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنكُمْ أَو آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.[١] قال: «اللّذان منكم مسلمان، واللّذان من غيركم من أهل الكتاب، فإن لم تجدوا من أهل الكتاب فمن المجوس، لأنّ رسول الله، قال: سنّوا بهم سنّة أهل الكتاب، وذلك إذا مات الرجل المسلم بأرض غربة فطلب رجلين مسلمين يشهدهما على وصيّته، فلم يجد مسلمين يشهدهما فرجلين من أهل الكتاب مرضيّين عند أصحابهما».[٢]

قد شاع الجبر والقدر في عصر الإمام الرضا عليه السلام، فمن قائل بالجبر السالب للاختيار الجاعل الإنسان مكتوف الأيدي أمام الميول والاحاسيس، ومن قائل بالتفويض يصوّر الإنسان خالقاً ثانياً لأعماله، غير أنّ «شبهة الجبر» كانت أرسخ في النفوس من «شبهة التفويض»، فهلمّ معي نرى كيف يفسر الآيات التي جعلت ذريعة إلى الجبر عند الحشوية.

٣. روى إبراهيم بن أبي محمود قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ في ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ [٣] فقال: «إنّ الله تعالى و تبارك لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنّه متى علم أنّهم لا يرجعون عن الكفر والضلال، منعهم المعاونة واللطف وخلّى بينهم و بين اختيارهم». قال وسألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿ختَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلىٰ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ﴾[٤]، قال: «الختم هو الطبع على قلوب الكفّار عقوبة على كفرهم، كما قال عزّوجلّ: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاّ قَليلاً﴾».[٥،٦] ترى أنّه عليه السلام

---

١. المائدة: ١٠٦.

٢. تفسير العياشي: ١/ ٣٤٩ بتلخيص.

٣. البقرة: ١٧.

٤. البقرة: ٧.

٥. النساء: ١٥٥.

٦. عيون أخبار الرضا: ١/ ٤٢٤.

يفسّر الآية بالآية ويجتث شبهة الجبر ببيان أنّ الطبع على القلوب كان عقوبة من الله في حقّهم لجرائم اقترفوها، ولم يكن الطبع ابتدائياً بلا مبرر، إذ كيف يطلب منهم الإيمان ثمّ يطبع على قلوبهم ابتداء، أو ليس يصف نفسه بقوله: ﴿وَما رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبيدِ﴾ [١].[٢]

٤. روى أبو ذكوان، قال: سمعت إبراهيم بن العباس يقول: كنّا في مجلس الرضا عليه السلام فتذاكروا الكبائر وقول المعتزلة فيها: إنّها لا تغفر (إذا مات صاحبها بلا توبة)، فقال الرضا عليه السلام: قال أبو عبد الله عليه السلام: «قد نزل القرآن بخلاف قول المعتزلة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّاسِ عَلىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [٣]».[٤]

وجه الاستدلال أنّ قوله: ﴿عَلىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ حال من قوله: ﴿للنّاس﴾، ومعنى الآية: أنّ غفران الله شامل لهم في حال كونهم ظالمين، والآية نظير قول القائل: «أودّ فلاناً على غدره وأصله على هجره»، فمن مات بلا توبة عن كبيرة فلا يحلّ لنا الحكم بأنّه لا يغفره، لأنّ رحمة الله تشمل الناس في حال كونهم تائبين أو ظالمين. نعم ليس للمقترف الاعتماد على هذه الآية، لأنّه وعدٌ مجمل كالشفاعة.

٥. وروى الحسين بن بشار، قال: سألت علي بن موسى الرضا عليه السلام أيعلم الله الشيء الذي لا يكون أن لو كان كيف كان؟ قال: «إنّ الله هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء، وقال لأهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ﴾ [٥].

وقال للملائكة لما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها﴾، قال: ﴿إِنّي أَعْلَمُ

---

١. فصّلت:٤٦. ٢. لاحظ ذيل الحديث. ٣. الرعد:٦.
٤. التوحيد: ٤٠٦، ولاحظ مجمع البيان:٣/ ٢٧٨.
٥. الأنعام: ٢٨.

ما لا تَعْلَمُون﴾ [١] فلم يزل الله عزّ وجلّ علمه سابقاً للأشياء قديماً قبل أن يخلقها».[٢]

٦. روى الحسين بن خالد، عن الرضا عليه السلام قلت له: أخبرنا عن قول الله : ﴿وَالسَّماء ذاتِ الحُبُك﴾ ، قال: «هي محبوكة إلى الأرض، مشبكة بين أصابعه»، فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول: ﴿رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَونَها﴾ ؟ فقال: «سبحان الله أليس يقول: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَونَها﴾ ؟» قلت: بلى، قال: «فثمّ عمد، لكن لا ترونها».[٣]

والإمام يصرّح في كلامه هذا بوجود عمدٍ في السماء غير مرئية، ولعلّه يريد قانون الجاذبيّة العامّة التي كشف عنها العلم، والتفصيل موكول إلى محلّه.

٧. قد شاع في عصر الإمام الاعتقاد بالرؤية التي دخلت في أوساط المسلمين من طريق الأحبار والرهبان، واغترّ بها أكثر المحدّثين البسطاء، وربّما كانوا يستدلّون عليها بما ورد في معراج النبيّ، وأنّه وصل في معراجه إلى مكان لم يبق بينه و بين ربّه سوى قاب قوسين أو أدنى، قائلاً: بأنّ المراد من قوله: ﴿ثُمَّ دَنا فَتَدلّى﴾ أي دنا من الله ومقامه الكائن فيه، ولكنّ الرضا عليه السلام يواجه هذه الفكرة بالنقد الحاسم، والردّ العنيف، وإليك القصة: دخل أبو قرّة المحدّث على أبي الحسن الرضا فقال: إنّا روينا أنّ الله قسّم الرؤية والكلام بين نبيّين، فقسم الكلام لموسى و لمحمّد الرؤية؟! فقال أبو الحسن عليه السلام : «فمن المبلّغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس، ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصار﴾ و ﴿وَلا يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾ ثمّ أليس محمّد؟» قال: بلى. قال: « كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله وانّه يدعوهم إلى الله بأمر الله فيقول: ﴿لا

---

١. البقرة: ٣٠.
٢. عيون أخبار الرضا: ١/ ١١٨.
٣. تفسير علي بن إبراهيم: ٦٤٦.

تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ ﴾ و ﴿وَلاَ يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ و ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾ ثمّ يقول: انا رأيته بعيني، وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر؟! أما تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا، أن يكون يأتي من عند الله بشيء، ثمّ يأتي بخلافه من وجه آخر». قال أبو قرّة: فانّه يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرى﴾ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنّ بعد هذه الآية ما يدلّ على ما رأى حيث قال: ﴿ما كَذب الفُؤاد ما رأى﴾ يقول: ما كذب فؤاده ما رأت عيناه، ثمّ أخبر بما رأى، فقال: لقد رأى من آيات ربّه الكبرى، فآيات الله غير الله، وقد قال: ﴿وَلاَ يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾، فإذا رأته الأبصار فقد أحاطت به العلم ووقعت المعرفة»، فقال أبو قرّة: فتكذب بالروايات؟ فقال أبو الحسن: «إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها، وما أجمع المسلمون عليه أنّه لا يحاط به علماً، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء».[١]

الإمام محمد الجواد عليه السلام والتفسير

الإمام أبو جعفر محمد الجواد من أئمّة أهل البيت، وهو تاسع الأئمّة عند الشيعة، ولد عام (١٩٥هـ)[٢] ورث الشرف من آبائه وأجداده، واستسقت عروقه من منبع النبوّة، ورضعت شجرته ثدي الرسالة، وتهدّلت أغصانه ثمر الإمامة. قام بأمر الولاية، بعد شهادة والده الرضا عليه السلام عام (٢٠٣هـ)، واستشهد هو مثل الوالد ببغداد عام (٢٢٠هـ) أدرك خلافة المأمون، وأوائل خلافة المعتصم. روى عنه لفيف من المحدّثين والفقهاء، يربو عددهم على (١٢١)[٣]، وروى عنه في مجال

١. تفسير البرهان: ٤/ ٢٤٨.

٢. تاريخ بغداد: ٣/ ٥٥؛ وابن خلكان في وفيات الأعيان: ٣/ ٣١٥.

٣. مسند الإمام محمد الجواد العطاردي، وقد خصّ باباً للرواة عن الإمام عليه السلام.

الفقه، والدعاء، والتفسير روايات وافرة نذكر نماذج ممّا روي عنه في مجال التفسير.

١. روي العياشي، ،قال: رجع ابن أبي داود ذات يوم من عند المعتصم، وهو يروي هذه القصّة:

إنّ سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحدّ عليه، فسأل الفقهاء عن موضع القطع، فمن قائل: يجب قطعه من الكرسوع، لأنّ اليد هي الأصابع والكف إلى الكرسوع لقوله تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأَيْدِيَكُمْ مِنْهُ﴾[1] إلى آخر يقول: يجب القطع من المرفق، لأنّ الله قال: ﴿وأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾[2] فدلّ على أنّ حدّ اليد هو المرفق، و لمّا رأى المعتصم اختلافهم، التفت إلى «محمد بن علي» فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: «قد تكلّم القوم فيه». قال: دعني ممّا تكلّموا به. أي شيء عندك؟ قال:« أعفني عن هذا، يا أمير المؤمنين!» قال: أقسمت عليك بالله لما أخبرت بما عندك فيه. فقال: «أمّا إذا أقسمت عليّ بالله إنّي أقول: إنّهم أخطأوا فيه السنّة، فانّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فيترك الكفّ». قال: وما الحجّة في ذلك؟ قال: «قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: السجود على سبعة أعضاء: الوجه،واليدين، والركبتين،والرجلين، فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق، لم يبق له يد يسجد عليها، وقال تعالى: ﴿وأَنَّ المساجِدَ للهِ﴾ يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحداً﴾[3]، وما كان لله لم يقطع». فأعجب المعتصم ذلك، وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف، قال ابن أبي داود: قامت قيامتي وتمنّيت أنّي لم أك حياً.[4]

---

١ و ٢. المائدة:٦.   ٣. الجن:١٨.

٤. تفسير العياشي:١/ ٣١٩ـ ٣٢٠.

وقد نقل ما ذكره الإمام، عن سعيد بن جبير، والفـرّاء، والزجّاج، وأنّ المراد من المساجـد الأعضاء السبعة التي يسجد عليها في الصـلاة، وعلى هذا فالمراد أنّ مواقع السجود مـن الإنسان لله، اختصاصاً تشريعيّاً، والمراد من الـدعاء السجدة لكونها أظهر مصاديق العبادة، أو المراد الصلاة بها أنّها تتضمّن السجود لله.[١]

وروى حماد بن عيسى، عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث: وسجد الإمام على ثمانية أعظم: الكفين، والركبتين، وإبهامي الـرجلين، والجبهة والأنف، وقال: «سبعـة منها فـرض يسجـد عليها، وهـي التـي ذكرهـا الله في كتـابه فقـال: ﴿وَأَنَّ المَسـاجِدَ للهِ فَـلا تَدعُـوا مَعَ اللهِ أَحَـداً﴾ ، وهـي: الجبهة، والكفّـان، والركبتـان، والإبهامان، ووضع الأنف على الأرض سنّة».[٢]

٢. عن محمد بن سعيد الأزدي صاحب موسـى بن محمدالرضا عن موسى قال لأخيه كتب يحيى بن أكثم المروزي إليـه يسأله عن مسائل، وقال: أخبرني عن قول الله : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيهِ عَلى العـرشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجّداً﴾ أسجد يعقـوب وولده ليوسف؟ قال: «فسألت أخي عن ذلك، فقال: أمّا سجود يعقوب وولده ليوسف فشكراً لله، لاجتماع شملهـم، ألا ترى أنّه يقـول في شكر ذلك الـوقت: ﴿رَبِّ قد آتَيتَني مِنَ المُلْكِ وَعَلّمتني من تَأْويل الأَحاديث﴾» .[٣]

٣. سأل عبـد العظيم بـن عبد الله الحسني محمـد بن علي الـرضا عليه السلام عن قول اللّه عزّوجلّ: ﴿أَولىٰ لَكَ فَأَولىٰ * ثُـمَّ أَولى لَكَ فَأَولى﴾[٤]، فقال: «يقـول الله عزّوجلّ: بعداً لك من خير الدنيا بعداً، وبعداً لك من خير الآخرة».[٥]

---

١. الميزان: ٢٠/ ١٢٥.
٢. تفسير البرهان: ٤/ ٣٩٤.
٣. تفسير العياشي: ٢/ ١٩٧.
٤. القيامة: ٣٤ـ ٣٥.
٥. عيون أخبار الرضا: ٢/ ٥٤.

لا ريب أنّها كلمة تهديد كرّرت لتأكيد التهديد، وقد جاء قبل الآية قوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ﴾[1].

فاللائق بهذا الإنسان الذي لم يصدق ولم يصل، ولكن كذب وتولى، ثمّ ذهب إلى أهله يتمطّى متبختراً مختالاً، هو البعد عن غفران الله سبحانه ورحمته، وخيره في الدنيا والآخرة، ونظير الآية قوله سبحانه: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[2]، أي هذه الحالة أولى لكم لتذوقوا وبال أمركم في الدنيا والآخرة، وفي مورد الآية المعنى الابتدائي، هو أنّ هذه الحالة أولى له، لأنّه لا يستحق إلاّ إيّاها ليذوق وبال أمره وليبتعد من خير الدنيا والآخرة، ففسّر الآية بما هو المقصود من كون هذه الحالة أولى له.

٤. روى علي بن أسباط، قال: قلت لأبي جعفر محمد الجواد: يا سيدي إنّ الناس ينكرون عليك حداثة سنّك (ونيلك مقام الإمامة والقيادة الروحية)، قال: «وما ينكرون من ذلك. فوالله لقد قال الله لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ...﴾[3]، وما أتبعه غير علي، وكان ابن تسع سنين وأنا ابن تسع سنين».

والآية مكّية تنطبق على ما يذكره الإمام حيث إنّ الأوّل من آمن بمحمّد من الرجال هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

هذه نماذج ممّا روي عن الإمام التاسع محمد الجواد عليه السلام في مجال التفسير، ومن أراد التوسّع فليرجع إلى مسنده وسائر الكتب الحديثيّة التي تضمّنت أخباره عليه السلام.

---

١. القيامة: ٣١ـ٣٣.
٢. محمّد: ٢٠.
٣. يوسف: ١٠٨.

الإمام علي الهادي عليه السلام والتفسير

الإمام علي الهادي عليه السلام، الإمام العاشر، والنور الزاهر، ولد عام (٢١٢هـ) وتوفي بسامراء سنة (٢٥٤هـ) وهو من بيت الرسالة، والإمامة، ومقر الوصاية، والخلافة، وثمرة من شجرة الرسالة، قام بأمر الإمامة بعد والده الإمام الجواد، وكان في سني إمامته، بقية ملك المعتصم ثمّ الواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين والمعتزّ، وله مع هؤلاء قضايا ليس المقام يسع ذكر البعض، وقد روت الشيعة عنه أحاديث في مجال الفقه والتفسير، وإليك نماذج ممّا روي عنه في الأخير:

١. قُدِّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة فأراد أن يقيم عليه الحدّ، فأسلم فقال يحيى بن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود، فكتب المتوكّل إلى الإمام الهادي يسأله، فلمّا قرأ الكتاب، كتب: «يضرب حتى يموت»، فأنكر الفقهاء ذلك، فكتب إليه يسأله عن العلّة، فكتب: بسم الله الرّحمن الرّحيم ﴿فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنّا بِاللهِ وَحدَهُ وَكَفَرنا بِما كُنّا بِهِ مُشْرِكين* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللهِ الّتي قَدْ خَلَتْ في عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الكافِرُون﴾[1]، فأمر به المتوكّل فضرب حتى مات.[2]

إنّ الإمام الهادي عليه السلام ببيانه هذا شقّ طريقاً خاصّاً لاستنباط الأحكام من الذكر الحكيم، طريقاً لم يكن يحلم به فقهاء عصره، وكانوا يزعمون أنّ مصادر الأحكام الشرعيّة هي الآيات الواضحة في مجال الفقه التي لا تتجاوز ثلاثمائة آية، وبذلك أبان للقرآن وجهاً خاصاً لا يلتفت إليه إلاّ من نزل القرآن في بيته، وليس

---

١. غافر:٨٤ـ ٨٥.

٢. مناقب آل أبي طالب:٤/ ٤٠٥.

هذا الحديث غريباً في مورده، بل له نظائر في كلمات الإمام وغيره من آبائه وأبنائه عليهم السلام.

٢. لما سمّ المتوكّل نذر لله إن رزقه الله العافية أن يتصدّق بمال كثير، أو بدراهم كثيرة، فلمّا عوفي اختلف الفقهاء في مفهوم «المال الكثير»، فلم يجد المتوكّل عندهم فرجاً، فبعث إلى الإمام علي الهادي عليه السلام فسأله، قال: «يتصدّق بثلاثة وثمانين ديناراً»، فقال المتوكّل، من أين لك هذا؟ فقال: من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ الله في مَوَاطِنَ كَثيرة ...﴾ [1]، والمواطن الكثيرة: هي هذه الجملة، وذلك لأنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم غزا سبعاً وعشرين غزاة، وبعث خمساً وخمسين سرّية، وآخر غزواته يوم حنين»، وعجب المتوكّل والفقهاء من هذا الجواب.[2] وقد ورد عن طريق آخر أنّه قال: بثمانين مكان «ثلاثة وثمانين»، وذلك لأنّ عدد المواطن التي نصر الله المسلمين فيها إلى يوم نزول هذه الآية كان أقلّ من ثلاثة وثمانين.[3]

٣. إنّ للإمام الهادي عليه السلام رسالة في الردّ على الجبر والتفويض، وإثبات المنزلة بين المنزلتين، فقد استعان في إبطال المذهبين الذين كان يدين بهما أهل الحديث، والمعتزلة بكثير من الآيات على شكل بديع، ولأجل إيقاف القارئ على نماذج من إحاطته بالآيات ونضدها بشكل يوصل الجميع إلى الغاية المطلوبة، نقتبس منها ما يلي:

فأمّا الجبر الذي يلزم من دان به الخطأ، فهو قول من زعم أنّ الله ـ جلّ وعزّ ـ أجبر العباد على المعاصي وعاقبهم عليها، و من قال بهذا القول، فقد ظلم الله في حكمه وكذّبه وردّ عليه قوله: ﴿... ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحداً﴾ [4]، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ

١. التوبة:٢٥.

٢. تذكرة الخواص: ٢٠٢.

٣. مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٠٢.

٤. الكهف:٤٩.

يَظْلِمُ النّاسَ شَيئاً وَلكنَّ الناسَ أَنفسَهُمْ يَظْلِمُون﴾ .[١]

فمن دان بالجبر، أو بما يدعو إلى الجبر فقد ظلم الله ونسبه إلى الجور والعدوان، إذ أوجب على من أجبره العقوبة، و من زعم أنّ الله أجبر العباد، فقد أوجب على قياس قوله: إنّ الله يدفع عنهم العقوبة(أي لازم القول بالجبر أنّ الله لا يعذّب العصاة، لأنّه دفعهم إلى المعاصي)، ومن زعم أنّ الله يدفع عن أهل المعاصي العذاب فقد كذب الله في وعيده، حيث يقول:﴿بَلىٰ مَنْ كَسَبَ سَيّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطيئتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُون﴾ .[٢]

وقوله:﴿إِنَّ الّذينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ اليَتامىٰ ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ في بُطُونِهِمْ ناراً وَسيصلَوْنَ سَعيراً﴾ [٣] وقوله: ﴿إِنَّ الّذينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلّما نَضِجَت جُلُودُهُمْ بَدّلْناهُمْ جُلُوداً غَيرها لِيَذُوقُوا العَذابَ إِنَّ اللهَ كانَ عَزيزاً حَكيماً﴾ [٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا الفن ممّن كذب وعيد الله ويلزمه في تكذيبه آية من كتاب الله، الكفر، وهو ممّن قال الله [في حقّه]: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنكُمْ إِلاّ خِزيٌ فِي الحَياةِ الدُّنيا وَيَومَ القِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ العَذابِ وَما اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُون﴾.[٥]

بل نقول إنّ الله عزّ وجلّ يجازي العباد على أعمالهم ويعاقبهم على أفعالهم بالاستطاعة التي ملّكهم إيّاها، فأمرهم ونهاهم بذلك ونطق كتابه: ﴿مَنْ جاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيئَةِ فَلا يُجزىٰ إِلاّ مِثْلها وَهُمْ لا يُظْلَمُون﴾[٦]. وقال جلّ ذكره : ﴿يَومَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ مُحضَراً وَما

١. يونس: ٤٤.
٢. البقرة: ٨١.
٣. النساء: ١٠.
٤. النساء: ٥٦.
٥. البقرة: ٨٥.
٦. الأنعام: ١٦٠.

عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَو أَنَّ بَيْنها وَبينَهُ أَمَداً بَعيداً وَيُحـذِّرُكُمُ اللهُ نَفسَهُ﴾ [١]، وقال: ﴿اليومَ تُجزى كُلُّ نَفسٍ بِما كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ اليومَ﴾ [٢]، فهذه آيات محكمات تنفي الجبر، ومثلها في القرآن كثير. ثمّ شرع في إبطال التفويض وأبان خطأ من دان به وتقلده.

ولنقتصر على هذا المقدار، وفيه كفاية، وما جاء في هذه الرواية من التفسير نمط بديع، وهو ما نسمّيه اليوم بالتفسير الموضوعي، وقد أتى الإمام عليه السلام في رسالته بأكثر الآيات التي ربّما تقع ذريعة للمجبّرة والمفوّضة، وأبان تفسيرهما بإرجاع المتشابهات إلى المحكمات، كما أثبت أنّ الحقيقة هو المنزلة بين الجبر والتفويض، فمن أراد التوسّع فليرجع إلى نفس الرسالة التي نقلها الحسن بن شعبة الحرّاني في كتابه.[٣]

الإمام العسكري عليه السلام والتفسير

أبو محمّد الحسن بن علي أحد أئمّة أهل البيت، و الإمام الحادي عشر عند الشيعة الملقّب بالعسكري، ولد عام (٢٣٢هـ).[٤] وقال الخطيب في تاريخه وابن الجوزي في كتابه: ولد أبو محمد في المدينة سنة (٢٣١هـ)[٥]، وأشخص بشخوص والده إلى العراق سنة (٢٣٦) وله من العمر أربع سنين وعدّة شهور، وقام بأمر الإمامة والقيادةالروحية بعد شهادة والده، وقد اجتمعت فيه خصال الفضل، وبرز

١. آل عمران: ٣٠. ٢. غافر: ١٧.

٣. تحف العقول: ٣٣٨ـ ٣٥٢.

٤. الكافي: ١/ ٥٠٣.

٥. تاريخ بغداد: ٧/ ٣٦٦؛ تذكرة الخواص: ٣٦٢.

تقدّمه على كافة أهل العصر، واشتهر بكمال العقل والعلم والزهد والشجاعة. روى عنه لفيف من الفقهاء والمحدثين ما يربو على (١٥٠) شخصاً، وقد أدرج «العطاردي» أسماءهم في مسند الإمام العسكري وتوفّي عام (٢٦٠هـ)، ودفن في داره التي دفن فيها أبوه بسامراء، وللإمام روايات تلقّاها الرواة في مجال العقائد والفقه والتفسير، نذكر نزراً يسيراً لتعلم مكانته في التفسير:

١. لقد شغلت الحروف المقطّعة بال المفسرين فضربوا يميناً ويساراً، وقد أنهى الرازي أقوالهم فيها في أوائل تفسيره الكبير إلى قرابة عشرين قولاً، ولكن الإمام عليه السلام يعالج تلك المعضلة بأحسن الوجوه وأقربها للطبع، فقال: كذبت قريش واليهود بالقرآن، وقالوا سحر مبين تقوّله.

فقال الله: ﴿الم * ذٰلِكَ الكِتاب﴾ .[فقل:] يا محمّد، هذا الكتاب الذي نزّلناه عليك هو الحروف المقطّعة التي منها«الف»، «لام»، «ميم»، وهو بلغتكم وحروف هجائكم فأتوا بمثله إن كنتم صادقين،واستعينوا على ذلك بسائر شهدائكم، ثمّ بيّن انّهم لا يقدرون عليه بقوله: ﴿قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذا القُرآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَو كانَ بَعضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾ [١].[٢]
وقد روي هذا المعنى عن أبيه الإمام الهادي عليه السلام.[٣]

٢. كان أهل الشغب والجدل يلقون حبال الشكّ في طريق المسلمين فيقولون: إنّكم تقولون في صلواتكم:﴿إِهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقيم﴾ ، أو لستم فيه؟ فما معنى هذه الدعوة؟ أو أنّكم متنكّبون عنه فتدعون ليهديكم إليه؟ ففسّر الإمام

---

١. الإسراء:٨٨.
٢. معاني الأخبار: ٢٤، وللحديث ذيل فمن أراد فليرجع إلى الكتاب.
٣. الكافي: ١/ ٢٤ـ٢٥، كتاب العقل والجهل، الحديث ٢٠.

الآية قاطعاً لشغبهم فقال: «ادم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ماضي أيّامنا حتى نطيعك كذلك في مستقبل أعمالنا».

ثمّ فسّر الصراط بقوله: «الصراط المستقيم هو صراطان: صراط في الدنيا، وصراط في الآخرة. أمّا الأوّل: فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل إلى شيء من الباطل. وأمّا الطريق الآخر: فهو طريق المؤمنين إلى الجنّة الذي هو مستقيم، لايعدلون عن الجنّة إلى النار ولا إلى غير النار سوى الجنة».[1]

وقد استفحل أمر الغلاة في عصر الإمام العسكري، ونسبوا إلى الأئمّة الهداة أُموراً هم عنها براء، ولأجل ذلك يركز الإمام على أنّ الصراط المستقيم لكلّ مسلم هو التجنّب عن الغلوّ والتقصير.

٣. ربّما يغترّ الغافل بظاهر قوله سبحانه: ﴿صِراطَ الّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...﴾ ويتصوّر أنّ المراد من النعمة هو المال والأولاد وصحّة البدن، وإن كان كلّ هذا نعمة من الله، ولكنّ المراد من الآية بقرينة قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضّالّينَ﴾ هو نعمة التوفيق والهداية.

ولأجل ذلك نرى أنّ الإمام يفسّر الأنعام بقوله: «قولوا:إهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك وهم الذين قال الله عزّوجلّ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ والصِّديقينَ وَالشُّهداء وَالصّالِحين وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفيقاً﴾ ، ثمّ قال: ليس هؤلاء المنعم عليهم بالمال وصحّة البدن، وإن كان كلّ هذا نعمة من الله ظاهرة».[2]

٤. لقد تفشت فكرة عدم علمه سبحانه بالأشياء قبل أن تُخلق استلهاماً من

---

١. معاني الأخبار:٣٣.
٢. معاني الأخبار: ٣٦.

بعض المدارس الفكرية الفلسفيّة الموروثة من اليونـان، فسأله محمّد بن صالح عن قول الله: ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ﴾[١] فقال: هل يمحو إلاّ ما كان، وهـل يثبت إلاّ مـا لم يكن؟ فقلـت في نفسي: هذا خـلاف ما يقـوله هشـام الفوطي. انّـه لا يعلم الشيء حتى يكون، فنظر إليّ شَزَراً، وقـال: «تعالى الله الجبّار العالم بالشيء قبـل كونه، الخالق إذ لا مخلـوق، والربّ إذ لا مربوب، والقـادر قبل المقدور عليه.[٢]

حصيلة البحث

هؤلاء هم أئمّة الشيعة وقادتهم، بل أئمّة المسلمين جميعاً، وكيف لا يكونون كذلـك، وقد تـرك رسول الله بعـد رحلته الثقلين وحـثّ الأُمّة على التمسّـك بهما، وقال: «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً».[٣]

ولكن المؤسف أنّ أهل السنّة والجماعة لم يعتمدوا في تفسير كتاب الله العزيز على أقوال أهل البيت، وهم قرناء القـرآن وأعداله والثقل الآخر من الثقلين، وإنّما استعانوا في تفسيره بأُنـاس لا يبلغون شأوهم و لا يشقّون غبارهـم، نظراء :مجاهد بن جبر(المتوفّى١٠٤هـ) وعكرمة البربـري (المتوفّى١٠٤هـ) وطاووس بـن كيسان اليماني(المتوفّى١٠٦هـ) وعطـاء بـن أبي رباح(المتوفّى١١٤هـ) ومحمـد بـن كعـب القرظي (المتوفّى١١٨هـ)، إلى غير ذلك من أُناس لا يبلغـون في الوثاقة والمكـانة

١. الرعد:٣٩. ٢. إثبات الوصية: ٢٤١.

٣. رواه غير واحد من أصحـاب الصحاح والمسانيد وهـو من الأحاديث المتـواترة،(لاحظ نشرة دار التقريـب بين المذاهب الإسلاميـة. حول هذا الحديث، تـرى اسنادها مـوصولة إلى النبـيّ الأكرم ﷺ).

العلمية معشار ما عليه أئمّة أهل البيت صلوات الله عليهم....

وقد بلغت إحاطة أئمّة أهل البيت بالكتاب العزيز إلى حدّ يقول الإمام الباقر عليه السلام : «إنّ الله تبارك و تعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأُمّة إلى يوم القيامة إلاّ أنزله في كتابه وبيّنه لرسوله، وجعل لكلّ شيء حداً وجعل عليه دليلاً يدلّ عليه».[1] ويقول الإمام الصادق عليه السلام : «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله عزّوجلّ ولكنّ لا تبلغه عقول الرجال».[2]

أسنادهم موصولة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله

إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام لا يروون في مجال الفقه والتفسير والأخلاق والدعاء، إلاّ ما وصل إليهم عن النبيّ الأكرم عن طريق آبائهم وأجدادهم، وليس مرويّاتهم آراءهم الشخصيّة التي تنبع من عقليّتهم، فمن قال بذلك وتصوّرهم مجتهدين مستنبطين، فقد قاسهم بالآخرين ممّن يعتمدون على آرائهم الشخصيّة، وهو في قياسه خاطئ فهم منذ نعومة أظفارهم إلى أن لبّوا دعوة ربّهم لم يختلفوا إلى أندية الدروس، ولم يحضروا مجلس أحد من العلماء، ولا تعلّموا شيئاً من غير آبائهم، فما يذكرونه علوم ورثوها من رسول الله وراثة غيبيّة لا يعلم كنهه إلاّ الله سبحانه والراسخون في العلم.

وهذا جابر الجعفي، قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام : إذا حدثتني بحديث فأسْنِدْه لي، فقال: «حدّثني أبي عن جدّي، عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله تبارك و تعالى فكلّ ما أُحدثك بهذا الاسناد، ثمّ قال: «لحديث واحد

---

١. الكافي: ١/ ٤٨ من كتاب فضل الأئمة.

٢. المصدر نفسه.

تأخذه من صادق عن صادق خير لك من الدنيا وما فيها».[١]

وروى حفص بن البختري. قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام أسمع الحديث منك فلا أدري منك سماعه أو من أبيك؟ فقال: «ما سمعته منّي فاروه عن أبي، وما سمعته منّي فاروه عن رسول الله صلى الله عليه وآله».[٢]

فأئمّة المسلمين على حدّ قول القائل:

ووال أُناساً نقلهم و حديثهم روى جدّنا عن جبرئيل عن الباري

ولقد عاتب الإمام الباقر عليه السلام سلمة بن كهيل و الحكم بن عيينة حيث كانا يتعاطيان الحديث من الناس، ولا يهتمّان بأحاديث أهل البيت، فقال لهما: « شرّقا وغرّبا، فلا تجدان علماً صحيحاً إلاّ شيئاً خرج من عندنا أهل البيت».

تلك ـ والله ـ خسارة فادحة، حيث إنّ جماعة من المحدّثين والفقهاء والمفسّرين دقّوا كلّ باب ولم يدقّوا باب أهل البيت إلاّ شيئاً لا يذكر ففسّروا كتاب الله بآرائهم وأفتوا في المسائل الشرعية بالمقاييس الظنية التي ليس عليها مسحة من الحقّ، ولا لمسة من الصدق حتى حشوا تفاسيرهم بإسرائيليّات ومسيحيّات بثّها مسلمة أهل الكتاب ككعب الأحبار ووهب بن منبه وتميم الداري وأضرابهم بين المسلمين، وأخذها عنهم المحدّثون والرواة والمفسّرون في القرون الأُولى، زاعمين أنّها علوم ناجعة وقضايا صادقة، فيها شفاء العليل، ورواء الغليل والحال أنّك إذ فتّشت التفاسير المؤلّفة في القرون الغابرة لا تجد تفسيراً علمياً أو روائياً من أهل السنّة إلاّ وهو طافح بآرائهم الشخصية وأقوالهم التي لا قيمة لها في سوق العلم، وقد استفحل أمر هؤلاء الرواة حتى اغترّ بهم بعض المفسّرين من الشيعة، فذكروا

---

١. وسائل الشيعة:١٨، الباب٨ من أبواب صفات القاضي، الحديث ٦٧.

٢. المصدر نفسه، الحديث ٨٦.

جملة من الإسرائيليات في ثنايا تفاسيرهم، وما ذلك إلاّ لأنّ تلك الأفكار كانت رائجة إلى حدّ كان يعدّ الجهل بها، وعدم نقلها قصوراً في التفسير وقلّة اطلاع فيه، ولأجل ذلك لم يجد شيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي بداً من نقل آراء هؤلاء في تفسيره «التبيان»، وتبعه أمين الإسلام في تفسير «مجمع البيان»، ولكن لم يكن ذكرهم لآراء هؤلاء لأجل الاعتماد عليهم والركون إليهم، وإنّما ألجأتهم إليه الضرورة الزمنيّة والسياسة العلمية السائدة على الأوساط آنذاك.

إذا وقفت على أئمّة التفسير وأساتذته، فهلمّ معي ندرس حياة شيعتهم ممّن خدموا القرآن في عصرهم، وبعدهم وهم الذين تربّوا في حجورهم، وارتووا من نمير علمهم الصافي، وتمسّكوا بأهداب معارفهم، وقد خدموا القرآن بمختلف أشكال الخدمة، نشير إليها على وجه الإجمال، ونحيل التفصيل إلى آونة أُخرى.

١. الشيعة وتفسير غريب القرآن

ارتحل النبيّ الأكرم ﷺ، فعكف المسلمون على دراسة القرآن، ولكن أوّل ما فوجئوا به كان هو قصور باع لفيف منهم عن معرفة معاني بعض ألفاظه، فما هذا إلاّ لأنّ في القرآن ما قد ورد بغير لغة أهل الحجاز. انّ القرآن وإن نزل بلغة أهل الحجاز بشكل عام، لكن ربّما وردت فيه ألفاظ ذائعة بين القبائل الأُخرى، وقد عقد السيوطي باباً فيما ورد في القرآن بغير لغة أهل الحجاز[1]، وأظنّ أنّه قد أفرط في هذا الباب، ولكنّه لا يمكن إنكار هذا الأصل في القرآن الكريم من أساسه، وممّا يشهد بذلك (مفاجأة المسلمين بغريب القرآن) ما رواه القرطبي في تفسيره فقال:

---

١. الإتقان: ٢/ ٦٩ـ ١٠٤.

عن عمر أنّه قال على المنبر: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿أَوْ يأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوّفٍ﴾ [١] فسكتوا، فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا. التخوّف: التنقص، قال: فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم. قال: شاعرنا ـ زهير ـ أبو كبير الهذلي يصف ناقة تنقّص السير سنامها بعد تمكِه واكتنازه:

تَخَوّفَ الرحلُ مِنها تامكاً قَرداً كَما تخوّفَ عُود النبعة السفن[٢]

فقال عمر: أيّها الناس عليكم بديوانكم لا يضلّ، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فانّ فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

روى أبو الصلت الثقفي أنّ عمر بن الخطاب: قرأ قول الله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلّهُ يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ [٣] بنصب الراء وقرأها بعض من عنده من أصحاب رسول الله ﷺ بخفض الراء، فقال: أبغوني رجلاً من كنانة، و اجعلوه راعياً وليكن مدلجياً، فأتوه به، فقال له عمر: يا فتى! ما الحرجة فيكم؟ فقال: الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار الّتي لا تصل إليها راعية ولا وحشيّة ولا شيء، فقال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.[٤]

روى عبد الله بن عمر قال: قرأ عمر بن الخطاب هذه الآية: ﴿ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ، ثمّ قال: ادعوا لي رجلاً من بني مدلج، قال عمر: ما الحرج فيكم؟ قال: الضيق.[٥]

وكم لهذه القصص من نظائر في التاريخ، وهذا هو نافع بن الأزرق، لمّا رأى

---

١. النحل: ٤٧.

٢. التفسير (للقرطبي): ١٠/ ١١٠، تَمَكَ السنام: طال وارتفع، القرد: المتراكم بعض لحمه فوق بعض، النبعة: شجرة من أشجار الجبال، يتخذ منها القسي، السفن: القشر.

٣. الأنعام: ١٢٥. ٤. الدر المنثور: ٣/ ٤٥. ٥. كنز العمال: ١/ ٢٥٧.

عبد الله بن عباس جالساً بفناء الكعبة، وقد اكتنفه الناس ويسألونه عن تفسير القرآن، فقال لنجدة بن عويمر[١] الحروري: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنّا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسّرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فانّ الله تعالى أنزل القرآن بلسانٍ عربي مبين، فقال ابن عباس: سلاني عمّا بدا لكم ، فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ عِزِين﴾ [٢] قال: العزون: الحلَق الرقاق، فقال: هل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم. أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءُوا يُهْرَعُونَ إليه حتى ... يكونُوا حولَ منبرِهِ عِزينا

ثمّ سألاه عن أشياء كثيرة عن لغات القرآن الغريبة ففسّرها مستشهداً بالشعر الجاهلي، ربّما تبلغ الأسئلة والأجوبة إلى مائتين، ولو صحّت تلك الرواية لدلّت قبل كلّ شيء على نبوغ ابن عباس في الأدب العربي، وإلمامه بشعر العرب الجاهلي حيث استشهد على كلّ لغة فسّرها بشعر منهم، وقد جاءت الأسئلة والأجوبة في الاتقان.[٣]

وهذه الأحاديث والأخبار تعرب عن أنّ الخطوة الأُولى لتفسير القرآن الكريم كانت تفسير غريبه وتبيين ألفاظه التي ربّما تشكل على البعض، ولعلّ ذلك كان الحافز القوي للفيف من جهابذة الأُمّة، حيث استثمروا تلك الخطوة وبلغوا الغاية فيه من غير فرق بين السنّة والشيعة، ونحن نذكر في هذا المجال ما ألّفه علماء الشيعة وأُدباؤهم بعد ابن عباس، ونكتفي من الكثير بمشاهيرهم الذين كان لهم دوي في الأوساط اللغوية والأدبية، ونترك من لم يكن له ذلك الشأن، فليكن ذلك

---

١. الرجلان من رؤوس الخوارج، توفي نافع عام (٦٥هـ) وتوفي نجدة عام (٦٩هـ).

٢. المعارج:٣٧. ٣. الإتقان:٢/ ٥٥ـ٨٨.

عذراً لمن يقف على مؤلّفات لهم في غريب القرآن، ولم نذكرها في تلك القائمة.

١. **غريب القرآن**، لأبان بن تغلب بن رباح البكري(المتوفّى ١٤١هـ) من أصحاب علي بن الحسين والباقر والصادق عليهم السلام ، وكانت له منزلة عندهم، وقد نصّبه أبو جعفر الباقر عليه السلام للافتاء، وقال: «اجلس في مسجد المدينة وأفت الناس فانّي أحبّ أن يرى في شيعتي مثلك»، وقال أبو عبد الله عليه السلام لمّا أتاه نعيه: «والله أوجع قلبي موت أبان». وقال النجاشي: عظيم المنزلة في أصحابنا، وكان قارئاً من وجوه القرّاء فقيهاً لغوياً، سمع من العرب وحكى عنهم، وكان أبان رحمه الله مقدّماً في كلّ فن من العلم، في القرآن والفقه والحديث والأدب واللغة والنحو. وله كتب منها تفسير غريب القرآن وكتاب الفضائل، ولأبان قراءة مفردة مشهورة عند القرّاء. مات أبان في حياة الإمام الصادق سنة (١٤١هـ).[١]

٢. **غريب القرآن** : لمحمد بن السائب الكلبي(المتوفّى ١٤٦هـ)وهو من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ووالد هشام بن محمد بن السائب الكلبي العالم المشهور والنسّابة المعروف.[٢]

٣. **غريب القرآن** : لأبي روق[٣] عطيّة بن الحارث الهمداني الكوفي التابعي. قال ابن عقدة: كان ممّن يقول بولاية أهل البيت عليهم السلام .[٤]

---

١. رجال النجاشي: ١/ ٧٣ برقم ٦؛ بغية الوعاة:٧٦؛ تهذيب التهذيب:١/ ٩٣؛ الطبقات الكبرى:٦/ ٣٦؛ ميزان الاعتدال:١/ ٥ وغيرهم من أصحاب المعاجم.

٢. رجال النجاشي:١/ ٧٨؛ تنقيح المقال: ٣/ ١١٩.

٣. كذا في رجال النجاشي، وفي فهرست الشيخ «أبي ورق»، والصحيح هو الأوّل ذكره ابن النديم أيضاً: ص ٥٧.

٤. رجال النجاشي: ١/ ٧٨؛ الطبقات الكبرى:٦/ ٣٦٨؛ خلاصة الأقوال:١٣١؛ معجم الأدباء:١/ ١٠٧ برقم ٢.

٤. **غريب القرآن** : لعبد الرحمن بن محمد الأزدي الكوفي، جمعه من كتاب أبان و محمد بن السائب الكلبي، وأبي روق عطية بن الحارث، فجعله كتاباً واحداً فبيّن ما اختلفوا فيه وما اتّفقوا عليه، فتارة يجيء كتاب أبان مفرداً، وتارة يجيء مشتركاً.[١]

ويظهر من سند الشيخ الطوسي إليه في الفهرست أنّه ممّن صحب أبان بن تغلب، وينقل عنه ابن عقدة المتوفّى عام (٣٣٣هـ) بواسطة حفيده (أبو أحمد بن الحسين بن عبد الرحمن الأزدي)، فالرجل من علماء القرن الثاني.

٥. **غريب القرآن** : للشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد الطبري الآملي الوزير الشيعي المتوفّى عام (٣١٣هـ).[٢]

٦. **غريب القرآن**: للشيخ أبي الحسن علي بن محمد العدوي الشمشاطي النحوي المعاصر لابن النديم الذي ألّف فهرسته عام (٣٧٧هـ). قال النجاشي: «كان شيخنا بالجزيرة، وفاضل أهل زمانه وأديبهم، له كتب كثيرة منها كتاب «الأنوار والثمار». قال لي سلامة بن ذكاء: إنّ هذا الكتاب ألفان وخمسمائة ورقة يشتمل على ذكر ما قيل في الأنوار والثمار من الشعر». ثمّ عدّ كتبه،ومنها كتاب غريب القرآن إلى أن قال: قال سلامة: وكتاب مختصر الطبري، حيث حذف الأسانيد والتكرار، وزاد عليه من سنة ثلاث وثلاثمائة إلى وقته فجاء نحو ثلاثة آلاف ورقة، وتمّم كتاب « الموصل» لأبي زكريا زيد بن محمد، وكان فيه إلى سنة

---

١. فهرست الطوسي: ٦٤١ ؛ رجال النجاشي: ١/ ٧٨ . وفي الثاني «الحارث» مكان «الحرث» كما عرفت الاختلاف في «روق» و «ورق».

٢. فهرست ابن النديم: ٥٨.

(٣٢١هـ)، فعمل فيه من أوّل سنة(٣٢٢هـ) إلى وقته، وذكر النجاشي فهرس كتبه، منها غريب القرآن.[1]

٧. **غريب القرآن**: للشيخ فخر الدين الطريحي المتوفّى عام (١٠٨٥هـ)، وقد طبع في النجف الأشرف في جزء واحد عام (١٣٧٢هـ)، وأسماه المؤلّف بـ«نزهة الخاطر وسرور الناظر وتحفة الحاضر».

٨. **مجمع البحرين ومطلع النيرين**: وهو في غريب القرآن والحديث ولغتهما للشيخ الطريحي أيضاً، وهو كتاب كبير معجم للغاتهما، طبع في ستة أجزاء.

٩. **البيان في شرح غريب القرآن**: للشيخ قاسم بن حسن آل محيي الدين طبع بالنجف عام (١٣٧٤هـ)، بإشراف وتصحيح مرتضى الحكمي.

١٠. **غريب القرآن**: للسيد محمد مهدي بن السيد الحسن الموسوي الخرسان يقع في جزءين.[2]

هذه عشرة كاملة نكتفي بها، وهناك كتب أُلّفت في توضيح مفردات القرآن بغير اللغة العربية، فمن أراد فليرجع إلى الفهارس.

فإذا كانت هذه الكتب تهدف إلى تفسير غريب القرآن وتبيين مفرداته، فهناك كتب تهدف إلى تفسير غريب جمله التي جاءت في القرآن بصورة المجاز أو الكناية أو الاستعارة على الفرق الواضح بينها، وإليك بعض ما أُلّف في ذلك المجال:

١. **مجاز القرآن**: لشيخ النحاة الفرّاء يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمي

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٩٣ برقم ٦٨٧، وترجمة الياقوت في معجم الأُدباء: ١٤/ ٢٤٠ برقم ٣٩.

٢. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١٦/ ٥٠ برقم ٣٠٨.

الكوفي الذي توفّي في طريق مكّة عام (٢٠٧هـ).[١]

٢. **المجاز من القرآن**: لمحمّد بن جعفر أبو الفتح الهمداني، المعروف بـ«المراغي». يقول النجاشي: كان وجيهاً في النحو واللغة ببغداد، حسن الحفظ، صحيح الرواية فيما نعلمه، ثمّ ذكر كتبه وقال: كتاب ذكر المجاز من القرآن.[٢]

٣. **مجازات القرآن**: للشريف الرضي و هو أحسن ما أُلّف في هذا المجال، وأسماه «تلخيص البيان في مجازات القرآن»، وقد طبع مرّات أحسنها ما قام بطبعه مؤتمر الذكرى الألفيّة للسيد الشريف الرضي عام (١٤٠٦)، وهو من أنفس الكتب.

هؤلاء مشاهير المؤلّفين في غريب القرآن ولغته ومجازاته، وهناك عدّة أُخرى جالوا في هذا الميدان، لكن لا على وجه الاستقلال، بل أدرجوه في التفسير. فهذا هو الشيخ الطوسي يبيّن مفردات القرآن واشتقاقاتها بوجه دقيق في تبيانه، كما أنّ أمين الإسلام الطبرسي قام بهذه المهمّة في تفسيره «مجمع البيان»، ولو قام الباحث باستخراج ما ذكره هذان العلمان في مجال مفردات الكتاب العزيز لجاء كتاباً حافلاً.

وفي الختام ننبّه على نكتة، وهو أنّ التفسير اللغوي للقرآن صار أمراً رائجاً في عصرنا هذا واشتهر باسم التفسير البياني، ومن المصرّين على هذا النمط من التفسير أمين الخولي المصري، والكاتبة المصرية عائشة بنت الشاطئ، وقد انتشرت منهما في ذلك المجال كتب، وقاما بتفسير القرآن بالرجوع إلى نفس القرآن الكريم، والتفتيش عن موارد استعمالها في جميع الآيات، وهذا النمط من التفسير يعالج

---

١. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١٧/ ٣٥١ برقم ١٥٦٧.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٣١٩ برقم ١٠٥٤.

جانباً واحداً من مهمّة التفسير، وهناك جوانب أُخرى لا يستغني الباحث عنها إلّا بالتمسّك بصحيح الأثر وغيره.

٢. الشيعة والتفسير الموضوعي بأقسامه

إنّ نزول القرآن نجوماً، وتوزع الآيات الراجعة إلى أكثر الموضوعات في سور القرآن يقتضي نمطاً آخر من التفسير غير تفسير القرآن سورة فسورة وآية فآية، وهذا النمط عبارة عن تفسيره حسب الموضوع بجمع آيات كلّ موضوع في محلّ واحد وتفسير مجموعتها مرّة واحدة، مثلاً المفسّر الذي يحاول التعمق في الحديث عن السماء والأرض، أو عن المعاد، أو قصص الأنبياء، أو في أفعال الإنسان من جهة الجبر والاختيار، لابدّ أن يتبع هذا النمط الذي ذكرناه ليتمكّن من جمع أطراف الموضوع جمعاً كاملاً وشاملاً.

إنّ من جملة الأسباب التي دعت إلى ظهور عقائد مختلفة بين المسلمين، وتشبّث صاحب كلّ مذهب بآيات القرآن، هو أنّهم اهتمّوا بقسم خاص من آيات الموضوع دون الأخذ بكلّ ما يرجع إليه، ولو أنّهم اهتموا في كلّ مسألة من المسائل الاعتقادية بمجموع الآيات لدرؤوا عن أنفسهم الوقوع في المهاوي السحيقة.

ومن باب المثال نذكر أصحاب عقيدة الجبر في أفعال الإنسان، أو مذهب التفويض فيها، فانّهم ابتلوا بما ذكرناه، وخبطوا خبطة عشواء في فهم المقاصد الإلهيّة وتفسيرها. إنّ الرجوع إلى الفهارس ومعاجم الكتب خصوصاً فيما ألّف في أحوال رجال كانوا يعيشون في القرون الأُولى الإسلامية إلى رابعة القرون وخامستها يكشف عن أنّ هناك لفيفاً من علماء الشيعة وفطاحلهم اهتموا بهذا النمط من

التفسير في إطار خاصّ، فترى أنّهم ألّفوا كتباً تفسيريّة في خصوص موضوعات محدودة، فجمعوا آياتها في رسائلهم وكتبهم وأدّوا حقّ الكلام في الموضوع الذي لا يمكن في النمط الآخر من التفسير، ونذكر في المقام بعض ما ألّف في ذلك المجال:

أ: المحكم والمتشابه

إنّ القرآن الكريم يصنّف الآيات القرآنية ويقسّمها إلى محكم ومتشابه، فالمحكم هو أمّ الكتاب، والمتشابه ما يجب أن يرجع إليها في تبيين مفهومه، فكأنّ المحكم أصل، والمتشابه فرع، ويجب أن نستعين في فهم المتشابه بالأمّ، قال سبحانه: ﴿**هُوَ الّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتابِ وَأُخَرُ مُتَشابِهات**﴾.[١]

ثمّ إنّه وقع الاختلاف في تفسير المتشابه إلى أقوال كثيرة ذكرها الفخر الرازي في تفسيره، وأنهاها إلى قرابة عشرين قولاً لا يسع المقام ذكرها ونقدها، وإنّما الغرض هو الإشارة إلى ما قام به الشيعة الإمامية طوال القرون من تأليف رسائل خاصّة في ذلك الموضوع، والبحث عن الآيات المتشابهة إلى جانب الآيات المحكمة، ونذكر في هذه القائمة مشاهير المؤلّفين ونترك الباقي لأصحاب المعاجم:

١. **متشابه القرآن**: لإمام القرّاء أحد البدور السبعة، أبي عمارة، حمزة بن حبيب الزيّات الكوفي، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، والمتوفّى أيّام المنصور، عام (١٥٨ هـ)، ذكره ابن النديم.[٢]

---

١. آل عمران:٧.

٢. فهرست ابن النديم: ٦١.

٢. محكم القرآن ومتشابهه: لسعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي. قال النجاشي: شيخ هذه الطائفة وفقيهها ووجهها، إلى أن قال: ولقي مولانا أبا محمد عليه السلام، له كتاب ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، والظاهر أنّ كتابه في فصلين أحدهما: الناسخ و المنسوخ، والثاني: في المحكم والمتشابه، أو هما رسالتان جمعهما في جزء واحد، توفّي سعد عام (٣٠١هـ).[١]

٣. متشابه القرآن: تأليف أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي. قال النجاشي: شيخنا المتكلّم المبرز على نظرائه في زمانه قبل الثلاثمائة وبعدها، ثمّ عدّ كتبه الكثيرة وقال: «...متشابه القرآن، وله مجالس مع الشيخ أبي القاسم البلخي المعتزلي (المتوفّى ٣١٩هـ).[٢]

٤. متشابه القرآن: للشيخ أبي عبد الله محمد بن هارون، أُستاذ الشيخ محمد ابن المشهدي، صاحب «المزار»، (المتوفّى عام ٥٣٠هـ).[٣]

٥. متشابه القرآن و مختلفه: تأليف الشيخ رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني، المولود عام (٤٨٨هـ)، والمتوفّى عام (٥٨٨هـ)، وهو كتاب نفيس ينبئ عن طول باعه، وسيوافيك الكلام فيه في قائمة أعلام التفسير في القرن السادس.

٦. متشابه القرآن: لصدر المتألّهين المولى محمد بن إبراهيم الشيرازي، المولود عام (٩٧٩هـ)، والمتوفّى عام (١٠٥٠هـ).[٤]

---

١. رجال النجاشي: ١/ ٤٠١ برقم ٤٦٥.
٢. رجال النجاشي: ١/ ١٧٩ برقم ١٤٦.
٣. أمل الآمل: ٢/ ٣١١ برقم ٩٤٧، يعرّفه بقوله: فاضل جليل، صالح فقيه، له كتب: منها: مختصر التبيان في تفسير القرآن، وكتاب متشابه القرآن....
٤. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١٩/ ٦٢ برقم ٣٢٨.

٧ . **متشابهات القرآن و محكماته : تأليف** العلاّمة محمد هادي معرفة، وهو يشكّل جزءاً خاصّاً من موسوعته: «التمهيد في علوم القرآن»، وقد درس الآيات المتشابهة حسب ترتيب السور، وهو كتاب ممتع.

٨ . **أضواء على متشابهات القرآن : تأليف** الشيخ خليل ياسين المعاصر، طبع في بيروت في جزءين عام (١٣٨٨هـ).

ونكتفي بما ذكر، وقد قام المعاصرون بتأليف رسائل مستقلة حول متشابهات القرآن، وفيما ذكرنا غنى وكفاية.

ب : الناسخ والمنسوخ

إنّ البحث عن الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم من الموضوعات التي لفتت نظر الباحثين والمحقّقين، وقد ألّف في ذلك الموضوع كتب ورسائل، وقد قام أبو بكر النحّاس بجمع الآيات التي ادّعى نسخها في كتاب أسماه «الناسخ والمنسوخ» فبلغت (١٣٨)آية.

إنّ النسخ في الاصطلاح عبارة عن «رفع أمر ثابت» في الشريعة المقدّسة بارتفاع أمده وزمانه، و المعروف بين الإلهيين، جواز النسخ أي رفع الحكم عن موضوعه في عالم التشريع والإنشاء، وخالف في ذلك اليهود، فادّعوا استحالة النسخ، واستندوا في ذلك إلى شبه واهية.[1]

والمقصود في المقام هو نسخ الأحكام الواردة في القرآن الكريم، لا مطلق نسخ الأحكام وإن لم يرد في القرآن الكريم، فانّ القسم الثاني ممّا لا كلام فيه، فقد

---

١. قوانين الأُصول: ٢/ ٩٢، المقصد الخامس في النسخ.

صرّح القرآن الكريم بنسخ لزوم التوجّه إلى القبلة الأُولى في الصلاة، والكلام في أن يكون شيء من أحكام القرآن منسوخاً بـالقرآن أو بالسنّة القطعية أو بالإجماع، وقد قسّموا النسخ إلى ثلاثة أقسام:

١. نسخ التلاوة والحكم.

٢. نسخ التلاوة دون الحكم.

٣. نسخ الحكم دون التلاوة.

والأوّل: بيّن الفساد لا يقـول به إلاّ القـائل بالتحريـف في الكتاب العـزيز، والمسلمون برآء منه إلاّ الحشوية من العامّة وبعض الأخباريّين من الخاصّة.

ومُثّل للثاني: بـآية الرجم، وانّه كـان في القرآن الكريم ثمّ نسـخ، والقول به أيضاً يلازم القول بالتحريف المصون عنه كتاب الله العزيز.

والقسم الثالث: هو المشهور بين العلماء والمفسّريـن، فأنكر جماعة وجوده، وخـالفهم بعـض آخر بعـد الاتّفاق على الإمكـان، والعدد الـذي ذكره النحّـاس إفراط، كما أنّ نفيه من رأس تفريط، والتحقيق مـوكول إلى محلّه، وها نحن نذكر في هذا المقام الرسائل المؤلّفة في هذا الموضوع من غير فرق بين أن يكون المؤلّف مثبتاً، أو نافياً وإليك البيان:

١. **الناسخ والمنسوخ**: لعبد الله بن عبد الـرحمن الأصم المسمعي، المنسوب إلى طائفـة من العرب بـاسم المسامعـة ذكره النجاشي، وقـال: وله كتاب النـاسخ والمنسوخ[١]، يروي عنه محمد بن عيسى بن عبيد المتوفّى عام (٢٦٢هـ)، ويروي هو عن مسمع بن كردين، وهو من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ١٥ برقم ٥٦٤؛ الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٤/ ١٢ برقم ٥٩.

٢. الناسخ والمنسوخ: تأليف حسن بن واقد الذي هو أخو عبد الله بن واقد المعدود من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.[1]

٣. الناسخ والمنسوخ: لدارم بن قبيصة التميمي الدارمي السائح، وهو ممّن روى عن الإمام الرضا عليه السلام وله كتاب آخر باسم الوجوه والنظائر.[2]

٤. الناسخ والمنسوخ: تأليف حسن بن علي بن فضّال الكوفي، من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام[3] المتوفّى عام (٢٢٤هـ).

٥. الناسخ و المنسوخ: لأحمد بن محمد بن عيسى الأشعري. قال النجاشي: شيخ القميين ووجههم وفقيههم غير مدافع، وكان أيضاً الرئيس الذي يلقى السلطان، ولقي الرضا عليه السلام وله كتب، ولقي أبا جعفر الثاني وأبا الحسن العسكري، له كتاب الناسخ والمنسوخ[4] توفي بعد سنة (٢٧٤)، أو (٢٨٠).

٦. الناسخ والمنسوخ: لسعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي، شيخ هذه الطائفة وفقيهها ووجهها، ولقي مولانا أبا محمد العسكري، ثمّ ذكر كتبه، منها ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، توفّي عام (٢٩٩هـ) أو (٣٠١هـ).[5]

٧. الناسخ والمنسوخ: لشيخ القميين علي بن إبراهيم بن هاشم الذي كان حيّاً عام (٣٠٧هـ)، وقد أكثر الكليني النقل عنه.[6]

---

١. فهرست ابن النديم: ٥٧؛ الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٤/ ١١ برقم ٥٢ ونقله عن النجاشي أيضاً ولم نجده، وله تفسير أيضاً سيوافيك في محلّه.

٢. رجال النجاشي: ١/ ٣٧٢برقم ٤٢٧.

٣. رجال النجاشي: ١/ ١٢٧ برقم ٧١.

٤. رجال النجاشي: ١/ ٢١٦ برقم ١٩٦.

٥. رجال النجاشي: ١/ ٤٠١ برقم ٤٦٥.

٦. رجال النجاشي: ٢/ ٨٦ برقم ٦٧٨.

٨. **الناسخ والمنسوخ:** لعبد العزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودي الأزدي البصري، شيخ البصرة وأخباريها، وكان عيسى الجلّودي من أصحاب أبي جعفر عليه السلام ذكره النجاشي و ذكر له كتباً كثيرة، منها كتاب الناسخ والمنسوخ، كما ذكر له كتاب التفسير وسيجيء في محلّه، وهو من شيوخ محمد بن جعفر بن قولويه، مؤلّف كامل الزيارات (المتوفّى عام ٣٦٧هـ).[١]

٩. **الناسخ والمنسوخ:** لمحمد بن العباس المعروف بابن الحجام يروي عنه التلعكبري سماعاً عنه سنة (٣٢٨هـ).[٢]

١٠. **الناسخ والمنسوخ:** للشيخ الصدوق، (المتوفّى عام٣٨١هـ)، والنسخة موجودة بالنجف الأشرف مكتبة الشيخ علي كاشف الغطاء[٣]، واحتمل شيخنا المجيز الطهراني أن تكون النسخة للناسخ والمنسوخ تأليف الشيخ عبد الرحمن بن محمد العتائقي الحلي، كما سيجيء.

١١. **الناسخ والمنسوخ من القرآن العظيم:** لقطب الدين سعيد بن هبة الله ابن الحسن الراوندي (المتوفى عام٥٧٣هـ) توجد منه نسخة في طهران، وهو مؤلّف «الخرائج والجرائح» المعروف.[٤]

١٢. **الناسخ والمنسوخ:** لعبد الرحمن بن محمد العتائقي الحلي، المتوفى عام (٧٦٠هـ)، والنسخة موجودة في النجف.[٥]

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٥٤ برقم ٦٣٨؛ الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٤/ ١١ برقم ٥٦.

٢. فهرست الطوسي: ١٧٧ برقم ٦٥٢.

٣. رجال النجاشي: ٢/ ٣١١ برقم ١٠٥٠؛ الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٤/ ١١ برقم ٥٥.

٤. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٤/ ١١ برقم ٥٧.

٥. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٤/ ١٤ برقم ٦٩.

١٣. الناسخ والمنسوخ: لجمال الدين أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسن بن المتوّج البحراني من أجلّاء تلاميذ فخر المحقّقين (المتوفّى عام ٧٧١هـ)، والمعاصر للشهيد الأوّل، (المتوفّى عام ٧٨٦هـ)، وقد بسط في الكتاب القول في بيان الآيات الناسخة والمنسوخة، قال سليمان الماحوزي: «وقد قرأته على بعض مشايخي في حداثة سنّي، سنة (١٠٩١هـ)» والنسخة موجودة في النجف الأشرف.[١]

١٤. الناسخ والمنسوخ: لعلي بن شهاب الدين الحسيني العلوي الهمداني، (المتوفّى عام ٧٨٦هـ)، ومنه نسخة في مكتبة المرعشي بقم.[٢]

١٥. الناسخ والمنسوخ من الآيات القرآنية: لفخر الدين أحمد بن عبد الله بن سعيد بن المتوّج البحراني، شيخ ابن فهد الحلي، (المتوفّى عام ٨٤١هـ)، وتلميذ فخر المحقّقين، (المتوفّى عام ٧٧١هـ) وهو غير جمال الدين أحمد بن عبد الله الذي مضى برقم ١٣.[٣]

١٦. الناسخ والمنسوخ: لشهاب الدين أحمد بن فهد الاحسائي مؤلّف خلاصة التنقيح (المتوفّى ٨٠٦هـ) شرحه عبد الجليل الحسيني القاري، شارح الجزرية في التجويد سنة (٩٧٢هـ)، وقد شرح هذا الكتاب سنة (٩٧٦هـ)، وطبع في طهران (عام ١٣٨٤هـ).[٤]

١٧. الناسخ والمنسوخ: للشيخ محمد مهدي بن جعفر الكاشاني الموسوي،

---

١. المصدر نفسه: ٢٤/ ٩ برقم ٤٧.

٢. المصدر نفسه: ٢٤/ ١٢ برقم ٦٢.

٣. المصدر نفسه: ٢٤/ ١٣ برقم ٦٨.

٤. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٤/ ١٠ برقم ٤٩.

ألّفه عام (١٢٥٠هـ)، وهو حفيد الوحيد البهبهاني.[١]

١٨. الناسخ و المنسوخ: للشيخ محمد شريف الموسوي الاصفهاني المجاز من الفاضل الايرواني، (المتوفّى عام ١٢٠٦هـ)، والشيخ زين العابدين المازندراني الحائري، طبع مع رسالته «نسيم السحر» في سنة (١٣٢٣هـ).[٢]

هؤلاء مشاهير المؤلّفين في الناسخ والمنسوخ، ومن أراد التوسّع فليرجع إلى المعاجم والفهارس، غير أنّ هنا لفيفاً من أعلام الطائفة درس مسألة الناسخ والمنسوخ في الذكر الحكيم دراسة معمّقة في ثنايا تفسيرهم أو مقدّماته، وأخصّ بالذكر مادبّجته يراعة المرجع الإسلامي الكبير السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي ـ دام ظلّه ـ فقد طرح القسم الثالث من الناسخ والمنسوخ في كتابه «البيان في تفسير القرآن»، واقتصر في البحث على (٣٦) آية، وخرج بأنّها غير منسوخة.[٣]

والجدير بالذكر أنّه لم يبحث عن آية العدّة، أعني قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوفَّونَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ﴾ [٤]، فانّ هذه الآية ناظرة إلى الحول المعروف في الجاهلية الذي كان عدّة للنساء فيها، وقد أقرّ القرآن هذا الحكم مؤقّتاً ونسخ حكماً بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزواجاً يَتَرَبَّصنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشراً﴾ [٥]، فقد تضافرت النصوص على ذلك من أئمّة أهل البيت.[٦]

---

١. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢٤/ ١٣ برقم ٦٥.

٢. المصدر نفسه: ٢٤/ ١١ برقم ٥٤.

٣. البيان: ٢٧٧، ٣٨١.

٤. البقرة: ٢٤٠.

٥. البقرة: ٢٣٤.

٦. وسائل الشيعة: ١٥/ ٤٥١، الباب ٣٠ من أبواب العدد.

ج: آيات الأحكام

الآيات التي تقع ذريعة لاستنباط الأحكام الشرعية المتعلّقة بعمل المكلّف في حياته الفردية والاجتماعية هي الآيات المعروفة بآيات الأحكام، وهي على المشهور ثلاثمائة آية تقريباً، وهناك أُناس يستنبطون من كثير من الآيات القرآنية أحكاماً عملية، ولا تعدّ من آيات الأحكام وقد تعرّفت على بعضها في الأحاديث المرويّة عن الإمام الجواد والإمام الهادي عليهما السلام.

وقد أفردها لفيف من علماء الشيعة بالتأليف والتفسير بين رسائل صغيرة إلى كتب حافلة بالتحقيق، وربّما حازوا قصب السبق في هذا المضمار كما سيتضح، وإليك أسماء مشاهيرهم في هذا الفصل مقتصرين عليهم:

١. **آيات الأحكام**: لأبي نصر محمد بن السائب بن بشر الكلبي من أصحاب أبي جعفر الباقر وأبي عبد الله الصادق عليهما السلام (المتوفّى عام ١٤٦هـ)، وهو والد هشام الكلبي النسابة الشهير، وصاحب التفسير الكبير الذي هو أبسط التفاسير كما أذعن به السيوطي في الإتقان.

قال ابن النديم في الفهرست عند ذكره للكتب المؤلّفة في أحكام القرآن ما لفظه:

«كتاب أحكام القرآن للكلبي رواه عن ابن عباس، وهو أوّل من صنّف في هذا الفن لا الإمام الشافعي محمّد بن إدريس المتوفّى سنة (٢٠٤هـ) كما زعم السيوطي، وكيف لا يكون كذلك وقد توفّي الكلبي قبل ولادة الشافعي بأربع سنين حيث ولد الشافعي عام ١٥٠.[1]

---

١. فهرست ابن النديم: ٥٧؛ تأسيس الشيعة لفنون الإسلام: ٣٢١. لاحظ الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١/ ٤٠برقم ١٩٢.

٢. آيات الأحكام، الموسوم بمنهاج الهداية: للشيخ جمال الدين أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسن بن المتوّج البحراني، تلميذ فخر المحقّقين.[١]

٣. آيات الأحكام، الموسوم بالنهاية في تفسير خمسمائة آية: للشيخ فخر الدين أحمد بن عبد الله بن سعيد بن المتوّج البحراني،وهذا المؤلّف، والمؤلّف المتقدّم من أُسرة واحدة، وكلاهما من تلامذة فخر المحقّقين.[٢]

٤. آيات الأحكام: للشيخ ناصر بن الشيخ أحمد بن الشيخ عبد الله بن المتوّج البحراني، ووالده الشيخ أحمد من تلامذة فخر المحقّقين ابن العلاّمة الحلّي (المتوفّى عام ٧٧١هـ)، حكى شيخنا المجيز في «الذريعة» عن أُستاذه المجيز السيد حسن الصدر أنّه رآه في مكتبات النجف.[٣]

٥. آيات الأحكام: للشيخ أبي عبد الله المقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن محمد السيوري الأسدي الحلّي (المتوفّى عام ٨٢٦هـ)، وقد طبع باسم «كنز العرفان في فقه القرآن»، وهو من أنفس الكتب في موضوعه، وقد ترجم إلى الفارسيّة والاردية حسب ما حكاه السيّد شهاب الدين المرعشي ﷺ في تقديمه على مسالك الأفهام.

٦. آيات الأحكام، الموسوم بمعارج السؤول و مدارج المأمول: لكمال الدين حسن بن شمس الدين محمد الاسترآبادي النجفي، ألّفه سنة (٨٩١هـ).[٤]

٧. آيات الأحكام، للمولى شرف الدين علي بن محمد الشيفنكي (المتوفّى عام

---

١. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ١/ ٤٢ برقم ٢١١.

٢. المصدر السابق: برقم ٢١٣.

٣. المصدر السابق: برقم ٢٢٠.

٤. المصدر السابق: برقم ٢١٧.

٩٠٧هـ) حكاه شيخنا المجيز عن رياض العلماء، و حكاه هو عن تاريخ حسن بيك روملو.[١]

٨. آيات الأحكام، للمحقّق أحمد بن محمد الأردبيلي ثمّ النجفي، (المتوفّى عام ٩٩٣هـ)، وطبع باسم «زبدة البيان في براهين أحكام القرآن» مرّتين، مرّة بطهران عام (١٣٠٥هـ)، و أُخرى في سنة (١٣٨٦هـ)، محقّقة منقّحة.

٩. آيات الأحكام، للعلاّمة الأمير أبو الفتح بن الأمير مخدوم بن الأمير شمس الدين محمد الحسيني ألّفه للسلطان محمد قطب شاه سنة (١٠٢١هـ)، وطبع في تبريز.

١٠. آيات الأحكام، للسيد ميرزا محمد الحسيني الاستر آبادي، صاحب الكتب الرجالية الشهيرة: «الكبير» و «الوسيط» و«الصغير»، وقد توفّي عام (١٠٢٦هـ)، ومنه نسخة في مكتبة المرعشي.[٢]

١١. آيات الأحكام: للشيخ أبي عبد الله محمد بن الجواد شمس الدين الكاظمي، والمشتهر بالفاضل الجواد من تلاميذ شيخنا البهائي (المتوفّى ١٠٣٠هـ)، وقد شرح كتاب أُستاذه في الحساب، أعني: خلاصة الحساب، وطبع الشرح بطهران عام (١٢٧٣هـ.ق)،وقد طبعت آيات الأحكام باسم «مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام» في جزءين كبيرين وعنيت بنشره و تحقيقه المكتبة المرتضوية.

١٢. آيات الأحكام: للشيخ أحمد بن إسماعيل بن العلاّمة الشيخ عبد النبيّ الجزائري النجفي (المتوفّى سنة ١١٥٠هـ)طبع باسم «قلائد الدرر»، وقد

---

١. مقدّمة مسالك الأفهام(تقديم آية الله المرعشي):١٠.

٢. الذريعة: ١/ ٤٣؛ مقدمة مسالك الأفهام: ١١.

طبع مرّتين، مـرّة في طهران وأُخرى بالنجف الأشرف عـام (١٣٨٦هـ)، شكر الله مساعي الجميع.

هـذه اثنا عشر تـأليفاً حـول آيات الأحكـام اكتفينا بها، ومـن أراد التوسّـع والوقوف على ما ألّفه أصحابنا حول آيات الأحكام من رسائل وكتب وموسوعات، فعليه الرجوع إلى معاجم الكتب.[١]

وهذه الكمّيّة الهائلة تعرب عن عناية الشيعة بفهم القرآن الكريم، وتبويب مفاهيمه.

د: ما نزل من القرآن في حقّ النبيّ والآل

لم ينحصر هذا النمـط من التفسير (أي التفسير الموضـوعي) فيما سبـق من الموضوعات (المحكم والمتشابه، الناسخ والمنسوخ، وآيات الأحكام)، بل توجّهت همم الأصحاب وعنايتهم إلى تأليف رسائل وكتـب في موضوعات قرآنية، نظير ما نزل من الآيات في حـقّ أهل البيت، وإليك نزراً يسيراً ممّا أُلّـف في هذا المجال من الأقدمين،وأمّا المتأخرين فهو على عاتق المعاجم القرآنيّة.

إنّ أهل البيت عليهم السلام ممّـن خصّهم الله سبحـانه بـالذكـر في غير واحد مـن الآيات، فقـال: ﴿إنّما يُـريدُ اللهُ لِيُـذْهِبَ عَنكُمُ الـرِّجْسَ أَهْـلَ البَيْتِ وَيُطَهِّـرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [٢]، وقال سبحانه: ﴿قُل لاَ أَسأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجـراً إلاّ المَودَّةَ فِي القُربىٰ﴾ [٣]، وقال سبحانه: ﴿وَآتِ ذَا القُربىٰ حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابـنَ السَّبيلِ وَلاَ تُبَذِّر تَبْذِيراً﴾ [٤]

---

١. لاحظ: الذريعة:١/ ٤٠ـ ٤٤ وج٤/ ٢٣٤ـ ٣٥١، وتقديم آية الله المرعشي لكتاب مسالك الأفهام.

٢. الأحزاب:٣٣.

٣. الشورى:٢٣.

٤. الإسراء:٢٦.

إلى غير ذلك من الآيات، فلا عتب على المفسّر الواعي أن يخصّ أهل البيت بالتفسير الموضوعي ويفرد آياته بالتأليف، وكيف لا يكون كذلك وقد روى عكرمة عن ابن عباس، وقال: ما نزل من القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلاّ وعليٌّ رأسها وأميرها، وقد عاتب الله أصحاب محمد في غير مكان، وما ذكر عليّاً إلاّ بخير.[١]

وروى سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: ما نزل في أحد من كتاب الله ما نزل في علي.[٢]

وقال ابن عباس: نزلت في عليّ أكثر من ثلاثمائة آية في مدحه.[٣]

ولأجل هذا وذاك قام لفيف من المفسّرين والمحدّثين من العامّة والخاصّة بتأليف رسائل مفردة في هذا المجال، وفي الحقيقة كلّها تفاسير موضوعيّة نذكر منها ما يلي:

١. **ما نزل من القرآن في عليّ عليه السلام**: تأليف هارون بن عمر بن عبد العزيز ابن محمد، أبو موسى المجاشعي، صحب الإمام الرضا عليه السلام وله هذا الكتاب.[٤]

٢. **ما نزل من القرآن في عليّ عليه السلام**: تأليف عبد العزيز بن يحيى بن أحمد ابن عيسى الجلودي الأزدي البصري من أصحاب الإمام الجواد عليه السلام فله تآليف كثيرة ذكرها النجاشي، وله كتاب التفسير كما سيوافيك في قائمة التفاسير الروائيّة.[٥]

٣. **ذكر ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السلام**: تأليف أحمد بن الحسن

---

١. مسند أحمد بن حنبل: ١/ ١٩٠؛ تاريخ الخلفاء: ١٧١.
٢. الصواعق المحرقة: ٧٦، الباب التاسع، الفصل الثالث.
٣. تاريخ الخلفاء: ١٧٢.
٤. رجال النجاشي: ٢/ ٤٠٦، برقم ١١٨٣.
٥. رجال النجاشي: ٢/ ٥٤ برقم ٦٣٧.

الاسفرائيني، المفسّر الضرير، قال النجاشي: له كتاب المصابيح في ذكر ما نزل من القرآن في حقّ أهل البيت عليهم السلام، وهو كتاب حسن كثير الفوائد، سمعت أبا العباس أحمد بن علي بن نوح يمدحه ويصفه.[1]

٤. ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين عليه السلام: تأليف إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال بن عاصم بن سعد بن مسعود الثقفي، أصله كوفي، وسعد بن مسعود أخو أبي عبيد بن مسعود عم المختار، وانتقل إلى إصفهان وأقام بها، وقد وفد إليه أحمد بن خالد المتوفّى عام (٢٧٤هـ) وسألوه الانتقال إلى قم فأبىٰ، وله كتب ممتعة في التاريخ والسيرة، وهو مؤلف «الغارات» المعروفة.[2]

٥. كتاب ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السلام: تأليف محمد بن العباس بن علي بن مروان الماهيار المعروف بابن الحجام، قال النجاشي: ثقة ثقة، من أصحابنا عين، سديد، كثير الحديث، له كتاب ما نزل من القرآن في أهل البيت، وقال جماعة من أصحابنا: إنّه كتاب لم يصنّف في معناه مثله، قيل: إنّه ألف ورقة، وذكره الشيخ في رجاله في باب من لم يرو عنهم عليهم السلام برقم (٧١)، وقال: سمع منه التلعكبري سنة (٣٢٨هـ)، وله منه إجازة، وذكره في الفهرست برقم ٦٤٩.[3]

٦. كتاب ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين عليه السلام: تأليف محمد بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل الكاتب، أبو بكر يعرف بابن أبي الثلج، وأبو الثلج هو عبد الله بن إسماعيل، ثقة، عين، كثير الحديث، وذكر النجاشي فهرس كتبه، ومنها

---

١. رجال النجاشي: ١/ ٢٣٨ برقم ٢٢٩.

٢. رجال النجاشي: ١/ ٩٠ برقم ١٨؛ فهرست الطوسي: ٢٧ـ ٢٩ برقم ٧.

٣. رجال النجاشي: ٢/ ٢٩٤ برقم ١٠٣١، ولاحظ الرجال والفهرست للشيخ الطوسي.

تاريخ الأئمّة عليهم السلام، وقد طبع أخيراً، وذكره الخطيب في تاريخه[١] وذكره الشيخ في رجاله في باب من لم يرو عنهم برقم (٦٤)، و قال: سمع منه التلعكبري سنة (٣٢٢هـ)، و ما بعدها إلى سنة (٣٢٥هـ)، وفيها مات، وله منه إجازة.[٢]

٧. ما نزل من القرآن في أهل البيت عليهم السلام: تأليف الحسين بن الحكم الجبري الكوفي، وطبع عام (١٣٧٥هـ)، وقدّم له: العلاّمة السيد أحمد الحسيني استقصى فيها ما ألّف من التفاسير في أهل البيت من القدماء فبلغ (٤٤) كتاباً[٣] حياه الله وبياه.

هذه نماذج ممّا أُلّف حول أهل البيت من الكتب والرسائل بشكل التفسير الموضوعي نقتصر على ذلك، وانّ التوسّع يخرجنا عمّا هو الهدف، وهو الإشادة بذكر المفسّرين من الشيعة في المجالات المختلفة، و من سبر المعاجم، وكتب التراجم وقف على أنّ موضوع مناقب أهل البيت وفضائلهم ـ كتاباً وسنة ـ كان موضع اهتمام العلماء منذ الصدر الأوّل وفي القرون التالية إلى القرن الحاضر.

ولو جمعت تلك الكتب المطبوعة والمخطوطة الموجودة منها، لشكّلت مكتبة كبرى، والجدير بالذكر أنّ المحقّق السيد عبدالعزيزالطباطبائي ـ رحمه اللّه ـ قام مشكوراً بفهرسة كبيرة في خصوص مناقب آل البيت، وأسماه بـ «أهل البيت في المكتبة العربية»، ولو ضمّ إليها ما أُلّف بسائر اللغات لضاق النطاق على المحصي والمؤلّف.

---

١. تاريخ الخطيب: ١/ ٢٤٩.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٢٩٩ برقم ١٠٣٨، وقد عرفت سائر المصادر في المتن.

٣. لاحظ المقدّمة للمصحّح: ١٢ـ١٧.

هـ: التأليف حول أمثال القرآن وأقسامه وقصصه

قد ورد في القرآن الكريم قرابة ستين مثلاً، والمثل بطبعه يقرب البعيد، ويصبّ المعقول في قالب المحسوس،وقد أفرد غير واحد من علماء الشيعة أمثال القرآن بالبحث والتأليف. هذا ابن النديم يعرف أبا علي بن أحمد بن الجنيد(المتوفّى١٣٨١هـ) بأنّه قريب العهد، من أكابر الشيعة، ثمّ يذكر كتبه ويقول في موضع آخر منه عند تسمية الكتب المؤلّفة في معان شتّى من القرآن ما لفظه:«وكتاب الأمثال لابن الجنيد».[1]

فلو قام ابن الجنيد وهو من قدماء علمائنا بهذا المجهود، فقد قام الشيخ أحمد بن عبد الله التبريزي النجفي (المتوفّى عام ١٣٢٧هـ) بجمع الأمثال القرآنية وتفاسيرها وما يتعلّق بها وأسماه «روضة الأمثال» وطبع عام (١٣٢٥هـ)[2]، وقد تضافر التأليف حول أمثال القرآن في العصر الحاضر من أكابر الشيعة باللغتين العربية والفارسية، وطبع الأكثر باسم أمثال القرآن.[3]

كما قد ورد في القرآن الكريم قرابة أربعين قسماً حلف فيه سبحانه بالشمس والقمر والليل والنهار إلى غير ذلك من عظائم الموجودات، المليئة بالأسرار، وما هذا إلاّ ليتدبّر الإنسان فيها ويقف على ما فيها من العجائب والغرائب، حتى أنّه سبحانه حلف في سورة الشمس أحد عشر مرّة بأشياء كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض والنفس، ثمّ رتّب عليها جواباً، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

---

١. فهرست ابن النديم: ٦٤و٢١٩.

٢. الذريعة :١١/ ٢٨ برقم ١٧٥٠.

٣. كأمثال القرآن للدكتور إسماعيل، ط طهران / ١٣٦٨هـ.ش؛ وأمثال القرآن لعلي أصغر حكمت الشيرازي.

زَكَّاها﴾، وقد بحث المفسّرون عن هذه الأقسام وتركوا البحث عن أمر مهم، وهو ما هو الصلة بين المقسم به وجوابه، حتى أنّ ابن القيّم (المتوفّى١ ٧٥هـ) أفرد كتاباً في أقسام القرآن، طبع باسم أقسام القرآن، ولكنّه بحث عن المقسم به في جميع الآيات، وأهمل البحث عن الصلة بينه و بين جوابه في شتّى الآيات. نعم قام أخيراً ولدنا الفاضل الروحاني الشهيد أبو القاسم الرزاقي[1] بتأليف كتاب حول أقسام القرآن، وسدّ هذا الفراغ الموجود في التفاسير، وقد أغرق نزعاً في التحقيق، وطبع حديثاً.

إنّ قصص القرآن من المواضيع الهامّة التي تحتاج إلى دراسات فنية، وفيها من العبر ما لا يحصى، وقد أفرد غير واحد من أصحابنا قصص القرآن قديماً وحديثاً[2] بالتأليف، أخيرهم ما ألّفه الدكتور محمود البستاني، فبحث عن القصص القرآنية حسب تسلسلها في السور الكريمة، وطبع عام (١٤٠٨هـ) وقد خصّصنا الجزء التاسع من هذه الموسوعة بالأمثال والأقسام.

و: معارف القرآن واحتجاجاته

معارف القرآن تشكّل قسماً هامّاً من مفاهيمه، خصوصاً فيما يرجع إلى المبدأ والمعاد، وقد ورد أكثر ما يرجع إلى المعارف الغيبية في السور المكيّة حيث كان النبي يحتج على المشركين، كما ورد فيما يرجع إلى الكتب والشرائع السماوية وديانات اليهود و النصارى في السور الطوال حيث نزلت أوائل الهجرة.

فقد أفرد غير واحد من أصحابنا كتباً ورسائل حول معارف القرآن أخيرها ـ

---

١. استشهد ﷺ في الحرب المفروضة على إيران الإسلامية في حادث إسقاط طائرتهم على يد العدوان البعثي العفلقي قرب مطار الأهواز، ومعه لفيف من العلماء والمسؤولين الكبار.

٢. لاحظ الذريعة إلى تصانيف الشيعة:١٧/ ١٠٢و ١٠٧.

لا آخرها ـ معارف القرآن للشيخ محمد تقي المصباح، طرح فيه الآيات المتعلّقة بمعرفة العالم والملائكة والجنّ والشيطان، نقله إلى العربية عبد المنعم الخاقاني، وطبع في بيروت.

كما أنّ الحوار والاحتجاج في القرآن له أساليبه ومعطياته، فقد قام بالاحتجاج على الملحدين والمشركين وعلى أهل الكتاب، فقد أفرد غير واحد من أصحابنا بالتأليف أخيرها ـ لا آخرها ـ الحوار في القرآن للسيد محمد حسين فضل الله العاملي، طبع في بيروت.

ز: أسباب النزول

إنّ التعرّف على أسباب النزول يسلّط الضوء على مفاد الآية ومفهومها وهو غير خفي على من له إلمام بالتفاسير، فقد قام غير واحد من أصحابنا بالتأليف حوله، نذكر نموذجين:

١. **أسباب النزول**، للشيخ قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي، (المتوفّى عام ٥٧٣هـ)، وهو من مصادر بحار الأنوار.[١]

٢. **الأسباب والنزول على مذهب آل الرسول**، للشيخ رشيد الدين محمد بن علي شهر آشوب السروي (المتوفّى عام ٥٨٨هـ).[٢]

هذه نماذج من التفسير الموضوعي أتينا بها إيقافاً للقارئ على جهود علماء الشيعة في العصور السابقة والعصر الحاضر، وقد تركنا كثيراً من الموضوعات القرآنيّة التي أفردت بالتأليف كالأخلاق والسياسة والمسائل العائلية وغير ذلك

---

١ و ٢. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٢/ ١٢ برقم ٣٥ و ٣٧.

من الموضوعات الهامّة التي تداولتها أقلام المحقّقين في العصر الحاضر بالبحث والتحقيق، و من راجع المكتبات العربية، أو استعرض فهارس مكتبات العالم يقف على مجموعة كبيرة من الكتب تبحث عن موضوعات قرآنيّة حسب التفسير الموضوعي، وبما أنّ الهدف هنا الإيجاز تركنا التفصيل في ذلك

التفسير الموضوعي في العصر الحاضر

لقد استقطب «التفسير الموضوعي» للقرآن الكريم في العصر الحاضر قسطاً كبيراً من اهتمام العلماء نظراً لأهمّية هذا النهج من التفسير ومساعدته على درك المفاهيم القرآنيّة، والمعارف الإلهية الدقيقة العميقة، فانّ القرآن كما أسلفنا ذكر هذه المعارف بصورة متفرّقة تبعاً للمناسبات، ولو جمعت هذه المعارف في محل، ثمّ درس المفهوم القرآني المعيّن في ضوء كلّ ما يرتبط به من آيات، لأمكن الحصول على فكرة متكاملة وصورة شاملة لذلك المفهوم.

ولهذا اندفع العلماء المهتمون بالثقافة القرآنية في عصرنا هذا إلى خوض هذا الميدان الشريف الهام بمختلف الصور، وأتوا بنتائج طيّبة، وأثمرت جهودهم ثماراً يانعة، ومن وقف على الدراسات القرآنيّة في جامعة «قم» يرى أنّ لهذا القسم من الدراسات قسطاً كبيراً.

وقد اتّبعنا هذا المنهج منذ عام (١٣٨٩هـ) و كانت حصيلة هذه السنوات عشرة أجزاء من التفسير الموضوعي تحت عنوان «مفاهيم القرآن»، تناولت بالترتيب قضايا التوحيد والشرك، والحكومة الإسلامية، والأسماء والصفات، والنبوة العامّة والخاصّة، ،وما يرتبط بالسيرة النبوية في ضوء القرآن الكريم

ولقد لقيت هذه الدراسات إقبالاً واسعاً ممّا يكشف عن أهمية هذا المنهج

من التفسير.

ومن الجدير بـالذكر أنّ العلاّمـة المجلسي هو أوّل من فتح هـذا الباب على مصراعيه في جمع موضوعـات القرآن والبحث عنها بحثاً قرآنياً. فـانّ ما وصل إلينا مـن القدمـاء هـو تخصيـص موضـوع خـاصّ بـالتفسير، وأمّا غـوّاص بحـار درر الأحاديث الشيخ محمـد باقر المجلسي، (المتوفّى عام ١١١١هـ)، اتّبـع هذا المنهج في جميع أبواب كتابـه وموسوعته النادرة، فجمع الآيات المربوطـة بكلّ موضوع في أوّل الأبواب وفسّرها تفسيراً سريعاً، و هذه الخطوة وإن كانت قصيرة لكنّها جليلة في عالم التفسير، وقـد قام بذلـك مع عدم توفّـر المعاجم القـرآنية الرائجـة في هذه الأعصار.

وتجدر الإشارة إلى أنّ جهاز الكمبيوتر الـذي ثبتت له قدرة كبرى في عملية فـرز المعلومـات وتجميعها وتحضيرهـا وبالتـالي تقـديم تسهيـلات هامّـة في مجال التحقيق العلمي في شتّـى حقول المعرفة... لو أنّ هذا الجهـاز الفعّال استخدم في مجال التفسير الموضوعي لحصل الباحث على نتائج باهرة.

وكلّ أملنا أن تهتمّ الشخصيّات والمؤسسات المهتمـة بالمسائل القرآنيّة بهذا الاقتراح، أو توليه المزيد من العناية بـه لنستطيع مواكبة العصر الحديث في تقدّمه الصاعد وتلبية حاجاته الماسّة الملحّة.

الشيعة و التفسير الترتيبي

قد تعرّفـت على منهج التفسير الموضوعي فهلمّ معي نـدرس المنهج الرائج بين المفسّرين وهو المنهج الترتيبي، وأظنّ أنّ القارئ في غنـى عن تعريفه لشيوعه. وقد قام المسلمون بهذا النمط من التفسير على اختلاف مشاربهم في تفسير القرآن،

وقام فضلاء الشيعة من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وسائر الأئمّة المعصومين بهذا النمط من التفسير، وقد أخذوا علوم القرآن وتبيين مفاهيمها عن أئمّتهم، فأوّل من دوّن أقواله في التفسير منهم هو عبد الله بن العباس (المتوفّى سنة ٦٨ هـ)، وأوّل من كتب تفسيراً تلميذه سعيد بن جبير (المتوفّى عام ٩٥هـ)[١]، واستمرّ الأمر إلى عصرنا هذا، بل لم يكتف كثير منهم بتأليف تفسير واحد حتى ضمّ إليه آخر، بل كثير منهم عزّزهما بثالث ورابع، وقد استخرج أسماء هؤلاء المعزّزين شيخ الباحثين «آغا بزرگ الطهراني» في معجمه.[٢]

والغالب على التفاسير المدوّنة في القرون الأُولى هو تفسير القرآن بالأثر، ومن نماذجه تفسير «فرات بن إبراهيم الكوفي» الراوي عن جعفر بن محمد بن مالك البزاز الفزاري الكوفي (المتوفّى حوالي ٣٠٠هـ)، والمعلّم لأبي غالب الزراي (المولود٢٨٥هـ)، وتفسير «علي بن إبراهيم القمي»(حياً عام ٣٠٧هـ)، و «تفسير العياشي» محمد بن مسعود أُستاذ الشيخ الكليني (المتوفّى عام ٣٢٩هـ)، إلى غير ذلك من التفاسير المؤلّفة في العصور الأُولى، فانّ الجلّ لولا الكلّ تفاسير روائية، وكأنّهم كانوا يجتنبون تفسير القرآن تفسيراً فكرياً تحليلياً علمياً تحرّزاً من وصمة التفسير بالرأي، وقد كان هذا النمط سائداً إلى أواخر القرن الرابع بين الشيعة، حتى أحسّ العلماء بالحاجة الشديدة إلى التفسير العلمي والتحليلي، منضماً إلى ما روي عن النبيّ والأئمّة عليهم السلام ، وأوّل[٣] من فتح هذا الباب الشريف الرضي (المتوفّى٤٠٦هـ) فألّف كتاب «حقائق التأويل»، في عشرين جزءاً، ثمّ أخوه الشريف المرتضى (المتوفّى٤٣٦هـ) في أماليه المسمّى بـ«الغرر والدرر» ، ثمّ تلميذه

---

١. فهرست ابن النديم: ٥٧.

٢. الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ٤/ ٢٣٣ـ ٣٤٦.

٣. نذكر ذلك على وجه التقريب، لأنّه لم يصل إلينا ممّن تقدّم عليه، تفسير عليه ذاك الطابع.

الأكبر الشيخ الطوسي مؤلف «التبيان»(المتوفّى٤٦٠هـ) إلى أن صار هذا المنهج هو المنهج المتّبع الشائع في جميع الأعصار إلى عصرنا هذا، وقلّت العناية بالمنهج الروائي المحض إلاّ في بعض الأعصار (القرنين الحادي عشر والثاني عشر)، كما سيوافيك تفصيله، وبذلك حصل التطوّر الواضح في تفسير القرآن الكريم، ولعلّ العناية بالأثر وصيانة تلك الكنوز عن الاندراس حملت المفسّرين في تلك الأعصار على تفسير القرآن بنمط واحد ولون فارد، وهو التفسير بالأثر من غير فرق بين السنّة والشيعة حتى أنّ أبا جعفر الطبري (المتوفّى٣١٠هـ)، وضع تفسيره على ذلك المنهج، وقلّما يتّفق أن يستكشف أسرار الآيات ويبسط الكلام فيها.

غير أنّ احتكاك الثقافات والضرورات الاجتماعية فرضت على المفسّرين المنهج العلمي من التفسير حتى يكون ملبّياً لحاجاتهم، فانّ القرآن بحر لا ينزف. فأدخلوا في التفسير قراءة القرآن، وإعرابه، وغوامضه، ومشكلاته، ومعانيه، وجهاته، ونزوله، وأخباره، وقصصه، وآثاره، وحدوده،وأحكامه، وحلاله وحرامه، والكلام على مطاعن المبطلين، والاستدلال على ما يتفرّد به المفسّر في المذهب الفقهي أو الاعتقادي، وقد ألّف في أواسط القرن الرابع علي بن عيسى الرماني تفسيره المعروف، وهو بمنهجه العلمي تفوّق على التفاسير المتقدّمة عليه

وها نحن نذكر أسماء أعلام المفسّرين بالأثر المروي عن النبيّ والآل، ثمّ نبتعهم بسرد أسماء مشاهير المفسّرين بالتفسير العلمي، فالمنهج الأوّل يمتد إلى نهاية القرن الرابع، كما أنّ المنهج الثاني يبتدئ بطلوع القرن الخامس حسبما وصل إلينا من كتبهم، وبما أنّ أكثر ما أُلّف في العصور الأُولى غير واصلة إلينا، لا يمكن لأحد القضاء البات في الموضوع، وأنّ جميع ما في تلك القرون تفاسير روائيّة، وإنّما نعتمد في ذلك على الحدس وما ذكره الشيخ في أوّل التبيان، والله العالم.

مشاهير المفسّرين بالرواية والأثر من الشيعة

إذا كان التفسير البياني أو اللغوي أمراً رائجاً بعد رحلة النبيّ الأكرم، كان التفسير بالرواية والأثر أيضاً رائجاً، ولا يمكن لنا أن نقضي قضاءً باتّاً بتقدّم إحدى المرحلتين على الأُخرى، وليس من البعيد أن يكون كلا النمطين رائجين في عصر واحد، وقد تعرّفت على مشاهير مفسّري الشيعة بالتفسير البياني فحان وقت ذكر مشاهير مفسّريهم بالحديث والأثر سواء أكان مرويّاً من النبيّ الأكرم، أو من أئمّة أهل البيت، وقد عرفت أنّ أسانيدهم في الرواية تنتهي إلى الرسول الأعظم، ونحن نقتصر في القائمة التالية بالمشاهير دون كلّ من ألّف تفسيراً حديثيّاً، وإلاّ فيحوجنا الاستقصاء إلى تأليف مفرد، كما نذكر من روي منه التفسير بالأثر، سواء أكان له تأليف أو لا، وسيوافيك أنّ عصر التدوين متأخّر عن عصر بزوغ التفسير، وتداوله بين الصحابة و التابعين، وإليك أسماء الشخصيّات اللامعة في أربعة قرون خدموا القرآن عن طريق الأثر عن النبيّ والآل:

أعلام التفسير في القرن الأوّل

١. **عبد الله بن عباس:** هو ترجمان القرآن، ابن عمّ النبيّ الأكرم، ولد قبل

الهجرة بثلاث سنين، وتوفّي بالطائف سنة (٦٨هـ)، ذكره ابن النديم في تسمية الكتب المصنّفة في التفسير بعد ما ذكر كتاب التفسير للإمام الباقر عليه السلام وقال: كتاب ابن عباس، رواه مجاهد وهو أبو الحجاج المقري، المفسّر المكّي مجاهد بن جبر، (المتوفّى عام ١٠٢هـ)، ورواه عن مجاهد حميد بن قيس الذي توفّي في زمن السفّاح...، وسيوافيك أنّ عبد العزيز بن يحيى الجلودي (المتوفّى عام ٣٣٢هـ) يروي تفسيراً عن ابن عباس.[1] وقد طبع تفسير موسوم بـ«تنوير المقباس من تفسير عبد الله بن عباس» في أربعة أجزاء، وطبع في بولاق مصر عام (١٢٩٠هـ)، وأمّا من هو المؤلّف لهذا التفسير فقد نسبه الحافظ شمس الدين السخاوي في «الضوء اللامع» إلى محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، صاحب القاموس(المتوفّى عام ٨١٨هـ)، والكلام في هذا الكتاب ذو شجون، والتحقيق موكول إلى محله، وعلى أي تقدير فالرجل في الرعيل الأوّل من المفسّرين بين الصحابة والتابعين،وقد عرفت مأخذ تفسيره فلا نعيد، ولم يثبت له كتاب.

٢. ابن جبير: هو سعيد بن جبير (الشهيد عام ٩٥هـ) بأمر الحجاج بن يوسف الثقفي، ذكره ابن النديم في «الفهرست»، وقد استشهد الرجل لولائه وتشيّعه، وقصته معروفة.[2]

٣. عطيّة العوفي: هو المعروف بالجدلي، وهو غير عطيّة العوفي المعروف

---

١. فهرست ابن النديم: ٥٦. قال في فهرس كتبه: الكتب المتعلّقة بعبد الله بن العباس ـ رضي الله عنه ـ: مسنده، كتاب التنزيل عنه، كتاب التفسير عنه، كتاب تفسيره عن أصحابه، كتاب القراءات عنه، كتاب الناسخ والمنسوخ عنه. الذريعة إلى تصانيف الشيعة:٤/ ٢٤٣ـ ٢٤٤ برقم ١١٨٥.

٢. فهرست ابن النديم: ٥٧. وسعيد بن جبير أوّل مؤلّف من الشيعة في التفسير، كما سيوافيك، وعلى فرض ثبوت تأليف لابن عباس يكون هو المؤلّف الأوّل، وقد أثبت ابن النديم لهما كتاباً.

بالبكالي، فانّ الثاني من أصحـاب أمير المؤمنين، والأوّل من أصحاب الإمام الباقر الذي توفّي سنة (١١٤هـ)، وقد أخذ عنه: أبان بن تغلب،وخالد بن طهمان، وزياد بن المنذر، كما ذكـره النجاشي في تراجم هـؤلاء، وقد جاءت ترجمتـه في كتب رجال العامّة كتهذيب الكمال وخلاصة التهذيب.[1]

أعلام التفسير في القرن الثاني

٤. **السُدّي**: أبـو محمـد إسماعيـل بـن عبـد الـرحمن القـرشي التـابعي الكـوفي(المتوفّى سنـة ١٢٧هـ) المعـروف بـالسدي الكبير، نسبـة إلى سدة مسجـد الكـوفة ، مـن أصحاب الأئمّـة: علي بن الحسين و محمـد بن علي البـاقر وجعفـر الصادق عليهم السلام . قال السيوطـي في «الإتقان»: إنّ تفسير إسماعيل السدّي مـن أمثل التفاسير، ونرى المرويّات عنه في كتب التفسير كثيراً.[2]

٥. **جابر بن يزيد الجعفي**: قال النجاشي: عربي قديـم، ثمّ سرد نسبه وقال: لقى أبا جعفر وأبا عبد الله عليهما السلام، مات سنة (١٢٨هـ)، له كتب منها التفسير. عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام.[3]

٦. **زيد بن أسلـم العدوي**: عـدّه الشيخ في رجـاله مـن أصحاب الإمـام السجّاد والإمام الصادق عليهما السلام.[4] وذكر ابن النديم له كتاب التفسير، وقال: كتاب التفسير عن زيد بن أسلم، وهو بخط السكري، وهو أبو سعيد الحسن بن حسين

---

١. الذريعة:٤/ ٢٨٢ برقم ١٢٩٣.

٢. فهرست ابن النديم:٥٧؛ الذريعة:٤/ ٢٧٦ برقم ١٢٧٥.

٣. رجال النجاشي:١/ ٣١٣ برقم ٣٣٠؛ رجال الطوسي: ١١١ برقم ٦..

٤. فهرست ابن النديم: ٥٧؛ رجال الطوسي:٩٠و١٩٧؛ الذريعة : ٤ / ٢٧٥برقم ١٢٧٣.

ابن عبد الله السكري، النحوي، اللغوي، (المتوفّى عام ٢٧٥هـ).

٧. **أبان بن تغلب**: وهو أبان بن تغلب بن رباح البكري الجريري، (المتوفّى عام ١٤١هـ)، قال ابن النديم: كتاب التفسير لابن تغلب، ثمّ ذكر في مكان آخر ما لفظه: كتاب معاني القرآن، لطيف وكتاب القراءات، والظاهر أنّ المراد من معاني القرآن هو تفسير غريبه، وقد مرّ ذكره.[1]

٨. **محمّد بن السائب الكلبي**: هو محمد بن السائب بن بشر الكلبي، (المتوفّى١٤٦هـ)، من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، وهو والد أبي المنذر هشام الكلبي النسّابة (المتوفّى٢٠٦هـ)، ترجمه ابن النديم وذكر تفسيره، وقال: وهو تفسير كبير، وقد عدّه الشيخ من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.[2]

٩. **أبو حمزة الثمالي**: هو ثابت ابن أبي صفيّة. قال النجاشي: كوفي ثقة، وكان آل المهلب يدّعون ولاءه، وليس من قبيلتهم، لأنّهم من العتيك(والعتيك: بطن من الأزد)، لقي علي بن الحسين وأبا جعفر وأبا عبد الله وأبا الحسن (الكاظم)عليهم السلام، وروى عنهم، وكان من خيار أصحابنا وثقاتهم ومعتمديهم في الرواية والحديث، وروى عن أبي عبد الله أنّه قال: أبو حمزة في زمانه مثل سلمان في زمانه، ومات سنة (١٥٠هـ)، وذكره ابن النديم في فهرسته، والكاتب الجلبي في كشف الظنون، ويروي عن هذا التفسير: الثعلبي (المتوفّى٤٢٧هـ) في الكشف والبيان، كما يروي عن هذا التفسير ابن شهر آشوب في كتابيه«الأسباب والنزول»، و«المناقب». وقال ابن حجر في «التقريب» (١/ ١١٦): رافضي مات في خلافة أبي جعفر المنصور.[3]

---

١. فهرست ابن النديم: ٥٠وص ٣٢٢.

٢. فهرست ابن النديم: ٥٧؛ رجال الطوسي: ٢٨٩ برقم ١٤٤.

٣. فهرست ابن النديم: ٥٧؛ رجال النجاشي: ١/ ٢٨٩ برقم ٢٩٤؛ الذريعة: ٤/ ٢٥٢ برقم ١٢٠٥.

١٠. أبوالجارود: زياد بن المنذر، المعروف بأبي الجارود الهمداني. عرّفه النجاشي بقوله: كوفي من أصحاب أبي جعفر، وروى عن أبي عبد الله، له كتاب تفسير القرآن، رواه عن أبي جعفر، ومات في حياة الإمام الصادق عليه السلام ، وذكره الشيخ في أصحاب الإمام الباقر. و راجع ترجمته في تقريب التهذيب، وتهذيب التهذيب.[١]

١١. حسن بن واقد: هو أخو عبد العزيز، عبد الله بن واقد الذي هو من أصحاب الإمام الصادق، وذكر ابن النديم في فهرسته كتاب التفسير له كما ذكر له الناسخ والمنسوخ.[٢]

١٢. أبو جنادة السلولي: هو الحصين بن المخارق بن عبد الرحمن السلولي، بن ورقاء بن حبشي بن جنادة ويعدّ جدّه الحبشي من الصحابة، وقد عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الصادق والكاظم عليهما السلام ، وذكر له التفسير. قال النجاشي: الحبشي (جدّه) صاحب النبيّ، روى عنه ثلاثة أحاديث، أحدها: «عليّ منّي وأنا منه»، ثمّ قال: له كتاب التفسير والقراءات.[٣]

١٣. وهيب بن حفص: هو المعروف بأبي علي الحريري مولى بني أسد، روى عن أبي عبد الله و أبي الحسن (الكاظم)، وكان ثقة وصنّف كتباً، منها: كتاب تفسير القرآن و كتاب في الشرائع.[٤]

١٤. علي بن أبي حمزة البطائني: عرّفه النجاشي بقوله: كوفي، روى عن أبي

١. رجال النجاشي: ١/ ٣٨٧ برقم ٤٤٦؛ رجال الطوسي: ١٢٢ برقم ٤ وتعليقته للعلاّمة السيد صادق بحر العلوم.

٢. فهرست ابن النديم: ٥٧؛ الذريعة: ٤/ ٢٧١ برقم ١٢٦٠.

٣. رجال الطوسي: ١٧٨ برقم ٢٢٢؛ رجال النجاشي: ١/ ٣٤٢ برقم ٣٧٤.

٤. رجال النجاشي: ٢/ ٣٩٣ برقم ١١٦٠.

الحسن موسى (الكاظم)، وروى عن أبي عبد الله، وصنّف كتباً، منها: كتاب جامع في أبواب الفقه، وكتاب التفسير وأكثره مروي عن أبي بصير، وذكره الشيخ في أصحاب الصادق عليه السلام.[١]

أعلام التفسير في القرن الثالث

١٥. **الإمام الحافظ الكبير عبد الرزاق بن همام اليماني، (١٢٦ ـ ٢١١هـ)**، ترجمه الذهبي في «تذكرة الحفاظ» وعدّه الشيخ في عداد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وذكر النجاشي اسمه في ترجمة أبي علي محمد بن همام بن سهيل الاسكافي البغدادي، وتوجد نسخة من تفسيره في بعض مكتبات مصر، سنة كتابته(٧٢٤هـ)، وقد أكثر فيه الرواية عن أبي عروة: معمر بن راشد الصنعاني البصري من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.[٢]

١٦. **ابن محبوب**: هو الحسن بن محبوب (١٥٠ ـ ٢٢٤هـ)، قال الشيخ: كوفي ثقة، روى عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، وروى عن ستين رجلاً من أصحاب أبي عبد الله، وكان جليل القدر ويعدّ من الأركان الأربعة في عصره، ثمّ عدّ كتبه، وقال: وزاد ابن النديم كتاب التفسير.[٣]

١٧. **ابن فضّال الكبير**: وهو أبو محمد الحسن بن علي الفضّال الكوفي، (المتوفى عام ٢٢٤هـ)، ذكر تفسيره ابن النديم، وله أيضاً «الشواهد من كتاب الله»،

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٦٩ برقم ٦٥٤؛ رجال الطوسي: ٢٤٢ برقم ٣١٢.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٢٩٥ برقم ١٠٣٣؛ الذريعة: ٤/ ٣٥٠ برقم ١٢٠٠.

٣. فهرست الطوسي: ٧١ برقم ١٦٢؛ الذريعة: ٤/ ٢٤٨ برقم ١١٩٣.

لاحظ فهرست ابن النديم: ٣٠٩. والعجب أنّ النجاشي لم يعقد لابن محبوب ترجمة مستقلة مع أنّه من أصحاب الإجماع.

وذكر النجاشي له خصوص الناسخ والمنسوخ، وقال الشيخ: روى عن الرضا عليه السلام، وكان خصيصاً به، وكان جليل القدر عظيم المنزلة زاهداً ورعاً ثقة في الحديث وفي رواياته، ثمّ ذكر كتبه، وقال: وزاد ابن النديم كتاب التفسير.[1]

١٨. **الحسن بن سعيد الأهوازي**: قال النجاشي: شارك أخاه الحسين في الكتب الثلاثين المصنّفة. خاله جعفر بن يحيى بن سعد الأحول من رجال أبي جعفر الثاني (الجواد)، وكُتُبُ ابني سعيد كتب حسنة معوّل عليها وهي ثلاثون كتاباً، ومنها: كتاب تفسير القرآن. وقد ذكرهما الشيخ من أصحاب الرضا عليه السلام وتوفّي الإمام الرضا عليه السلام عام (٢٠٣هـ).[2]

١٩. **محمد بن خالد بن عبد الرحمان الكوفي البرقي**: قال النجاشي: وكان أديباً حسن المعرفة بالأخبار وعلوم العرب، له كتب منها: كتاب التفسير، وعدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الجواد عليه السلام، كما عدّه أيضاً في موضع آخر من أصحاب الرضا عليه السلام.[3]

٢٠. **عبد العزيز بن يحيى بن أحمد بن عيسى الجلودي**: من أصحاب الإمام الجواد، وذكر النجاشي له كتباً كثيرة، وقال: كتاب التفسير عن علي، ثمّ قال: وكتاب تفسيره عن الصحابة، وهو من المكثرين في التفسير، وقد مرّ أنّ له كتب التفسير عن ابن عباس وغيره،وقد ذكر له ما يقرب من مائتي كتاب، وقال الشيخ: «عبد العزيز الجلودي من أهل البصرة، امامي المذهب، له كتب في السير والأخبار...»، وقد ذكر المعلّق على فهرست الشيخ أنّه توفيّ سنة (٢٣٢هـ).[4]

---

١. رجال النجاشي:١/ ١٢٧ برقم ٧١؛ فهرست الطوسي: ٧٣ برقم ١٦٤؛ فهرست ابن النديم: ٢٢٦.

٢. رجال النجاشي: ١/ ١٧١ برقم ١٣٥؛ رجال الطوسي: ٣٩٥.

٣. رجال النجاشي: ٢/ ٢٠٠، برقم ٨٩٩؛ رجال الطوسي: ٤٠٤و٣٨٦.

٤. رجال النجاشي: ٢/ ٥٤ برقم ٦٣٨؛ فهرست الطوسي: ١٤٥؛ فهرست ابن النديم:١٧٢.

٢١. محمد بن عباس بن عيسى: قال النجاشي: كان يسكن بني غاضرة، روى عن أبيه والحسن بن علي بن أبي حمزة وعبد الله بن جبلة، له كتب منها: كتاب التفسير.[1]

٢٢. علي بن الحسن بن فضّال: قال النجاشي: «كان فقيه أصحابنا بالكوفة ووجههم وثقتهم وعارفهم بالحديث المسموع قوله فيه، سمع منه شيء كثير، ولم يعثر له على زلّة فيه ولا ما يشينه، وقلّ ما روى عن ضعيف، وصنّف كتباً كثيرة منها: كتاب التفسير، ومنها: كتاب التنزيل من القرآن والتحريف»، ولعلّ المراد أسباب النزول الصحيحة والمحرّفة. عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الهادي والعسكري، توفّي أبوه سنة (٢٢٤هـ). وقال الشيخ: ثقة كوفي كثير العلم، واسع الرواية والأخبار، جيد التصانيف، وعدّ كتبه ومنها: كتاب التفسير.[2]

٢٣. أحمد بن محمد بن خالد البرقي: مؤلّف كتاب «المحاسن»، وهو مشتمل على عدّة كتب منها كتاب التفسير و التأويل، وله كتاب فضل القرآن أيضاً، توفّي عام (٢٧٤هـ)، وذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الجواد والهادي عليهما السلام.[3]

أعلام التفسير في القرن الرابع

٢٤. فرات بن إبراهيم الكوفي: وقد أكثر فيه الرواية عن الحسن بن سعيد

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٢٣٢ برقم ٩١٧.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٨٢ برقم٦٧٤؛ فهرست الطوسي: ١١٨ برقم ٣٩٣؛ ورجال الطوسي: ٤١٩و ٤٣٣.

٣. رجال النجاشي: ١/ ٢٠٤ برقم ١٨٠؛ رجال الطوسي: ٣٩٨ برقم ٨، و٤١٠ برقم ١٦.

الكوفي الأهوازي الذي أدرك الإمـام الرضا والجواد والهادي ، كما أكثر فيه من الروايـة عن جعفر بـن مالك البزاز الكـوفي (المتوفّى حدود ٣٠٠هـ)، كما أكثـر من الرواية عن عبيد بن كثير العامري الكوفي(المتوفّى سنة ٢٩٤هـ)، فالمؤلّف من أعيان الإمامية، في أوائل القرن الرابع، ويـروي عنه والد الشيخ الصدوق علي بن الحسين ابن بابويه القمي (المتوفّى سنة ٣٢٩هـ). طبع مرّتين، المرّة الثانية طبعة محقّقة.[1]

٢٥. محمد بن أوْرَمة: أبو جعفـر القمي، ترجمه النجـاشي في رجالـه، وذكره الشيخ في باب من لم يرو عن الأئمّة ، وذكر النجاشي له كتباً كثيرة منها: كتاب تفسير القرآن.[2]

٢٦. علي بن إبـراهيم بن هـاشم الكـوفي القمي: أُستاذ الكلينـي، وكان في عصر أبي محمد العسكـري وبقي حياً إلى سنـة (٣٠٧هـ)، وقـد روى الصدوق في «عيون أخبار الـرضا»، عن حمزة بن محمـد بن أحمد بن جعفر، قـال: أخبرنا علي بن إبراهيم بـن هاشم سنة (٣٠٧هــ)، وطبع تفسيره مرّات، ولنا بحـث ضاف حول تفسيره. قال النجـاشي: ثقة في الحديث، ثبـت، معتمد، صحيح المذهـب، سمع فأكثر وصنّف كتباً، وله كتاب التفسير.[3]

٢٧. ابن بابويه: أبو الحسن علي بـن الحسين بن موسى بن بابـويه القمي، المتوفّى سنة تناثر النجوم (٣٢٩هـ)، قال النجاشي: له كتب، منها: كتاب التفسير، ثمّ رواه عنه بواسطة أبي الحسن العباس، بن عمر بن العباس وقال المجيز: أخذت أجازة علي بن الحسين بن بابويه لمّا قدم بغداد سنة (٣٢٨) بجميع كتبه.

---

١. الذريعة: ٤/ ٢٩٨ برقم ١٣٠٩.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٢١١ برقم ٨٩٢؛ رجال الطوسي: ٥٠٢ برقم ١١٢.

٣. رجال النجاشي: ٢/ ٨٦ برقم ٦٧٨؛ كليات في علم الرجال: ٣١١ـ ٣٢٠.

وقال الشيخ في «الفهرست»: كان فقيهاً جليلاً ثقة، وله كتب كثيرة، ثمّ عدّ كتبه، منها: كتاب التفسير، وذكره في الرجال في باب من لم يرو عن الأئمّة، وقال: روى عنه التلعكبري، قال: سمعت منه في السنة التي تهافتت فيها الكواكب، دخل بغداد فيها وذكر أنّ له منه إجازة بجميع مروياته. وذكره ابن النديم في الفهرست وهو والد الصدوق مؤلّف أحد الكتب الأربعة الفقهية المطبوعة.[١]

٢٨. **العياشي:** أبو النضر محمد بن مسعود السمرقندي، المؤلّف لما يزيد على مائتي كتاب في عدة فنون: الحديث، الرجال، التفسير، النجوم، وهو في طبقة مشايخ الكليني، وشيخ الكشي.

قال النجاشي: ثقة، عين من عيون هذه الطائفة، وسمع من شيوخ الكوفيين والبغداديين والقميين، أنفق تركة أبيه على العلم والحديث، وكانت ثلاثمائة ألف دينار، وكانت داره كالمسجد بين ناسخ أو مقابل أو قارئ أو معلّق، مملوءة من الناس.

وقال الشيخ: جليل القدر، واسع الأخبار، بصير بالروايات، مطّلع عليها. له كتب كثيرة تزيد على مائتي مصنّف، ذكر فهرس كتبه أبو إسحاق النديم، منها: كتاب التفسير، وقد طبع جزءان من هذا التفسير ينتهي إلى سورة الكهف، وقد جنى الناسخ على الكتاب وأسقط أسانيد الحديث.[٢]

النعماني: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن جعفر الكاتب النعماني الراوي عن ثقة الإسلام الكليني (المتوفّى سنة ٣٢٩هـ). قال الشيخ الحرّ العاملي: رأيت

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٩ برقم ٦٨١؛ فهرست الطوسي: ١١٩ برقم ٣٩٤؛ الرجال له أيضاً: ٤٨٢ برقم ٣٤؛ فهرست ابن النديم: ٢٩١.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٢٤٧ برقم ٩٤٥؛ فهرست الطوسي: ١٦٣.

قطعة من تفسيره[١]، ولعلّ ما رآه هو رسالة المحكم والمتشابه المطبوع باسم السيد المرتضى، وقد أدرجها القمي في أوّل تفسيره،والسيد هاشم البحراني في تفسير البرهان، ولأجل أنّه لم يتحقّق لنا أنّ له تفسيراً وراء هذا لم نذكر له رقماً خاصّاً.

٢٩. ابن الوليد: محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد. قال النجاشي: شيخ القميين وفقيههم ومتقدّمهم ووجههم ثقة ثقة أي مسكون إليه، له كتب منها: كتاب تفسير القرآن.وقال الشيخ: جليل القدر، عارف بالرجال، موثوق به، له كتب منها: كتاب الجامع وكتاب التفسير، وقال ابن النديم مثله.[٢]

٣٠. محمد بن أحمد بن إبراهيم الصابوني: مؤلّف تفسير «معاني القرآن» من قدماء أصحابنا، وأعلام فقهائنا ممّن أدرك الغيبتين: الصغرى والكبرى. ذكر النجاشي فهرس كتبه وعدّ منها: التفسير،كما عدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام الهادي، وهو أُستاذ جعفر بن محمد بن قولويه (المتوفّى عام ٣٦٩هـ).[٣]

٣١. أبو منصور الصرام: عرّفه الشيخ في فهرسته، وقال: وكان رئيساً مقدّماً، وله كتب كثيرة، منها: كتاب في الأُصول سمّاه بيان الدين ، وقال: له كتاب تفسير القرآن كبير حسن،ورأيت ابنه أبا القاسم، وكان فقيهاً وسبطه أبا الحسن، وكان من أهل العلم.[٤]

٣٢. الصدوق: محمد بن علي بن بابويه، نزيل الري. قال النجاشي: شيخنا وفقيهنا ووجه الطائفة بخراسان، وكان ورد بغداد سنة (٣٥٥هـ)، وسمع منه

---

١. الذريعة: ٤/ ٣١٨ برقم ١٣٤٢.

٢. رجال النجاشي: ٢/ ٣٠١ برقم ١٠٤٣؛ فهرست ابن النديم: ٣٢٧.

٣. رجال النجاشي: ٢/ ٢٨٢ برقم ١٠٢٣؛ تنقيح المقال: ٣/ ٦٥ برقم ١٠٢٩١.

٤. تنقيح المقال: ٣/ ٣٦(فصل الكنى).

شيوخ الطائفة وهـوحدث السن، ثمّ ذكر فهرس كتبـه الكثيرة منها: كتاب مختصر تفسير القرآن.

وقال الشيخ: جليل القدر، يكنّى أبا جعفر، كان جليلاً حافظاً للأحاديث، بصيراً بالرجال، ناقداً للأخبار، لم ير في القميين مثله في حفظه وكثرة علمه، له نحو ثلاثمائة مصنّف، وفهرس كتبه معروف[١]، وقد توفّي عام (٣٨١هـ).

هؤلاء اثنـان وثلاثـون شخصاً، وكلّ واحـد منهم كـوكب في سماء التفسير والحديث، وقد حافظوا بكتبهم على حديث رسول الله وأهل بيته المطهّرين، ضربوا آباط الإبل لتحصيـل الحديث، وهاجروا من بلـد إلى بلد وتشهد بذلـك تراجمهم، ولو أردنـا أن نستقصي أسماء من كتـب تفسيراً للقرآن مـن الشيعة في هـذه القرون الأربعة لضـاق بنا المجال وتجاوز الـرقم المائة ومن أراد التـوسّع فعليه الـرجوع إلى المعاجم.

وأنت ترى أنّ النمط السائد على كتب هـؤلاء، هو التفسير بالأثر والرواية، ولكنّ الذين جاءوا من بعدهم أحسّـوا أنّ هناك نمطاً آخر من التفسير أكمل من النمط السابق، وهو تفسير القرآن تفسيراً علميـاً جامعاً، والبحث عمّا يتعلّق بلفظ القرآن ومعنـاه، فأدخلـوا فيها علـم القراءات، وإقـامة الحجـج عليها، وأسبـاب النزول، والمغازي،والقصص،والحكايات، والأبحـاث الكلامية التي يستدلّ عليها المفسّر بـالقرآن الكـريـم، وإليك أسماء مـن أتى بعـدهـم وهم بين مقتفين لأثـر السابقين،ومبدعين نمطاً جديداً باسم التفسير العلمي.

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٢٢١ برقم ١٠٥٠؛ فهرست الطوسي: ١٨٤ برقم ٧٠٩.

أعلام التفسير في القرن الخامس

لقد حل القرن الخامس، في حين استفحل أمر الفرق الإسلامية، وتشتّت المذاهب الكلامية فيما يرجع إلى المبدأ والمعاد خصوصاً في أسمائه وصفاته، وهم:

بين مشبّه لله سبحانه بمخلوقه «يثبت له يداً ورجلاً ووجهاً وحركةً» وانتقالاً كالإنسان،ويكفر من ينكر ذلك، ويباهي بعقيدته، ويرفع عقيرته: بأنّا نثبت لله سبحانه ما أثبته لنفسه في الكتاب والسنّة، وكأنهّم لم يسمعوا قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء﴾ أو قوله عزّ من قائل : ﴿ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

وبين معطّل في فهم الأسماء والصفات فيفوض معانيها إلى الله سبحانه، ويرتدع عن تفسيرها على ضوء الكتاب والسنّة والعقل، وكأنّ القرآن لم ينزل إلاّ للقراءة والكتابة، لا للفهم والدراية، وكأنّ الوحي لم ينقر أسماعهم ﴿أَفلا يَتَدبَّرونَ القُرآنَ أَمْ عَلى قُلُوب أَقفالُها﴾.

وبين مؤوّل للآيات حسب عقيدته وفكرته يُخضعون كلام الله لآرائهم، وكأنّ النبي الأكرم ﷺ لم يحذّرهم عن تفسير القرآن بالرأي ولم يقل: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

ففي هذه الظروف القاسية قام علماء الشيعة بتفسير القرآن تفسيراً علمياً غير مائلين لا إلى اليمين ولا إلى الشمال، غير عاضدين لهذه الفرق، مقتفين أثر الكتاب العزيز، مستلهمين من أثر الرسول، ومتدبّرين في الآيات، فألّفوا في هذا المجال موسوعات تفسيريّة لم تزل تشعّ منذ تكوّنها إلى يومنا هذا، وإليك أسماءهم:

٣٣. أبو الحسن الشريف الرضي: نقيب العلويّين،محمّد بن الحسين بن

موسى المعروف بالسيد الرضي، ولد عام (٣٥٩هـ) وتوفّي عام (٤٠٦هـ)، وهو صاحب الأثر الخالد: نهج البلاغة، الذي قام فيه بجمع خطب الإمام ورسائله وكلمه من هنا وهناك، وله «حقائق التأويل في متشابه التنزيل» وهو تفسيره الكبير التي يعبرّ عنه تارة «بحقائق التأويل»، وأُخرى بالكتاب الكبير في متشابه القرآن، وعبّر عنه النجاشي بحقائق التنزيل، وصاحب عمدة الطالب بكتاب المتشابه في القرآن. ذكره ابن شهر آشوب في معالم العلماء،وقال: يتعذّر وجود مثله. وقال النسابة العمري في المجدي: شاهدت له جزءاً مجلداً من تفسير منسوب إليه في القرآن، مليح حسن، يكون بالقياس في كبر تفسير أبي جعفر الطبري أو أكبر.

وقال ابن خلّكان: «يتعذّر وجود مثله، دلّ على توسّعه في علم النحو، واللغة، وصنّف كتاباً في مجازات القرآن فجاء نادراً في بابه»، وقد طبع منه الجزء الخامس، أوّله تفسير قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ الكتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتاب ... ﴾.

ونقل الخطيب في تاريخ بغداد عن شيخه أحمد بن محمد (المتوفّى٤٤٥هـ) أنّ الرضي صنّف حول معاني القرآن ما يتعذّر وجود مثله، فيذكر الآيات المشكلة أو المتشابهة، فيزيل إشكالها وغموضها، وكتابه هذا غير مجازات القرآن المنتشرة.[١]

٣٤. محمد بن محمد بن النعمان المفيد (٣٣٦ـ ٤١٣هـ).

يقول النجاشي: شيخنا وأُستاذنا ــ رضي الله عنه ــ . فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والثقة والعلم.

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٣٢٦؛ الذريعة: ٧/ ٣٢ برقم ٢٦٠؛ وفيّات الأعيان: ٤/ ٤١٦، تحقيق الدكتور احسان عباس؛ الغدير: ٤/ ١٩٨.

يقول الشيخ الطوسي ـ تلميذه الآخر ـ: «يكنّى أبا عبد الله المعروف بابن المعلم، من جملة متكلّمي الإماميّة انتهت إليه رئاسة الإماميّة في وقته، وكان مقدّماً في العلم وصناعة الكلام، وكان فقيهاً متقدّماً فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب، توفّي لليلتين خلتا من شهر رمضان، سنة (٤١٣هـ)، وكان يوم وفاته يوماً عظيماً لم ير أعظم منه، من كثرة الناس للصلاة عليه، وكثرة البكاء من المخالف والموافق».

وقال ابن كثير: «توفّي في سنة (٤١٣هـ)، عالم الشيعة، وإمام الرافضة، صاحب التصانيف الكثيرة المعروف بالمفيد،وبابن المعلم أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقه، وكان يناظر أهل كلّ عقيدة بالجلالة والعظمة في الدولة البهية البويهيّة، وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، خشن اللباس، وكان عضد الدولة ربّما زار الشيخ المفيد، وكان شيخاً ربعاً نحيفاً أسمر، عاش (٧٦ سنة)، وله أكثر من مائتي مصنّف، وكان يوم وفاته مشهوداً وشيّعه ثمانون ألفاً من الرافضة والمعتزلة»، وقد سرد تلميذه النجاشي أسماء كتبه وفيها ما يمسّ بالموضوع ١. كلام في دلائل القرآن، ٢. البيان في تأليف القرآن، ٣. النصرة في فضل القرآن، ٤.الكلام في حدوث القرآن، ٥. البيان عن غلط قطرب في القرآن، ٦. الردّ على الجبائي في التفسير، ولأجل هذه الكتب الكثيرة حول القرآن فهو من أكبر المهتمين بالقرآن، وكيف لا يكون ذلك وقد تربّى في مدرسته العلمان الكبيران المفسران: المرتضى والطوسي بل والشريف الرضي.[١]

---

١. رجال النجاشي:٢/ ٣٢٧ برقم ١٠٦٨؛ فهرست الطوسي: برقم ٧١٠؛ البداية والنهاية:١٢/ ١٥؛ ولاحظ : تاريخ بغداد:٣/ ٢٣١ برقم ١٢٩٩.

٣٥. السيد المرتضى علم الهدى، أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى.

يصفه النجاشي بقولـه: حاز من العلوم مالم يحزه أحد في زمـانه، وسمع من الحديث فأكثر، كان متكلّماً شاعراً أديباً عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا، وهو من المكثرين في التأليف حول القرآن، أهمّها «الدرر والغرر»، المطبوع عدّة مرّات.

ووصفه الشيخ في فهرسته بقوله: المرتضى متوحّد في علوم كثيرة، مجمع على فضله، مقـدّم في العلوم، مثل علم الكـلام والفقه وأُصول الفقـه،والأدب والنحو والشعر ومعـاني الشعر، واللغـة، وغير ذلك، لـه من التصـانيف ومسـائل البلدان شيء كثير مشتمل على ذلك فهرسه المعروف .

وقال في رجاله: انّه أكثر أهل زمانه أدباً وفضلاً، متكلّم، فقيه، جامع العلوم كلّها، مدّ الله في عمره. إلى غير ذلك من كلمات الثناء مـن مشايخ العامة والخاصّة التي يضيـق بنا المجـال لنقل معشارهـا، وقد ترجمه كثير مـن أصحاب المعـاجم. راجع لفهرسها كتـاب الغدير. يقول الذهبي: «كتـاب غرر الفوائد ودرر القلائد» كتاب يشتمل على محاضرات أو أمـالي أملاها الشريف المرتضـى في ثمانين مجلساً، تشتمـل على بحوث في التفسير والحديـث، والأدب، وهو كتـاب ممتع، يـدل على فضل كثير، وتـوسّع في الاطّلاع على العلوم، وهـو لا يحيط بتفسير القرآن كلّـه، بل ببعض من آياته التي يدور أغلبها حول العقيدة.

إنّ من الجنايـة على العلم وأهله رمي السيـد المرتضى بأنّه يسعـى في كتابه هذا للتوفيق بين آرائه الاعتزالية وآيات القرآن التـي تتصادم معها». وهذا ما يقوله الذهبـي، وهو شنشنة أعـرفها من كلّ مـن لم يفرق بين مبادئ التشيّـع والاعتزال، فزعم أنّ اشتراكهما في بعض المبادئ كامتناع رؤية الله سبحانه، وحريّة الإنسان في حياته، وسعادته وشقائه، بمعنى اتحادهما في جميع الأُصول والمبادئ، ولم يقف على

أنّ المعتزلة في بعض آرائهم وعقائدهم عيال على خطب الإمام أمير المؤمنين وكلماته، هذا والكتاب قد طبع مرّات محقّقة.[١]

٣٦. محمد بن الحسن الطوسي، أبو جعفر، جليل من أصحابنا.

قال النجاشي: ثقة، عين من تلامذة شيخنا أبي عبد الله.

وقال العلاّمة في الخلاصة: شيخ الإمامية ورئيس الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة، عين، صدوق، عارف بالأخبار والرجال والفقه والأُصول والكلام والأدب، وجميع الفضائل تنتسب إليه، صنّف في كلّ فنون الإسلام، وهو المهذِّب للعقائد في الأُصول والفروع، والجامع لكمالات النفس في العلم والعمل، وكان تلميذ الشيخ المفيد، ولد ـ قدّس الله روحه ـ في شهر رمضان سنة (٣٨٥هـ)، وقدم العراق في شهور سنة (٤٠٨هـ)، وتوفّي ـ رضي الله عنه ـ ليلة الاثنين، الثاني والعشرين من المحرّم سنة (٤٦٠هـ) بالمشهد المقدّس الغروي، ودفن بداره.

وقد ترجمه أصحاب المعاجم من العامّة والخاصّة، وكفانا عن مؤونة البحث، ما ألّفه حول حياته شيخ الباحثين شيخنا المجيز الطهراني الذي طبع في مقدمة كتاب التبيان، وأمّا كتاب «التبيان»، فيكفي فيه قول الطبرسي:

«إنّه الكتاب الذي يقتبس منه ضياء الحقّ، ويلوح عليه رواء الصدق، تضمن من المعاني، الأسرار البديعة، واحتضن من الألفاظ اللغة الوسيعة، ولم يقن بتدوينها دون تبيينها، ولا بتنميقها دون تحقيقها، وهو القدوة أستضيء بأنواره وأط

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ١٠٢ برقم ٧٠٦؛ فهرست الطوسي: ٩٩؛ الخلاصة: ٤٦؛ التفسير والمفسّرون ٤٠٤. ولاحظ: رسالة الإسلام، العدد الثاني، من السنة الثانية عشرة، مقالة الشيخ محمد جواد مغنية، تحت عنوان: «الإمامية بين الأشاعرة والمعتزلة» تجد فيها حقّ المقال.

مواقع آثاره».[١]

وأمّا منهجه في التفسير فيظهر من قوله في مقدمته. يقول«سمعت جماعة من أصحابنا قديماً وحديثاً يرغبون في كتاب مقتصد، يجتمع على جميع فنون علم القرآن من القراءة... والجواب عن مطاعن الملحدين فيه، وأنواع المبطلين كالمجبّرة والمشبّهة والمجسّمة وغيرهم، وذكر ما يختصّ أصحابنا به من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحّة مذاهبهم في أُصول الديانات وفروعها».

ثمّ إنّ كتاب التبيان تداولته العلماء، وأخذوا في تحقيقه، فمنهم من اختصره كابن إدريس الحلي (المتوفّى عام ٥٩٨هـ)، وأبي عبد الله محمد بن هارون (المتوفّى عام ٥٩٧هـ)، كما أرّخه الجزري في طبقات القرّاء، وسيوافيك أسماؤهما في القرن السادس فانتظر.

٣٧. أبو سعيد، إسماعيل بن علي بن الحسين السمان، المعاصر للسيد المرتضى والشيخ الطوسي، حيث يروي عنه من يروي عنهما كإسماعيل وإسحاق ابني محمد بن الحسن بن الحسين بن علي بن موسى بن بابويه القمي. وذكره الشيخ منتجب الدين في فهرسته، وقال: ثقة وأيّ ثقة، حافظ، له «البستان في تفسير القرآن» في عشر مجلّدات.[٢]

أعلام التفسير في القرن السادس

٣٨. محمّد بن علي الفتّال، قال الشيخ منتجب الدين: الشيخ محمد بن علي

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٣٣٢ برقم ١٠٦٩، الخلاصة: ١٤٨؛ مجمع البيان:١/ ١٠. وراجع لسان الميزان: ٥/ ١٣٥ برقم ٤٥٢.

٢. فهرست منتجب الدين: ٨برقم ٨.

الفتّال النيسابوري صاحب التفسير، ثقة وأيّ ثقـة. أخبرنا جماعة من الثقـات عنه بتفسيره. ويظهر منه أنّه غير الفتّال المعروف مؤلّـف روضة الواعظين، حيث عنونه أيضاً وقال: ...الشيخ الشهيد محمد بن أحمد الفارسي مصنّف «روضة الواعظين»[١]، ولم يذكر له التفسير، واحتمل المصحّح وحدتهما وأشار في التعليقة أنّه تقدّم، ولكنّه خلاف الظاهر، إذ لا وجه لعنوان شخص واحد مرّتين.

٣٩. **محمد بن الحسن الفتّال النيسابوري**: لـه كتاب«التنـوير في معـاني التفسير»، «روضة الواعظين وبصيرة المتعظين»[٢]، ويأتي هناك ما ذكرنـاه سابقاً من احتمال الوحدة، وانّ هنـاك فتّالاً واحداً باسـم محمد بن الحسن بـن علي بن أحمد، وقد أضـافه ابن شهـر آشوب إلى أبيه، وقـال: محمد بـن الحسن، وأضافـه منتجب الدين إلى جدّه، وقال«محمد بن علي»، كما يحتمل تعدّدهما، وعلى كلّ حال فقد قتل شيخنا الفتّال عبد الرزاق رئيس نيسابور ابن أخي الخواجة نظام الملك الطوسي.[٣]

٤٠. **فضل بن الحسن بن الفضل المعروف بالطبرسي** و المقام يضيق عن نقل معشار ما ذكروا في حقّه، وهو من أكابر علماء الإماميّة في القرن السادس، وتفسيره المسمّى بـ«مجمع البيان» يقـع في عشرة أجزاء طبع في إيـران وبيروت ومصر، ولد عام (٤٧١هـ)، وتوفّي عام (٥٤٨هـ)، وقد ترجمه أصحاب المعاجم بأبلغ الألفاظ، يقول الدكتور محمد موسى في مقالة حول «مجمع البيان»:

ـ بعد نقل كلام الطبرسي في وصف كتابـه ـ القارئ لهذا الكتاب، والباحث الذي يلجأ إليه فيما يعاني من تفسير كتـاب الله العظيم ومعضلاته، والمتتبع لتطوّر

١. فهرست منتجب الدين: ١٦٦ برقم ٣٩٥، وص ١٩١ برقم ٥١١.
٢. معالم العلماء: ١١٨ برقم ٧٦٩.
٣. شهداء الفضيلة: ٣٨.

علم التفسير وما كتب فيه على مرّ القرون. كلّ من أُولئك يتبيّن كيف وفّق المؤلّف رضوان الله عليه للوفاء بكلّ ما قال في المقدّمة من علوم القرآن المتعدّدة، وإلى أيّ مدى عال مرموق بلغ من ذلك كلّه، وبأيّ أُسلوب بليغ عالي المنزلة عالج النواحي التي عالجها،وبأيّ أمانة وصدر رحب نقل ما نقل من آراء مخالفيه في الرأي أو المذهب، على ندرة هذه الخطة الأخيرة بين غير قليل من العلماء الذين يتصدون للتأليف في العلوم والفنون التي يكثر فيها الاختلاف، ويشتدّ، كما ترى بوضوح في كثير من المؤلّفات في علم الكلام، وعلم الفقه.[1]

يقول الطبرسي في مقدمة مجمع البيان: ابتدأت بتأليف كتاب هو في غاية التلخيص والتهذيب وحسن النظم والترتيب، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه، ويحوي فصوصه وعيونه، من علم قراءاته وإعرابه، ولغاته وغوامضه ومشكلاته، ومعانيه وجهاته، ونزوله وأخباره، وقصصه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحلاله وحرامه، والكلام على مطاعن المبطلين،وذكر ما ينفرد به أصحابنا ـ رضي الله عنهم ـ من الاستدلالات بمواضع كثيرة منه على صحّة ما يعتقدونه من الأُصول والفروع والمعقول والمسموع على وجه الاعتدال والاختصار، فوق الإيجاز ودون الإكثار ـ إلى أن يقول: ـ إنّي قد جمعت في عربيته كلّ غرّة لائحة، وفي إعرابه كلّ حجّة واضحة، وفي معانيه كلّ قول متين، وفي مشكلاته كلّ برهان مبين، وهو بحمد الله للأديب عمدة، وللنحوي عدّة،، وللمقرئ بصيرة، وللناسك ذخيرة، وللمتكلّم حجّة، وللمحدّث محجّة، وللفقيه دلالة، وللواعظ آلة....

---

١. الدكتور محمد يوسف موسى الأُستاذ بكلية أُصول الدين في القاهرة مجلة رسالة الإسلام، العدد الأوّل من السنة الثانية ص ٦٨.

والشيخ الذهبي مؤلّف «التفسير والمفسّرون» مع عناده ولجاجه لعلماء الشيعة لم يستطع أن ينكر ما للطبرسي في كتابه «مجمع البيان» من مقدرة كبيرة في مجال التفسير. يقول: «والحقّ أنّ تفسير الطبرسي ـ بصرف النظر عمّا فيه من نزعات تشيّعية، وآراء اعتزالية ـ، كتاب عظيم في بابه، يدلّ على تبحّر صاحبه في فنون مختلفة من العلم والمعرفة، والكتاب يجري على الطريقة التي أوضحها لنا صاحبه في تناسق تام وترتيب جميل، وهو يجيد في كلّ ناحية من النواحي التي يتكلّم عنها، فإذا تكلّم عن القراءات ووجوهها أجاد، وإذا تكلّم عن المعاني اللغوية للمفردات أجاد، وإذا تكلّم عن أسباب النزول وشرح القصص استوفى الأقوال وأفاض، وإذا تكلّم عن الأحكام تعرّض لمذاهب الفقهاء وجهر بمذهبه ونصره إن كانت هناك مخالفة منه للفقهاء، وإذا ربط بين الآيات آخى بين الجمل، وأوضح لنا عن حسن السبك وجمال النظم، وإذا عرض لمشكلات القرآن أذهب الإشكال وأراح البال، وهو ينقل أقوال من تقدّمه من المفسّرين معزوّة لأصحابها، ويرجّح ويوجّه ما يختار منها ـ إلى أن قال ـ: والحقّ أن يقال: إنّه ليس مغالياً في تشيّعه ولا متطرّفاً في عقيدته».[1]

ثمّ إنّ الذهبي يقول:

«وإذا كان لنا بعض المآخذ عليه، هو تشيّعه لمذهبه وانتصاره له، وحمله لكتاب الله على ما يتّفق وعقيدته، وتنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات...».

يلاحظ عليه : أنّه لو صحّت تلك المؤاخذه فلا تختصّ بالطبرسي ومجمعه،

---

١. التفسير والمفسّرون: ٢/ ١٠٤.

بل يعمّ كلّ من ورد في مجال التفسير وكتب تفسيراً علمياً، فانّ كلّ مفسّر يتشيّع لمذهبه وينتصر له، فالحنابلة والسلفيّون الذين يصرّون على إمكان رؤية الله سبحانه يوم القيامة ويسعون لأن يثبتوا له سبحانه أعضاء كأعضاء الإنسان، متدرّعين بلفظ «بلا كيف»، ينتصرون لمذهبهم ويتشيّعون له، ولكنّهم في نظر الذهبي موضوعيون واقعيّون! وأمّا من حاول تنزيه الله سبحانه عن الرؤية والأعضاء البشرية فهو عنده طائفي متعصّب لمذهبه! وممّا جعله الذهبي دليلاً لتعصّبه، أنّه يصرّعلى عدم رؤية الله تبارك وتعالى، ويستدلّ على مذهبه بما يدلّ عليه. ولو كان ذلك دليلاً على تعصّبه لمذهبه، فليكن ذلك دليلاً على تعصّب مفسّري أهل السنّة من أهل الحديث والأشاعرة كالرازي والآلوسي، حيث يصرّون على إمكان رؤيته، ويستدلّون بما ظاهره إمكان رؤيته. فلماذا، «باؤك» تجرّ و«بائي» لا تجرّ؟!

ثمّ إنّ لشيخنا الطبرسي تفاسير أُخرى منها «جوامع الجامع» الذي لخّص فيه كتاب الكشّاف وضمّن فيه نكات كتابه «مجمع البيان»، وهو تفسير بديع في بابه، طبع عدّة مرّات.

إنّ الشيخ الطبرسي بعد أن ألّف «مجمع البيان»، اطّلع على الكشاف، فأراد أن يجمع بين فوائد الكتابين على وجه الاختصار، فألّف ذلك الكتاب المعروف بـ «جوامع الجامع»، وقد ذكروا في ترجمته تفسيراً آخر له باسم الوسيط في أربعة مجلّدات، والظاهر أنّه هو ذلك الكتاب، وله تفسير آخر باسم الوجيز، فكأنّه ألّف تفاسير بألوان ثلاثة على وجه التبسيط و هو مجمع البيان، وعلى وجه الإيجاز والاختصار وهو «الوجيز»، وعلى نمط بين التبسيط والإيجاز وهو «جوامع الجامع»، وقد فرغ من الكتاب «مجمع البيان »عام (٥٣٦هـ)، و فرغ من الجزء الأوّل من عشرة أجزاء عام (٥٣٠هـ)، وكأنّه استغرق تأليف مجمع البيان سبع سنوات، وقد

قام بهذا الجهد البليغ، وقد ذرف على الستين.

٤١. ضياء الدين، أبو الرضا فضل الله بن علي الراوندي الحسني، وهو مؤلّف الكافي في التفسير، صرّح به العلاّمة في إجازته لبني زهرة والمؤلّف شيخ منتجب الدين الرازي، (المتوفّى سنة ٦٠٠هـ)، وشيخ ابن شهر آشوب، (المتوفّى عام ٥٨٨هـ)، وكان المؤلّف (حيّاً عام ٥٤٨هـ).

قال الرازي: «علاّمة زمانه، جمع مع علو النسب كمال الفضل والحسب، وكان أُستاذ أئمّة عصره»، ثمّ ذكر تصانيفه، منها التفسير، قال: شاهدته وقرأت بعضها عليه.[1]

٤٢. جمال الدين، أبو الفتوح الحسين بن علي الخزاعي، النيسابوري، الرازي. شيخ منتجب الدين، و ابن شهر آشوب، وقد تعرّفت على سنة وفاتها، والمدفون في جوار سيدنا عبد العظيم الحسني، له تفسيران أحدهما: عربي أشار إليه في مفتتح تفسيره الفارسي، والآخر: فارسي في عشرة أجزاء كبار، وهو المتداول الموسوم بـ«روض الجنان»، طبع مرّتين مرّة عام (١٣٢٣هـ)، وثانياً عام (١٣٧٠هـ) بتصحيح العارف الشيخ مهدي الإلهي القمشئي، في عشرة أجزاء، وقد طبعت ترجمة المؤلّف في الطبعة الأُولى بقلم الكاتب الأديب محمد القزويني، والتفسير مشحون بالأبحاث الأدبية، وما يرجع إلى القراءة وحجّتها، وأسباب النزول، والاحتجاج على المذهب المختار، ولعلّ المؤلّف توفّي عام (٥٥٠هـ)[2]، وربّما

---

١. العلاّمة الحلي: الإجازة الكبيرة لبني زهرة. لاحظ البحار: ١٠٤/ ١٣٥، ويروي عنه بواسطة أبيه عن السيد صفي الدين، عنه؛ فهرست منتجب الدين: ١٤٤.

٢. وقد أجاز لبعض تلامذته عام (٥٤٧هـ). لاحظ مقدمة المحدّث الأرموي لجلاء الأذهان: ص (ل).

يقال: إنّ الرازي وضع تفسيره على منوال هذا التفسير[1]، والمؤلّفان رازيّان غير أنّ الفخر متأخّر عنه قليلاً.

٤٣. رشيد الدين، أبو علي محمد بن علي بن شهر آشوب السروي،(المتوفّى عام ٥٨٨هـ) عن مائة سنة إلّاأربعة أشهر، له كتاب في التفسير عبّر عنه في كتابه «معالم العلماء» بـ«متشابه القرآن»، وهو كتاب نفيس منبئ عن طول باعه. يقول في مقدمة الكتاب: سألتم ـ وفّقكم الله للخيرات ـ املأ كتاب في بيان المشكلات من الآيات المتشابهات، وما اختلف العلماء فيه من حكم الآيات، ولعمري أنّ لهذا التحقيق بحراً عميقاً فأسأل الله المعونة على إتمامه، وأن يوفّقني لإتمام ما شرعت فيه من كتاب أسباب نزول القرآن، فانّ بانضمامهما يحصل جلّ علوم التفسير.[2]

وقد طبع الكتاب في طهران سنة (١٣٧٠هـ)، وأمّا الكتاب الآخر الذي أشار إليه، فلم نقف على نسخته، وقد ترجم المؤلّف لفيف من أعلام الطائفة وغيرهم من أهل السنّة.

٤٤. قطب الدين، سعيد بن هبة الله بن حسن الراوندي، (المتوفّى سنة ٥٧٣)، المدفون بقم، في صحن السيدة معصومة سلام الله عليها ،له «فقه القرآن

---

١. القائل هو الشيخ محمد علي السهوري في كتابه «عدّة الخلف في عدّة السلف» يقول:

وترجمان الذكر ذو الاعزاز
آس الهدى أبو الفتوح الرازي
فخر المشككين شيخ القالة
للأخذ من أفضاله أفضي له
قد سرق الحق له لغير حق
نعم ومن قبل له أخ سرق

٢. مقدمة تأويل متشابهات القرآن؛ معالم العلماء: ١١٩ برقم ٧٩١.

في بيان آيات الأحكام»، و ربما يسمّى بأُمّ القرآن، والكتاب مرتّب على ترتيب كتب الفقه، ابتدأ فيه بكتاب الطهارة، ثمّ الصلاة، وهكذا إلى كتاب الديات، فرغ منه سنة (٥٦٣هـ)، وله أسباب النزول، وهو من مصادر كتاب «بحار الأنوار»، صرّح به العلاّمة المجلسي وينقل عنه فيه.[١]

٤٥. أبو عبد الله محمد بن هارون، المعروف والده بالكال أو الكيّال، ولد عام (٥١٥هـ)، وتوفّي عام (٥٩٧هـ)، ترجمه الجزري (المتوفّى سنة ٨٣٣هـ)، في طبقات القرّاء، وترجمه ابن العماد في «شذرات الذهب»، كما ترجمه الشيخ الحرّ العاملي في أمل الآمل. ومن تصانيفه «مختصر التبيان في تفسير القرآن»، وكتاب «متشابه القرآن».[٢]

٤٦. الشيخ أبو جعفر محمد بن منصور بن أحمد بن إدريس الحلّي: مؤلّف السرائر في الفقه، الطائر الصيت، (المتوفّى عام ٥٩٨هـ) له مختصر التبيان، طبع في جزءين، وقد فرغ منه عام (٥٨٢هـ)، ونسخه متوفرة. عسى أن يبعث الله بعض ذوي الهمم العالية لنشره.

٤٧. برهان الدين محمد بن أبي الخير، علي بن أبي سليمان، ظفر الحمداني، مؤلّف «مفتاح التفسير» و «دلائل القرآن»، ترجمه منتجب الدين في فهرسته، وقال: عالم مفسّر، صالح واعظ، كما ترجم ولده محمد بن برهان الدين أيضاً، ولكن بقي ولده إلى المائة السابعة، فانّه كتب بخطه نسخة فهرست الشيخ منتجب الدين في (٦١٣هـ)، كما ذكره الشيخ الشهيد الأوّل في آخر نسخته التي استنسخها عن تلك

---

١. روضات الجنات: ٤/ ٤٦؛ بحار الأنوار: ١/ ١٢.

٢. شذرات الذهب: ٤/ ٣٣٣؛ أمل الآمل: ٢/ ٣١١ برقم ٩٤٧. لاحظ الذريعة: ٤/ ٢٤٥ برقم ١١٩٠.

النسخة.[١]

هذه عشرة كاملة من أعيان القرن السادس اكتفينا بهم و طوينا الكلام عن غيرهم، وما هذا إلّا لأنّ الغاية هي إراءة نماذج من مشاهير المفسّرين من الشيعة في كلّ قرن.

أعلام التفسير في القرن السابع والثامن

كانت نهاية القرن السادس ومجموع القرن السابع والثامن عصر البؤس والدمار وبالتالي شرّ القرون وأسوأها بالنسبة إلى المسلمين، فقد حلّت فيها بالمسلمين فجائع ونكبات لم يسجّل التاريخ لواحد من الأُمم مثلها، فبينما كانت الحروب الصليبية لا تزال طاحنة ومشتعلة في أواخر القرن السادس ينتصر فيها المسلمون على العدو الصليبي في فترة بعد فترة، إذ بدأت الحملات الأُخرى من جانب الشرق على يد التتار والمغول، فكان مختتم الحروب الصليبية مبدأ للحروب الوثنية على يد عبدة الشمس والكواكب، وكان هذا يعكس اتّفاق الصليب والصنم وبالتالي الصليبين والوثنيين على تدمير الحضارة الإسلامية.

وفي سنة (٦١٦هـ) قصد چنگيزخان البلاد الإسلامية ودمّرها هو وأولاده وأحفاده، عصراً بعد عصر، وقد هجم هولاكو على مركز الخلافة العباسي، بغداد عام (٦٥٦هـ)، ففتحوا البلد، وقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والصبيان و المشايخ والكهول والشبّان، ودخل كثير من الناس في الآبار وأماكن الحوش وقنى الوسخ، فبلغ عدد القتلى في نفس بغداد فضلاً عن ضواحيها ٨٠٠,٠٠٠ قتيل.

---

١. فهرست منتجب الدين: ١٦١؛ الذريعة:٨/ ٢٥٢ برقم ١٠٣٨ و٢١/ ٣٢٣ برقم ٥٢٨٧.

وقد ارتكب مثل ذلك في خراسان والري و همدان وبلد الجبل ثمّ آذربيجان إلى كثير من الأقطار والأصقاع، ولم يتوقّف هجومهم على فتح بغداد حتى وصل جيش العدو إلى عين جالوت وغزة في فلسطين، وكانت الأُمنية الكبرى للعدو هو الاستيلاء على الشامات ثمّ مصر، والزحف وإن توقّف بتدبير الملك الظاهر بيبرس، ولكنّ العدو بقى يهاجم الشام بين الحين والآخر، وهذا هو اليافعي يقول في تاريخه في حوادث سنة (٧٠٢هـ):

«طرق غازان بالشام ولكن انهزم عند سور دمشق و تفرّقت جيوشه، ثمّ جهّز غازان جيوشه فساروا إلى مرج دمشق وتأخّر المسلمون وبات أهل دمشق في بكاء واستغاثة بالله وخطب شديد وقدم السلطان وانضمت إليه جيوشه».[١]

وقد امتدّ الدمار إلى أواخر القرن الثامن، وقد أدّى ذلك إلى مجزرة للمسلمين عامّة والعلماء من بينهم خاصة، فأُحرقت مكتباتهم، ودمّرت آثارهم في ذينك القرنين، حيث ابتدأت الحروب التترية عام (٦١٦هـ)، و انتهت عام (٨٠٧هـ) بموت تيمور لنگ الذي تظاهر هو بالإسلام وبعض من قبله، ولكن لم تزل القلوب مضطربة باستيلاء هؤلاء على المناطق الإسلامية.

وعلى ضوء هذا التحليل الإجمالي للوضع المأساوي في ذينك القرنين لا عجب من قلّة العثور على أعلام التفسير فيهما أو قلّة العناية به جرّاء القلاقل، حيث إنّ التأليف والتصنيف يتوقّف على توفّر الأمن والهدوء، فلا عتب علينا إذا لم نقف إلّا على فئة قليلة من أعلام التفسير في هذين القرنين، ولعلّ الدائر أكثر من الباقي.

هذا من جهة، ومن جهة أُخرى لما استقرت السلطة التترية في المناطق

---

١. مرآة الجنان: ٤/ ٢٣٤ـ ٢٣٥.

المحتلّة وضربت بجرانها في البلاد الإسلامية أخذت تحرّك دفّة العلم باتجاه العلوم الطبيعية والرياضية وأخيراً العقلية، فصار الغور في هذه الموضوعات، الشغل الشاغل لأكثر العلماء المتواجدين في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي، ولأجل ذلك أنجبت المدارس العلمية في ذينك القرنين(السابع والثامن)، بل والقرن الذي يليهما مئات الكتب حول النجوم والفلكيّات والرياضيات، وصارت المسائل الكلاميّة مدار التفكير، فمن مختصرات إلى مطوّلات، ومن متون إلى شروح، نرى أعيانها في المكتبات والمتاحف أو نقرأ أسماءها في مختلف المعاجم،وصار ذلك هو السبب الثاني لقلّة التأليف حول التفسير إلى أواخر القرن العاشر، ومع ذلك فنأتي بأسماء أعلام التفسير في هذه القرون :

٤٨. رضي الدين علي بن موسى بن طاووس الحسني الحلّي، المولود بالحلّة في (١٥) محرم من سنة (٥٨٩هـ). أقام ببغداد زمن العباسيين خمسة عشر سنة، ثمّ رجع إلى الحلّة، ثمّ جاور النجف، ثمّ رجع إلى بغداد في أوّل عصر المغول، وتولّى النقابة من قبل نصير الدين الطوسي عن هولاكو ثلاث سنين وأحد عشر شهراً. قال ابن الفوطي في «الحوادث الجامعة» أنّه وليّ النقابة للطالبيين بالعراق سنة (٦٦١هـ) وتوفّي سنة (٦٦٤هـ).

له مشايخ وتلاميذ كثيرون، كما أنّ له تآليف قيّمة، ومنها «سعد السعود في تاريخ القرآن».[1]

٤٩. السيد جمال الدين، أحمد بن موسى بن طاووس الحسني الحلي، من مشايخ العلاّمة الحلّي وتقي الدين الحسن بن داود صاحب الرجال، له مؤلّفات كثيرة، ذكرها تلميذه ابن داود في رجاله،تبلغ إلى اثنين وثمانين مجلداً، له خطوات

---

١. الحوادث الجامعة: ١٠٧؛ الأنوار الساطعة: ١١٧.

مشكورة في تحقيق الرجال والدراية والتفسير، وله شواهد القرآن، توفي عام (٦٧٣هـ)، بعد أخيه رضي الدين بتسع سنين.[١]

٥٠. بهاء الدين يوسف بن أبي الحسن بن أبي القاسم الديلمي الجيلاني، المعاصر لمحمد بن صالح بن مرتضى التيهاني الذي توفّي عام (٦٧٥هـ)، له تفسير ذكره القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال اليمني(المتوفّى بصنعاء عام ١٠٩٢هـ) في كتابه «مطلع البدور» ، وحكاه شيخنا المجيز في «الذريعة»، وهو جد أبي الفضل الديلمي صاحب التفسير الذي هو من علماء القرن الثامن كما سيوافيك.[٢]

٥١. مؤلّف نهج البيان عن كشف معاني القرآن، والمؤلّف من أعيان القرن السابع، ألّفه لخزانة المستنصر العباسي سنة (٦٤٠هـ)، وذكر شيخنا المجيز مستهلّ الكتاب وهو الحمد لله ذي العزّة والجلال والقدرة والحكمة...، ثمّ ذكر الصلوات على خاتم الأنبياء وعلى ابن عمّه أمير المؤمنين وولديه السيدين الإمامين الحسن والحسين،وينقل فيه عن الشيخ المفيد و عن «تبيان» الشيخ الطوسي، ويوجد نسخ منه في العراق.[٣]

٥٢. عبد الرشيد بن الحسين بن محمد الاسترآبادي مؤلّف تأويل الآيات، التي يتعلّق بها أهل الضلال، ينقل عنه السيد رضي الدين علي بن طاووس، المتوفّى سنة (٦٦٤هـ)، في كتابه: «سعد السعود» في تفسير لفظ «يس» ولعلّ المؤلّف من أعيان أوائل القرن السابع.[٤]

---

١. فهرست منتجب الدين: ١٦١؛ الذريعة: ٨/ ٢٥٢ برقم ١٠٣٨ و ٢١/ ٣٢٣ برقم ٥٢٨٧.

٢. مطلع البدور كما في الذريعة: ٤/ ٣٢٢.

٣. الذريعة: ٢٤/ ٤١٤.

٤. الذريعة: ٤/ ٣٠٣ برقم ١١٢٨.

٥٣. عبد الرزاق بن أحمد الكاشي، العارف، الحكيم، المعاصر للعلاّمة الحلّي، له «السراج الوهّاج في تفسير القرآن» و «تأويلات القرآن»، و قد سرد تآليفه شيخنا في طبقات أعلام الشيعة.[1]

٥٤. العلاّمة الحلّي، جمال الدين حسن بن يوسف بن مطهر، المولود عام (٦٤٨هـ)، والمتوفّى عام (٧٢٦هـ)، وهو آية من آيات الله الكبرى المشتهر بالعلاّمة على الإطلاق، وهو أظهر من أن يعرف وأشهر من أن يذكر،وله جهود كبرى وخطوات واضحة في العلوم الإسلامية، وله في مجال التفسير تأليفات ثلاثة:

١. «السر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، كما ذكره في فهرس كتبه في كتابه «خلاصة الأقوال في علم الرجال».

٢. «نهج الإيمان في تفسير القرآن» لخّص فيه «الكشّاف» و«التبيان» و«مجمع البيان».

٣. «تلخيص الكشاف» حكى شيخنا المجيز في الذريعة أنّه رآه بعض المطّلعين عند بعض علماء العامّة ببغداد، ولكن يحتمل اتحاد الثالث مع الثاني.[2]

٥٥. قطب الدين، محمد بن محمد الرازي البويهي، (المتوفّى سنة ٧٦٦هـ)، تلميذ العلاّمة الحلّي، وأُستاذ الشهيد الأوّل (المتوفّى عام ٧٨٦)، له تفسيران:

١. «تحفة الأشراف»، وهو تفسير كبير أبسط من تفسيره الآخر، يوجد مجلّدان منه في المكتبة الخديوية بمصر من أوّله إلى آخر سورة طه، وهو كالحاشية على الكشّاف.

---

١. الحقائق الراهنة في أعيان المائة الثامنة: ١١٢؛ الذريعة : ٣/ ٣٠٣.

٢ .خلاصة الأقوال: ٤٦، ط النجف؛ الذريعة:١٢/ ١٧٠ برقم ١١٣٨ و٢٤/ ٤١٢ برقم ٢١٧ و٤/ ٤٢٥ برقم ١٨٧٣.

٢. «بحر الأصداف»، يوجد منه نسخة في العراق في مكتبة الجوادين بالكاظمية، فرغ منه المؤلّف سنة (٧٣٣هـ).

٥٦. ركن الدين حيدر بن علي بن حيدر الحسيني الآملي له المحيط الأعظم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم، فرغ من إتمامه سنة (٧٧٧هـ)، وهي موجودة في الخزانة الغروية ، قد ذكر شيخنا المجيز الطهراني ثلاثة تفاسير أُخرى له وهي: «التأويلات» و «جامع الأسرار» و «منتخب التأويل».[1]

٥٧. جمال الدين أحمد بن متوّج البحراني، مؤلّف«منهاج الهداية في تفسير آيات الأحكام الخمسمائة» يقول الشيخ سليمان بن عبد الله الماحوزي في رسالته في أحوال علماء البحرين: انّ الشيخ جمال الدين كان شيخ الإمامية في وقته، وكان من أعظم تلاميذ فخر المحقّقين، (المتوفّى عام ٧٧١هـ)، واتّفق اجتماعه مع الشهيد الأوّل بمكّة، فلمّا تناظرا غلب عليه الشهيد، وقد توفّي الشهيد عام (٧٨٦هـ)، فالرجل من أعيان القرن الثامن وإن أدرك قليلاً من أوائل القرن التاسع،وينقل عنه الفاضل المقداد، (المتوفىّ عام ٨٢٨هـ) في كنز العرفان، والنسخة موجودة في العراق، كما حكاه شيخنا المجيز في الذريعة.[2]

٥٨. الشيخ فخر الدين أحمد بن متوّج، مؤلّف «النهاية في تفسير الخمسمائة آية»، وهو أيضاً تلميذ فخر المحقّقين الذي توفّي عام (٧٧١هـ)، وشيخ أبي العباس أحمد بن فهد الحلّي، (المتوفّى عام١ ٨٤هـ)، وهو أيضاً من المكثرين، له

---

١. الذريعة: ٢٠/ ١٦١ برقم ٢٣٩٦؛ الحقائق الراهنة له أيضاً: ٦٩.

٢. الذريعة: ٢٣/ ١٠٨ برقم ٨٥٥٨ و٤/ ٢٤٦ برقم ١١٩٢ ولاحظ: طبقات أعلام الشيعة في المائة الثامنة: ٨.

تفسيران: كبير مطوّل وصغير مختصر، وله أيضاً كتاب الناسخ والمنسوخ[١]، وهو أيضاً من أعيان القرن الثامن وإن أدرك أوائل القرن التاسع، ولأجل ذلك ذكرناه في مشاهير المفسرين في القرن الثامن.

٥٩. أبو الفضل، نجل الفقيه العالم بهاء الدين يوسف بن أبي الحسن الديلمي الجيلاني الذي مرّ عند ذكر مشاهير المفسّرين في القرن السابع،وقد ذكره القاضي أحمد بن صالح اليمني، المتوفّى بصنعاء عام (١٠٩٢) في حرف الفاء من كتابه «مطلع البدور» بعنوان المشهورين بأبي الفضل من علماء العراق، وذكر من تصانيفه تفسير القرآن ودلائل التوحيد في الكلام، وذكر شيخنا المجيز أنّ تفسيره كبير في مجلدين ضخمين على كيفية خاصّة، ثمّ ذكر كيفيته، ونسخته موجودة في النجف الأشرف، ويكثر النقل عن احتجاج الطبرسي وتفسير الشيخ الطبرسي والكشّاف وغيرها.[٢]

٦٠. فضل الله بن عماد الدولة، أبو الخير، هو الوزير العالم، مربي العلماء رشيد الدين فضل الله الهمداني الشهيد في ربيع الأوّل عام (٧١٨هـ). كان عالماً مهر في العلوم الطبيعية والفلسفة و الرياضيات، تلمّذ في العلوم على رضي الدين الطوسي مع زميله ابن الفوطي، ترجم له ابن كثير في البداية والنهاية، وتعصّب عليه كما هو ديدنه ضدّ الشيعة، و قال: إنّه فسّر القرآن على طريقة الفلاسفة، فنسب إلى الإلحاد،ومن تآليفه مفتاح التفاسير، وقيل: إنّه قرّظه مائة رجل من العلماء وله «جامع التواريخ» في ثلاثة أجزاء، ومن آثاره «الربع الرشيدي» بتبريز.[٣]

---

١. روضات الجنات: ١/ ٦٨؛ الذريعة: ٤/ ٢٤٦ برقم ١١٩١. ولاحظ أيضاً: الضياء اللامع في القرن التاسع: ٥.

٢. الذريعة: ٤/ ٢٥٦ برقم ١٢١٣.

٣. الحقائق الراهنة في أعيان المائة الثامنة: ١٦٠.

٦١. كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن العتايقي الحلّي، صاحب التصانيف، الموجود بعضها بخطّه في الخزانة الغروية منها «صفوة الصفوة»، الذي فرغ منه سنة (٧٨٧هـ). له «الناسخ والمنسوخ» و نسخه متوفّرة في النجف ويعبّر عن العلاّمة الحلّي في كتابه «الإيضاح» بـ«شيخنا المصنّف»،فالرجل من أعيان أواخر القرن الثامن، بسط شيخنا المجيز الكلام في ترجمته.[١]

أعلام التفسير في القرن التاسع

٦٢. أبو عبد الله مقداد بن جلال الدين عبد الله السيوري الحلّي، تلميذ الشهيد الأوّل وشارح الباب الحادي عشر، (المتوفّى عام٨٢٦هـ)، رتّبه على مقدمة وكتب بترتيب كتب الفقه،وخاتمة، وقد طبع عدّة مرّات، منها ما طبع مستقلاً سنة (١٣١٣هـ)، وله تفسير «مغمضات القرآن»، وقد رآه شيخنا المجيز في كربلاء المقدسة.[٢]

٦٣. طيفور بن سراج الدين جنيد، المفسّر الجليل له تفسير القرآن بالحديث والرواية، حكى شيخنا المجيز أنّه رآى تفسيره الكبير، وقد فرغ منه يوم الغدير سنة (٨٧٦هـ).[٣]

٦٤. كمال الدين الحسن بن محمد بن الحسن الاسترآبادي النجفي، شارح الفصول النصيريّة، له آيات الأحكام المستخرج من كتاب عيون التفاسير الذي فرغ من مجلّده الأوّل، سنة (٨٩١هـ)، وأسماه «معارج السؤول ومدارج المأمول» في

١. الحقائق الراهنة في أعيان المائة الثامنة: ١٠٩ـ ١١٢؛ الذريعة: ٢١/ ٣٢٣ برقم ٥٢٨٦.

٢. روضات الجنات: ٧/ ١٧٠. ولاحظ الذريعة: ٤/ ٣١٥.

٣. الذريعة: ٤/ ٢٨٠ برقم ١٢٨٦.

تفسير آيات الأحكام، واشتهر بكتاب اللباب وهو أبسط من كنز العرفان للفاضل المقداد. يقـول في أوّله: إنّـه لمّا منّ الله عليه بتـأليف عيـون التفاسير، استخـرج منه تفسير آيات الأحكام على نهج مـا ألّفه شيخه المقداد، فهـو ذو تأليفين في التفسير أحـدهما: يعم جميـع القرآن، والآخـر: يختصّ بـآيات الأحكـام، وهو مـن تلاميـذ الفاضل المقداد، ومن الكتاب نسخة في المكتبة الرضوية وغيرها.[1]

أعلام التفسير في القرن العاشر

٦٥. حسين بـن علي الواعـظ الكاشفـي مؤلّـف «جواهـر التفسير لتحفة الأمير» ألّفه باسـم الوزير الأمير نظام الـدين علي شير، قدّم فيه أربعـة أُصول فيها اثنان وعشرون عنوانـاً من الفنون المتعلّقة بتفسير القرآن وفضله وأنـواعه، ثمّ شرع التفسير من سورة الفاتحة، وله تفسير آخر أسماه بـ«المواهب العليّة»، وقد توفّي عام (٩١٠هـ).[2]

٦٦. كمال الديـن الحسين بن شرف الـدين، عبد الحقّ الأردبيلي، المعروف بالإلهي، تـوفّي عام (٩٥٠هــ)، وعبّر في كشف الظنـون عنه بتفسير الأردبيلي، وفي رياض العلماء أنّ هذا التفسير كبير لتمام القرآن الشريف، وهو في مجلدين.[3]

٦٧. عبد العلي ابن نظام الديـن محمد بن الحسين البيرجندي، (المتوفّى عام ٩٢٢هـ)، له شرح تحرير المجسطـي وجاء في خطبته: مسلماً على الأئمّة المنتجبين

---

١. الضياء اللامع: ٤١.

٢. إحياء الداثر:٦٩، الذريعة:٥/ ٢٦٥ برقم ١٢٦٨.

٣. كشف الظنون: مادة التفسير؛ رياض العلماء:٢/ ٩٨، الذريعة: ٤/ ٢٦١ برقم ١٢٢٢.

المكرمين المتشرقين بتشريف ﴿إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ و ﴿إِنّما يُرِيدُ اللّهَ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْس﴾ لـه «شرح الدر النظيم في خواص القرآن العظيم» ألّفه سنة (٩٠١هـ)، وقد أتمّ بعض كتبه سنة (٩٣٢هـ).[١]

٦٨. علم النجفي ابن سيف بن منصور الحلّي، صاحب كنز الفوائد المنتخب من كتاب «تأويل الآيات الباهرة» انتخبه منه سنة (٩٣٧هـ) في المشهد الغروي.[٢]

٦٩. محمّد خواجه كي، شيخ ابن أحمد الشيرازي، مؤلّف شرح باب حادي عشر»، ألّفه سنة (٩٥٢هـ)، له مختصر مجمع البيان.[٣]

٧٠. أبو المحاسن، الحسين بن الحسن ، يعرّفه عبد الله الأفندي بقوله: فاضل عالم متكلّم محدث مفسّر. كان من مشاهير الإمامية، ومن مؤلّفاته كتاب «جلاء الأذهان في تفسير القرآن» وهو تفسير حسن كثير الفوائد.[٤]

أقول: قد طبع الكتاب في عشرة أجزاء بتصحيح وتعليق المحقّق السيد جلال الدين الحسيني الارموي ﷺ ،والكتاب من حسنات الدهر، والمؤلّف من علماء القرن العاشر، كما حقّقه المصحح في المقدمة، فمن أراد فليرجع إليه، وفيه فوائد أُخرى لا غنى للباحث عنها.

٧١. عبد الجليل القارئ، ابن أحمد الحسيني، له شرح القصيدة الجزرية في التجويد، سمّاه في آخره«الفوائد»، وفرغ منه أوائل رجب عام (٩٧٢هـ)، وله شرح الناسخ والمنسوخ تأليف ابن المتوج البحراني.[٥]

---

١. إحياء الداثر: ١٢٥.　٢. المصدر نفسه: ١٤٤.　٣. المصدر نفسه: ٢١٧.
٤. رياض العلماء، كما في الذريعة: ٥/ ١٢٣ برقم ٥٠٢.
٥. المصدر نفسه: ١١٨.

٧٢. المحقّق الأردبيلي، أحمد بن محمّد، المتوفّى في صفر (٩٩٣هـ)، أُستاذ الفقهاء والمجتهدين، صاحب التصانيف الكثيرة، مثل «مجمع الفائدة» وهي دورة فقهية تشتمل على جميع أبواب الفقه إلاّ النكاح و «زبدة البيان في تفسير آيات أحكام القرآن» تفسير مشحون بالتحقيق.[١]

٧٣. فتح الله بن شكر الله الكاشاني، (المتوفّى عام ٩٨٨هـ) وقيل: (٩٩٧هـ)، له «منهج الصادقين في تفسير القرآن المبين»، طبع مرّة في ثلاث مجلدات كبار، وأُخرى في عشرة أجزاء، وله «خلاصة المنهج»، فرغ من بعض أجزائه أعني سورة الأنفال سنة (٩٨٤هـ). وله شرح «نهج البلاغة» مطبوع.

٧٤. غياث الدين، المفسّر الزواري، المعاصر للمحقّق الكركي، أُستاذ أبي الحسن علي بن الحسن الزواري، المفسّر المشهور و ينسب إليه «تفسير الگازر» المعروف.[٢]

٧٥. الأمير أبو الفتح بن الأمير مخدوم بن الأمير شمس الدين محمد بن الأمير السيد الشريف الحسيني الجرجاني، (المتوفّى سنة ٩٨٦هـ)، مؤلّف «تفسير شاهي» تفسير لآيات الأحكام، ألّفه باسم الملك طهماسب الصفوي، توجد منه نسخة خطّية في الخزانة الرضويّة، وقد طبع أخيراً في عدّة أجزاء في تبريز.[٣]

أعلام التفسير في القرن الحادي عشر

إنّ السابر في التفاسير المؤلّفة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر يرى ـ

١. روضات الجنات:١/ ٧٩، وغيره.

٢. إحياء الداثر:٤٣، الذريعة:٤/ ٣٠٩.

٣. الذريعة:٤/ ٢٧٧ برقم ١٢٧٨.

بوضوح ـ أنّه قد سادت على الأوساط الشيعيّة في هذه الظروف نزعتان مختلفتا المنحى ومتضادتا المنهج لا تجد لهما مثيلاً في العصور السابقة، وهاتان النزعتان هما:

١. النزعة العقليّة البحتة التي تدفع المفسّرإلى الاهتمام بالآيات الواردة في المبدأ و المعاد والأسماء والصفات وما يمت إليهما بصلة، ويضرب ــ في ظلّها ـ عمّا سواها صفحاً،ولا ينظر إليه إلاّ نظرة خاطفة كأنّ القرآن كتاب عقلي فلسفي لا يهتم إلاّ با لمسائل العقليّة، ولا شأن له بمسائل المجتمع وما تدور عليه رحى الحياة.

٢. النزعة الأخبارية التي لا تهتم إلاّ بنقل الروايات وجمعها من مختلف الكتب من دون تحقيق في اسنادها ومتونها حتى ألّف في هذه الظروف أكبر المجاميع الروائية حول التفسير التي لا يشذ منها من أحاديث التفسير إلاّ النزر اليسير.

وقد كان لهاتين النزعتين تأثير خاصّ في تطوّر التفسير في تلك العصور، ولما قضى الأُستاذ الأكبر المحقّق البهبهاني (المتوفّى١٢٠٦هـ) على النزعة الاخبارية التي تتسم بالقشرية والسطحية في أواخر القرن الثاني عشر ومستهلّ القرن الثالث عشر عزت العناية بالتفسير الروائي وتوفرت الدوافع نحو التفسير العلمي الذي يهتم بأكثر المسائل التي يتوقّف عليها فهم الآيات، فراج منهج الشيخ الطوسي في تبيانه، والطبرسي في مجمعه، خصوصاً في أواخر القرن الثالث عشر ومستهلّ الرابع عشر.

نعم حدثت رجّة عنيفة في أواسط القرن الرابع عشر ودفعت الضرورات الاجتماعية إلى تطوير المنهج التفسيري كما سيوافيك بيانه، وإليك اعلام التفسير في القرن الحادي عشر:

٧٦. **محمد بـن علي بن إبـراهيم الاسترآبـادي**، المجـاور لبيـت الله الحرام، والمتوفّى فيـه سنة (١٠٢٦هـ)، صاحـب الكتب الرجـالية الثلاثة، لـه شرح آيات الأحكام.[1]

٧٧. **بهاء الـديـن محمـد بـن الحسين العـاملي**، الطـائر الصيت(المتوفّى١٠٣٠هـ) لـه تفاسير ثـلاثة: ١. العـروة الوثقـى طبع مـع مشرق الشمسين في طهـران (١٣٢١هـ)، وقـد صرّح في أوائلـه بحـاشيتـه على تفسير البيضاوي، فيظهر أنّـه كتبه بعده،٢. عين الحياة، وهـو تفسير مزجيّ نظير تفسير الصافي، ٣. ما قد عـرفت من حاشيته على تفسير البيضاوي،وقـد كثرت التحشية من أصحابنا على ذلك التفسير.

٧٨. **الشيخ جواد بن سعد الله الكاظمي**، تلميذ شيخنا البهائي له «مسالك الأفهام في آيـات الأحكام»، طبع في جزءيـن ، صنّفه عام (١٠٤٣هـ)، وللشيخ عبد القـاهر الحويزي المعاصر للشيـخ المحدّث الحر العاملي تعلقيـات على ذلك الكتاب.

٧٩. **صدر المتألهين محمد بن إبراهيم الشيرازي** (المتوفّى١٠٥٠هـ)، فله من التفـاسير تفسير «الاستعـاذة» والفـاتحة و سـورة البقـرة إلى قـولـه: ﴿**كُونُوا قِرَدَةً خاسِئين**﴾، ثمّ تفسير آية الكرسي، ثمّ آية النـور، ثمّ سورة الَـم السجدة وياسين والـواقعة والحديـد والجمعـة والطارق والأعلى والـزلـزال، ثمّ آيـة ﴿**وَتَرَى الجِبالَ تَحْسَبُها جامِدةً**﴾ ، و ﴿**وَلَهُ مَفاتِحُ الغَيب**﴾ وهو مقدّمة لتفسيره، طبع من تفاسيره عدّة أجزاء في قم المشرّفة.[2]

---

١. الذريعة: ١/ ٤٣ برقم ٢١٩.

٢. الذريعة:١٥/ ٢٥٢ برقم ١٦٢٦، و١٢/ ٢٢٧ برقم ١٤٨٤.

٨٠. محمد الرضا بن عبد الحسين النصيري الطوسي، مؤلّف كشف الآيات الذي فرغ منه في (١٠٦٧هـ)، وله تفسير كبير أسماه بـ«تفسير الأئمّة لهداية الأُمّة»، حكى شيخنا المجيز عن بعض المطّلعين أنّه في ثلاثين مجلداً، وقال: رأيت مجلّدين منها الأوّل: مجلد كبير ضخم بدأ فيه بمقدمات التفسير فيما يقرب من عشرين فصلاً فيما يتعلّق بالقرآن، ثمّ شرع في تفسير الفاتحةالخ، والمجلد الثاني: مجلد ضخم كبير من أوّل سورة التوبة إلى آخر سورة هود. و من أراد التفصيل فليرجع إلى الذريعة.[1]

٨١. الحكيم العارف علي قلي، المولود عام (١٠٢٠هـ)، المعاصر للفيض الكاشاني، له تفسير «خزائن جواهر القرآن»، ذكر في أوّله أنّه تضرّع إلى الله في أن يوفّقه لجمع جميع ما في القرآن من آيات التوحيد والإيمان والأحكام والقصص والمواعظ و الحكم وخلق السماوات والأرض وأحوال الرجعة والبرزخ والحشر والنشر والجنةوالنار وايراد تفاسيرها المرويّة وتحقيق كلمات الروايات المفسّرة جملة جملة، فوفّقه الله وشرع في التأليف في رمضان (١٠٨٣هـ)، توجد نسخة خط المؤلّف في قم.[2]

٨٢. عبد الوحيد بن نعمة الله الاسترآبادي، العارف المتكلّم تلميذ شيخنا البهائي، له أسرار القرآن في تفسير كلام الله العزيز، ذكره صاحب الرياض مع سائر تصانيفه البالغة إلى ما يقرب من الستين.[3]

٨٣. فخر الدين بن محمد الطريحي النجفي، (المتوفّى عام ١٠٨٥هـ)، له

---

١. الذريعة:٤/ ١٣٤ برقم ١١٦٨.

٢. الذريعة: ٧/ ١٥٤ برقم ٧٣٢.

٣. رياض العلماء: ٣/ ٢٨٤؛ الذريعة:٢/ ٥٤ برقم ٢١٥.

«كشف غوامض القرآن»، وتقدّم له غريب القرآن.[١]

٨٤. **تاج الدين الحسن بن محمد الاصفهاني**، (المتوفّى سنة ١٠٨٥هـ)، والد الفاضل الهنديّ صاحب «كشف اللثام»، المتوفّى سنة (١١٣٥هـ)، له «البحر المواج» في تفسير القرآن، كثير الفوائد.[٢]

٨٥. **المحدّث الفيض الكاشاني، محمد بن مرتضى** (المتوفّى ١٠٩١هـ)، له تفاسير ثلاثة: الصافي، الأصفى، والمصفّى، والثاني ملخّص الأوّل و الثالث ملخّص الثاني، وقد طبع الأوّل والثاني ولكنّ الثالث بعد مخطوط.

٨٦. **عبد علي الحويزي**، استاد المحدّث الجزائري، الذي توفّي سنة (١١١٢هـ)، له تفسير نورالثقلين، فسّر القرآن على هدى الروايات عن أئمّة أهل البيت، وهو من المجامع الكبيرة للتفسير بالأثر، فرغ من الجزء الأوّل الذي ينتهي إلى آخر الأعراف في النجف سنة(١٠٦٥هـ)، ومن الجزء الثاني في (١٠٦٦هـ)، والثالث أيضاً في تلك السنة، ومن الرابع في (١٠٧٢هـ)، وتوفّي في حياة الشيخ الحرّ العاملي، كما يظهر من «أمل الآمل» للشيخ الحرّ العاملي، المؤلّف سنة (١٠٩١هـ)، وطبع الكتاب أخيراً في خمسة أجزاء ضخام.

ونكتفي من أعلام التفسير في هذا القرن بهذه العشر الكاملة.

أعلام التفسير في القرن الثاني عشر

٨٧. **السيد هاشم بن سليمان الحسيني البحراني**، (المتوفّى سنة ١١٠٧هـ) أو (١١٠٩هـ)، مؤلّف «البرهان في تفسير القرآن»، طبع عام (١٣٠٢هـ) في جزءين

---

١. روضات الجنات: ٥/ ٣٤٩؛ الذريعة: ١٢/ ٥٠ برقم ٦٣٠.

٢. الذريعة: ٣/ ٤٩ برقم ١١٨، نقله عن الروضات ولم نجد ترجمة الوالد في محلّه.

كبيرين، وطبع أخيراً في أربعة أجزاء، جمع فيه شطراً وافراً من الأحاديث المأثورة عن أئمّة أهل البيت في تفسير الآيات القرآنية، وله تفسيران آخران تفسير الهادي، وتفسير نور الأنوار والهداية القرآنية، والكلّ على نمط واحد. قال صاحب الرياض: إنّ له ما يساوي خمساً وسبعين مؤلّفاً بين صغير وكبير ووسيط أكثرها في العلوم الدينيّة، ويقال له: «العلاّمة البحريني».[١]

٨٨ . **محمد بن محمد رضا بن إسماعيل بن جمال الدين القمي المشهدي،** (المتوفّى عام ١١١٣هـ)، صاحب «التحفة الحسينية في عمل السنة»، له «كنز الحقائق وبحر الدقائق» في تفسير القرآن، وقد قرّظه جمال المحقّقين الخوانساري والعلاّمة المجلسي، وإليك نصّ الأخير: «لله در المولى، الأولى، الفاضل، الكامل، المحقّق، المدقّق، البدل، النحرير، كشّاف دقائق المعاني بفكره الثاقب، ومخرج جواهر الحقائق برأيه الصائب»، وقد طبع الكتاب محقّقاً بتقديم زميلنا العلاّمة محمّد هادي معرفة يقول ـ في تقديمه في حقّ الكتاب ـ : إنّ تفسيره هذا مقتبس من تفسير البيضاوي والطبرسي والزمخشري وحواشي العلاّمة البهائي، وقد جمع فيه من لباب البيان وعباب التعبير ما وجده في التآليف السابقة، وقد قامت بنشر خمسة أجزاء منه مؤسّسة النشر الإسلامي شكر الله مساعيها الجميلة.[٢]

٨٩. **السيد نعمة الله بن عبد الله التستري(الجزائري)**(المتوفّى١١١٢هـ)، له «العقود والمرجان في تفسير القرآن» في ثلاث مجلّدات. قال في رياض العلماء: إنّه يبلغ سبعين ألف بيت، فرغ منه عام (١١٠٢هـ).[٣]

---

١. رياض العلماء: ٥/ ٢٩٨؛ الذريعة:٣/ ٩٣ برقم ٢٩٤، و٢٥/ ١١٨ برقم ١٩١.
٢. لاحظ تفسير «كنز الدقائق» التقديم بقلم هادي معرفة، ص ٦ـ ١٦.
٣. رياض العلماء:٥/ ٢٥٣؛ الذريعة: ١٥/ ٣٠٥ برقم ١٩٥١.

٩٠. محمد إسماعيل بن الأمير محمد باقر الاصفهاني، المولود(١٠٣١)، والمتوفّى(١١١٦هـ)، كان مدرّساً بالجامع العباسي باصفهان، له التفسير الكبير في أربعة عشر مجلّداً ترجمه الجزّي في «تذكرة القبور».[١]

٩١. الشيخ علي بن حسين العاملي، له «الوجيز في تفسير القرآن العزيز» وهو مختصر نافع كاف في معرفة ما يتوقّف عليه فهم المعنى من وجوه الإعراب واختلاف القراءات، فرغ منه مؤلّفه في (١١١٨هـ)، وفي بعض النسخ فرغ منه سنة (١١٢٠هـ) توجد نسخ منه في النجف الأشرف.[٢]

٩٢. أحمد بن الحسن بن علي الحر العاملي، أخو الشيخ الحرّ العاملي المعروف، ذكر تفسيره أخوه في كتابه «أمل الآمل»، وكان حيّاً إلى سنة (١١٢٠هـ).[٣]

٩٣. أبو الحسن بن شيخ محمد طاهر الفتوني النباطي العاملي الغروي، له كتاب «مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار»، وقد طبع الجزء الأوّل منه وحده في إيران ونسخه متوفرة في العراق، وقد طبع الجزء الأوّل باسم «عبداللطيف الكازروني» وهو من هفوات الناشر.[٤]

٩٤. بهاء الدين محمد بن تاج الدين الحسن بن محمد الاصفهاني، المولود (١٠٦٢هـ)، والمتوفّى بها (١١٣٥هـ)، وصفه في الروضات بأنّه كبير مبسوط.[٥]

٩٥. عبد الله الأفندي بن عيسى التبريزي، ثمّ الاصفهاني، له «الأمان من

---

١. الذريعة:٤/ ٢٦١ برقم ١٢٢٠.

٢. الذريعة:٢٥/ ٤٤ برقم ٢٢٤.

٣. أمل الآمل:١/ ٣١؛ الذريعة:٤/ ٢٥٩ برقم ١٢١٨.

٤. الذريعة:٢٠/ ٢٦٤ برقم ٢٨٩٣.

٥. روضات الجنات:٦/ ١١١.

النيران» في تفسير القرآن والمؤلّف حجة التاريخ وبحّاثة عصره، له أثره الخالد«رياض العلماء» الذي بدأ بتأليفه سنة (١١٠٦هـ)، وتوفي حدود (١١٣٠هـ) ويصف السيد عبد الله التستري في إجازته الكبيرة هذا التفسير بقوله: مشتمل على أكثر الأخبار المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن وآياته.[١]

٩٦. **محمد بن علي النجار التستري**، (المتوفّى ١١٤٠هـ)، له «التفسير الكبير» و هو من تلاميذ المحدّث الجزائري ويسمّى بـ«مجمع التفاسير».[٢]

تلك عشرة كاملة في هذا القرن نكتفي بها ونحيل تسجيل أسماء الباقين إلى عهدة المعاجم.

أعلام التفسير في القرن الثالث عشر

دخل القرن الثالث عشر وقد ارتج الغرب بنهضة علمية عظيمة بهرت العيون وأدهشت العقول واتسم بتسليط الضوء على عالم الطبيعة وطرح المسائل الحيوية في مجال العلوم الإنسانية، ولكن ـ يا للأسف ـ كان السبات والذهول عمّا يجري في ذاك الجانب من العالم سائداً على الشرق وعلمائه، ولأجل ذلك نرى أنّ ما أُلّف في هذا العصر من التفاسير كان استمراراً للخطوط السابقة، فالتفسير في هذا القرن إمّا تفسيرٌ بالأثر المحض، أو تفسير علمي مقتصرٌ على موضوعات خاصّة، مع أنّهم كانوا أمام بحر موّاج بالحقائق العلمية، لا يدرك غوره ولا يمكن الوصول إلى أعماقه ولا ينتهي ما فيه من الأسرار والعجائب، وإليك أسماء أعلام التفسير في ذلك القرن على وجه الإيجاز.

---

١. الذريعة: ٢/ ٣٤٣ برقم ١٣٦٤.

٢. المصدر نفسه: ٤/ ٤٩ برقم ١١٩٧.

٩٧. الشيخ عبد النبي الطسوجي، وطسوج من مضافات «خوي»، و هو تلميذ المقدّس رفيع الدين الجيلاني المشهدي، (المتوفّى عام ١١٦٠هـ)، وأستاذ علاّمة عصره الشيخ حسن الزنوزي، لـه تفسير كبير وفيه نكات بديعة، أكثر النقل عنه الشيخ الزنوزي في موسوعته «رياض الجنة»، توفّي عام (١٢٠٣هـ).[١]

٩٨. السيد عبد الله بن محمد رضا العلوي الحسيني الشهير بالشبّر، المولود بالنجف سنة (١١٨٨هـ)، و المتوفّى عام (١٢٤٢هـ)، كان فقيهاً محدّثاً مفسّراً، آية في الأخلاق عكف مدّة حياته العلمية على التأليف والتصنيف، له «صفوة التفاسير» و «الجوهر الثمين في تفسير القرآن المبين» و«التفسير الوجيز»، وهذا الأخير هو المعروف الموجود في أيدي الناس، وقد طبع مراراً.[٢]

٩٩. محمد جعفر الاسترآبادي، المعروف بـ «شريعتمدار»، المتوفّى عام(١٢٦٣هـ). حكى شيخنا المجيز أنّه رآى بعض أجزائه وهو من أوّل سورة الكهف إلى آخر سورة الأحزاب، وتاريخ كتابة النسخة (١٢٦١هـ)، وله تفسير آخر على وجه الاختصار أسماه«مظاهر الأسرار».[٣]

١٠٠. السيد محمد تقي بن مير مؤمن القزويني، المتوفّى عام (١٢٧٠هـ)، له خلاصة التفاسير وهو موجود في مدينة قزوين عند أحفاده.[٤]

١٠١. السيد محمد مهدي بن محمد جعفر الموسوي التنكابني، له «خلاصة التفاسير»، كما أنّ له خلاصة الأخبار، وقد طبع الثاني، عام (١٢٧٥هـ).[٥]

---

١. المصدر نفسه: ٤/ ٢٨١ برقم ١٢٩٠.

٢. روضات الجنات: ٤/ ٤٦١.

٣. الذريعة: ٤/ ٢٦٩ برقم ١٢٥٠.

٤. الذريعة: ٤/ ٢١١ برقم ١٠٦٥.

٥. المصدر نفسه: ٢٢٠ برقم ١٠٦٣، وص ٢١٠ برقم ١٠٣٠.

١٠٢. الشيخ صالح بن محمد البرغاني القزويني، المتوفّى بالحائر عام (١٢٧٥هـ)، له تفاسير ثلاثة: الكبير وأسماه «بحر العرفان» في سبعة عشر مجلّداً، و«الوسيط» في تسعة أجزاء و«الصغير» في مجلّد واحد[1]، وقد طبع منه مجلّد واحد في النجف الأشرف.

١٠٣. السيد حسين بن السيد رضا الحسيني البروجردي، صاحب «نخبة المقال» المشهور الذي شرحه المولى علي العلياري، توفّي عام (١٢٧٦هـ)، وله تفسير خرج منه مجلّد كبير في مقدّمات التفسير وتفسير سورة الفاتحة و قسم من سورة البقرة.[2]

أعلام التفسير في القرن الرابع عشر و ...

حلّ القرن الرابع عشر وقد خطا الغرب خطوات واسعة في الصناعة والتكنولوجيا والعلوم الإنسانية وفي مجالات مختلفة لاتمتّ إلى الدين بصلة وأبدى فيه نظريات إلحادية، ورفع كثير من الغربيّين عقيرتهم بنفي العوالم الغيبية والانتصار لأصالة المادّة.

ولقد وصلت أمواج هذه الهزاهز إلى الشرق الذي استيقظ بعد سبات طويل، فواجه العلماء وفي مقدّمتهم المفسّرون آراء ونظريات في بدء الخليقة، وتكوّن العالم بما لا يوافق ظواهر القرآن فضلاً عن نصوصه، كما واجهوا أفكاراً جديدة ونظريات مادّية بحتة في تحليل النبوّة واتصال الإنسان المثالي بعالم الغيب والوحي النازل عليه والشريعة المأمور بتبليغها.

---

١. المصدر نفسه: برقم١٢٨٢.

٢. المصدر نفسه:٤/ ٢٧٢ برقم ١٢٦٣.

إنّ وفود هذا النوع من التفكير المزيج بسوء الظنّ بالغيب والمعارف الإلهية، بعث المفسّرين الإسلاميين من سنّيهم وشيعيّهم إلى التطوير في المنهج التفسيري، وإيداع مسائل جديدة في كتبهم باحثين عنها ومخضعين إياها للمشراط العلمي، وهم في ذلك بين مُفرط ومفرّط ومقتصد، فأفرط بعض في تأويل الآيات حسب الأُسس الطبيعية والنواميس الكونية المكتشفة، غافلاً عن أنّ هذه الآراء والمكتشفات فرضيات متزلزلة، سوف تتبدّل إلى آراء غيرها، كما فرّط بعضهم فتمسّك بالأُصول الموروثة عن الأغارقة حول السماء والعالم، وهناك طبقة وسطى مشوا بين الخطّين، فلم يمنعهم التعبّد بالقرآن عن التنسيق بين الوحي القرآني والنظريات القطعية الحديثة التي ثبتت بوضوح، وأيّده الحسّ والتجربة.

لقد أثّرت الحضارة الغربية على المناهج التفسيرية، فأدخلت في التفسير جملة من المسائل الفلسفية والطبيعية والاجتماعية و النفسية والمسائل العائلية إلى غير ذلك ممّا تقوم عليه الحياة في هذه الأعصار، فصار ذلك سبباً لبروز لون خاصّ من التفسير لم يكن معهوداً في القرون السابقة، كما أنّ ذلك صار سبباً لرجوع المسلمين إلى القرآن من جديد كيما يتخلّصوا بفضله من التيّارات الالحاديّة، فأُلّفت في ذلك القرن تفاسير لا يحيط بها الباحث إلاّ بشدّ الرحال إلى البلاد وتسجيل أسمائها في رسالة مفردة، ولإيقاف القارئ على نزر يسير من الجهود العلميّة التي نهض بها علماء الشيعة في هذا القرن، نأتي بأسماء أعلام التفسير فيه ونخصّ بالذكر المؤلّفين باللغة العربية. و الّتي طبعت وانتشرت في البلاد، ونترك المخطوط والمؤلّف بغير اللغة العربية لضيق المجال.

١٠٤. الشيخ محمد حسين بن الشيخ باقر البروجردي، له «أسرار التنزيل» اختاره من تفسيره الكبير، وتوفّي في نيف وثلاثمائة بعد الألف.

١٠٥. **العلاّمة السيد نور الدين العراقي**(المتوفّى عام ١٣٤١هـ)، له «القرآن والعقل»، طبع في ثلاثة أجزاء، وهو تأليف منيف مبتكر في بابه.

١٠٦. **المجاهد الكبير، الشيخ محمد جواد البلاغي**، (المتوفّى عام ١٣٥٢هـ)، وقد أفنى عمره في الذبِّ عن المذهب، وكافح الآراء المادية، كما ناضل المسيحية بكتبه القيّمة كـ«الرحلة المدرسية»، و«الهدى إلى دين المصطفى» و له «آلاء الرحمن في تفسير القرآن». خرج منه جزءان.

١٠٧. **السيد علي بن الحسين الحائري**(١٢٧٠ـ ١٣٥٣هـ) من تلاميذ المجدّد الشيرازي، مؤلف «مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر»، طبع في اثني عشر مجلّداً في سنة ١٣٧٧ـ ١٣٨١هـ.

١٠٨. **العلاّمة السيد محمد مولانا**، (المتوفّى عام ١٣٦٣هـ)، له «التفسير الوجيز» و هو على غرار تفسير الجلالين، طبع وانتشر في تبريز.

١٠٩. **العلاّمة الحجّة المفسّر الكبير، السيد محمد حسين الطباطبائي** (المتوفّى عام ١٤٠٢هـ) له «الميزان في تفسير القرآن» وهو في عشرين جزءاً، يرى القارئ فيه تطويراً في التفسير وآفاقاً مفتوحة أمامه، وقد قرّظه مشايخ الأزهر وأعلام الأُمّة، طبع بعض التقاريظ في أوائل الجزء الخامس من الميزان.

١١٠. **العلاّمة الحجّة، الشيخ محمد جواد مغنيه** (المتوفّى محرم ١٤٠٠هـ)، ذلك الكاتب الكبير، في مجالات مختلفة، له «الكاشف في تفسير القرآن»، صدر في سبعة أجزاء وطبع في بيروت، وله تفسير آخر وجيز كتبه للشباب، وطبع في بيروت.

١١١. **المحقّق الكبير السيد أبو القاسم الخوئي النجفي**(المتوفّى سنة ١٤١٣هـ)، المرجع الأعلى للشيعة، له «البيان في تفسير القرآن» صدر منه جزء واحد.

١١٢. العلاّمة الحجّة الشيخ محمد باقر الناصري، أحد علماء العراق المجاهدين المناضلين للبدع والاضطهاد. له تلخيص مجمع البيان في ثلاثة أجزاء، مطبوع.

١١٣. العلاّمة الحجّة الشيخ حسن المصطفوي، أحد الباحثين المعاصرين، له «التحقيق في كلمات القرآن» خرجت منه تسعة أجزاء، وهو كتاب لطيف يهتم بتبيين لغات القرآن على وجه بديع.

١١٤. العلاّمة الحجّة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، له التفسير الأمثل في عشرين جزءاً، طبع وانتشر في بيروت.

١١٥. المحقّق الشيخ محمد هادي معرفة، أحد المولعين بعلوم القرآن، له «التمهيد في علوم القرآن» صدرت منه سبعة أجزاء.

١١٦. العلاّمة الحجّة السيد عبد الأعلى السبزواري النجفي، أحد المدرسين الكبار في حوزة النجف الأشرف، له «مواهب الرحمٰن في تفسير القرآن»، خرجت منه عدّة أجزاء.

١١٧. العلاّمة الحجّة السيد محمد حسين فضل الله، من أكابر علماء لبنان، له «من وحي القرآن» خرج في عشرين جزءاً.

١١٨. العلاّمة الحجّة السيد محمد باقر الأبطحي، له «المدخل إلى التفسير الموضوعي» و قد صدر منه ثلاثة أجزاء.

١١٩. العلاّمة المفضال الشيخ محمد السبزواري، له«الجديد في تفسير القرآن المجيد» في سبعة أجزاء. وهو تفسير، حديث في أُسلوبه، جميل في عباراته.

١٢٠. كاتب هذه السطور جعفر السبحاني، له «مفاهيم القرآن»، خرجت

منه عشرة أجزاء وهو تفسير موضوعي.

هؤلاء أعلام التفسير في أربعة عشر قرناً وهم مائة وعشرون، وقد اكتفينا بهم مع أنّ عدد أعلام التفسير فضلاً عن غيرهم يتجاوز عن ذلك، غير أنَّ المجال لا يسع أكثر من ذلك.

تاريخ التدوين والتطوير في التفسير

إنّ هذا البحث الضافي حول تاريخ تفسير القرآن عند الشيعة الإمامية، يوقفنا على تاريخ التدوين والتطوير في مجال التفسير لديهم، فانّ الظاهر أنّ أوّل من ألّف تفسيراً للقرآن من الشيعة هو سعيد بن جبير ـ ذلك التابعي الشيعي ـ (المستشهد عام ٩٥هـ) لتشيّعه وموالاته علياً، هذا ولو صحّ ما نسب من الكتب إلى عبد الله بن عبّاس (المتوفّى سنة ٦٩هـ)، لكان هو متقدّماً على ابن جبير وهو تلميذ الوصي أمير المؤمنين، ثمّ توالت بعدهما كتابة التفسير حسب ما عرفت في قائمة القرون، ولا نطيل الكلام في تاريخ التدوين.

وأمّا تطوير التفسير فقد عرفت أنّ التفسير الرائج بعد رحلة النبيّ الأكرم ﷺ كان بعد تفسير «غريب القرآن»، هو التفسير بالأثر، فكانت هذه هي السنّة المتبعة لدى الشيعة إلى نهاية القرن الرابع، وإنّما حصل التطور في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، وأوّل تفسير ظهر في الأوساط العلمية بالطابع العلميّ الجديد، هو تفسير الشريف الرضي قدّس الله سرّه.

ثمّ استمر هذا النمط في الأوساط العلميّة إلى أوائل القرن العاشر، وفيه راج التفسير بالأثر من جديد، فأُلّفت موسوعات كبار لتفسير القرآن بالأثر ولم نر لها

مثيلاً في القرون الأُولى، وقد دام ذلك النمط حتى غلب على النمط العلمي، وذلك عند تسرّب الاتجاه الاخباري إلى الأوساط العلميّة.

ولمّا حل القرن الرابع عشر، وقف غير واحد من المفكّرين الإسلاميّين وقادتهم على الوضع المؤسف المحدق بالمسلمين بسبب تأخرهم عن موكب الحضارة، ونشوب أظفار الاستعمار ببلاد المسلمين، و عند ذلك شعروا بأنّ إحياء المجد الداثر وتجديد الحضارة الإسلامية في جميع أبعادها رهن العودة إلى القرآن الكريم من جديد وتطبيقه على الحياة بدل العناية الزائدة بقراءات القرآن وحججها أو المناقشة في الاعراب ودلائله، فرجعوا إلى أحضان كتاب الله، ونظروا إليه بمنظار خاصّ فاكتشفوا ـ حقّاً ـ آفاقاً جديدة، غفل عنها الأقدمون، آفاقاً ترتبط بالحياة عن قريب، وتعدّ أُسساً لها، فعطفوا اهتمامهم على تلك المباحث والآفاق المكتشفة، وعكفوا على دراستها دراسة معمّقة، فازدهرت المدارس ومحافل العلماء بالأبحاث القرآنية، وانتشرت تفاسير بنمط حديث لم يكن لها مثيل في القرون السابقة، فعند ذلك حصل تطوير جديد أعمق بكثير من التطوير العلمي الحاصل بيد أمثال الشريف الرضي وأخيه المرتضى، وفي الحقيقة هذا المنهج الموجود في عصرنا الحاضر تطوير حديث ومنهج متكامل يتفوّق على المنهج العلمي، ولم يكن بدّ للمفكرين من إبداع هذا التطوير وذلك لوجهين:

الأوّل: انّ الغزو الفكري الذي تعرّض له الإسلام والمسلمون بمختلف أشكاله من خلال تأسيس علوم اجتماعية ونفسيّة واقتصادية و...، وابداع نظريات حديثة حول النبوّة والوحي وغير ذلك ألجأ المفكّرين إلى دراسة هذه الآراء والبحث عنها بحثاً جذرياً حتى يصونوا بأبحاثهم القيّمة، الإسلام والمسلمين عن تأثير هذه السموم التي بثّها ويبثها علماء الغرب في الشرق في صورة حقائق راهنة.

وقد نجح علماء التفسير في تحقيق أُمنيّتهم هذه نجاحاً باهراً وأدخلوا في التفسير مسائل هامّة أُلهموا بها من خلال الآيات القرآنية، بيد أنّ بعضهم أفرط عند تطبيق الآيات الكونيّة على المكتشفات العصريّة، وقد كان عليهم الأخذ بالحدّ الأوسط.

الثاني: انّ طبيعة الذكر الحكيم تقتضي ذلك التطوير، بل و لن يقف الركب على هذا الحد وسيواجه المستقبل تطويراً ثالثاً، ورابعاً في تفسير الذكر الحكيم، كيف والنبي الأكرم ﷺ يعرّف معجزته الكبرى بقوله: «ظاهره أنيق وباطنه عميق، له تخوم وعلى تخومه تخوم ،لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة».[1]

وهذا أمير المؤمنين عليه السلام يصف الذكر الحكيم بقوله: «أُنزل عليه (النبي) الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضلّ نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضؤوه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تهدم أركانه» ــ إلى أن قال ــ : و «بحر لا ينزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون».[2]

وهذا هو الإمام الطاهر علي بن موسى الرضا عليه السلام ، سأله سائل وقال: ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدرس إلاّ غضاضة؟ فقال: «إنّ الله تعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، وهو في كلّ زمان جديد وعند كلّ قوم غض إلى يوم القيامة».[3]

---

١. الكافي:٢/ ٥٩٩.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٩٨، ط (صبحي صالح).

٣. تفسير البرهان:١/ ٢٦.

التفاسير الشيعية في قفص الاتّهام

قد تعرّفت على خدمة الشيعة للذكر الحكيم منذ رحلة صاحب الرسالة إلى يومنا هذا، ولعلّ ما مرّ عليك أقلّ من معشار ما حفظته يد التاريخ ومعاجم التفسير والرجال، فحقيق على كلّ من يحب الحقّ والحقيقة تقدير تلكم الثلّة الجليلة من الأُمّة، ومن حسن الحظ أنّه قام بذلك الواجب الضمائر الحرّة من أهل العلم والفضل شكر الله مساعيهم.

بيد أنّ بعض المتسرّعين في القضاء أرادوا اتّهام تفاسير الشيعة بأُمور:

١. تعصّبهم لأثبات معتقداتهم ومقالاتهم.

٢. كون تفاسيرهم تفاسير طائفيّة.

٣. قولهم بتحريف الذكر الحكيم.

وإليك شرح تلك الاتهامات ونقدها.

أمّا الأوّل: فقد أشار إليه الدكتور الذهبي في كتابه «التفسير والمفسّرون»، واستدلّ بمواضع من تفاسير الشيعة كمسألة الرؤية، والمسح على الرجلين، وحلّيّة المتعة إلى غير ذلك، حيث إنّ الشيخ الطبرسي يسعى في تلك الموارد لإثبات مذهب الشيعة.

يلاحظ عليه: أنّه لو كان ذلك أمراً خطأ فهو شامل لحال جميع التفاسير من غير فرق بين السنّة والشيعة، فانّ الطبرسي ونظراءه لو أصرّوا على إثبات امتناع رؤية الله ــ تبارك وتعالى ـ عند الوصول إلى تفسير قوله سبحانه: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبير﴾[1]، فالرازي وهو من أئمة

---

١. الأنعام:١٠٣.

الأشاعرة عندما وصل إلى تفسير قوله سبحانه: ﴿وَلَمّا جاءَ مُوسىٰ لِمِيقاتِنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ...﴾[1]، أخذ بتفسير الآية على مذاق الأشاعرة، فلماذا كان سعي الطبرسي لإثبات معتقده خطأ، ولكن كان سعي الرازي على ما يرويه من إثبات الرؤية[2] أمراً صحيحاً؟! وليس الرازي بمنفرد في هذا العمل، بل التفاسير عامّة مصبوغة بهذه الصبغة، فانّ لكلّ مفسّر آراء ومعتقدات يراها عقائد صحيحة، نزل بها الوحي أو دلّ عليه العقل، ففي كلّ موضع يهتم بدعم عقائده واستعراض الآيات الدالّة عليه حسب معتقده، وليس ذلك أمراً خطأ إذا كان البحث موضوعياً هادئاً، وليس المترقّب من كلّ مؤلّف هادف إلاّ ذلك، وإنّما البغيض التعصّب على الباطل مع العلم به.

يقول الأُستاذ الشيخ محمود شلتوت، شيخ الأزهر في تقديمه لكتاب «مجمع البيان»:

فليس من الإنصاف أن نكلّف عالماً مؤلّفاً بحّاثة درّاكة، أن يقف من مذهبه وفكرته التي آمن بها موقف الفتور، كأنّه لا تهمّه ولا تسيطر على عقله وقلبه، وكلّ ما نطلبه ممّن تجرد للبحث والتأليف، وعرض آراء المذاهب وأصحاب الأفكار، أن يكون منصفاً، مهذب اللفظ، أميناً على التراث الإسلامي، حريصاً على أخوّة الإيمان والعلم، فإذا جادل ففي ظل تلك القاعدة المذهبيّة التي تمثل روح الاجتهاد المنصف البصير: «مذهبي صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب».

وهذا هو تفسير «المنار» الذي طبق العالم صيته وصوته يستعرض آيات الأحكام ويستدلّ بها على ما يوافق مذهبه، كما يستعرض آيات العقائد والمعارف

---

١. الأعراف:١٤٣.   ٢. مفاتيح الغيب: ٤/ ٢٩٣، ط مصر في ثمانية أجزاء.

فيستشهد بها على مختاره، ولو جمع ما أورده على الشيعة في مجال الأحكام والعقائد لجاء رسالة حتى أن سبّب ذلك قيام عالم بارع من علماء الشيعة[1] بنقد ما أورده على الشيعة في مناره، ونقده نقداً علمياً موضوعياً انتشر في حياة صاحب المنار، ولم يقدر السيد محمد رشيد رضا على الإجابة عنه ثانياً.

وأمّا الثاني: وهو اتهام تفاسير الشيعة بأنّها تفاسير طائفية يحاولون تطبيق الآيات القرآنية على أئمّتهم وقادتهم خصوصاً الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فنقول:

إنّ اتّهام تفاسير الشيعة بكونها تفاسير طائفية[2] يعرب عن أنّ القائل لم يفرّق بين التفسير والتطبيق، فحمل الروايات الواردة في حقّ الإمام أمير المؤمنين كلّها على التفسير، ولم يقف على أنّ الروايات الواردة في ذلك المجال على قسمين:

١. ما يتضمّن أسباب النزول و يبيّن أنّ الآية حسب النصوص الروائية نزلت في حقّ شخص خاصّ كما هو الحال في غير واحد من الآيات الواردة في حقّ الإمام كـ«آية الإكمال»[3] و «آية التبليغ»[4] و«آية الولاية»[5]، إلى غير ذلك من الآيات التي اعترف المحدّثون والمفسّرون بنزولها في حقّ الإمام، فنقل ما يدعم ذلك لا يكون دليلاً على الطائفية لو لم يكن دليلاً على البخوع بالحقيقة وخضوعاً أمام الحقّ.

٢. ما يتضمّن الجري والتطبيق لا بمعنى أنّ الآية وردت في حقّ فرد خاصّ، بل الآية على معناها العامّ، ولكن الرواية تشير إلى مصداقها المثالي الذي

---

١. العلاّمة الحجّة السيد محسن الأمين العاملي، المتوفى عام (١٣٧٣)، في كتابه «الحصون المنيعة فيما أورده صاحب المنار على الشيعة».

٢. الدكتور أحمد محمود صبحي: نظرية الإمامة لدى الشيعة الإمامية:٥٠٥.

٣. المائدة:٣. ٤. المائدة:٦٧. ٥. المائدة:٥٥.

هو أكمل المصاديق، وليس هذا بعيداً عن طبيعة القرآن، بل بما أنّ القرآن كتاب الأجيال والقرون، يقتضي صحّة ذلك الجري والتطبيق، فانّ القرآن كما عرّفه الإمام أبو جعفر محمد الباقر عليه السلام: «... حي لا يموت والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا؛ ماتت الآية و مات القرآن. فالآية جارية في الباقين كما جرت في الماضين».[1]

ولأجل إيقاف القارئ على الفرق بين التفسير والتطبيق نأتي ببعض ما ورد في كتب أهل السنّة حول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

قال سبحانه: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَومٍ هادٍ﴾.[2]

قال جلال الدين السيوطي في الدر المنثور: أخرج ابن جرير و ابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة والديلمي وابن عساكر و ابن النجّار، قال: لمّا نزلت ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَومٍ هادٍ﴾ وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على صدره فقال: أنا المنذر وأومأ بيده إلى منكب عليّ ــ رضي الله عنه ــ فقال: «أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي».

وقال: وأخرج ابن مردويه عن أبي برزة الأسلمي ـ رضي الله عنه ــ سمعت رسول الله يقول: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ ووضع يده على صدر نفسه، ثمّ وضعها على صدر علي و يقول: ﴿وَلِكُلِّ قَومٍ هادٍ﴾.[3]

ولا يشكّ أحد أنّ علياً من المصاديق الجليّة الكاملة لقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَومٍ هادٍ﴾، و ليس مصداقاً منحصراً فيه، وكان تفسير النبي الآية بعلي من باب الجري

---

١. مرآة الأنوار(أبوالحسن الفتوني): ٢.

٢. الرعد:٧.

٣. الدرّ المنثور: ٤/ ٤٥، وقد أورد نصوصاً أُخرى في ذلك المجال تركناها للاختصار.

والتطبيق، وبإراءة فرد مثالي يفوق جميع الأفراد، فكلّما ورد في التفاسير الشيعية من هذا الباب أي الجري والتطبيق، حتى يقف المسلمون على أمثل المصاديق وأوسطها.

إنّ النبيّ الأكرم هو الأُسوة والقدوة، فقد طبّقت الآية الماضية على فرد مثالي تعليماً للأُمّة، وقد اقتدت به الأئمّة في هذا المضمار، وإليك بعض الأمثلة، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ﴾[١]. انّ الآية الكريمة تندّد بالذين ينقضون العهد ويقطعون الصلة ويفسدون في الأرض، ولا يشكّ ذو مسكة أنّ الآية تتضمّن حكماً كلّياً عامّاً حيّاً إلى يوم القيامة، ولها عبر القرون آلاف المصاديق و الجزئيات غير أنّ أئمّة الشيعة يفسّرون قوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ﴾ بقطع الصلة الواجبة في حقّ علي وعترته الطاهرة، وليس ذلك تفسيراً بمعنى حصر الآية في هذا الفرد، بل تطبيقاً للآية على الحقّ المهضوم عبر الأجيال، وقد قال سبحانه: ﴿قُلْ لا أَسالُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبى﴾[٢].[٣]

قال سبحانه: ﴿صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ...﴾[٤]، فقد فسّر بصراط الأنبياء كما فسّرت بالإمام أمير المؤمنين[٥]، ولا شكّ أنّ كلّ ذلك تطبيق على المصداق الأجلى، وعلى ضوء ذلك يقدر القارئ الكريم الملمّ بالتفاسير الشيعيّة، على تمييز التفسير عن الجري والتطبيق، وعند ذلك يقف على قيمة النسبة المذكورة.

---

١. البقرة:٢٧.
٢. الشورى: ٢٣.
٣. نور الثقلين:١/ ٣٨.
٤. الحمد:٧.
٥. المصدر نفسه: ١٧ الحديث ٨٦؛ تفسير البرهان:١/ ١٨.

وأمّا الثالث: فمن رجـع إلى كتب المحقّقين من الشيعـة الذين يعبأ بقولهم ورأيهم، ويعدّ كلامهـم مثالاً لعقيدة الشيعة يقف على أنّ رمي الشيعـة وتفاسيرها بالتحريف بهتـان عظيم، وانّ من نسب التحريف إلى الشيعـة إنّما استند إلى وجود روايات في تفاسيرهم الـروائية مشعرة بالتحريف أو دالّة عليهـا، ولكنّ الرواية غير العقيدة، وليس نقل الرواية دليلاً على صحّتها، ولو كان ذلك دليلاً على التحريف فهناك روايـاتٌ دالّة على التحـريف مبثـوثة في كتـب التفسير والحديث والتـاريخ والسنّة ، ولكنّا نجلّ المحقّقين منهم عن القول بذلك، فروايات التحريف تديّن بها الحشوية من العـامّة وبعض الغلاة من الخاصّة، والشيعـة وأئمّتهم وعلماؤهم برآء منهم و من مقالتهم.

ولأجل إيقاف القارئ على صحّة هذا المقال نـأتي بأسماء مجموعة من محقّقي الشيعة عبر القرون صرّحوا بصيانة القرآن الحكيم من التحريف:

١. أبـو جعفـرمحمـد بـن علي بـن الحسين، المعـروف بـالصـدوق (المتوفّى ٣٨١هـ)، يقول: اعتقادنا في القرآن أنّه كلام الله ووحيه وتنزيله وقوله، وأنّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم عليم، وأنّه القصص الحقّ، وأنّه لحق فصل وما هـو بالهزل، وانّ الله تبـارك وتعالى محدثـه ومنزلـه وربّه وحافظه والمتكلّم به».[١]

٢. السيد المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (المتوفّى ٤٣٦هـ) قال: إنّ جماعة من الصحـابة مثل عبد الله بن مسعود، و أُبي بـن كعب و غيرهما ختموا القرآن على النبـي عدّة ختمات وكلّ ذلـك يدلّ بأدنـى تأمـل على أنّه كان مجمـوعاً مرتّباً غير مبتور ولا مبثوت.[٢]

---

١. الاعتقادات: ٩٣.　　٢. مجمع البيان: ١/ ١٠ نقلاً عن جواب المسائل الطرابلسيات للسيد.

٣. أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بشيخ الطائفة (المتوفّى٤٦٠هـ)قال: وأمّا الكلام في زيادة القرآن و نقصانه فممّا لا يليق به أيضاً، لأنّ الزيادة فيه مجمع على بطلانها، وأمّا النقصان فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهو الذي نصره المرتضى و هو الظاهر في الرواية. قيل: إنّه رويت روايات كثيرة من جهة الشيعة وأهل السنّة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع إلى موضع؟ لكنّ طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً والأولى الإعراض عنها.[١]

٤. أبو علي الطبرسي، صاحب تفسير «مجمع البيان» يقول: الكلام في زيادة القرآن ونقصانه. أمّا الزيادة فيه فمجمع على بطلانها، وأمّا النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامّة أنّ في القرآن تغييراً أو نقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه.[٢]

٥. السيد علي بن طاووس الحلي (المتوفّى٦٦٤هـ) قال: إنّ رأي الإمامية هو عدم التحريف.[٣]

٦. الشيخ زين الدين العاملي النباطي البياظي (المتوفّى ٨٧٧هـ) يقول في تفسير قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكر وَإِنّا لَهُ لَحافِظُون﴾ أي إنّا لحافظون له من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان.[٤]

٧. القاضي السيد نور الله التستري صاحب كتاب «إحقاق الحق» (المتوفّى ١٠١٩هـ) يقول: ما نسب إلى الشيعة الإمامية من وقوع التغيير في القرآن ليس ممّا

---

١. التبيان:١/ ٣.
٢. مجمع البيان:١/ ١٠.
٣. سعد السعود: ١٤٤
٤. اظهار الحقّ:٢/ ١٣٠.

يقول به جمهور الإمامية إنّما قال به شرذمة قليلة منهم، لا اعتداد بهم فيما بينهم.[١]

٨. الشيخ بهاءالدين نابغة عصره ونادرة دهره محمد بن حسين المشتهر ببهاء الدين العاملي(المتوفّى ١٠٣٠هـ)قال: الصحيح انّ القرآن العظيم محفوظ من ذلك زيادة كان أو نقصاناً، وما اشتهر بين العلماء من إسقاط اسم أمير المؤمنين عليه السلام في بعض المواضع فهو غير معتبر عند العلماء والمتتبّع للتاريخ والأخبار والآثار يعلم بأنّ القرآن ثابت بغاية التواتر وبنقل الآلاف من الصحابة، وانّ القرآن الكريم كان مجموعاً في عهد الرسول.[٢]

٩. المحدّث الأكبر الفيض الكاشاني صاحب كتاب الوافي الذي يعدّ من الجوامع الحديثية المتأخّرة (المتوفّى ١٠٩١هـ) قال: وقال الله تعالى: ﴿وانّه لكِتاب عَزيزٌ* لا يَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾ وقال: ﴿إِنّا نَحْنُ نَزّلنا الذِّكر وَإِنّا لَهُ لَحافِظُون﴾ عندئذٍ كيف يتطرّق إليه التحريف والتغيير...، مع أنّ خبر التحريف مخالف لكتاب الله، مكذّب له فيجب ردّه والحكم بفساده وتأويله.[٣]

١٠. الشيخ الحرّ العاملي(المتوفّى١١٠٤هـ) يقول في كتابه: والمتتبّع للتاريخ والأخبار والآثار يعلم يقيناً بأنّ القرآن ثابت بغاية التواتر وبنقل الآلاف من الصحابة، وانّ القرآن كان مجموعاً مؤلفاً في عهد الرسول.[٤]

هذه هي الشخصيات الكبيرة من الإمامية الذين عرفت تنصيصهم على عدم طروء التحريف على الذكر الحكيم، وقد جئنا بأسماء القائلين بعدم التحريف إلى نهاية القرن الحادي عشر، وأمّا الذين نصّوا على عدم التحريف في

---

١ و ٢. آلاء الرحمن: ٢٥.

٣. تفسير الصافي:١/ ٥١.

٤. راجع آلاء الرحمن:١/ ٢٥.

القرون الأخيرة فحدّث عنهم ولا حرج، كيف وقد ألّفوا رسائل كبيرة وصغيرة حول الموضوع، ونحن نسأل من يرمي الشيعة بالقول بالتحريف بأنّه بأي دليل يقول: بأنّ تنصيص الشخصيات الأربع الأُول على عدم التحريف من باب التقية[١]، أهكذا أدب العلم وأدب الإسلام؟ أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلام لستَ مُؤْمناً﴾ [٢]، والعجب أنّه يستشهد على هذا النظر بقول أعداء الشيعة ويترك قول علمائهم، وبما أنّ الكاتب يستند في بعض أبحاثه إلى كلمات قائد الثورة الإسلامية الإمام الخميني ﷺ نأتي بنصّ كلامه في هذا الموضع، وهذا ما جاء في محاضراته التي أُلقيت قبل خمسين سنة:

إنّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة وكتابة، يعترف ببطلان تلك المزعمة«التحريف»، وأنّه لا ينبغي أن يركن إليها ذو مسكة، وما وردت فيه من الأخبار، بين ضعيف لا يستدلّ به، إلى مجعول يلوح منه أمارات الجعل، إلى غريب يقضي منه العجب، إلى صحيح يدلّ على أنّ مضمونه تأويل الكتاب وتفسيره، إلى غير ذلك من الأقسام التي يحتاج بيان المراد منها إلى تأليف كتاب حافل، ولولا خوف الخروج عن طور البحث لأرخينا عنان البيان إلى تشريح تاريخ القرآن وما جرى عليه طيلة القرون، وأوضحنا لك أنّ الكتاب هو عين ما بين الدفّتين، والاختلاف الموجود بين القرّاء ليس إلاّ أمراً حديثاً لا ربط له بما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين.[٣]

---

١. الندوي: صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم، طبع لكهنو.

٢. النساء: ٩٤.

٣. تهذيب الأُصول(تقريرات الإمام الخميني):٢/ ٩٦.

الرسائل المفردة حول صيانة القرآن من التحريف:

إنّ علماء الشيعة الإمامية لم يقتصروا على هذه الجمل القصيرة حول صيانة الذكر الحكيم من التحريف، بل ألّفوا حولها رسائل مفردة منذ أربعة قرون:

١. الشيخ الحر العاملي قد أفرد رسالة في هذا الموضوع أسماها **«تواتر القرآن»**.[١]

٢. الشيخ عبد العالي الكركي، فقد ألّف رسالة في نفي النقيصة عن القرآن، ذكرها العلاّمة الشيخ محمد جواد البلاغي في «آلاء الرحمان»[٢]، وقد جاء في الرسالة كلام الصدوق، ثمّ اعترض على نفسه بورود روايات تدلّ على التحريف فأجاب بأنّ الحديث إذا جاء على خلاف الدليل من الكتاب والسنّة المتواترة أو الإجماع ولم يمكن تأويله ولا حمله على بعض الوجوه، وجب طرحه.

٣. المتتبّع البارع الشيخ آغا بزرگ الطهراني مؤلّف «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»، فقد أفرد رسالة أسماها **«النقد اللطيف في نفي التحريف»**.

٤. العلاّمة الحجّة الشيخ عبد الحسين الرشتي الحائري، فقد ألّف رسالة حول الموضوع أسماها **« كشف الاشتباه»**.

٥. خصّص العلاّمة المحقّق السيد الطباطبائي في ميزانه بحثاً مبسوطاً بصيانة الذكر الحكيم عند تفسير قوله: **﴿إِنّا نَحْنُ نَزّلنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُون﴾**.[٣]

٦. إنّ العلاّمة المحقّق السيد الخوئي ـ دام ظلّه ـ قد أفرد بحثاً ضافياً حول

---

١. أمل الآمل: ١/ ٣١.

٢. آلاء الرحمن: ١/ ٢٦.

٣. الميزان: ١٢/ ١٠٦ـ ١٣٧.

صيانة الذكر الحكيم في كتابه «البيان في تفسير القرآن»، وقد أغرق نزعاً في التحقيق فلم يبق في القوس منزعاً.

٧. وقد قام العلاّمة الشيخ رسول جعفريان بتأليف رسالة نافعة حول الموضوع أسماها «**أُكذوبة تحريف القرآن**» حياه الله وبياه.

٨. زميلنا العلاّمة الحجّة الشيخ محمد هادي معرفة، صدر منه كتاب باسم «**صيانة القرآن من التحريف**» وهو كتاب جليل.

٩. العالم الجليل السيد علي الميلاني، قام بنشر كتاب أسماه «**التحقيق في نفي التحريف**» حفظه الله.

وليست عقيدة الشيعة حول الذكر الحكيم أمراً خفياً على المحقّقين من السنّة، فهذا علاّمة الهنود رحمة الله الهندي نقل عقيدة الشيعة في كتابه، وقال: «إنّ القرآن المجيد عند جمهور علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية محفوظ عن التغيير والتبديل، ومن قال منهم: بوقوع النقصان فيه، فقوله مردود غير مقبول عندهم».[1]

وأخيراً نلفت نظر القارئ إلى محقّق عصرنا السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي، فقد قال في كتابه «أجوبة موسى جار الله»: نسب إلى الشيعة القول بتحريف القرآن بإسقاط كلمات وآيات، ثمّ قال: نعوذ بالله من هذا القول ونبرأ إلى الله تعالى من هذا الجهل، وكلّ من نسب هذا الرأي إلينا جاهل بمذهبنا أو مفتر علينا، فانّ القرآن العظيم والذكر الحكيم متواتر من طرقنا بجميع آياته وكلماته وسائر حروفه وحركاته وسكناته تواتراً قطعياً عن أئمّة الهدى من أهل البيت ﷺ،

---

١. اظهار الحق: ٢/ ١٢٨.

ولا يرتاب في ذلك إلاّ معتوه.[1]

ثمّ إنّ المتحاملين على الشيعة في مسألة تحريف القرآن يستندون إلى كتاب «فصل الخطاب» للمحدّث النوري الذي جمع فيه المسانيد والمراسيل التي استدلّ بها على النقيصة، ولكن غفل المتحامل عن الرسائل الكثيرة التي أُلّفت ردّاً عليه وكفى بذلك ما ذكره العلاّمة البلاغي فقال: إنّ القسم الوافر من الروايات ترجع أسانيده إلى بضعة أنفار، وقد وصف علماء الرجال كلاً منهم بأنّه:

١. إمّا ضعيف الحديث، فاسد المذهب، مجفوّ الرواية.

٢. وإمّا أنّه مضطرب الحديث والمذهب يعرف حديثه وينكر، ويروي عن الضعفاء.

٣. وإمّا بأنّه كذّاب متّهم لا أستحلّ أن أروي من تفسيره حديثاً واحداً، وأنّه معروف بالوقف وأشدّ الناس عداوة للرضا عليه السلام.

٤. وإمّا بأنّه كان غالياً كذّاباً.

٥. وإمّا بأنّه ضعيف لا يلتفت إليه، ولا يعول عليه ومن الكذّابين.

٦. وإمّا بأنّه فاسد الرواية يرمى بالغلوّ، ومن الواضح أنّ أمثال هؤلاء لا تجدي كثرتهم شيئاً، هذه حال المسانيد، وأمّا أكثر المراسيل فمأخوذة من تلك المسانيد.[2]

هذا وصف إجمالي لهذه الروايات التي يستند إليها أعداء الشيعة في هذه النسبة، ويكفي في ذلك أنّ ثلاثمائة حديث من هذه الأحاديث، يرويها السيّاري، ويكفي في ضعفه قول الرجالي المحقّق النجاشي في حقّه: إنّه ضعيف الحديث

---

١. أجوبة مسائل موسى جار الله: ٣٤.

٢. آلاء الرحمن: ٢٦.

فاسد المذهب، مجفوّ الرواية، كثير المراسيل، متهم بالغلوّ.

كما أنّ كثيراً من هذه الروايات تنتهي إلى يونس بن ظبيان الذي وصفه النجاشي بقوله: «ضعيف جداً لا يلتفت إلى ما رواه، كلّ كتبه تخليط».

كما أنّ قسماً منه ينتهي إلى منخّل بن جميل الكوفي، وقد نصّ النجاشي على كونه: «ضعيفاً فاسد الرواية».[1]

الكافي كتاب حديث لا كتاب عقيدة

ثمّ إنّ كلّ من يتهم الشيعة بالقول بالتحريف يستند إلى وجود روايات التحريف في الكافي، ولكنّه غفل عن أنّ كتاب الكافي في نظر الإمامية ليس كالصحاح في نظر أهل السنّة الذين يقولون: إنّ كلّ ما في البخاري صحيح، وإنّما هو كتاب فيه الصحيح والضعيف والمرسل وما يوافق الكتاب وما يخالفه، فلا يمكن الاستدلال بوجود الرواية فيه على عقيدة الشيعة، و ما يلهج به علماء الحديث في حقّ صحيح البخاري ومسند الإمام أحمد ويقولون:

وما من صحيح كالبخاري جامعاً ... ولا مسند يلفي كمسند أحمد

أقول: إنّ ما يلهجون به في حقّ كتبهم مخصوص بهم، فليس كلّ ما في الجوامع الحديثية عند الشيعة، صحاحاً يستدلّ بكلّ حديث ورد فيها في كلّ موضوع ومورد، بل الاستدلال يتوقّف على اجتماع شرائط الصحّة التي ذكرها علماء الدراية والحديث، ونحن والله نعاني من عدم اطلاع هؤلاء على «أبجدية»

---

١. راجع في الوقوف على نصوص النجاشي حول هؤلاء الثلاثة، رجاله: ١/ ٢١١ برقم ١٩٠ وج٢/ ٤٢٣ برقم ١٢١١ وص ٣٧٢ برقم ١١٢٨.

عقائد الشيعة ومداركها ومصادرها.

التحريف في كتب أهل السنّة

نحن نجلّ علماء السنّة ومحقّقيهم عن نسبة التحريف إليهم، ولكن لو كان وجود الرواية في كتب التفسير والحديث دليلاً على العقيدة؛ فقد رويت أحاديث التحريف في كتبهم، أيضاً، ولأجل إيقاف القارئ على نماذج من هذه الروايات نشير إلى بعضها.

١. أخرج أبو عبيد في الفضائل وابن مردويه وابن الأنباري، عن عائشة قال: «كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمان النبيّ ﷺ مائتي آية، فلمّا كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها إلاّ على ما هو الآن».[1]

٢. عن عمر: «لولا أن يقول الناس: إنّ عمر زاد في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي».[2]

٣. نقل عن ابن مسعود أنّه حذف المعوذتين من المصحف، وقال: إنّهما ليستا من كتاب الله.[3]

وهناك روايات كثيرة مبثوثة في كتب التفاسير والحديث والتاريخ تحكي عن طروء التحريف على الذكر الحكيم،ونحن نقتصر على الأقل القليل منها، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتاب «أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنّة».[4]

---

١. الدر المنثور:٥/ ١٨٠؛ تفسير القرطبي:١٤/ ١١٣.

٢. صحيح البخاري:٩/ ٦٩، باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء، ط مصر، ١٣٧٢هـ.

٣. الدر المنثور:٦/ ٤١٦.

٤. انظر من ص ٢٧ـ ٣٣.

ونحن نرى أنّ في الإصرار على نسبة التحريف إلى أيّة طائفة من الطوائف الإسلامية ضرراً واسعاً على الإسلام والمسلمين ولا يستفيد منه إلاّ المستعمرون وأذنابهم.

وعلى الرغم من كثرة هذه الروايات نحن لا نؤمن بصحّتها كما لا يؤمن علماء أهل السنّة المحقّقون بها ولا تبتني عقيدتهم عليها فهي بين ضعاف السند، أو ضعاف الدلالة وقبل كلّ شيء تخالف الذكر الحكيم وإجماع الأُمّة.

كلمة ختاميّة

نحمداللّه سبحانه و نشكره على ما أولانا من تفسير كتابه الكريم على النهج الموضوعي في أجزاء عشرة، و قد اقتصرنا في بحوثنا على المسائل العقائديّة، و تركناالخوض في غيرها من الموضوعات الّتي جاءت في الكتاب العزيز.

وقد نجزالجزءالأوّل من هذه الموسوعة عام ١٣٩٣هـ، و هذا هوالجزء العاشر والأخير نزفّه إلى الطبع و نحن في ثنايا عام ١٤٢٠هـ.

والحمد للّه الّذي وفقنا لإنجاز ما كنّا نصبو إليه من نشر هذه الأجزاء العشرة، أسأل اللّه سبحانه أن يعصمنا من الزلل، في القول والعمل، انّه بذلك جدير و بالإجابة قدير.

***

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسه الإمام الصادق عليه السلام

في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق لـ ١٢ من شهر رمضان المبارك

من شهور عام ١٤٢٠هـ

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

العنوان	الصفحة

والحمد لله ربّ العالمين